جامعة القاهرة
كلية الآداب



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية

١

يناير ١٩٨٨

يصدرها قسم التاريخ

محتوى العـــدد

No1 - Jan. 1988



المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث تاريخية

العـدد الاول — ينايـر ١٩٨٨م

المراسلات:

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الاستاذ الدكتـور/ رءوف عباس حامـد على العنوان التالـى :

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ) جمهورية مصر العربية

افتتاحية العدد

تعانى الحركة العلمية فى مصر فى الوقت الراهن من النقص الشديد فى قنوات النشر العلمى المتخصصة، التى ترعى الفروع المعرفية المختلفة، وتوفر للباحثين فرصة نشر بحوثهم ودراساتهم . ويرجع ذلك النقص الى عوائق مادية محضة تتصل بقلة أو عدم وجود المخصصات المالية التى توجه لخدمة اغراض النشر العلمى .

ولعل الدراسات التاريخية أقل الفروع المعرفية حظا فى مجال النشر، فلا توجد فى مصر الا "المجلة التاريخية المصرية" العتيدة التى تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مرة واحدة كل عام، ولاتتسع للكثير من البحوث التى تنتظر النشر سنوات، كما أن الامكانات المادية للجمعية لاتمكنها من اصدار أكثر من عدد واحد فى السنة .

ولذلك كان اصدار دورية للدراسات التاريخية ضرورة ملحة نظر اليها مجلس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة نظرة خاصة، فاذا كانت الاعتمادات المالية الرسمية تقصر عن تلبية هذه الحاجة العلمية، فلماذا لايرعى القسم اصدار مثل هذه الدورية بالامكانات الذاتية لأعضائه وللباحثين انفسهم ؟

وهكذا اتخذ مجلس القسم قرارا باصدار "المؤرخ المصرى" مساهمة فى الحركة العلمية بوطننا العزيز، وخدمة للدراسات التاريخية . وبذلك يتوج القسم جهوده العلمية باصدار هذه الدورية، بعد أن لعب سمنار التاريخ – الذى نظمه القسم قبل سبع سنوات – دورا هاما فى رعاية الجهود العلمية للمؤرخين المصريين والعرب، وعقد ندوتين احداهما عن "مصر وعالم البحر المتوسط "فى ابريل عام ١٩٨٥، والاخرى عن" العرب فى افريقيا " فى ابريل عام ١٩٨٧، ويعتزم – بمشيئة الله – عقد ندوته الثالثة عن" العرب فى آسيا" فى ابريل ١٩٨٩.

والبحوث والدراسات التى تنشر فى "المؤرخ المصرى" تخضع لتحكيم باقة من كبار الاساتذة فى مختلف فروع التخصص، كما تحرص هيئة التحرير على تزويد الدورية بالمراجعات لاهم المؤلفات والعروض للاطروحات الجامعية التى اجيزت فى السنوات الأخيرة، وتعتزم – بمشيئة الله – نشر قائمة بالاطروحات المسجلة لنيل الدرجات العلمية خدمة للباحثين ولاغراض المتابعة العلمية .

والله والوطن العزيز من وراء القصد !

أ.د/ رءوف عباس حامد
رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
جامعة القاهرة
ورئيس تحرير : المؤرخ المصرى

الأبحاث والدراسات

الفاطميون وفلسطين

أ.د/ محمد جمال الدين سرور
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

حرص الفاطميون منذ أقاموا خلافتهم فى بلاد المغرب ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى على تقويض دعائم الخلافة العباسية ، وانتزاع زعامة الاسلام منها ، فأسند المعز لدين الله الفاطمى الى قائده جوهر الصقلى قيادة الحملة التى أرسلها الى مصر سنة ٣٥٨هـ . وقد تكللت مجهوداته فى فتح مصر بالنجاح .

وكانت الضرورة السياسية والحربية تقضى على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام . ولم تخف عن جوهر الصقلى تلك الحقيقة ، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى ، والوقوف فى وجه الروم والقرامطة .

ولما أيقن جوهر الصقلى أن النفوذ الفاطمى قد توطد فى مصر ، أرسل حملة الى فلسطين أسند قيادتها الى جعفر بن فلاح الكتامى فى اواخر سنة ٣٥٩ هـ: فرأى الأخشيديون فى الشام بعد ان وصلت اليهم أنباء هذه الحملة أن يعدوا انفسهم لصدها ، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيد ـ الذى كان يلى بلاد الشام اذ ذاك ـ من مدينة دمشق قاصدا الرملة واستخلف شمولا الاخشيدى على دمشق . على أن هذا الوالى لم يكن مخلصا للحسن بن عبيد الله ، فتقاعد عن نصرته .

لما وصل جعفر بن فلاح الى الرملة ، دعا ولاة الشام الى طاعة المعز لدين الله الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب، فأجاب دعوته فريق منهم أما الحسن بن عبيد الله بن طغج

الأخشيد فانه استنجد بعماله على دمشق وطبريه ، فلم يسارع أحد منهم الى نجدته ، وانتهت الحرب التى دارت بين جعفر بن فلاح والحسن بن عبيد الله فى الرملة بهزيمة الحسن وأسره مع كثير من جنده .

استأنف جعفر بن فلاح السير الى طبريه بعد انتصاره فى الرملة ، فبنى قصرا على الجسر الذى يشرف على المدينة ليحارب واليها "فاتك" وكان يلى أمورها من قبل كافور الأخشيدى فخافه فاتك ، ولم يتعرض له ، وبذلك تيسر لجعفر دخول طبريه دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها .

لما وصل الى أهل دمشق نبأ استيلاء جعفر على طبريه خشوا بأسه ، وأرسلوا اليه جماعة من كبار رجالهم يطلبون الامان ، لكنه لم يحسن استقبالهم ، فعادوا الى دمشق ، ودارت رحى الحرب بين جنود جعفر واهالى هذه المدينة فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ . وعلى الرغم من أن أهالى دمشق ، استطاعوا بمساعدة جند الأخشيد الوقوف بضعة أيام فى وجه جعفر بن فلاح وجنده من المغاربة والقبائل العربية بالشام التى انضمت اليه ، فأن الهزيمة لحقت بهم واستولى جعفر على دمشق .

أدت سياسة العنف التى اتبعها جعفر بن فلاح فى دمشق واساءة جنده معاملة أهلها واستهتارهم بارواحهم الى اثارة سخط الناس عليه ، فدبر أهل دمشق السوء امرات لاقصاء هذا القائد والقضاء عليه والتخلص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم فى المذهب الدينى .

كذلك واجه جعفر بن فلاح خطر قرامطة بلاد البحرين الذى يعد من أشد الاخطار التى هددت الحكم الفاطمى فى بلاد

الشام. وكان هؤلاء القرامطة يرمون الى بسط نفوذهم على هذه البلاد وتجلت اطماعهم فيها فى عهد اميرهم أحمد بن أبى سعيد حيث فرضوا منذ سنة ٣٥٧ هـ على الأخشيديين الذين كانوا يلون بعض مدن الشام اتاوة يؤدونها الى حكومتهم كل سنة .

بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق ، فقد طالب الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الملقب بالأعصم الذى ولى امارة القرامطة سنة ٣٥٩ هـ بالاتاوة التى كان يدفعها الأخشيديون لحكومته ، لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الأتاوة . وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى نفس الحسن بن أحمد الذى رأى أن سيادة دولته قضى عليها الفاطميون ، ثم بدأ يناصبهم العداء ، فلما أتم اعداد جيشه سار متجها الى دمشق سنة ٣٦٠ هـ ليقضى على نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام . وكان جنوده يحملون الاعلام السود ، وقد كتب عليها اسم " المطيع عبد الكريم " ، وتحته " الساده الراجعون الى الحق " ، مما يثبت لنا انحياز القرامطة الى العباسيين وانصرافهم عن الدعوة الاسماعيلية التى كانت من أهم دعائم دولتهم فى بلاد البحرين . أما جعفر بن فلاح ، فانه أخذ فى التأهب لصد قوات الحسن بن أحمد ، لكنه رغم ذلك لم يكن يتوقع أن يهاجمه القرامطة بقوات ضخمة وسرعان ما اشتبكت هذه القوات مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكه على مقربة من دمشق حيث دارت معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله هو وكثير من أتباعه سنة ٣٦٠ هـ ، وبذلك تمكن الحسن بن أحمد من الاستيلاء على دمشق .

واصل الحسن بن أحمد مسيره الى الرملة بعد فتحه دمشق ليقضى على مابقى للفاطميين من سلطان ببلاد الشام . وكان

يلى هذه المدينة سعادة بن حيان المغربى ، فلما علم بمسير القرامطة اليها اضطر الى الرحيل عنها والفرار الى يافا ، فتمهد بذلك السبيل لدخولهم الرملة وأصبحت معظم بلاد الشام فى يدهم ، وأقيمت فيها الدعوة للخليفة العباسى . يقول المقريزى : " وأقام القرامطة الدعوة للمطيع بالله العباسى فى كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم ، وأظهروا أنهم كامراء النواحى الذين من قبل الخليفة العباسى " .

اتجهت سياسة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بعد قدومه من المغرب الى مصر سنة ٣٦٢ هـ الى القضاء على نفوذ القرامطة ببلاد الشام وتحقيقا لهذه الغاية رأى أن يستعين ببنى الجراح - من قبيلة بنى طيىء بفلسطين - على استرداد هذه البلاد ، كما قرب اليه ظالم بن موهوب العقيلى بعد انصرافه عن تاييد الحسن بن أحمد أمير القرامطة ، وأسند اليه ولاية دمشق سنة ٣٦١ هـ وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام .

ولما وصل الى المعز لدين الله أن الأمور لم تستقر بعد فى دمشق ، أيقن أن هناك صعوبات تواجه حكمه فى بلاد الشام ، ومن ثم عول على اقرار النظام فيها ، فبعث فى طلب ريان الخادم واليه على طرابلس ، وعهد اليه بدراسة الحالة فى دمشق ، وقمع الفتن التى ثارت بين أهالى هذه المدينة ، وبين جند المغاربة ، كما قلده ولايتها بعد عزل القائد أبى محمد بن جعفر الذى سار فى جماعة قليلة من العسكر الى الرملة . وقد بذل ريان الخادم جهده فى تهدئة الحالة فى دمشق والتوفيق بين أهلها وجند المغاربة .

كذلك حرص الخليفة العزيز بالله الفاطمى بعد أن آلت

اليه الخلافة فى ربيع الآخر سنة ٤٦٥هـ على مواصلة سياسة أبيه المعز فى العمل على القضاء على الأضطرابات فى الشام، فاستقر رأيه على الخروج بنفسه لاستعادة سلطان الفاطميين بتلك البلاد ، وسار على رأس جيش كبير ، جعل جوهر الصقلى على مقدمته ، وكان يناهض نفوذ الفاطميين فى الشام وقتذاك الأتراك بزعامة افتكين ، ومما زاد فى خطرهم استنجاد أهل دمشق بأفتكين، وترحيبهم به ، وتجلى خطره بعد أن كتب الى الحسن بن أحمد زعيم القرامطة يطلب منه القدوم لمعاونته ، فسار اليه من الأحساء . وأعد كل منهما العدة لمواجهة زحف الجيش الفاطمى على بلاد الشام ، فحشدا جموعا كثيرة من العرب وغيرهم وعادوا الى الرملة حيث دار القتال بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٧هـ . وقد شاهد العزيز فى هذه الحرب من شجاعة أفتكين ما أعجبه ، فأرسل اليه يدعوه الى طاعته ويعده أن يقلده الولايات ، كما طلب منه الحضور لمقابلته ، فقال أفتكين لرسول العزيز ،قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا القول لسارعت وأطعت ، وأما الآن فلا يمكن الا ماترى " ، ثم واصل السير لمحاربة الفاطميين ، فأوقع العزيز الهزيمة بقواته ، ومضى أفتكين هاربا ، ثم سيق الى القاهره مع بعض أنصاره من الاتراك حيث عفا عنه الخليفة ، وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية ، أما الحسن بن أحمد ، فأنه سار منهزما الى طبريه حيث لحق به رسول العزيز الذى دعاه لمقابلة الخليفة ووعده بأنه سيكون موضع رعايته ، فلم تلق هذه الدعوة قبولا منه ، ثم رحل الى الأحساء مع أنصاره من القرامطة . وهكذا فشلت الحركة التى أثارها أفتكين التركى فى بلاد الشام ، كما زال نفوذ القرامطة فى هذه البلاد ، واضطروا الى الجلاء عنها مما سهل على الفاطميين استعادة دمشق الى حوزتهم .

على أن الفاطميين مالبثوا أن واجهوا فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، حركات استقلالية من بعض أمراء العرب بالشام ، فحاول بنو طيىء بفلسطين تكوين دولة لهم والاستقلال عن الخلافة الفاطمية ، فثار بالرملة زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح ، مما حمل برجوان الوصى على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى على ارسال حملة الى فلسطين بقيادة جيش بن محمد بن الصمصامة فسار الى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها ، وطارد مفرج بن الجراح وقواته حتى طلب الأمان والصلح ، فعفا عنه وأمنه ، ثم عادت الفتنة بفلسطين سنة ٤٠٠ هـ عندما نقم الحاكم بأمر الله على آل المغربى بمصر ، ففر الوزير أبو القاسم الحسين بن على بن المغربى الى حسان بن مفرج بن دغفل ابن الجراح أمير طيىء بالرملة ، وحسن له خلع طاعة الخليفة الحاكم ، فزحف حسان الى الرملة واستولى عليها وقتل واليها من قبل الفاطميين وعاث فيها فسادا .

اتفق بنو الجراح سنة ٤٠١ هـ على استدعاء أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكه ليبايعوه بالخلافة ، فأوفدوا اليه الوزير أبا القاسم بن المغربى ليغريه بالخروج على الحاكم بأمر الله فلما قدم هذا الوزير مكه ، أطمع أميرها أبا الفتوح فى الرياسة وحرضه على طلب الخلافة ، كما حثه على الخروج الى الرملة اجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته ، فرحب الأمير أبو الفتوح بهذه الدعوة ، وجمع أقرباءه من بنى الحسن وشاروهم فى الأمر فوافقوا على بيعته بالخلافة ، وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، ثم سار من مكه قاصدا الرملة وبصحبته أبى القاسم بن المغربى ، وبعض أنصاره من القبائل العربية . فلما

اقترب من الرملة ، تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح واولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب ، وترجلوا له وبايعوه بالخلافه ونزل أبو الفتوح فى دار حسان ونادى فى الناس بالأمان وأقيمت له الخطبة فى كثير من بلاد الشام .

لما وصل الى الحاكم بأمر الله نبأ خروج ابى الفتوح أمير مكه عليه ، ومبايعة بنى الجراح له بالخلافة ، بعث حملة الى فلسطين للقضاء على هذه الحركة ، غير أن هذه الحملة حلت بها الهزيمة ، واستفحل نفوذ بنى الجراح وبسطوا سلطانهم على جنوب بلاد الشام ، فعمد الخليفة الحاكم بأمر الله الى استمالة حسان وأبيه مفرج وغيرهم من بنى طيىء بالأموال التى بذلها لهم ، فانحرف بنو الجراح عن الأمير أبى الفتوح بعد أن بايعوه بالخلافة . ولما أحس ابو الفتوح بخذلانهم اياه وعدولهم عن رأيهم فى العمل على تقوية نفوذه ، قال لأبى القاسم بن المغربى : " أغويتنى وأخرجتنى الى هوءلاء القوم الغدارين ، وأخرجتنى من بلدى ونعمتى وأمارتى ، وجعلتنى فى أيدى هوءلاء ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعونى بالدراهم ، تجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى ، وتسهل سبيلى بالعوده الى الحجاز ، فانى راض من الغنيمة بالأياب " . ثم ركب الى مفرج بن دغفل بن الجراح سرا ، وأوضح له أنه فارق نعمته وكاشف الحاكم بالعداء ركونا منه الى ذمامهم وسكونا الى مقامهم ، وطلب منه أن يعيده الى مكه مع فريق من أنصاره ، فبعث معه جماعة من بنى طيىء ولم يزالوا بصحبته حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣ هـ ، فتلقاه أتباعه ، وكاتب الحاكم واعتذر اليه ، فقبل عذره وعفا عنه ، وأعاده الى أمارته بمكه ، وعمل الأمير أبو الفتوح بعد عودته الى مكة على اقامة الدعوة للحاكم بأمر الله ، كما نقش اسمه على السكة .

ظل بنو الجراح متقلبين على بعض نواحي جنوب بلاد الشام حتى سنة ٤٠٤ هـ ، ولم يتوان الفاطميون عن قتالهم خلال تلك الفترة ، فجهز الخليفة الحاكم العساكر الى الشام بقيادة على بن جعفر بن فلاح فقصد الرملة وهزم حسان بن مفرج وقومه الطائعين واستولى على أموالهم وذخائرهم ، ثم سار الى دمشق ، فاستولى عليها وتولى امارتها ، وبذلك استعاد الفاطميون نفوذهم على فلسطين فى أواخر عهد الحاكم ، ويتضح لنا ذلك من النقوش ، فقد عثر على نقش خاص ببناء مسجد فى نابلس باسم الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ . ويبدو أن سيطرة الفاطميين على فلسطين، استمرت حتى سنة ٤١٣ هـ . ونستدل على ذلك من النقوش الخاصة بتجديد بناء قبة الصخرة التى تحمل اسم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بن الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويرجع تاريخها الى هذه السنة ، وكانت قبة الصخرة قد سقطت سنة ٤٠٧ هـ بسبب هزة أرضية ، وفيما يلى نص أحد هذه النقوش : -

١ - بسمله ... أمر بعمارة هذه القبة الامام ابو الحسن على .

٢ - الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائه .

٣ - الأكرمين . وجرى ذلك على يد عبده الأمير ثقة الأئمة سديد الدولة على بن أحمد ، أثابه الله فى سنة ثلاثة عشر وأربع مائة (٤١٣ هـ) .

٤ - والله يديم العز والتمكين لمولانا أمير المؤمنين ويملكه مشارق الأرض ومغاربها ، ويحنبه مبادىء الأمور وعواقبها .

ضعف شأن بنى الجراح بفلسطين بعد الهزيمة التى حلت بهم فى أواخر عهد الحاكم بأمر الله واستعاد الفاطميون نفوذهم بهذا الأقليم ، وظل الحال على ذلك حتى ولى الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله الخلافة سنة ٤١١ هـ ، فحاول حسان بن الجراح استرداد سلطانه بالرملة ، ومالبث أن حشد جموعه وهاجمها ونهبها ، ولم تقف اطماعه عند هذا الحد، بل عمل على الاستقلال بفلسطين وتحقيقا لهذه الغاية عقد اتفاقا سنة ٤١٥ هـ مع صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسنان بن عليان الكلبى أمير الكلبيين ، يتضمن أن تتحد قواهم جميعا لاخراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها بينهم : على أن يكون من حلب الى عانه على نهر الفرات لصالح ابن مرداس ، ومن الرملة الى حدود مصر لحسان أمير الطائيين ، ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان وعشيرته . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى على هذا الاتفاق ، وطلبوا معونته ، لكنه لم يجب طلبهم .

لما رأى الخليفة الظاهر الفاطمى الخطر الذى يهدد سلطان الفاطميين ببلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذى عقده بعض زعماء العرب ، جهز جيشا سنة ٤٢٠ هـ لمحاربة هذه القوى المتحالفة وأسند قيادته لأنوشتكين الدزبرى . وقد تمكن القائد الفاطمى من الحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام فى معركة الاقحوانة عند طبريه ، وقتل صالح بن مرداس ، وهرب حسان ابن الجراح الطائى الى الامبراطور البيزنطى ليحتمى فى بلاطه ، فرحب بأستقباله بسبب ماقام به من دور هام فى المفاوضات التى دارت بين الامبراطور وأبيه مفرج بن دغفل بن الجراح أثناء سيطرته على فلسطين من سنة ٤٠١ - ٤٠٤ هـ . وقد انتهت هذه المفاوضات بتعيين

بطريق لبيت المقدس ، وقيام البيزنطيين باعادة بناء كنيسة القيامة التى كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد أمر بهدمها .

استطاع الفاطميون بهذا النصر الذى أحرزوه فى معركة الاقحوانة ، استرداد البقاع الجنوبية والوسطى من سورية ، كما استمرت سيطرتهم على فلسطين ، ونستدل على ذلك من النقود التى عثر عليها ، فقد نقش على وجه دينار ضرب فى سنة ٤٢٨ هـ بفلسطين مايأتى :

لا اله الا اللـه
وحده لا شريك لـه
محمد رسول اللـه
على ولى اللـه
وعلى الحاشية :
بسم الله الرحمن الرحيم ، ضرب هذا الدينار
بفلسطين سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .
ونقش على الوجه الآخر :
الأمام
معد ابو تميم
المستنصر بالله
أمير الموءمنين
وعلى الحاشية :
محمد رسول الله

كان نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام مرتبطا بقوتهم العسكرية ، فاذا ماضعفت قواتهم هناك قام الأمراء المحليون بالعمل على توطيد استقلالهم الذاتى كما فعل بنو الجراح بفلسطين وبنو مرداس فى حلب . وليس من شك فى أن عدم استقرار الأمور فى كل من فلسطين وحلب ، أتاح

الفرصة أمام السلاجقة ليظهروا على مسرح السياسة فى بلاد الشام ويضعفوا النفوذ الفاطمى فيها ، فوجهوا اهتمامهم بعد أن استأثروا بالنفوذ فى العراق الى استعادة مافقدته الدولة العباسية من البلاد ، فعهد السلطان ملكشاه سنة ٤٦٥ هـ الى أتسز التركمانى بالاستيلاء على بلاد الشام ، ففتح الرملة وبيت المقدس ثم يمم السير الى دمشق ، غير أن جيوش الفاطميين سرعان ماردته على أعقابه ، لكنه لم يلبث بعد ذلك أن عول على محاصرتها سنة ٤٦٧ هـ ، وأخذ يشدد عليها الحصار حتى تمكن من فتحها ثم حذف اسم المستنصر بالله الفاطمى من الخطبه ، وأحل محله اسم الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، فكان لعمله هذا أحسن الأثر فى نفوس أهالى دمشق .

ولما استقر الأمر للقائد التركمانى أتسز فى بلاد الشام خشى أن يعاود الفاطميون مهاجمته فجهز جيشا من التركمان والعرب ، وسار قاصدا مصر سنة ٤٦٩ هـ ، غير أن بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، استطاع بمهارته أن يلحق الهزيمة بجيشهم . ثم أعلنت بعض المدن الرئيسية فى بلاد الشام ولاءها من جديد للخلافة الفاطمية . وقد شجع ذلك بدر الجمالى على العمل لاستعادة سلطان الفاطميين بتلك البلاد ، فأنفذ جيشا الى دمشق حاصرها حصارا شديدا حتى اضطر أتسز الى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، فأجاب طلبه ، ولما قابله عند سور دمشق ، أنكر عليه تأخره فى الخروج للقائه وقبض عليه وقتله . ثم استولى على دمشق سنة ٤٧١ هـ،وأحسن معاملة أهلها . غير ان الحالة لم تستقر له طويلا بتلك البلاد ، فحاول بدر الجمالى ان يسترد دمشق سنة ٤٧٨ هـ ، فسار اليها على رأس حملة وحاصرها حصارا شديدا ، كما

دار بينه وبين تاج الدولة تتش قتال ، غير أنه لم يتمكن من التغلب عليه ورحل عائدا الى مصر . ومازال بدر الجمالى يوجه اهتمامه الى استعادة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام حتى تمكن سنة ٤٨٢ هـ من الاستيلاء على معظم بلاد الشام الساحلية . غير أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المدن بسبب تطلع السلاجقة الى بسط سلطانهم عليها .

ولما ثار الخلاف بين نواب السلاجقة فى بلاد الشام بعد وفاة تاج الدولة تتش ، رأى الفاطميون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا من جديد اعادة سيطرتهم على مافقدوه من مدن الشام فسار الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٨٩ هـ على رأس حملة الى بيت المقدس وكان يلى هذه المدينة اذ ذاك ايلغازى وسقمان - ابنا الامير أرتق - ، فالتمس منهما تسليمه القدس من غير حرب ، فرفضا اجابة طلبه ، فحاصر المدينة ونصب على اسوارها المجانيق ، واضطر أهل القدس الى طلب الأمان ، فأمنهم وفتحوا له أحد أبوابها ، وبذلك تمكن الأفضل من دخولها والاستيلاء عليها ، ورأى كل من سقمان وأخيه ايلغازى أن يرحل عنها ، فمضى الأول الى الرها ، أما الثانى فسار الى بغداد .

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم فى بلاد الشام الى عدم استقرار الأمور فى هذه البلاد وضعف الجبهة الاسلامية أمام الغزو الصليبى ، فقد زحف الصليبيون على انطاكية بقيادة بوهمند النرمندى فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين فى بلاد الشام ، فأرسلوا الى أميرى حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم ، كما ادعوا بأنهم لايقصدون

غير البلاد التى كانت بيد الروم . ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين فى اثارة النزاع بين القوى الاسلامية ليتيسر لهم تحقيق غرضهم ، سارع الى نجدة أمير انطاكية وانضم اليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر وحماه وحمص . غير أن المحاولات التى بذلها امراء المسلمين ببلاد الشام لانقاذ انطاكيه باءت بالفشل وسقطت المدينة فى يد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ(٣ يونيه ١٠٩٨م) .

لما وصل الى الحكومة الفاطمية فى مصر ، نبأ الهجوم الصليبى على أنطاكيه ، رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس ، فأنفذ الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله الفاطمى سنة ٤٩٢ هـ(١٠٩٨م)سفارة الى الصليبيين للتفاوض فى عقد اتفاق معهم ، يتضمن أن ينفردوا بانطاكيه وأن تستقل مصر ببيت المقدس ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين ، وتكون لهم الحرية فى أداء شعائرهم الدينية ، على ألا تزيد مدة اقامتهم بها عن شهر واحد ، وألا يدخلوها بسيوفهم .

لم تؤد سفارة الأفضل بن بدر الجمالى الى الصليبيين، الى عدولهم عن تحقيق سياستهم فى الاستيلاء على بيت المقدس ، بل كان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين ونواب السلاجقة ببلاد الشام ، ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على انطاكيه على ارسال حملة لفتح بيت المقدس . وقد استولى الصليبيون اثناء سيرهم الى هذه المدينة على معرة النعمان ، كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون اليه درءا لأخطارهم .

كانت بيت المقدس فى الوقت الذى تقدم فيه الصليبيون

لمهاجمتها خاضعة للفاطميين ويلى حكمها نائب من قبلهم يدعى "افتخار الدولة" ، فلما شرع الصليبيون فى فتح هذه المدينة لقوا مقاومة فى بادىء الأمر من الحامية الاسلامية . غير أن جود فروى - قائد الحملة الصليبية مالبث أن عثر على منفذ للمدينة لم يهتم المسلمون بتحصينه ، فدخل منه مع بعض أتباعه من الفدائيين ، وبذلك تيسر لهم فتح أبوابها سنة ٤٩٢ ﻫ (١٠٩٩م) ، فاضطر المسلمون الى الاعتصام بالمسجد الاقصى ، فتعقبهم الصليبيون ونكلوا بهم . ولم يجد حاكمها الفاطمى " افتخار الدولة" بدا من الاستسلام ، وتعهد هو وقواته للصليبيين بالرحيل عنها الى مصر .

لم يقف الفاطميون ازاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام وزحفهم على بيت المقدس مكتوفى اليدين وخاصة بعد أن وصلهم خبر دخولهم هذه المدينة واستيلائهم عليها ، ومحاولتهم أخذ ماتبقى لهم من المدن الساحلية وعجز أمراء السلاجقة عن الوقوف فى وجههم ، فأعدوا حملة لاسترداد بيت المقدس . وخرج الأفضل بن بدر الجمالى على رأس الجيش الفاطمى وأقام بعسقلان فى انتظار النجدات التى وعده بها العرب . وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم مافعلوه ويتهددهم . على أن القوات الفاطمية مالبثت أن فوجئت بهجوم الصليبيين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك انتهت بهزيمة الجند الفاطمى وتراجعهم تدريجيا ، وعاد الأفضل مع خواصه الى مصر .

استغل الصليبيون فى بيت المقدس ضعف نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام منذ اوائل سنة ١١٠٠م وعملوا على تحصين مدينة يافا ، كما جعلوا من هذه المدينة مركزا يوجهون منه هجماتهم الى المدن الخاضعة لسلطان

الفاطميين فى بلاد الشام ، فتعرضت كل من آرسوف وقيسارية لزحف الصليبيين عليها بقيادة بلدوين الأول ملك بيت المقدس سنة ١١٠١م ، وحاول الوزير الأفضل بن بدر الجمالى استعادة المدن والموانى الساحلية التى استولى عليها الصليبيون فأرسل حملة برية الى ساحل فلسطين فى ربيع الأول سنة ٤٩٤ هـ(١١٠١م) ، لكن هذه الحملة منيت بالفشل عند الرملة ، ثم عاود هذا الوزير الكرة ضد الصليبيين ، فأعد حملة فى السنة التالية بقيادة ابنه " شرف المعالى " اتجهت الى عسقلان . ولما تمكنت القوات الفاطمية من احراز النصر على الصليبيين فى الرملة سنة ٤٩٥ هـ(١١٠٢م) ، ساروا نحو يافا لمحاصرتها ، غير أن القوات الصليبية أوقعت الهزيمة بالفاطميين مما اضطرهم الى التقهقر نحو عسقلان .

رأى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بعد أن حلت الهزيمة بالقوات الفاطمية فى يافا ، أن يعد حملتين احداهما برية والأخرى بحرية . غير ان الخلاف الذى حدث بين قائدى هاتين الحملتين أدى الى عجزهما عن استعادة يافا .

وكان الفاطميون وقتذاك لايزالون يسيطرون على بعض المدن الساحلية بالشام ، وهى : عسقلان وعكا وصور وصيدا ، فوجه بلدوين الاول ملك بيت المقدس اهتمامه الى الاستيلاء على هذه المدن ، ولم يزل يهاجم صيدا حتى طلب قاضيها وشيوخها الأمان منه فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) ، فأمنهم وسمح للقاضى بالخروج وبصحبته كثير من أهلها الى دمشق . أما صور فظلت تقاوم الصليبيين فترة طويلة ، وقام طغتكين - أتابك دمشق - بمهمة الدفاع عنها بعد أن عجز الفاطميون عن ذلك ، فسير اليها العساكر والمؤن . ولما ضيق الصليبيون الحصار على هذه المدينة ، وقلت بها

الأقوات ، وسئم أهلها القتال ، اضطر طغتكين أتابك دمشق ، أن يكتب الى الصليبيين ، محاولا مهادنتهم على أن يسمحوا لمن بها من الجند والرعية بالخروج منها وحمل مايستطعون حمله من أموالهم ، فاستقر الحال على ذلك ، واستولى الصليبيون على صور سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م) بعد أن أخفقت جهود طغتكين والفاطميين فى صد الصليبيين عنها .

كانت عسقلان من القواعد الفاطمية البحرية فى جنوب فلسطين . وقد قام الصليبيون بعدة محاولات للاستيلاء عليها وباءت هذه المحاولات بالفشل بسبب مواصلة الفاطميين الدفاع عنها ، وامدادها بالمؤن والجند . ولما اضطربت الاحوال فى مصر فى عهد الخليفة الظافر الفاطمى استغل الصليبيون فرصة الضعف الذى كانت تعانيه الدولة الفاطمية وعملوا على محاصرة عسقلان سنة ٥٤٨ هـ ، فتصدى لهم أهلها ، كما قويت نفوسهم بوصول الاسطول الفاطمى الى هذه المدينة ، غير أن الصليبيين مالبثوا أن عمدوا الى تشديد الحصار عليها ومهاجمتها مما اضطر أهلها الى طلب الأمان ، فأجيبوا الى طلبهم ، وخرج منها من استطاع الرحيل عنها بطريق البر والبحر ، وبذلك تيسر للصليبيين الاستيلاء على عسقلان. وفقدت الخلافة الفاطمية آخر مدن فلسطين التى كانت لاتزال تخضع لسيادتها .

وهكذا واجه الفاطميون فى فلسطين عدة صعوبات كان لها أثر بالغ فى عدم استقرار حكمهم فيها ، فالى جانب الحركات الاستقلالية التى تزعمها بعض أمراء العرب فى هذه البلاد أدى التنافس بينهم وبين السلاجقة على بسط سيطرتهم على بلاد الشام الى ضعف الجبهة الاسلامية أمام الزحف الصليبى على كل من انطاكيه وبيت المقدس ، وفضلا عن ذلك

فأن ماتعرضت له الدولة الفاطمية فى أواخر عهدها من ضعف وانحلال أتاح للصليبيين فى بيت المقدس الفرصة للاستيلاء على ماتبقى فى حوزتها من مدن الشام الساحلية .



الجبهة الصليبية فى معركة حطين

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
كلية الآداب - جامعة القاهرة

من الانحرافات الخطيرة التى تتعرض لها الكتابة التاريخية فى كثير من الأحيان أن ينظر الباحث الى التاريخ بعين واحدة ، فلا يرى الا جانبا واحدا منه دون الجانب الآخر . وقد تأتى هذه النظرة القاصرة متعمدة ، ولیدة عوامل شخصية كالتعصب لجنس أو موطن أو ديانة أو مذهب أو غير ذلك . وربما أتت عفوائية غير مقصودة نتيجة لقصور فى الفهم أو عدم ادراك لركن أساسى من أركان المنهج السليم لمعالجة التاريخ . وسواء نجمت هذه الظاهرة عن هذا أو ذاك من الأسباب ، فانها فى جميع الحالات تسبب خللا فى رسم الصورة الحقيقية للتاريخ ، وتجعل منه كيانا مبتورا يتسم بعدم الامانة ونقص البناء .

وهناك أمثلة عديدة لهذه النظرة المبتورة الى التاريخ من ذلك أن كافة المؤرخين الاوربيين يرجعون هزيمة المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى فى موقعة شهداء البلاط التى عرفوها باسم موقعة تور أوبواتييه - سنة ٧٣٢ م، الى شجاعة قائد الفرنجة شارل الذى لقب بعد تلك الموقعة بلقب مارتل ، بمعنى المطرقة . وهم فى علاجهم لتاريخ هذه الموقعة يسرفون فى تصوير بطولة شارل وفروسيته لأنه أنقذ غرب أوربا من خطر الاسلام والمسلمين - حسب قولهم - ويرددون أنه لولا بطولته لابتلعت موجة الزحف الاسلامى الغرب الأوربى كله باكمله ، وحولت شعوبه الى ديانة الاسلام .

وهكذا يقع هؤلاء المؤرخون فى خطأ كبير ، لأنهم

فى موجة حماستهم لشارل ولعقيدتهم الدينية يتناسون حقيقة هامة ، هى انه بوصول موجة الفتوح الاسلامية الى الاندلس ، كانت هذه الموجة قد استنفذت طاقتها فخفت حدتها وأوشكت أن تصل الى نهايتها الطبيعية ، شأنها فى ذلك شأن كل حركة توسعية فى التاريخ . حتى لو لم ينتصر شارل مارتل فى موقعة البلاط ، فانه من الصعب علينا أن نتصور أنه كان فى استطاعة المسلمين أن يواصلوا تقدمهم فى قلب الغرب الاوربى بعد أن بعدوا عن مركز حركتهم التوسعية وطالت خطوط مواصلاتهم ، واستنفذوا طاقتهم فى اقامة دولة واسعة امتدت من أطراف الهند وقلب آسيا شرقا حتى بحر الظلمات أو المحيط الأطلسى غربا .

ولو كان لدى المسلمين فى الاندلس بقية من طاقة أو جهد لاستنفذوا تلك الطاقة وذلك الجهد فى فتح ما لم يستطيعوا فتحه من الاركان الشمالية والغربية فى شبه جزيرة ايبريا ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك . فكيف نفسر غارة محلية قام بها المسلمون على جنوب غاليا (فرنسا) لتحقيق اهداف محدودة ، بأنها حركة اكتساح واسعة هددت بابتلاع المسلمين غرب أوربا باكمله ، لولا بطولة شارل مارتل التى انقذت البلاد والعباد ؟؟

ونضرب مثلا آخر بموقعة عين جالوت ، اذ جرى الوضع فى كتب التاريخ على تصوير نتيجة هذه الموقعة وكأنها تعبير عن عامل واحد هو شجاعة المسلمين وحسن بلاء المماليك بقيادة سلطانهم قطز ، مما ترتب عليه انزال ضربة ساحقة بالمغول ، هى الأولى من نوعها بالنسبة لهم منذ بداية حركتهم التوسعية فى النصف الاول من القرن الثالث عشر . وفى غمرة الحماسة لتصوير حسن بلاء المسلمين وبطلهم قطز ، ينسى المؤرخون أن هناك عوامل مساعدة أدت الى انتصار

المسلمين فى عين جالوت ، وأنه لولا هذه العوامل المستترة لربما كان لهذه الموقعة شأن آخر . من هذه العوامل أن هولاكو زعيم المغول الذى اجتاح الجناح الشرقى للعالم الاسلامى ، والذى أثار اسمه الخوف والذعر فى قلوب معاصريه ، والذى كان مصدر الهام لرجاله ومحاربيه ... لم يكن على رأس قوات المغول التى خاضت معركة عين جالوت . ذلك أنه اضطر قبيل هذه المعركة الى العودة مسرعا الى حاضرة المغول فى جوف آسيا للمشاركة فى انتخاب رئيس أعلى للمغول بعد أن سمع بوفاة خاقان المغول الاعظم منكوخان.

ومن ناحية أخرى ، فأن أية حركة توسعية فى التاريخ لابد وأن لها نهايتها ، إذ لم يقدر لاية حركة من هذا النوع أن تظل فى تقدم مستمر لتستوعب الارض ومن عليها ، وبوصول المغول الى بلاد الشام كانت حركتهم التوسعية قد استنفدت طاقتها ، وصار على المغول أن يبذلوا جهدا كبيرا فى تأمين البلاد التى فتحوها فى وسط آسيا وغربها فضلا عن شرق أوربا ووسطها . وهذه كلها أمور يجب على المؤرخ أن يضعها جنبا الى جنب مع حسن بلاء المسلمين ، عندما يقوم معركة عين جالوت .

وفى التاريخ الحديث يسهب كثير من الباحثين والمؤرخين فى الكلام عن عبقرية القائد الانجليزى مونتجومرى بطل موقعة العلمين فى الحرب العالمية الثانية ، وكيف أن هذا القائد هو صاحب الفضل فيما أحرزه الحلفاء من نصر ، لأنه خطط فأجاد التخطيط ، واختار الموقع المناسب لساحة المعركة فأحسن الاختيار ، وصمد هو ورجاله الأبطال فأبلوا فى الصمود . وينسى هؤلاء الباحثون انه بوصول جيوش الحلفاء الى العلمين ، كانت تلك الجيوش قد استنفدت طاقتها بعد أن نجحت فى غزو معظم القارة

الاوربية مما أنزل بها انهاكا لا مزيد عليه . هذا فضلا عن بعد خطوط مواصلات جيوش المحور ، ومعاناته من ظروف قاسية صعبة فى زحفها فى الصحراء ، بسبب قلة الماء وشدة حرارة الجو ، بينما يشد مونتجومرى ورجاله ظهورهم الى دلتا النيل . وهذه كلها عوامل يجب على المؤرخ اليقظ أن يجعلها موضع اعتباره عندما يقوم موقعة العلمين تقويما تاريخيا علميا أمينا .

* * *

وبهذه الروح أرى واجبا علينا عندما نتحدث عن ذكرى مرور ثمانمائة عام على معركة حطين أن نلتزم بقدر من الواقعية العلمية فى تقويم النصر الذى حققه المسلمون فى هذه الموقعة ، فلا تجرفنا آلام الحاضر ، أو الحماسة لامجاد السلف الصالح الى النظر الى التاريخ بعين واحدة .

من حق أبطال حطين وشهداء حركة الجهاد الاسلامى أن نترحم عليهم ، ونتذاكر مابذلوه من جهد وتضحيات من أجل استرداد الارض وتحرير مقدسات المسلمين . حسبهم أنهم هجروا الاهل والاوطان وقضوا الاعوام والايام ، يطاردون العدو الدخيل فى عزم واصرار ، فمنهم من سقط شهيدا يروى الأرض بدمائه ، ومنهم من أصيب ليقضى بقية حياته عليلا معوقا . وعلى رأس هؤلاء جميعا يبرز اسم صلاح الدين بوصفه بطل حطين الفذ ، الذى " كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ماكان له حديث الا فيه ، ولانظر الا فى آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى

ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ...."(١)

ان عبقرية صلاح الدين لم تقتصر على قدرته فى التخطيط والتنفيذ ، وانما تتجلى أيضا فى نجاحه فى اكتساب ثقة رجاله واحترامهم وحبهم له من ناحية ، وفى الافادة من كافة الظروف التى أتيحت له من ناحية أخرى . لقد نجح صلاح الدين لأنه آمن بالاهداف التى سعى لتحقيقها ، وسلك أسلم الطرق لتحقيق هذه الاهداف ، اذ ادرك دائما ان العبرة ليست بتوجيه ضربة الى العدو ، وانما العبرة بالاعداد اعدادا سليما لهذه الضربة ، واختيار انسب الظروف من ناحيتى الزمان والمكان لتوجيهها .

ولكننا نظلم التاريخ عندما نتصور أن النصر الذى تحقق للمسلمين فى حطين انما جاء وليد عبقرية صلاح الدين وحده ، أو نتيجة لحماسة المجاهدين لاغير ، متناسين العوامل الاخرى المساعدة التى أسهمت فى تحقيق النتيجة التى انتهت اليها معركة حطين .

ان علينا أول بدء أن نوضح أن معركة حطين دارت بين طرفين أحدهما متماسك البناء راسخ العقيدة ، يرحب بالاستشهاد فى سبيل الله ، يوءمن بانه خاض معركة الجهاد دفاعا عن حق مصيرى ... والطرف الآخر مفكك الاوصال ، ممزق الاطراف والروابط ، تسوده الاحقاد والخلافات ، يفتقر الى قيادة عليا حازمة رشيدة ، تنخر فى بنائه الانقسامات الشخصية والعنصرية ، وتتحكم فى سياسته المصالح المادية ، وتسود روح الشك العلاقات بين زعمائه وقادته . واذا كان

---

١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،ص ٤٤ ،(تحقيق محمد محمود صبح) .

هناك تكافوء بين الطرفين ، فربما كان هذا التكافوء في نوعية السلاح ، فالمسلمون يحاربون بالسيوف والحراب والسهام والصليبيون يحاربون بالسيوف والحراب والسهام .

ونحن عندما نتكلم في التاريخ عن جبهتين احداهما اسلامية والاخرى صليبية في معركة حطين ، ينبغي أن نضع موضع الاعتبار أن الصليبيين لم يشكلوا منذ خروجهم من بلادهم لأول مرة في اواخر القرن الحادى عشر للميلاد جبهة واحدة متماسكة .

فالحملة الصليبية الاولى جاء على رأسها امراء دبت بينهم العداوة والبغضاء ، وتأصلت في نفوسهم روح التنافس وتحكمت في تصرفاتهم تجاه بعضهم البعض نزعة واضحة من الاثرة والانانية . وعندما انتهى جيل الامراء الاوائل الذين اسهموا في الحملة الصليبية الاولى ، وفي اقامة البناء الصليبي بالشام ، خلف من بعدهم خلف ورثوا عن أسلافهم العداوة والبغضاء مثلما ورثوا الارض ، ومهما يقل من أن ملك بيت المقدس تمتع بنوع من السيادة والاولوية على غيره من أمراء الصليبيين بالشرق ، فان هذه السادة كانت في الشكل لا في الجوهر ، ولم تصل مطلقا الى حد الالزام الذى يجعل كبار الامراء - وبخاصة في انطاكية وطرابلس - يخضعون خضوعا تاما للملك ، ويمتثلون لأوامره . حقيقة أننا نسمع عن تحالف القوى الصليبية في بلاد الشام - في بعض الاحيان - لمواجهة خطر داهم من جانب المسلمين ، ولكن هذا التحالف كان موقتا مرهونا بزوال الخطر ، فضلا عن أنه لم يتم سوايا صافية ، وانما كثيرا ماجاء مشوبا بمشاحنات بين كبار الأمراء بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين ملك بيت المقدس .

كان هذا هو وضع الجبهة الصليبية منذ أن وطأت اقدام الصليبيين أرض الشام لأول مرة سنة ١٠٩٧ وحتى موقعة حطين

سنة ١١٨٧ م .

* * *

ولتفسير ذلك ، ورسم صورة واضحة للجبهة الصليبية فى موقعة حطين ، لابد من العودة الى الوراء ، قبل هذه الموقعة بثلاث عشرة سنة - أى الى سنه ١١٧٤م - للوقوف على خلفية حطين من ناحية ، وما أصاب الجبهة الصليبية من تطورات أثرت تأثيرا مباشرا فى مصير تلك الموقعه من ناحية آخرى . ذلك ان الخلل الذى اعترى الجبهة الصليبية فى حطين لم ينشأ ليلة الموقعة ولم يكن وليد عام أو بعض عام ، وانما تمتد جذور ذلك الخلل وخلفياته سنوات عديدة الى الوراء .

ولاشك فى أن الرجوع الى ماقبل حطين بثلاث عشرة سنة على وجه التحديد أمر قد يثير التساؤل ، ولكننا نبادر فنقول ان سنة ١١٧٤م (٥٦٩هـ) تحتل فى نظرنا أهمية خاصة فى تاريخ الحروب الصليبية ، نظرا لأنها شهدت حدثين هامين كان لكل منهما أثره المباشر وغير المباشر فى تكييف الجبهتين الاسلامية والصليبية قبيل حطين : الحدث الأول، هو وفاة نور الدين محمود فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤، والحدث الثانى هو وفاة عمورى الاول ملك الصليبيين فى بيت المقدس بعد ذلك بشهرين تقريبا (١١ يوليو ١١٧٤) .

أما الحدث الأول فقد نجم عنه انطلاق صلاح الدين يوسف ابن أيوب ليرث سيده نور الدين محمود لا فى ممتلكاته فى مصر والشام فحسب ، بل أيضا فى سياسته الخاصة بتأمين الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية ، والاعداد لحركة جهاد دينى واسعة ضد الصليبيين من ناحية أخرى . وأما الحدث الثانى فقد ترتب عليه حرمان الصليبيين من رجل والرجال قليل . ذلك أن عمورى الاول الذى توفى سنة ١١٧٤ كان أقدر

حكام الصليبيين المعاصرين ، وأوسعهم خبرة ، وأعمقهم تجربة واكثرهم قدرة وجرأة على محاربة المسلمين فى الشام ومصر من أجل حماية الكيان الصليبى فى الشرق(٢).

حقيقة ان بلدوين الرابع الذى خلف أباه عمورى الأول فى عرش مملكة بيت المقدس اتصف بالذكاء والاخلاص ، والرغبة فى الصمود فى وجه الاخطار الداخلية والخارجية التى واجهت الكيان الصليبى فى بلاد الشام . ولكن الرغبة شئ والقدرة على التنفيذ شئ اخر . ذلك أن بلدوين الرابع اعتلى عرش المملكة الصليبية سنة ١١٧٤ وهو فى الثالثة عشر من عمره ، وأصيب فى مرحلة البلوغ بالجذام ـ فلقب بالمجذوم ـ مما حطم طاقته وفت من عضده ، وأقعده عن النهوض بالامانة التى كان يود فعلا أن ينهض بها . ولم يلبث أن توفى وهو فى الرابعة والعشرين من عمره سنة ١١٨٥ ـ أى قبل موقعة حطين بعامين ـ تاركا الكيان الصليبى فى بلاد الشام فى حالة من الفوضى ظهرت آثارها فى حطين .

وطوال الفترة التى حكم فيها الملك بلدوين الرابع ، والتى استمرت احدى عشرة سنة ـ كان فى صراع مع المرض ،فهو يريد أن يفعل شيئا ولكنه لايقوى على أن يفعل شيئا ، ولذا آخذ يتخبط فى قراراته ، وأسرف فى التشكك فيمن حوله ، وأعطى أذنا صاغية لمستشارى السوء الذين استغلوا حالته لتحقيق مآربهم الخاصة ... وأدى هذا كله الى حالة سيئة من التشاحن والتباغض وسوء النوايا ، سادت العلاقات بين الأمراء الصليبيين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين رجال الدين ،

---

٢) William of Tyre: Deeds Done Beyond the sea Vol. 2, p p.395-396.
(Translated and Annotated by Babcock and Krey, New York, 1943).
ويذكر المؤرخ وليم الصورى أنه كتب تاريخه الشهير بناء على طلب وتكليف من الملك عمورى الأول .

وبين الجميع وملك بيت المقدس، وذلك قبيل معركة حطين .

ويحكى المؤرخ وليم الصورى - الذى يعتبر مصدرنا المعاصر والرئيسى فى تقويم أحوال الصليبيين فى تلك الفترة - أنه عندما كان رئيس شماسة صور، عهد اليه الملك عمورى الأول بالاشراف على تربية ابنه الصغير بلدوين (الرابع) فبذل غاية جهده فى تثقيفه وتدريبه وفق أرقى قواعد السلوك ومستويات التعليم المعاصرة . وبينما يلعب الصغير ذات يوم مع مجموعة من رفاقه ، أخذ الاولاد يقرصون بعضهم بعضا بأظافرهم ، ويصرخون عندما يتعرض أحدهم لقرصه من رفيقه ، ماعدا بلدوين الصغير الذى كان يتحمل أقوى القرصات فى ذراعه دون أن تظهر على وجهه علامة للانفعال أو الالم . وقد ظن وليم الصورى فى أول الأمر أن هذا دليل على قوة احتمال ملك المستقبل ، ولكنه سرعان ما اكتشف أن الصبى فاقد الاحساس، ميت الشعور ، وأن ذراعه شبه مخدر ، مما جعله يسرع بعرض الامر على ابيه ، وعبثا حاول الملك علاج ابنه وولى عهده ، فعرضه على عدد كبير من الاطباء دون جدوى . وكانت هذه الظاهرة - كما يقول وليم - نذيرا بمرض الجذام الخبيث الذى بدأت اعراضه تظهر على بلدوين بعد فترة قصيرة (٣).

وهكذا توفى عمورى الأول خامس ملوك - أو سادس حكام - بيت المقدس الصليبيين ، صاحب الدور العريض فى مجابهة نور الدين ، وقائد الحملات الصليبية الشهيرة فى مصر ، والرجل الذى استطاع أن يفرض هيبته وكلمته على كافة أمراء الصليبيين داخل المملكة وخارجها ، والذى استطاع أن يحظى بتأييد امبراطور الروم فى القسطنطينية ... توفى سنة

---

(٢) William of Tyre: Op.cit. Vol. 2, p p. 397-398.

(٣) William of Tyre: Op.cit. Vol. 2, p p. 400-404.

١١٧٤ ليخلفه ابن قاصر عليل ، قد يحظى بعطف قلة من الامراء ولكنه لايحظى باحترام غالبية الامراء . وسرعان ماظهرت مطامع الامراء ، وبرزت خلافاتهم على السطح ، واشتد التنافس والتحاسد بينهم ، وهى أمور تتضح عادة عندما يحس امراء الصليبيين بالشام بعدم وجود قوة كبرى يهابها الجميع وتفرض احترامها عليهم .

وكان آن بدأت اولى صفحات الصراع بين الامراء بسبب التنافس حول الظفر بالوصاية على الملك القاصر ، حتى استطاع الامير ميلون دى بلانسى Milon de Plancy أن يفوز بالمنصب ، مما مكنه من الهيمنة على شئون المملكة . ويروى وليم الصورى أن قيام ميلون بالوصاية على الملك الصغير ، وانفراده بالنفوذ فى المملكة ، أثار نقمة بقية امراء المملكلا لأنه تجاهلهم فضلا عن أنه عاملهم باستعلاء وازدراء . ولكن لم يلبث أن ظهر على المسرح ريموند الثالث امير طرابلس ، الذى كان قد قضى ثمان سنين فى أسر نور الدين محمود (١١٦٤- ١١٧٢) حتى اطلق سراحه ، وعندئذ نظر اليه عامة الصليبيين فى الشام وكأنه بطل عظيم . وكان أن طالب ريموند الثالث بأحقيته - دون غيره - بالوصاية على الملك الصغير ، نظرا للقرابة التى تربطه به من جهة ،ولانه أقوى الامراء الصليبيين بالشام من جهة ثانية ، فضلا عن أنه عندما وقع أسيرا فى قبضة المسلمين فانه عهد الى الملك عمورى - والد بلدوين - بالوصاية على امارته طرابلس ، ولو قدر له أن يموت فى الأسر ، لكانت طرابلس من نصيب عمورى . ولم يلبث آن انتهى التنافس بين ميلون وريموند بمقتل الاول فى اواخر سنة ١١٧٤ ، فقام ريموند الثالث بالوصاية على الملك والمملكة لمدة ثلاث سنوات . وزاد من نفوذ ريموند انه استحوذ على طبرية واقليم الجليل بعد أن تزوج من الاميرة اشيفا Eschiva أرملة والتر - امير ذلك الاقليم سابقا-

وبذلك غدا ريموند الثالث أقوى أمراء الصليبيين بالشام.

وهكذا أخذت الأمور تتعقد فى مملكة بيت المقدس الصليبية نتيجة لقيام ملك مريض فى عرش المملكة فى السنوات الحاسمة التى سبقت حطين، وحدث ذلك فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين يستعد سياسيا وحربيا للمعركة الفاصلة بينه وبين الصليبيين .وبدلا من أن يتعاون ملك بيت المقدس مع كبار الأمراء لتكوين جبهة قوية يواجهون بها الجبهة الاسلامية التى وضع أساسها نور الدين محمود ، والتى نجح صلاح الدين فى احيائها ودعمها ... ، اذا بالملك بلدوين الرابع تحت تأثير حالته الصحية يتشكك فى كبار الامراء ويتوهم أنهم يتآمرون فى الخفاء ضده لخلعه من العرش .

من ذلك أنه حدث بعد انتهاء فترة وصاية ريموند الثالث على الملك والمملكة ، أن اتفق بوهيموند الثالث أمير انطاكية مع ريموند الثالث امير طرابلس على القيام سنة ١١٨٠ بزيارة لبيت المقدس ، وذلك دون ترتيب سابق مع الملك بلدوين الرابع . وعندما فوجئ الملك المريض بوصول الاميرين من شمال الشام ، انزعج وتوهم مؤامرة خطط لها الاميران لخلعه واقتسام المملكة بينهما . ويصور المؤرخ المعاصر وليم الصورى حال الملك فيقول انه " خشى أن يقوم هذان الاميران بثورة ضده تستهدف خلعه والسيطرة على زمام الامور فى المملكة ، لاسيما وأن حالة الملك الصحية أخذت تتفاقم وتزداد سوءا مما أصابه بالقلق البالغ .

وبمرور الايام صارت أعراض الجذام تزداد وضوحا عليه ، مما فت فى عضده وجعله يتشكك فى نوايا من حوله ..." (٤).

---

٤) William of Tyre: Op.cit., Vol.2, p.446.

وكان من الممكن التخفيف من الآثار الناجمة عن مرض الملك بلدوين الرابع لو وجدت حوله بطانة مخلصة تحسن توجيهه وتصدقه النصح . ولكن الملك المريض أحاطت به بطانة من أهل السوء ، هدفها الاستئثار بالنفوذ والسلطان . وعلى رأس هذه البطانة كانت الملكة الوالدة التى اتصفت بالانانية وحب السيطرة ، فضلا عن أخيها ـ خال الملك المريض ـ وقهرمان المملكة ، وجماعة اخرى من الانتهازيين وذوى المصالح الخاصة .(٥)

ويبدو أن الفترة القصيرة التى قضاها ريموند الثالث فى وصايته الاولى على الملك والمملكة ، وماقام به فى تلك الفترة من جهود فى مقاومة صلاح الدين والمسلمين ، أظهرته فعلا أمام الرأى العام الصليبى فى بلاد الشام فى صورة الرجل القوى القادر على توجيه السفينة الى بر الأمان وسط بحر زاخر بالاعاصير . وكان ذلك مما استثار تخوف الملك بلدوين الرابع من أمير طرابلس ، وربما حقده عليه ، وبخاصة أن ذلك الأمير كان من الناحية العرقية أقرب امراء الصليبيين الى ملك بيت المقدس الذى لم ينجب من يخلفه .

ولم يرض العقلاء وبعيدو النظر من أمراء المملكة ـ وهم قلة ـ عن موقف الملك بلدوين الرابع من أمير طرابلس وطبرية ، وأخذوا يعملون حسابا لما قد يترتب على حرمان المملكة من معونة ريموند الثالث الذى هو أقوى امراء الصليبيين بالشام من جهة ، وأقوى أفصال الملك بوصفه أميرا على الجليل وطبرية ، من جهة أخرى . ويعلق وليم الصورى على ذلك الوضع بترديد قول المسيح" كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لايثبت" (٦).

---

٥) Idem, p.p. 459-460.

٦) انجيل متى ، اصحاح ١٢(٢٥) .

ولاقصاء أمير طرابلس عن وراثة عرش المملكة ، أخذ الملك المريض يبحث فى عجلة عن عريس لشقيقته الكبرى - الأميرة سيبل - التى كان زوجها وليم دى مونتفرات قد توفى. وكان أن اختار الملك لشقيقته جاى لوزجنان الذى حضر من فرنسا وتزوج الاميرة سيبل سنة ١١٨٠ . ولم يكن هذا الاختيار موفقا لما عرف عن جاى لوزجنان من جبن وضعف شخصية وتذبذب فى الرأى . هذا فضلا عن أن أمراء الصليبيين بالشام لم يرحبوا بجاى لوزجنان ولم يرتاحوا اليه ، ولم يحظ باحترامهم .

وينتقد المؤرخ المعاصر وليم الصورى هذه الخطوة المتعجلة من جانب بلدوين الرابع ، فيقول " انه كان يستطيع الملك أن يعثر لأخته على زوج من نبلاء المملكة أعظم شأنا وأرجح عقلا وأوفر مالا وثروة ، واكثر نفعا للملكة من جاى لوزجنان . ولكن الملك لم يدرك أن العجلة فى الندامة " (٧).

ومرة أخرى يعلق وليم الصورى - وهو معاصر ، يكتب من واقع مشاعره وأحاسيسه - على اختيار جاى لوزجنان وصيا على المملكة ، فيقول ان هذا الاختيار قوبل بالرفض والغضب ، اما لأن بعض أمراء المملكة كانت لهم مطامعهم الشخصية ، واما لأن البعض الآخر - الذين غلبوا الصالح العام - رأوا ، أن جاى لوزجنان ليس الرجل الكفء الذى يتطلبه الموقف ، وأنه دون تحمل المسئولية . ولم يرحب بذلك الاختيار الا الذين رأوا فيه مصلحة خاصة لانفسهم . أما عامة الناس فقد كثر همسهم ، وتضاربت آراوءهم واختلفت كلمتهم ..." (٨).

---

(٧) William of Tyre; Vol.2, p. 446.

(٨) Idem, p. 493.

وهذا هو الرجل الذى قدر له أن يلى عرش مملكة بيت المقدس فى مرحلة من أخطر مراحل تاريخها ، وأن يخرج على رأس الصليبيين ليبارز صلاح الدين فى حطين .

ولا أدل على افتقار الصليبيين الى زعامة رشيدة فى الدور التمهيدى لموقعة حطين ، وعلى استهتار كبار الأمراء بالملك بلدوين الرابع ثم بالملك جاى لزوجنان - عندما تولى عرش المملكة - من سلوك ارناط أمير شرقى الأردن ، وهو السلوك الذى سبب كارثة نزلت بالصليبيين فى حطين . والمفروض فى ارناط أن يكون فصلا تابعا لملك بيت المقدس ، يأتمر بأوامره ويلتزم بتنفيذ توجيهاته . ولكن أرناط أخذ يتصرف - وبخاصة تجاه المسلمين وصلاح الدين - بطريقة استقلالية ، لاتخلو من رعونة وهوج ، متناسيا الظروف التى يمر بها الصليبيون فى مواجهة عدو قوى جمع فى قبضته بين مصر والشام .

وكان الملك بلدوين الرابع قد بادر بعقد هدنة مع صلاح الدين سنة ١١٨٠م ليأمن خطره [٩]، ولكن أرناط الذى عرف بالغدر ونقض المواثيق لم يراع تلك الهدنة فأخذ يعتدى على المسلمين ، بل لقد حاول غزو الحجاز وأوغل فى صحراء العرب حتى تيماء سنة ١١٨١ ، وهى التى وصفها صلاح الدين فى احدى رسائله الى الخليفة العباسى بأنها "دهليز المدينة" [١٠]ولم يعد أرناط من حملته الفاشلة الى مقره بالكرك الا بعد أن نهب فى طريقه قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق الى مكة ، وأسر رجالها . وكان أن غضب صلاح الدين ، وأرسل الى الملك بلدوين الرابع يشكو له فعل أرناط ، ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين . وعندئذ انزعج الملك بدوره

---

٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٦ هـ .
١٠) ابو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج٢ ص٠٢٣ .

وأرسل الى فصله أرناط يأمره برد الاسرى والمنهوبات الى صلاح الدين ولكن أرناط هزأ من الملك المريض ورفض الاستجابة لطلبه ، بل لقد أعلن أنه سيواصل سياسته وأنه لايتقيد بالهدنة التى عقدها سيده مع المسلمين (١١).

وكان أن استمر أرناط فى سياسته الطائشة ، فقام فى أواخر سنة ١١٨٢ بحملة فى البحر الأحمر ، أغار فيها على عيذاب على الساحل المصرى ، ثم انتقل الى شاطىء الحجاز ، وشرع فى الزحف على المدينة ، لولا أن لحق به الاسطول المصرى ورجاله ، مما اضطره الى الفرار بعد أن وقع معظم رجاله فى الأسر (١٢).

ولو كان هناك ملك قوى على عرش مملكة الصليبيين فى بيت المقدس ، لما جروء فصل من أفصاله على اتيان ما أتى به ارناط من افعال طائشة غير مسئولة . ولكن وجود ملك مريض لا حول له ولاقوة ، جعل كبار أمراء المملكة يتصرفون وكأنهم لا كبير لهم . وحدث ذلك فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين يدعم مركزه ، وينزل بالصليبيين ضربات متفرقة ،مرة فى شمال الشام ، وأخرى فى جنوبها ، وثالثة على الساحل ، ورأى المورخ وليم الصورى هذه الاحداث ، فلم يسعه الا أن يرسل زفرة حزينة قال فيها :

" كأن الله أراد أن يعاقبنا على آثامنا ، فدب الشقاق والخلاف بين الامراء والنبلاء مما انعكست آثاره على أوضاعنا . ولم يستطع خيرة أمرائنا حنكة وشجاعة أن يخفوا استياءهم لأن الملك المريض ترك زمام الامور فى هذه الظروف القاسية لجاى لوزجنان ، وهو فى نظرهم أمير مغمور محدود القدرات والمواهب .ولذا فانهم لم يتحمسوا لمحاربة صلاح الدين وتركوه يدعم جبهته ويعيث فسادا فى أراضى الصليبيين وممتلكاتهم .

---

١١) Chronique d'Ernoul, p. 52.

١٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٧٩ ومابعدها.

أما عامة الناس فانهم يتساءلون عن السر فى تقاعس أمرائهم وعدم تحمسهم لمحاربة صلاح الدين والحد من خطره." (١٣)

وفى تلك المرحلة الحساسة أخذ بعض بروتات المملكة يدسون لجاى لوزجنان عند الملك، الذى كان فى تلك المرحلة الخطيرة من مرضه على استعداد ليستجيب لأى اتجاه، فأخذ الملك يفكر فى اقصاء جاى لوزجنان عن الوصاية على المملكة. وكان أن تم ذلك، كما تم تعيين بلدوين الخامس - ابن الاميرة سيبل من زوجها الأول وليم مونتفرات - شريكا لبلدوين الرابع فى حكم المملكة ووريثا لبلدوين الرابع فى العرش(١١٨٣) وذلك للقضاء على أى أمل لجاى لزوجنان فى وراثة العرش (١٤). ولم يكتف بلدوين الرابع بكل ذلك، بل تمادى فى اظهار العداء لجاى لوزجنان، فسعى فى تطليق أخته سيبل منه، بل لقد رفض أن يسمح للملك بدخول عسقلان عندما حاول ذلك (١٥). وقد رد الملك على ذلك بعقد مجلس فى يافا أعلن فيه عزل جاى لوزجنان، واختيار ريموند الثالث - أمير طرابلس وطبرية - وصيا على المملكة وعلى بلدوين الخامس الصغير. وقد بادر ريموند بتعيين الأمير جوسلين الثالث دى كورتناى مشرفا على بلدوين الخامس، لأن الاخير كان معتل الصحة، فخشى ريموند عليه أن يموت فيتهم هو بالتخلص منه ليخلو له العرش.

والحق أن ريموند الثالث كان باعتراف المعاصرين جميعا أصلح شخصية لأن يوجه أمور الصليبيين فى تلك المرحلة الحرجة. وقد أثنى وليم الصورى على شجاعته وعقله. بل لقد أشار كتاب المسلمين الى مقدرته ومكانته، وذكر بعضهم أنه مرشح لشغل عرش المملكة. من ذلك أن الرحالة

(١٣ William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, 497.

(١٤ Idem, Vol. 2, p.p. 501-502.

(١٥ Idem, p. 507.

ابن جبير الذى زار بلاد الشام فى تلك الفترة - سنة ١١٨٤ قال عن الملك بلدوين الرابع أنه :

" محجوب لايظهر قد ابتلاه الله بالجذام ... وكبر الشان فى الافرنجية اللعينة القومس اللعين (ريموند الثالث) صاحب طرابلس وطبرية ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الافرنج، وهو الموءهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر."(١٦) ومهما يكن من أمر ، فان بلدوين الرابع المجذوم لم يلبث أن توفى فى مارس ١١٨٥ ، فتصرف الوصى ريموند الثالث بحكمة وتعقل ، وعقد هدنة مع المسلمين لمدة أربع سنوات (١١٨٥ - ١١٨٩) ، حتى يتمكن الصليبيون من تنظيم بيتهم .

على أن بلدوين الخامس لم يلبث أن توفى هو الآخر وهو فى التاسعة من عمره فى اواخر اغسطس ١١٨٦ . وعندئذ اتضح أن كثيرا من أمراء المملكة - فضلا عن هرقل بطريك بيت المقدس نفسه - كانوا يخشون بأس ريموند الثالث وسطوته ، ويفضلون أن يعتلى عرش المملكة ملك ضعيف من شاكلة جاى لوزجنان ، يسهل عليهم التلاعب به . وكان أن أخذ هوءلاء يتصرفون بسرعة ، فأقنع جوسلين دى كورتناى زميله ريموند بالذهاب الى طبرية لدعوة أمراء المملكة هناك بعيدا عن موءامرات المتآمرين ،فى حين تعهد جوسلين بنقل رفات بلدوين الخامس الى بيت المقدس لبدفن هناك . ولم يكد ريموند يرحل ، حتى انكشفت خيوط الموءامرة ، فأرسل جوسلين بعض القوات لاحتلال صور وبيروت ، فى حين بقى هو فى عكا ، واعلن سيبل - أخت بلدوين الرابع وزوجة جاى لوزجنان - ملكة . وسرعان ماسيطرت سيبل وزوجها جاى لوزجنان على بيت المقدس والموانى الساحلية ، وذلك بمساعدة جوسلين من جهة ، وهرقل بطرق بيت المقدس وارناط صاحب الكرك من جهة اخرى (١٧).

---

١٦) رحلة ابن جبير، ص٢٩٩ - تحقيق د. حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥)

١٧) Estoire d'Eracles (Rec. Hist. Cr. Occ.II. p.p.25-28.

أما ريموند ، فقد اتجه بسرعة الى نابلس ، والتف حوله عدد من الامراء ، وأعلنوا جميعا ان ماحدث لايتفق ووصية الملك بلدوين الرابع ، ولكن هرقل - بطرق بيت المقدس - بادر بتتويج سيبل وزوجها جاى لوزجنان فى كنيسة القيامة ، وعندئذ تسرب الامراء - واحد بعد آخر - الى بيت المقدس ليعربوا عن ولائهم للملك الجديد(١٨).

وهكذا حدث سنة ١١٨٦ - أى قبل حطين بأقل من عام ان أعتلى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ملك اختير لضعفه وتردده وعدم ثباته . وترتب على هذا الاختيار شرخ خطير فى الكيان الصليبى ببلاد الشام ، لأن أمير طرابلس - وشاركه فى ذلك بوهيموند أمير انطاكية - لم يقبلا ذلك الوضع ، فكيف كان ينتظر منهما أن يعملا باخلاص تحت زعامة جاى لوزجنان يوم حطين ؟؟

وعندما نذكر ريموند الثالث أمير طرابلس ، فانما نذكر أقوى امراء الصليبيين جمعا فى ذلك الدور - دور حطين - واكثرهم قدرة ، وأبعدهم نظرا ، ولم يستطع ريموند أن يصبر على ما أصابه من جرح عميق نتيجة لتتويج جاى لوزجنان ، وانما صمم على الانتقام ، وكان انتقامه عنيفا، خطير الاثر بالنسبة للجبهة الصليبية فى فجر حطين ، فأرسل الى صلاح الدين يطلب معونته ، " وانتمى اليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصر "(١٩) وفعلا أمده صلاح الدين بمعونة عاجلة ، مما جعل الملك جاى لوزجنان يرد على ذلك بحشد جيوشه فى الناصرة لمهاجمة طبرية ، وهى المدينة الصليبية التابعة لأمير صليبى يعتبر من الناحية التنظيمية فصلا لملك بيت المقدس . ولولا وساطة بعض أمراء الصليبيين بين

١٨) Runciman: A History of the Crusades, II, pp. 447-448.
١٩) ابن الاثير: كتاب الكامل - حوادث سنة ٥٨٢ هـ

جاى لوزجنان وريموند الثالث ، لحدث عندئذ صدام حربى بين هاتين القوتين الصليبيتين فى الوقت الذى كان صلاح الدين يعبأ قواته لخوض المعركة الفاصلة ضد الصليبيين جميعا . ومع ذلك ، فان ريموند لم يهدأ " فراسل صلاح الدين وانتمى اليه ،على قول المؤرخ المعاصر ابن الأثير.(٢٠)

وكان أن دارت حروب متقطعة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس فى ذلك الدور . ويأخذ وليم الصورى على الصليبيين فى تلك الحروب سوء تخطيطهم وعدم محاولتهم استغلال الظروف القاسية التى كانت تحيط أحيانا بصلاح الدين وجيوشه ، مثل قلة الزاد وندرة الماء فى بعض المواقف . بل لقد وصف وليم الصورى جيوش صلاح الدين عندئذ - قبيل حطين - بأنها تألفت من جموع كبيرة العدد تفيض حماسة ،ولكنها تفتقر الى الدراية بأساليب القتال وفن الحرب .

ولم يكن ريموند الثالث أمير طرابلس هو وحده الذى "قويت مناصحته للمسلمين وباين أهل ملته ، وبث السرايا فى بلادهم "(٢١)، وانما فعلت ذلك - قبيل حطين مباشرة - زوجة أمير انطاكية ، ذلك أن بوهيموند الثالث أمير انطاكية كان قد طلق زوجته البيزنطية تيودورا كومنين ، وتزوج من أخرى اسمها أورجليز سنة ١١٦٨ ثم لم يلبث أن هجر هذه الزوجة الاخيرة سنة ١١٨٣ وعاش بين أحضان زوجة ثالثة اسمها سيبل . ولم ترض الكنيسة ورجالها فى أنطاكية عن ذلك الوضع ، فصدر قرار الحرمان ضد الأمير بوهيموند واتهم بزواج اكثر من امرأة فى وقت واحد ، وهو ماتحرمه الكنيسة . ولكن بوهيموند لم يرضخ ، ووقع فى عداء مرير مع الكنيسة ، وربما مع المجتمع الصليبى فى بلاد الشام بأسرها

٢٠) المصدر السابق ، نفس السنة .

٢١) William of Tyre, Op.cit., Vol.2, p. 472.

أما زوجته الأخيرة سبل فقد عبرت عن نقمتها على الكنيسة وعلى المجتمع الصليبى كافة بالاتصال سرا بصلاح الدين ، واطلاعه على تحركات الصليبيين واسرارهم اولا بأول . يذكر ابن الأثير أنها " كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التى يوءثر علمها"(٢٢). أما أبو شامة فيقول : " وكانت امرأة ابرنس انطاكية - وتعرف بدام (مدام) سيبل فى موالاة السلطان (صلاح الدين) ، عينا له على العدو ، وتهاديه وتناصحه وتطلعه على اسرارهم ، والسلطان يكرمها لذلك ويهدى اليها انفس الهدايا (٢٣).

وهكذا حرمت مملكة بيت المقدس - قبيل حطين مباشرة - من معونة أقوى امارتين صليبيتين على مسرح بلاد الشام . حقيقة أن أميرى أنطاكية وطرابلس اضطرا تحت تأثير الرأى العام الصليبى الى الانضواء تحت لواء مملكة بيت المقدس فى معركة حطين ، ولكننا نشك فى أن اسهامهمافى تلك المعركة كان اسهاما جادا بنية خالصة وانما جاء ذلك تخوفا من اتهامهما بالتقاعس عن نصرة الصليب فى مواجهة خطر كاسح .

ويأسف وليم الصورى لأن الأمير ريموند الثالث أمير طرابلس أصيب قبيل موقعة حطين مباشرة - فى الوقت الذى كان صلاح الدين يحشد جيوشه لتلك الموقعة عند رأس الماء قرب طبرية - بحمى مفاجئة ، جعلت اسهامه فى معركة حطين اسهاما مبتورا ، مما حرم الصليبيين من جهوده وحسن بلائه (٢٤).

وخلاصة القول أنه اذا كانت موقعة حطين سنة ١١٨٧ قد دارت وبلاد الشام فيها ثلاث وحدات صليبية كبرى ، هى

---

٢٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٤ هـ .
٢٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣١ .
٢٤) William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, P.473.

مملكة بيت المقدس وامارتا انطاكية وطرابلس ، فان لنا أن نتصور مدى ما أصاب الجبهة الصليبية من تصدع نتيجة للشقاق الذى دب بين المملكة من ناحية والامارتين الصليبيتين من ناحية أخرى . وزاد من خطورة الأمر أن الشرخ امتد الى الهيئات الدينية التى كان عليها أن تقف الى جانب هذا الطرف أو ذاك من الاطراف المتنازعة . وقد رأينا أن هرقل بطرق بيت المقدس اختارقبل حطين مباشرة أن يقف الى جانب جاى لوزجنان ضد ريموند أمير طرابلس . واذا ذكرنا بطرق بيت المقدس ، فانما نعنى رجل الدين الاول فى المجتمع الصليبى بالشام ، الذى يترأس الكنيسة فى مدينة المسيح، ويشرف على كنيسة القيامة أم الكنائس المسيحية ، مما جعل لكلمته ورأيه وزنا فى قلوب جمهرة الصليبيين . حتى هيئات الرهبان الفرسان التى طالما أبلت فى محاربة المسلمين لم تستطع أن تظل بمنجاة من ذلك الصراع الداخلى ، فى الجبهة الصليبية ، فقام الداوية بدور ملحوظ فى تأييد قيام جاى لوزجنان ملكا وابعاد ريموند الثالث عن عرش بيت المقدس ، وهو أمر لم يغفره لهم امير طرابلس الذى كانت للداوية ممتلكات ومعاقل داخل حدود امارته وعلى مقربة منها .

وبالاضافة الى مكان هناك من شقاق بين امارتى انطاكية وطرابلس من ناحية ومملكة بيت المقدس من ناحية أخرى، وجدت هناك انقسامات داخلية فى كل وحدة من هذه الوحدات الثلاث . فكثير من أمراء المملكة المفروض فيهم أن يكونوا أفصالا واتباعا لملكها ، لم يكنوا له الاحترام الكافى . واذا كان بعضهم قد أيدوا قيامه فى الحكم فانهم فعلوا ذلك لاعتقادهم انه أسلس قيادة من ريموند أمير طرابلس . ويكفى أن نشير الى سلوك أرناط أمير شرقى الاردن الذى استمر حتى يوم حطين يعمل فى رعونة فى اتجاه مستقل ، غير عابىء بالتعليمات التى يصدرها الملك جاى لوزجنان ،

متبعا نفس السياسة التى اتبعها مع الملك بلدوين الرابع من قبل : هذا فى نظره ملك ضعيف غير ثابت الرأى مهتز الشخصية ، وذاك أيضا ملك ضعيف بسبب مرضه وعدم قدرته على مواجهة الظروف . وفى ليلة حطين جاهر ارناط الامير ريموند بعدائه ، واتهمه بانه يجامل المسلمين " ويريدهم ويميل اليهم ".(٢٥)

ولا أدل على التناقض داخل الجبهة الصليبية من أن امارة الجليل التى كانت جزءا من مملكة بيت المقدس والتى كان مفروضا فى أميرها أن يكون تابعا لملك بيت المقدس ، كانت بما فيها مدينة طبرية من ممتلكات ريموند امير طرابلس وألد اعداء ملك بيت المقدس .

أما انطاكية فكان اميرها بوهيموند الرابع فى عداء مرير مع الكنيسة ورجالها بسبب علاقاته النسائية . ويحكى وليم الصورى أن بوهيموند أمير انطاكية لم يعبأ لقرار الحرمان الذى أصدره بطرق انطاكيه ضده . "وانتقم لنفسه بالاساءة الى البطرق والاساقفة وسائر رجال الكنيسة ، كما انتهك حرمة المؤسسات الكنيسية فى امارته وكذلك المؤسسات الديرية واستولى على ممتلكاتها . وقيل انه شرع فعلا فى محاصرة البطرق ورجاله مما اضطرهم الى الهروب .." ولم يرض كثير من نبلاء انطاكية عن مسلك أميرهم ، فانشقوا عليه مما أوقع الامارة فى حالة سيئة من الفوضى أحدثت شرخا عميقا فى بنيانها.(٢٦)

هذه كلها تيارات داخلية مزقت الجبهة الصليبية قبيل موقعة حطين ، وكان لها أثرها فى تحديد مصير تلك الموقعة . بالاضافة الى هذه التيارات هناك عوامل أخرى مساعدة أسهمت

---

٢٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ

٢٦) William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, p. 454.

فى زعزعة الجبهة الصليبية فى تلك المرحلة . وعلى رأس هذه العوامل ينبغى ان نضع فى الاعتبار أن الاقدار شاءت أن تدور موقعة حطين فى وقت حرم الصليبيون من معونة أقرب القوى المسيحية اليهم ، وهى دولة الروم أو الدولة البيزنطية . ومهما يقل عن العداء المذهبى بين الصليبيين الغربيين الكاثوليك من جهة ، والروم البيزنطيين الارثوذكس من جهة أخرى ، ومن موقف القسطنطينية واباطرتها غير الودى من الصليبيين منذ وصول مقدمات الحملة الصليبية الاولى الى الشرق ، فان ثمة حقيقة ينبغى ألا تغيب عن انظارنا عند دراسة الحركة الصليبية ، هى أن الروح الدينية عند المسيحيين جميعا شرقيين وغربيين - كانت فى حلقات معينة من تاريخ تلك الحركة تسمو فوق مشاعر الكراهية المذهبية . وقد حدث اكثر من مرة أن تعاون الارمن مع الصليبيين ، ووضع الصليبيون الغربيون ايديهم فى أيدى الروم الارثوذكس ، وذلك على الرغم مما هو هناك من خلافات عميقة بين هذه الكنائس الثلاث . وكان محور التعاون فى تلك الحالات هو ضرب المسلمين سواء فى اقليم الجزيرة أو فى الشام أو فى مصر .

من ذلك أنه ماكاد نجم نور الدين محمود يبزغ على مسرح الشام ، وينجح فى ضم دمشق على طريق الجبهة الاسلامية سنة ١١٥٤ ، حتى بادر ملك بيت المقدس - بلدوين الثالث - الى محالفة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، وتأكد الحلف عن طريق زواج الملك من ابنة أخ الامبراطور . وكان أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقوم الامبراطور بحملة كبرى ضد حلب ، الأمر الذى أزعج نور الدين ، فارسل الى "ولاة الاعمال والمعاقل باعلامهم ماحدث فى الروم وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم"(٢٧) . ولم يكن

---

٢٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٤ ،
ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٢٣ .

نور الدين عندئذ قد فرغ منمشاكله في بلاد الشام ، فوافق على عقد هدنة مع الامبراطور واطلاق جميع من كان لديه من أسرى الصليبيين الذين تراوح عددهم بين ستة آلاف وعشرة آلاف .

ومرة أخرى ماكاد نور الدين محمود يثبت أقدامه في مصر ويستولى على الموصل مما جعل الجبهة الاسلامية المتحدة تمتد من الفرات الى النيل - حتى أحس الصليبيون فى الشام بأنهم غدوا مطوقين من الشمال والجنوب . وكان أن أبحر عمورى الأول ملك الصليبيين فى بيت المقدس الى القسطنطينية سنة ١١٧١ طالبا مساعدة امبراطور الروم فى فك طوق الحصار الاسلامى على الكيان الصليبى بالشام . وكان أن تم التوصل الى اتفاق يقضى بالقيام بحملة مشتركة ضد مصر لطرد قوات نور الدين منها وتأمين الجبهة الصليبية من ناحية الجنوب(٢٨)

ولم تحل وفاة عمورى الأول دون استمرار الاتصالات بين القسطنطينية وبيت المقدس ، وخاصة بعد أن ظهر صلاح الدين على مسرح الأحداث فى صورة القوة الضاربة التى أمسكت بزمام الامور فى مصر والشام ، والتى أخذت تكيل الضربات للصليبيين حينا فى شمال الشام وأحيانا فى جنوبه ، وفى هذه المرة جاءت الخطوة الاولى من جانب الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الذى أرسل سنة ١١٧٧ سفارة الى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس المريض ، يعرض عليه احياء فكرة القيام بحملة مشتركة ضد مصر . ولكى يكسب الأمير عرضه صفة جدية ، أرسل الى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين للمشاركة فى غزو مصر . ولكن الروم لم يلبثوا أن لمسوا عدم جدية الصليبيين فى التنفيذ بسبب مرض ملك بيت المقدس واضطراب امور المملكة الصليبية ، فسحبوا اسطولهم (٢٩) .

---

٢٨) William of Tyre: Op.cit., Vol. 2, p.361.

٢٩) Idem, p. 369.

وبهذه الروح ظلت دولة الروم والدولة البيزنطية تشكل درعا للصليبيين بالشام فى فترات متقطعة ، رغم ماطفى على سطح العلاقات بين الطرفين أحيانا من عداوات بسبب الخلاف المذهبى حينا وبسبب مشكلة أنطاكية احيانا. ويثنى المؤرخ المعاصر وليم الصورى على امبراطور القسطنطينية مانويل كومنين ويمتدح سياسته تجاة الصليبيين وحبه للكاثوليك الغربيين وتسامحه معهم ، حتى غدت بلاده مقصد الكثيرين من كافة انحاء الغرب الكاثوليكى(٣٠).

ولكن شاءت الظروف أن تنقلب الأوضاع رأسا على عقب قبيل حطين ، اذ توفى الامبراطور مانويل كومنين المتعاطف مع الصليبيين ضد المسلمين سنة ١١٨٠ ، فخلفه لمدة ثلاث سنين ابنه الامبراطور ألكسيوس الثانى كومنين(١١٨٠ - ١١٨٣) وكان ألكسيوس هذا صبيا فى الثالثة عشر من عمره عندما اعتلى عرش الامبراطورية ، فقامت بالوصاية عليه أمه وابن عمه . وفى تلك الفترة القصيرة حدث تحول جذرى فى سياسة الامبراطورية تجاه المسلمين والصليبيين جميعا ، فتم ارسال مبعوث من القسطنطينية الى القاهرة سنة ١١٨٠ - ١١٨١ عقد صلحا مع صلاح الدين . وفى هذا الصلح أطلق الامبراطور الجديد سراح مائة وثمانين أسيرا من أسرى المسلمين كانوا فى حوزة الروم (٣١).

ثم كان أن حدث الانقلاب الكبير فى فجر موقعة حطين، اذ قامت ثورة عنيفة فى دولة الروم أو الدولة البيزنطية ، شارك فيها بعض كبار رجال الدولة ، وتزعمها اندرونيق كومنين الذى تمكن من اعتلاء عرش الامبراطورية (١١٨٣- ١١٨٥)

---

(٣٠) Idem; Vol.2, p. 461.

(٣١) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص٧٣ .

ومنذ اللحظة الاولى أظهر أندرونيق عداء شديدا للكاثوليك الغربيين ، فطاردهم فى شتى أنحاء دولته ، واضطروا الى الفرار فى السفن الى الجزر والبلاد القريبة مما انعكست صورته بوضوح على العلاقة مع الصليبيين بالشام (٣٢) .

وزادت العلاقات سوءا بين دولة الروم والصليبيين بالشام عندما اعتلى عرش الامبراطورية اسحق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ - ١١٩٥) وهو الامبراطور الذى واكب عهده أحداث حطين ، فاستمر على سياسة سلفيه المباشرين فى الحفاظ على حسن العلاقة مع صلاح الدين من ناحية ومعاداة الصليبيين الكاثوليك من ناحية أخرى . ولانبالغ عندما نقول ان هذا الامبراطور نظر بعين الارتياح الى ماحل بالصليبيين فى حطين ، وما أعقب ذلك من استيلاء المسلمين على بيت المقدس ، لأنه رأى فى ذلك فرصة لاستعادة هيمنة الكنيسة الارثوذكسية على الأماكن المسيحية المقدسة .

وقد تواتر فى المصادر المعاصرة أن صلاح الدين بادر عقب فتحه بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس تخبره بما تم على يديه من الفتوح ، وليسلم اليه مائة وتسعين من رعايا الدولة البيزنطية كانوا قد وقعوا فى يده أثناء حروبه ضد الصليبيين . وكان أن رد عليه الامبراطور البيزنطى مهنئا (٣٣) مطالبا بوضع كنيسة القيامة وغيرها من الاماكن المسيحية المقدسة تحت اشراف رجال الدين الارثوذكس الذين تعينهم حكومة القسطنطينية ، وبعقد اتفاق بين صلاح الدين والامبراطور "على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه" (٣٤)

---

٣٢) William of Tyre: Op.cit., Vol.2,p.p.466-467

٣٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ص ٩٨ .

٣٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤٠

هذا هو موقف دولة الروم أو الامبراطورية البيزنطية وحكامها من الصليبيين والمسلمين ابان معركة حطين ...... ورحم الله سياسة الامبراطور مانويل كومنين الذى صاهر ملك بيت المقدس الصليبى والذى دخل معه فى مشاريع لضرب المسلمين فى مصر والشام ، بل الذى أرسل فعلا قوة بحرية ضاربة الى عكا لمشاركة الصليبيين فى غزو مصر .

ولكن هكذا شاءت الاقدار أن يدخل الصليبيون معركة حطين وقد حرموا من مساعدة أقرب القوى المسيحية فى الشرق اليهم . وبعبارة أخرى ، فان الصليبيين خاضوا معركة حطين وهم مقطوعون عن بقية العالم المسيحى ، ففى الشرق لا حليف ولا نصير ، ومركزهم فى الغرب بعيد فى عصور ضعفت وسائل الاتصال والانتقال ، بحيث لم يسمع الغرب باخبار حطين الا بعد أن وقعت الواقعة .

لقد كان الصليبيون فى الشام أشبه بجزيرة منقطعة وسط محيط اسلامى واسع . وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يستطيع الاعتماد على ركائز قوية فى مصر وفى اقليم الجزيرة فضلا عن شمالى الشام ، كان الصليبيون فى بلاد الشام بعيدين عن نجدة سريعة تنقذهم مما هم فيه . وقد حدث أكثر من مرة أن أرسل صلاح الدين وهو بالشام الى نائبه بمصر يأمره بالخروج على رأس الجيوش من مصر للضغط على الجبهة الصليبية من ناحية الجنوب (٣٥).

كذلك كانت الاساطيل المصرية فى موانى دمياط والاسكندرية رهن اشارة صلاح الدين لتخرج الى مياه الشام تساعده فى احكام الحصار على مدينة ساحلية أو تخفف وترفع الحصار عن مدينة أخرى تعرضت لهجوم الصليبيين (٣٦). أما الصليبيون فكانوا لايستطيعون الحصول على معونة من الغرب

---

٣٥) William of Tyre: Vol.2, p. 476.
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٥٧.

٣٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

الا بعد اتصالات قد تستغرق أشهرا طويلة . وهذه كلها دون شك عوامل ساعدت فى تحديد مصير الصراع الذى دار بين قوات صلاح الدين والصليبيين فى حطين .

* * *

وبعد ، فانه من حق شهداء حطين وأبطالها علينا أن نترحم عليهم ، وأن نمجد روح الجهاد فى سبيل الله التى دفعت المسلمين - أتراكا واكرادا وعربا وتركمان - الى الوقوف يوم حطين جنبا الى جنب كأنهم بنيان مرصوص، ترفرف من فوقهم راية لا اله الا الله محمد رسول الله ، وقد نبذوا جميعا وراء ظهورهم متاع الحياة الدنيا ، وهجروا ديارهم واولادهم ونساءهم ، لايذكرون شيئا الا الجهاد والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله ... حتى حقق الله لهم النصر والفتح المبين .

ولكن من حق التاريخ علينا أيضا ألا ننسى وجود عوامل مساعدة أسهمت فى تحديد مصائر معركة حطين . ومرة أخرى نقول ان التاريخ لاينبغى مطلقا أن ننظر اليه بعين واحدة . التاريخ الصادق له عينان .

* * *

مئذنـة بلا مسجـد

دراسة عن المئذنة المستقلة المنسوبة الى جامع الامير قراقجا الحسنى بحارة السادات المتفرعة من درب الجماميز بالقاهـرة

د. حسنى نويصـر
كلية الآثار - جامعة القاهرة

تمهيـد :

ورد بكراسات لجنة حفظ الاثار العربية معلومات هامة عن المئذنة المنسوبة الى جامع الامير قراقجا الحسنى الذى يرجع تاريخه الى سنة ٨٤٥ هـ بدرب الجماميز بالقاهـرة . وهي معلومات تلقى الضوء على وضع هذه المئذنة وماحولهـا من مساكن حديثة لاتمت بصلة الى المئذنة أو المسجد الاثرى.

فقد ذكر فى تقرير اللجنة رقم ٣٤٩ مجموعة ٢٣ لسـنة ١٩٠٦ م مايلـى :-

" عرض على القسم الفنى بلجنة حفظ الاثار العربية طلب من شخص يدعى عثمان حسن للترخيص له ببناء بيت ملاصق لمنـارة الجامع . وحيث أن البيت يحيط بالمنارة من جوانب ثـلاث والجهة الرابعة مطلة على حارة السادات ، وحيث أن المئذنة منفصلة عن الجامع ، وحيث كان دخولها فى بناء ملك الغيـر مما تكثر مضاره ، فضلا عن تعذر الوقوف على ماطرأ علـى أساساتها من أسباب الخلل والسقوط وأستحالة اجراء عمليات المرمة والتقويـة .

لذلك يرى القسم الفنى عدم الترخيص بأى بناء جديـد متصل بالمنارة والنظر فى عزلها عن البناء .

ويستطرد التقرير فيذكر أن بناء المنارة غريب فـى بابه بل نادر لانها منعزلة عن الجامع بواسطة الحـارة وتتصل به عن طريق معبره مطروحه فوق سطح الجامع ،وكانـت

هذه الحارة من الحوارى التى تغلق قديما بواسطة بـــــاب لاتزال آثاره موجودة فى سفل المنارة والجامع . وحيــث أن التنظيم المزمع وضعه يأخذ جزءا من الواجهة البحرية للجامع وجانبا من الواجهة البحرية للمنارة لتركهــا بارزة فى وسط الطريق ،لذلك ولحرص القسم على حفظ هذيــن الاثرين مما يرى أن يطلب من نظارة الاشغال تعديل خــط تنظيم الحارة واعتبار واجهة الجامع حدا من الجهــة القبلية تبعا لذلك الحد المقابل من الجهة الاخرى وتبعــد بعدا كافيا عن الواجهة البحرية للمنارة . وفى هذه الحالة تنزع ملكية القطع المجاورة من جميع الجهات الا الجهــة القبلــة . فاذا لم توافق مصلحة التنظيم على ذلك تنــزع ملكـــة قطعة من الارض بعرض ٥ر١ م من جوانب المنارة الثلاث لاجل أنعزالها تماما .

وفى التقرير رقم ٣٥٩ لسنة ١٩٠٦ م الفقرة (٥) محضر ١٤٧ ص ٩٠ ـ عدلت نظارة الاشغال العمومية خط التنظيــم حول المنارة وأبقتها خالية من جوانبها من الابنية علــى مسافة متريــن .

الدراســـة

يجمع كل من تناول جامع الامير قراقجا الحسنى بالبحث[1] على ربط المئذنة التى تقع بالجهة المقابلة له على حارة السادات ـ بمنشات الجامع الكبير الذى شيده الامير قراقجا

(١) على مبارك : الخطط التوفيقيــة جـ ٥ ص ٧٦
،سعاد ماهر (الدكتورة) : مساجد القاهرة جـ ٤ ص ١٤٢
عبد اللطيف أبراهيم (الدكتور) : وثيقة الامير قراقجا الحسنى ـ دراسة ونشر وتحقيق المجلد ١٨ جـ ٢ صفحات ١٨٣ ـ ٢٥١ ديسمبر ١٩٥٦ م.
حسن جوده (الدكتور) : مساجد أمراء جقمق صفحـــات ٣٨ ـ ٣٩ .
Abou - Seif (D.), The minarets of Cairo, p. 124, fig. 58.

الحسنى عام ٨٤٥هـ ١٤٤١ / ٤٢م أثر رقم ٢٠٦ وذلك على الرغم من أنه يفصل بين المئذنة والجامع حارة السادات.

ويعزو البعض هذا الانفصال[٢] بين بدن المئذنة وبقية مساحة الجامع بعدم وجود موقع متميز أو ممكن لبناء المئذنة ضمن المساحة الكلية للجامع [٣]. ولكن بدراسة وثيقة الامير قراقجا الحسنى التى قام بنشرها أستاذنا الفاضل الدكتور عبداللطيف أبراهيم [٤] سنة ١٩٥٦ م - تبين لى أن هذه المئذنة لاتخص الجامع الكبير الذى شيده الامير قراقجا الحسنى بل كانت ضمن كيان آخر عبرت عنه وثيقة الامير بأنه " مسجد[٥] وسبيل " . وكان هذا المسجد من النوع المعلق الذى يصعد اليه بعدد من الدرج وفى أسفله عدد من الحوانيت[٦] كما أنه كان يشتمل على سبيل [٧] ظل موجودا حتى العصر الحديث . وقد أندثر المسجد وكذا السبيل الملحق به بينما بقيت المئذنة صامدة الى اليوم . ومن خلال الدراسة التى أقدمها فى هذا البحث سأحاول أن أثبت أن المسجد المعلق القديم هو صاحب المئذنة وليس جامع قراقجا الكبير كما هو متفق عليه بين جمهرة الاثريين وذلك للاسباب التالية : -

---

(٢) حسن جوده (الدكتور) : المرجع السابق ص ٤٠

(٣) تعجب المرحوم حسن قاسم من ذلك فقال" يلفت النظر فى هذا المسجد (يقصد قراقجا) مئذنته الظاهرة الغريبة فى استقلالها عن الجامع وخروجها عنه مباشرة مما لايوجد لدينا نظيره الافى جامع منجك بالحطابة وجامع شمس الدين بالمحلة . وهذه المئذنة وان كانت تظهر فيها بعض المخالفة عن المألوف من مآذن العصر الا أن الادعى للتأمل فيها استقلالها (انظر) : حسن قاسم : المزارات ص ١٠٩ ، محمد عبدالستار (الدكتور) نظرية الوظيفة بالعمائر الدينيه ص ٢٤٥

(٤) انظر الحاشية رقم (١) من هذا البحث .

(٥) الوثيقة : سطر ٦١

(٦) الوثيقة : سطر ٥٦

(٧) على مبارك : الخطط جـ ٣ ص ١١

أولا : من حيث الموقـــع :ـ

يوصف موقع جامع قراقجا الحسنى فى وثيقة الامير بأنه " بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابى زويلة والخرق بخط المسجد المعلق[(٨)] بدرب القسامة على يمنة السالك من درب النيدى طالما جامع بشتاك وغيره " .
وفى عصر بناء الجامع (سنة ٨٤٥هـ) كان يتوصل الى خط المسجد المعلق عبر قنطرة " طقزدمر[(٩)] " التى يتوصل منها الى البر الغربى للخليج المصرى والى حكر طقز دمر . ثم عرفت هذه القنطرة بعد ذلك بقنطرة " درب الجماميز[(١٠)] ". ولما ردم الخليج عام ١٨٩٨م أختفت هذه القنطرة . وموقعها اليوم عند نقطة التقاطع بين شارع بورسعيد[(١١)] مع شارع درب الجماميز وشارع السلطان الحنفى بالقرب من حى السيدة زينب . ومن الواضح أن المسجد المعلق كان أقدم فى بنائه من جامع قراقجا الكبير بدليل أن موقعه يتعين من خلال المسجد المعلق[(١٢)] .ولكن الى من ينسب المسجد المعلق صاحب هذا الخط الذى عين موقع قراقجا الحسنى عليه اختلفت الروايات فى نسبة هذا المسجد المعلق وموقعه ، فذكر على باشامبارك[(١٣)] أن المقصود بالمسجد المعلق

---

(٨) الوثيقة : سطور ١٢ : ١٣
(٩) يذكر المقريزى فى خططه أن هذه القنطرة على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق (انظر) الخطط جـ ٢ ص ١٤٧ أنشاها الامير طقزدمر الحموى أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون ليمر من عليها الى حكره ، وتزايدت العماره فى هذا المكان بعد بناء القنطرة فسكن به الاجناد وكثر بناء المساجد فيه . الخطط جـ ٢ ص ١١٦ : ١١٧.
(١٠) عبدالرحمن زكى (الدكتور) : القاهرة تاريخها وآثارها ص ١١٩ .
(١١) محمد رمزى تعليقات بحواشى النجوم الزاهرة
(١٢) الوثيقة : سطور ١٢ : ١٣
(١٣) على مبارك : الخطط جـ ٤ ص ٧٩ .

الوارد فى المصادر التاريخية هو جامع "حارس الطير(١٤)". الذى بناه الامير سيف الدين أستبغا فى عصر الناصر محمد(١٥) بن قلاوون، وأن هذا الجامع - كان - بدر الجمامبز وله منارة وبجواره ثلاثة حوانيت موقوفة عليه وشعائره مقامة. وعدة المقريزى من الجوامع التى تجددت بعد الثمان مائة، وموقعه فى رأس حارة السيدى.

وقد وافقه على هذا الرأى أستاذى الدكتور عبد اللطيف ابراهيم(١٦). بينما يرى المرحوم حسن قاسم(١٧) أن منشىء المسجد المعلق هو الامير بكتمر السعدى المعروف بحارس

---

(١٤) أورد على مبارك ترجمة لهذا الامير نقلا عن المقريزى حينما تكلم عن دار حارس الطير استبغا الذى ترقى فى الخدمة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون الى أن صار نائبا للسلطنة فى عصر الناصر حسن، ثم عزله، ثم تعين بعد ذلك فى نيابة غزة فأقام بها شهرا، ثم قبض عليه واحضر مقيدا الى الاسكندرية سنة ٧٥٢هـ فسجن بها، ثم اخرج فأقام بها بطالا، ثم نقل الى نيابة غزة سنة ٧٥٦هـ (انظر) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٧٩ .

(١٥) حكم مصر ثلاث فترات هى: ٦٩٣هـ، ٦٩٨ هـ، ٧٠٩: ٧٤١ هـ ١٢٩٣م، ١٢٩٩م، ١٣١٠: ١٣٤٦م (انظر) احمد السعيد سليمان (الدكتور): تاريخ الدول الاسلامية ص١٦٢ أما عن وظيفة حارس الطير التى تكلم عنها المقريزى فانه لم يرد لها كتابات منقوشة على الاثار وذلك لقلة شأن هذه الوظيفة. وقد أورد عنها أستاذى الدكتور حسن الباشا مرادفا لهذه الوظيفة باللغة الفارسية فذكر أن "حواندار" أصله "حيوان" العربية ودار الفارسية بمعنى ممسك والمعنى الكلى ممسك الحيوان، والجمع "حواندارية" وهو من ارباب الوظائف من الاتباع والحواشى والخدم. وعرفت هذه الوظيفة فى العصر المملوكى وكان صاحبها يتصدى لخدمة طيور الصيد من الكراكى وغيرها ويحملها الى مواضع تعليم الجوارح (انظر) : حسن الباشا: الفنون والوظائف ج١ص٤٣٦

(١٦) عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور): المرجع السابق ص ٢٢٢ تحقيق رقم ٤ . عبد الرحمن زكى (الدكتور): موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٢٨.

(١٧) حسن قاسم: المزارات ص ١٣٥ .

الطير المؤيدى[١٨] ثم الاشرفى[١٩] سنة ٨٢٦ هـ وذلك استنادا الى معلومة وردت عن أحد شيوخ هذا المسجد التقطها من المؤرخ السخاوى[٢٠] حيث ذكر أن "الشيخ عبد القادر بن عمر عين فى مشيخة بكتمر بدرب النيدى مما يؤكد - من وجهة نظر الاستاذ حسن قاسم - أن المقصود بحارس الطير هو الامير بكتمر السعدى .

وأورد لنا صاحب كتاب النجوم الزاهرة[٢١] ترجمة وافية للامير بكتمر السعدى فذكر "انه أحد أمراء الطبلخانات - أمير أربعين - بالديار المصرية ، رومى الجنس ، تربى فى دار استاذه سعد الدين[٢٢] بن غراب ، وأنه كان فقيها بارعا فى العربية والتركية شجاعا عارفا بالفروسية توفى يوم الخميس ١٣ ربيع الاخر سنة ٨٣٠ هـ .

وحدد الاستاذ حسن قاسم[٢٣] موقع المسجد المعلق - من وجهة نظره - بأنه فى مقابل جامع وسبيل يوسف الكردى أثر رقم ٢١٣ الى جانب المنزل رقم ١٠ وأنه متخرب وأطلاله ماثلة . وفى تصورى أن الاستاذ حسن قاسم قد جانبه الصواب أيضا فى تحديد موقع المسجد المعلق وكذا تحديد صاحبه أو منشئه .

---

(١٨) المؤيدى نسبة الى السلطان المؤيد شيخ المحمودى .
(١٩) الاشرفى نسبة الى السلطان الاشرف برسباى الدقماقى .
(٢٠) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٢٨٢ .
(٢١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ١٥ صفحات ١٤٧ : ١٤٨
(٢٢) لهذا الامير خانقاه بشارع بورسعيد باقية (انظر) فهرس الاثار الاسلامية تاريخها ٨٠٣/٨٠٨هـ - ١٤٠٠/٠٦م من فترة حكم السلطان فرج بن برقوق اثر رقم ٣١٢ .
(٢٣) حسن قاسم : المزارات ص ١٣٥ .

فمن حيث صاحبه فهو الامير قراقجا الحسنى الذى دلت حجة وقفه على جلدمة الكبير على أنه هو نفسه صاحب المسجد المعلق ومن انشائه .

وأما موقعه أى المسجد المعلق فكان فى موقع المئذنة المتبقية منه ، وكان لهذا المسجد واجهتين أحداهما تطل على الشارع السالك[٢٤] (درب الجماميز) الحالى والاخرى تطل على درب جهركس[٢٥] أو (حارة السادات) الحالية .

وفى الدراسة التالية سأفرد السطور التى وردت بوثيقة الامير قراقجا الحسنى والتى سبق أن نشرها أستاذى الفاضل الدكتور عبد اللطيف أبراهيم[٢٦] بما يفيد فى تحديد آسم منشىء هذا المسجد وكذا موقعه بما نصه :-

سطر ٤٩ .... وجميع المكان الكامل

سطر ٥٠ أرضا وبناء انشاء الواقف المشار اليه فيه وعمارته الكاين بالخط المذكور تجاه المكان الموصوف[٢٩].

---

(٢٤) الوثيقة : سطر ٥١
(٢٥) الوثيقة : سطر ٥٦
(٢٦) أنظر الحاشية رقم (١) من هذا البحث .
(٢٧) تفيد هذه العبارة أن هذا المكان بكامله من انشاء الامير قراقجا الحسنى وليس مرمة أو تجديدا بل هو انشاء جديد .
(٢٨) المقصود بذلك الخط هو خط المسجد المعلق (أنظر الحاشية رقم ٩ من هذا البحث)
(٢٩) يقصد الكاتب بذلك الجامع الكبير الذى شيده الامير قراقجا الحسنى عام ٨٤٥ هـ ولايزال موجودا بحالة طيبة بشارع درب الجماميز أثر رقم ٢٠٦

سطر ٥١ المحدود أعلاه يشتمل على واجهتين مسننين بالحجر الفص النحيت[٣٠] أحداهما شارعة بالطريق السالك بها بابان .

سطر ٥٢ أحدهما مربع[٣١] بعتبه سفلى كدانا وعليا حجر[٣٢] ما، عليه فردة باب يدخل منه الى سلم يصعد من عليه الى .

---

(٣٠) الحجر الفص النحيت : نوع من الحجر المهذب استعمل فى العمائر المملوكية ذات الشأن يكون على هيئة مداميك من اللونين الابيض والاحمر ، وقد ورد فى معظم وثائق عصر المماليك التى تناولت وصف المعمار (انظر) . عبد اللطيف أبراهيم (الدكتور) : المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٣١) الباب المربع : هو الباب ذو العقد المستقيم أوالعتب المستقيم أى ليس مقنطرا عبد اللطيف أبراهيم (الدكتور) دراسات تاريخية وأثرية ص ٣١ ، ٧١ .

(٣٢) يقصد الكاتب بذلك أن العتب العلوى كان من الحجر الملبس بالرخام ، وقد ورد هذا المصطلح بعدة صيغ أخرى منها عتب موشح بالرخام - عتب ملبس بالرخام - حفر وتنزيل - حفر ودفن . وكانت العادة رسم الشكل المطلوب على الحجر والرخام ثم ازالة طبقة منه عمقها ٥ رسم ، ثم ينزل الرخام مكانها ملصقا على وسادة من الجص (انظر) عبد اللطيف أبراهيم (الدكتور) وثيقة قراقجا ص ٢٢٤ .
وقد عرفت هذه الطريقة فى عصر السلطان برسباى واستعاض المعمار بها عن التلبيسات الرخامية الحقيقية لغلو ثمنها وصعوبة تنفيذها فبدأت تظهر على منشات الامراء أمثال جانى بك فى مسجده بالمغربلين (٨٣٠هـ - ٢٧/١٤٢٦ أثر رقم ١١٩ ومدرسة الامير فيروز الساقى بحارة المنجلة (٨٣٠هـ - ٢٧/١٤٢٦ أثر رقم ١٩٢ ، كما توقيع لواحد من صناع هذه الطريقة الذين عاشوا فى العصر المملوكى الجركسى هو " عبد القادر النقاش " الذى وقع باسمه على ايوان القبلة بمسجد قجماس الاسحاقى بالدرب الاحمر (٨٦/٨٨٥ هـ - ٨١/١٤٨٠م) أثر رقم ١١٤ (انظر) : حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد جـ ٢ شكل ٩٦. غير أن هذه الطريقة أفسدت كثيرا من الواجهات الاثرية بسبب تساقط مادة المعجون لتعرضها للشمس والرطوبة (انظر) حسنى نويصر : مدرسة الامير فيروز الساقى ص ١٧٧ شكل ٦ .

سطر ٥٣ ثلاثة أروقة يشتمل كل منها على منافع [٣٣] وحقوق وطبقة [٣٤] مرجلة [٣٥] وأغانى [٣٦] وسطح ومرحاض مسقف نقيا

سطر ٥٤ مدهون حريريا مفروش الارض بالبلاط مسبل للجدر بالبياض [٣٨] بطاقات مطلات على الطريق سفل ذلك حانوتان .

---

(٣٣) هى المرافق الخدمية التى تلحق دائما بالمناطق السكنية من دورات المياه والحمامات ودخلات الازيار وما الى ذلك مما يحتاجه المقيم .

(٣٤) الطبقة : تكون غالبا حجرة أو خزانة أو حجرتين للنوم توجد بهما طاقات للتهوية والاضاءة ، وقد يعلو الطبقة مسروقة . عبد اللطيف ابراهيم : المرجع السابق ٢٩

(٣٥) الطبقة المرجلة : هى طبقة مرتفعة قليلا بلاسلم أولعلها طبقة فيها رسوم حائطية ذات صور للرجال (انظر) المرجع نفسه : ص ٢٣٤ . وقد يكون المقصود بذلك (طبقة مرحلة) بالحاء أى بعيده عن بقية المنطقة بمعنى أن تكون منعزلة عن بقية الاروقة .

(٣٦) الاغانى وجمعها أغانيات : لهذا المصطلح عدة أشكال منها ممرات علوية ذات مقاعد خلف نوع من المشربيات الخشب الخرط تحجب الجالس خلفها ، وتكون متقابلة وتطل على الدور قاعة أو الايوان الذى تعلوه . وقد تشتمل الاغانى على حجرات صغيرة ذات طاقات ومرحاض . وكانت تفرش بالبلاط وتسبل جدرها بالبياض وتسقف بالخشب . وقد تطل الاغانى من ناحية أخرى على الشارع وعلى حديقة - المرجع السابق ص ٢٣٢ . والاغانى فى هذا الاثر الدارس كانت تطل على حوش كشف حوله عدد من الحواصل.

(٣٧) الدهان الحريرى : مصطلح عند أرباب التجارة يدل على جودة الصناعة ودقة التلوين فالسقف أملس كالحرير ويرجع ذلك الى استعمال الزيت فى دهان الخشب المصقول وبعد أن يمتص الخشب الزيت يرسم على سطحه الزخارف النباتية والهندسية الملونة ثم يغطى بطبقة رقيقة من الشمع تجعله أملس كالحرير . المرجع السابق ص ٢٣٢ : ٢٣٣ .

(٣٨) المقصود بمصطلح مسبل الجدر بالبياض أى مغطى بالملاط المرجع السابق ص ٢٣٤ .

سطر ٥٥ وبهذه الواجهة أيضا حانوتان ويشتمل كل من الحوانيت المذكورة على مصطبة [٣٩] وداخل وأغلاق والواجهة

سطر ٥٦ الثانية بدرب جهركس [٤٠] بها بابان أحدهما مربع بعتبة سفلى كدانا وعليا حجر ماء يدخل منه الى دهليز يتوصل منه .

سطر ٥٧ الى مسجد [٤١] والى سبيل [٤٢] به صهريج [٤٣] مبنى فى تخوم الارض على فوهته [٤٤] خرزه رخاما بسقف معرق بالذهب وهو معقود ثلاث

---

(٣٩) كانت الحوانيت فى العصور الوسطى غير مسامته للطريق العام بل لها أرضية مرتفعة عنه بمقدار متر على هيئة مصطبة يفرش عليها البائع بضاعته ويغلق على واجهة الحانوت أبواب تستخدم فى بعض الاحيان كمظلة للحانوت تحميه من حرارة الشمس ومطر الشتاء . وكانت المصاطب تبنى من الحجر أو من الاجر. وكان المحتسب يراعى نظافتها وعدم خروجها على خط التنظيم حتى لايضر المار ولا الجار (انظر) عبداللطيف أبراهيم (الدكتور) : المرجع السابق ص ٣٢٤ .

(٤٠) المقصود بذلك الدرب حاليا حارة السادات المتفرعة من شارع درب الجماميز .

(٤١) هذا هو المسجد المقصود ،وهو مسجد معلق كما سيأتى في سطور الوثيقة ، يوجد بأسفله عدد من الحوانيت سأتناولها بالافراد فى هذا البحث .

(٤٢) كان هذا السبيل موجودا حتى زمن على مبارك (١٨٢٣/ ١٨٩٣م) وذكره فى خططه جـ ٣ ص ١١ الا أن هذا السبيل غير موجود حاليا وأن أخبرنى بموقعه بعض المسنين من أهل المنطقة وهو نفس الموقع الذى حددته الوثيقة الشرعية للامير قراقجا الحسنى (انظر) المسقط الافقى بشكل ٣ من هذا البحث .

(٤٣) يتكون السبيل من ثلاثة مستويات أولها الصهريج ويبنى فى تخوم الارض وثانيها حجرة التسبيل المعدة للشرب والثالث يكون كتاب لتعليم أيتام المسلمين . ويغطى الصهريج عادة قباب ضحلة مقامة على قناطر وأكتاف (انظر) : حسنى نصير : مدرسة جركسية ص ٣٢ حاشية (٥)

(٤٤) الخرزة : قطعة مستديرة من الحجر أو الرخام يغطى بها فوهة الصهريج (انظر) حسنى نويصر: سبيل السلطان قايتباى ص ١٢ .

سطر ٥٨ قبب وقنطرتان وبالمسجد المذكور محراب لطيف(٤٦) قوصرة كريدى (٤٧) مغرق (٤٨) بالذهب وبه شـــلات كتبيات(٤٩) وشباكان حديد!

سطر ٥٩ يعلو ذلك قمريات (٥٠) زجاجا وبالسبيل المذكـــور شباك كبير برسم سقى الماء يعلوه شرفات خشـــبا مدهون ويعلوا

---

(٤٥) تسمى قباب الصهاريج فى الوثائق المملوكية بالقباب المقالى وهى من النوع الضخل تحمل على قناطر وأكتاف عبد اللطيف أبراهيم الدكتور : دراسات فى الاثار ص ٤٦١

(٤٦) المقصود بذلك أن المحراب صغير على واجهته حنيـــة معقوده (قوصرة) كما توضع على واجهة الايوان قوصرة كبيرة من الحجر المشهر . عبد اللطيف أبراهيم : وثيقة قراقجا الحسنى ص ٢٣١ .

(٤٧) الكردى : حلية كانت تستخدم لتزيين الايوانات فيوجد على المدخل كردسان متقابلان متماثلان يحملان معبـــرة من الخشب ، وينتهى الكردى بذيل مقرنص أو تاريـــخ أو خورنق وقد يكون ساذج بدون قرنصة . عبد الطيـــف أبراهيم (الدكتور) دراسات ص ٤١ . والحق أن كانت الوثيقة لم يوفق فى التعبير عن هذه المنطقة فظهرت العبارة غامضة حيث أدمج القوصرة مع الكردى مـــع أن القوصرة خاصة بالمحراب والكردى خاص بالواجهـــة التى تطل على الصحن أو المجاز . وقد عرف هذا النوع من الكرادى فى عصر السلطان برسباى فظهر فى منشآت بعض أمرائه مثل الامير فيروز الساقى فى أيوان القبلة حسنى نويصر : مدرسة فيروز ص ١٧٢

(٤٨) مغرق بالذهب : مصطلح يفيد أن هذه الكرادى الخشبيـــة جلدت بالتذهيب .

(٤٩) الكتبية : جمعها كتبيات وهى الدواليب الحائطة فـى المسجد أو المدرسة لحفظ المصاحف والمربعات الشريفـة (أنظر) وثيقة قراقجا ص ٢٢٦

(٥٠) القمريات : مفردها قمرية وهى شبابيك من الجص المخرم أو الحجر أو الخشب ، وقد تكون مستديرة أو مفنطـرة وقد تعشق بالزجاج الملون (انظر) عبد اللطيف أبراهم (الدكتور) دراسات فى الاثـــار الاسلامية ص ٣٤٧

سطر ٦٠ الحانوتان المجاوران للصهريج رواق يشتمل على ايوان ودور قاعة (٥١) وخزانة (٥٢) ومرتبة (٥٣) وكرسي (٥٤) خاص به وأغانين (٥٥)

سطر ٦١ ومطبخ وطبقة وسطح ويعلوا ظهر الصهريج (٥٦) والمسجد والقاعة الاتى (ذكرها) فيه معالم رواقين لم تكتمل عمارتهما والباب

سطر ٦٢ الثانى من البابين (الثانين) مقنطر بعتبة سفلى كدانا يدخل منه الى دهليز بمصطبة بصدره مفروش بالبلاط مسقف (٥٨) لوحا

---

(٥١) الدور قاعة : مساحة موجودة بين رواقين أو ايوانين يكون سقفها أعلى من بقية أسقف الاروقة أو الايوانات المحيطة به . عباس حلمى (الدكتور) تطور المسكن ص ١٦٢ وعن مصطلح (دور قاعة) أنظر : محمد هنداوى: المعجم فى اللغة الفارسية ص ١٤٨ .

(٥٢) الخزانة : قد تكون دولاب حائطى أو تكون غرفة نومية ملحقة بالايوان .

(٥٣) المرتبة : مصطلح له معان كثيرة منها : دخله فى ترتفع أرضيتها عن أرضية الدور قاعة . عبد اللطيف ابراهيم : المرجع السابق ص ٢٣٥ .

(٥٤) المقصود بذلك أن هذا الايوان مخصص له كرسى مرحاض تابع له .

(٥٥) سبق التعليق على هذا الاصطلح فى رقم (٣٦)

(٥٦) تعبير خاطىء من كاتب الوثيقة ، اذ المفروض أنه يعلو ظهر السبيل وليس الصهريج لان الصهريج مبنى فى تخوم الارض وفوقه غرفة السبيل .

(٥٧) الباب المقنطر : عكس المربع ، والمقنطر ينتهى بشكل عقد أيا كان نوعه . المرجع السابق ص ٢٣٦.

(٥٨) مسقف لوحا وفسقية : نوع من السقوف جيدة الصنع ،يكون بسط وفى وسطه فسقية أو صرة مربعة أو مثمنه ،وقد يكون فى وسط السقف فسقية كبيرة تستخدم كمنور سماوى وحولها حليات مقرنصة مثلما هو موجود بايوان القبلة بمدرسة الامير فيروز الساقى بحارة المنجلة (انظر) حسنى نويصر : مدرسة الامير فيروز ص ١٧٢ أو بتوسط السقف صرة مفصصة كما هو الحال فى سقف مدرسة وخانقاة السلطان برقوق ببين القصرين (انظر)
PAPA DOPOULO (A.) , Islam and Muslim art, pl. 149.
عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) المرجع السابق ص ٢٢٥
حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد جـ ٢ شكل ١٤٣

سطر ٦٣ وفسقية يتوصل من ذلك الى القاعة الموعود بذكرها فيه وهى المشتملة على ايوان ودور قاعة وخزانة وطبقة علو بابها .

سطر ٦٤ وطبقة مرجلة ومطبخ ومرحاض خاص بها سفل أيوانها منفعة هى بين السقوف وبهاشباك برسم (٥٩)نزح الماء من

سطر ٦٥ الصهريج وكنسه ويتوصل من الباب المقنطر الذى هو بين البابين الاولين الى أربعة حواصل أحدها سفل مدار

سطر ٦٦ السلم يشتمل كل منها على باب يغلق عليه فردة باب مسقف عقدا (٦٠) قناطر وساحة كشف ولذلك حدود أربعة الحد

سطر ٦٧ القبلى ينتهى الى الشارع تجاه الجامع المذكور وفيه الحوانيت الاربعة والبابان الاولان وشباك السبيل وشباك

سطر ٦٨ المسجد والحد البحرى ينتهى الى أملاك تجرى فى ملك ملاكها والحد الشرقى الى زقاق داخل درب

---

(٥٩) كان لكل صهريج مبنى فى تخوم الارض - منزل خاص به أطلقت عليه الوثائق سلم طرابلسى (سلم ضيق محصور بين جدارين) وكانت الصهاريج تنظف مرة كل عام قبل ملئها فتمسح وينظف ماعلق بجدرانها من فطريات الماء ، ويرمم جدرانها وتبخر ثم تملأ بالروايا من وسط بحر النيل فى أوان الفيضان . وقد وجد لبعض الاسبلة أكثر من صهريج كما هو الحال فى سبيل قايتباى الملحق بوكالته بالازهر وكذا سبيله الملحق بمدرسته بجبانة المماليك . حسنى نويصر : سبيل السلطان قايتباى ص ١٣

(٦٠) المقصود بذلك أن أسقف هذه الحواصل كانت على هيئة أقبية من عدة طارات (أنظر) عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) : المرجع السابق ص ٢٣٦

سطر ٦٩ جهركس (٦١) وفيه البابان الباقان والحد الغربي
الى الفرن يحد ذلك كله وحدوده وحقوقه ومايعرف
سطر ٧٠ بذلك وينسب اليه من الحقوق الداخلة فيه والخارجة عنه

---

(٦١) الملاحظ أن كاتب هذه الوثيقة غير دقيق في تحديد الاتجاهات الصحيحة للاثر سواء مايتعلق بجامع الامير قراقجا وواجهاته أو مايتعلق بالمسجد الصغير المعلق الذى كان مواجها لهذا الجامع . فمثلا في بداية تحديد موقع المسجد ذكرت الوثيقة أن للمسجد واجهتان أحداهما شارعة بالشارك السالك . وموقع هذه الواجهة بالنسبة للبناء هى الواجهة الشمالية الغربية المطلة على درب الجماميز حاليا وذكر كاتب الوثيقة أن بهذه الواجهة أربعة حوانيت بالاضافة الى بابين أحدهما يوصل الى سلم والثانى يوصل الى ساحة كشف . والواجهة الثانية هى المطلة على درب جهركس أو حارة السادات الحالية وبها بابان أحدهما يوصل الى السبيل والباب الثانى يوصل الى المسجد .
الا أن الكاتب في نهاية الكلام عن المسجد أختلط عليه هذا التحديد فذكر أن الحد القبلى به أربعة حوانيت في حين أن بها حانوتان فقط والاربعة حوانيت موجوده بالحد البحرى ، كما أنه يوجد بالحد الشرقى بابان وهذا الضلع يطل على زقاق ضيق متفرع من درب جهركس . (أنظر الوثيقة سطور٦٦ : ٧٠)

دراسة تخيلية لعمارة المسجد الدارس
المنسوب اليه المئذنة

الناظر الى موقع المئذنة الحالى يجد أنها تبدأ من أرض حارة السادات وماحولها خلاء من جميع الجهات ، وربطت المئذنة من عند كرسيها عند الطابق الاول بمعبرة من الخشب لايدل مظهرها على القدم والاصالة ، بل هى معبرة حديثة . وبدراسة ماورد عن هذه المنطقة بوثيقة الامير قراقجا الحسنى يتبين لنا مايلى :-

أن الكتلة البنائية التى تتحدث عنها الوثيقة ككيان مستقل كان يشغلها المسجد المعلق وهذه الكتلة لاتزال موجودة بحدودها الاجمالية القديمة (شكل ١) .
وأن الفراغ الذى حول المئذنة - حاليا - كان يشغله الى اليمين الحانوتان بهذه الواجهة ، والفراغ الموجود على يسار المئذنة كان يشغله باب الصعود الى المسجد .

غير أنه حدث أعتداء على هذه المساحة فى العصر الحديث فقسمت الى أكثر من عقار ، فشغل الزاوية الغربية العقار رقم ٤٣ ، بينما شغلت الزاوية للجنوبية بعدد من المحلات التجارية ملك ورشة " حسن ثابت* " . فى حين يشغل الواجهة الشمالية الغربية المطلة على درب الجماميز (الشارع السالك) العقار رقم ٥٢ وباسفله سبعة حوانيت تجارية من العصر الحديث . ويستفاد من دراسة وثيقة الامير قراقجا الحسنى عن المسجد أنه كان يتكون مما يأتى:-

الطابق الارضى (شكل ٢)

الواجهة الجنوبية الغربية : تطل على حارة السادات أو درب جهركس القديم . يشغل الركن الجنوبى من هذه

(*) راجع ماورد عن ذلك فى التمهيد .

الواجهة صهريج لخزن ماء السبيل سنى فى تخوم الارض .

وكانت عمارته تتكون من ثلاث قساب ضحلة محمولة على عامودين ، وله فوهة عليها خرزة من الرخام . وقد نصت وثيقة الامير قراقجا الحسنى على أن يصرف مبلغ (٦٢) من المال فى كل سنة لملىء الصريج من سحر النيل عند زيادته وليس من ماء الخليج ـ وذلك بقدر مايتكلف من مال دون تحديد .

والى جوار الصهريج ـ على سطح الرى ـ باب (رقم ١ شكل ٢) يوصل الى سلم صاعد كان يوصل الى حجرة السبيل وهى حجرة تطل على درب جهركس شباك السبيل . وهذا السبيل استمر الى العصر الحديث(٦٣) .

وقد نصت وثيقة الامير قراقجا الحسنى على أنه كان يعمل بهذا السبيل(٦٤) مزملاتى (٦٥)ـ أوصت أن يكون من أهل الخير والدين براتب شهرى قدره ثلثمائة وخمسون درهما على أن يسقى الماء كل يوم بالسبيل المذكور من أول النهار الى أخره فى أيام الفطر وفى كل ليلة من ليالى شهر رمضان من كل سنة من بعد أذان المغرب والى مابعد صلاة التراويح . كما أن عليه كنس السبيل ومسحه ونقل الماء من الصهريج الى السبيل . والباب الثانى بهذه الواجهة يوصل الى سلم صاعد الى المسجد المعلق في الطابق الاول (رقم ٢ بشكل٢) .
الواجهة الشمالية الغربية بالطابق الارضى :ـ

---

(٦٢) الوثيقة : سطور ١٦١ : ١٦٢ .
(٦٣) على مبارك : الخطط جـ ٣ ص ١١
(٦٤) الوثيقة : سطور ١٤٦ : ١٥٠
(٦٥) المزملاتى : هو الشخص الموكول اليه تنظيف الماء وترويقه وتبريده للشاربين بعد اضافة ماء الزهر اليه كما أن عليه غسل الاوانى وحفظها (انظر) حسنى نويصر : سبل السلطان قايتباى ص ١٧

كانت تطل على الشارع السالك ـ حاليا درب الجماميز وبهذه الواجهة باب (رقم ٣ شكل ٢) يوصل الى سلم صاعد الى الطابق الاول . وكان بهذه الواجهة أربع حوانيت ،كما كان يوجد باب رابع بهذه الواجهة يوصل الى ساحة كشف وأربعةحوامل كانت معده لخزن أدوات المسجد ويشغل هذه الواجهة حاليا العقار رقم ٤٣ وبه فى المستوى الارضى سبعة محلات تجارية

الطابـــق الاول

كان يشغل الطابق الاول من هذا المكان مسجد يتوصل اليه من سلم بوالواجهة الجنوبية الغربية (شكل ٣)" وهذا المسجد من النوع المعلق يشتمل على أيوان واحد بصدره محراب عبرت عنه الوثيقة بأنه " قوصرة لطيفة " أى معقود بعقد صغير ، ويطل هذا الايوان على مجاز أو دور قاعة . وعلى واجهة الايوان كرديان من الخشب المجلد بالذهب كما كان للمسجد ثلاث كتبيات لحفظ المصاحف والربعات الشريفة وشنا كان من الحديد. وقد وقف الامير قراقجا الحسنى هذا المسجد(٦٦) لله تعالى تقام فيه الصلوات ويعتكف فيه على العبادات واذن للمسلمين بالدخول اليه والصلاة فيه وصار حق الواقف فيه كحق رجل واحد من المسلمين .

وتطل الواجهة الشمالية الغربية فى هذا الطابق على درب الجماميز ـ بثلاث نوافذ على هيئة قمريات من الجص المعشق بالزجاج الملون . تفتح هذه القمريات على ثلاثة أروقة يتقدمها منافع خدمية موجودة بدهليز يتقدمها . كان للاروقة سقف من الخشب معالج بالدهانات المختلفة أسمته الوثيقة " دهان حريرى " كما كانت جدر الاروقة مبلطة بالبلاض .

---

(٦٦) الوثيقة : سطور ١٠١ : ١٠٣

الطابق الثانى (الكتاب الملحق)

نصت وثيقة الامير قراقجا الحسنى على أنه خصص الطابق الثانى من البناء لنشىء عليه كتابا لتعليم أيتام المسلمين - لم يكن شرع فيه حتى وقت كتابة الوثيقة (٦٧) وأن هذا الكتاب كان يشغل المساحة العلوية للمسجد والسبيل أسفله وكان يشتمل على رواقين خصصا لجلوس عشرة (٦٨) من أيتام المسلمين قاصرين عن درجة البلوغ يجلسون كل يوم بهذا الكتاب مع مؤدبهم للتعلم ويتقاضون راتبا شهريا قدره ستون درهما لكل واحد منهم ، كما كان يصرف لهم ومؤدبهم كسوة (٦٩) سنوية فى شهر رمضان من كل عام بقدر ماتتكلف . واشترطت الوثيقة على أن يكون المؤدب (٧٠) من أهل الخير والدين حافظ لكتاب الله عن ظهر قلب يتقاضى راتبا شهريا قدره ٢٥٠ درهما .

وعليه أن يجلس بالايتام العشرة الموجودين بالكتاب كل يوم من بكرة النهار الى أذان العصر لتعليمهم ماتيسر له من تعلم القراءة والخط العربى خلال يوم الثلاثاء من كل أسبوع فانه يجلسهم من بكرة النهار الى أذان الظهر فقط وان تكون أجازتهم يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكان على هؤلاء الايتام قبل انصرافهم فى كل يوم أن يقرأوا سورة الفاتحة ويختمون على النبى صلى الله عليه وسلم ويهدون ثواب ذلك الى الواقف وذريته .

.... وبعد

---

(٦٧) الوثيقة : سطور ٦٢ : ٦٣
(٦٨) الوثيقة : سطور ١٥١ : ١٥٣
(٦٩) الوثيقة : سطور ١٦٠ : ١٦١
(٧٠) الوثيقة : سطور ١٥٣ : ١٥٨

فانه يتضح مما سبق دراسته أن الكتلة الدارسة فى هذا الموقع كانت تشتمل على المسجد المعلق الذى ورد ذكره فى هذا الخط - خط المسجد المعلق - وأن المئذنة التى بقيت كانت تابعة له ، وهذا يجعلنا أمام احتماليـن :-

أولهما : أن هذا المسجد - وهو الاقدم - كان له مئذنة ، وحينما بنى الامير قراقجا الحسنى جامعة الكبير المواجه للمسجد المعلق - بناه بدون مئذنة - واستفاد من وجود المئذنة القديمة وربط بين الاثنين بساباط حل مكانه المعبرة الحديثة .

وثانيهما أن يكون لجامع قراقجا الحسنى الكبير مئذنة - سقطت فى زمن غير معلوم - وضاعت معالمها . وقام أهل المنطقة ببناء هذه المعبرة الحديثة .

ومن ثم قامت لجنة حفظ الاثار العربية [٧١] التى أشرفت على ترميم جامع قراقجا والمئذنة ووجدت مئذنة بلا مئذنة فربطت بين الاثنين عند ترميمها للجامع بالمشروع المنوة عنه فى تمهيد هذه الدراسة .

وفى تصورى أن الاحتمال الاول هو الاقرب الى الحقيقة ذلك أن الامير قراقجا الحسنى أمر ببناء غرقة بأعلى جامعة الكبير - فوق الايوان البحرى - وقفت برسم رئيس [٧٢] المؤذنين لجلوسه عند قراءة العقيدة وتنهيض المؤذنين للاذان ، بينما لم تذكر شيئا عن موقع المئذنة .

---

(٧١) راجع كراسات لجنة حفظ الاثار العربية التقارير :-
- رقم (٥) لسنة ١٩٠٥ م ص ٩١
- رقم (٣٤٩) لسنة ١٩٠٦ م ص ٨
- رقم (٣٥٩) لسنة ١٩٠٦م ص ٩٠
- رقم (٣٦٣) لسنة ١٩٠٧ م ص ١١

Comite de conservation des monuments de L'art Arabe comptes rendus de l' ex ercice 1914, fasc. 31' pls. xix-xxll,pp.14-

(٧٢) الوثيقة : سطور ٩٣ : ٩٤

وفى نفس الوقت تعين للمئذنة تسعة (٧٣) من المؤذنين خصوا للتناوب على الاذان فى ثلاث جوق كل جوقه من ثلاث مؤذنين يتداولون على المئذنة . وكان كل واحد منهم يتقاضى راتبا شهريا قدره مائتان درهم هذا بالاضافة الى وظيفة الميقات التى تحدد وقت دخول الصلاة فى كل وقت .

وأكدت الوثيقة على أن يكون الاذان فى الجامع الكبير يوم الجمعة ـ من فوق دكة (٧٤) المؤذنين الموجودة بايوان القبلة بالجامع الكبير .

عمارة المئذنة

تبدأ هذه المئذنة بقاعدة صماء من الحجر من أرض حارة السادات وذلك حتى مستوى سطح جامع قراقجا الذى يقع تجاهها . وفوق هذه القاعدة ـ كرسى المئذنة الذى شكل على هيئة مكعب شطفت زواياه العلوية (شكل ٥) وحددت حواف كرسى المئذنة بجفت لاعب وميمات تحصر بينها شكلا هندسيا عبارة عن طبق نجمى غائر فى الحجر .

ويعلو كرسى المئذنة بدن مثمن برز منه أربع مشرفات (بلكونات) صغيرة محمولة على مقرنصات حجرية موجهة لاحياء المدينة ليعلن من عليها بالاذان شكل ٤ .

ويتوج البدن المثمن طراز من الكتابة بالخط النجمى (٧٥) المملوكى تشمل نصا قرآنيا (٧٦) بصيغة بسم الله الرحمن الرحيم ان ربكم الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين .

---

(٧٣) الوثيقة : سطور ١١٤ : ١١٥
(٧٤) الوثيقة : سطر ١١٧
(٧٥) قرأ الدكتور حسن جودة النص من قبل ص ٥٠
(٧٦) سورة الاعراف : أية ٥٤

وزخرف البدن المثمن فى زواياه بحزم من أعمدة ثلاثية مندمجة تحمل عقدا مكسرا مشعا .

ولزيادة المساحة التى تحمل شرفة الطابق الاول من المئذنة استخدم المعمار صفوفا من القرنصات ذات الدلايات وشرفة هذا الطابق مهدمة منذ أمد بعيد ولا يوجد لها سواتر تحمى المؤذن ، فى حين أنها كانت محمية بسواتر حجرية مفرغة على هيئة زخارف نباتية وهندسية فى زمن الانشاء .

ويتحول بدن المئذنة فى الطابق الثانى الى شكل أسطوانى يستدق كلما أرتفعنا الى أعلى به باب معقود شكل٦. حلى البدن الاسطوانى بجفت لاعب مفغور من أعلاه وأسفله ويتوج البدن الاسطوانى طراز آخر من الكتابة النسخية (٧٧) على الحجر بصيغة :-(بسم الله الرحمن الرحيم) " الله لا اله الا هو الحى (٧٨) القيوم لاتأخذه سنة ولانوم له مافى السموات ومافى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولايؤده حفظهما وهو العلى العظيم " .

ويعلو الشريط الكتابى مقرنصات بدلايات حاملة لقمة المئذنة التى شكلت بطراز القلة ويلفت النظر فى هذه المئذنة شيئان هامان هما :-

أولا النصوص الكتابية القرآنية الموجودة عليها . فقد اختار الكاتب الاية رقم ٥٤ من سورة الاعراف والاية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة وهذا الامر غير مألوف بالنسبة للاشرطة الكتابية المتعارف على كتابتها فى عصر المماليك الجراكسة .

---

(٧٧) سبق ان قرأ الدكتور حسن جودة هذا النص فى رسالته ص ١٥
(٧٨) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

فقد جرى العرف على أن تنتخب لذلك الايات القرآنية الدالة على الصلاة أو الاعلان عنها أو سورة الجمعة [٧٩] أو يكون عليها نصوص تجديد أو نصوص تأسيس كما هو الحال في المئذنة التي جددها السلطان الناصر بن قلاوون في مدرسة والده السلطان المنصور [٨٠] قلاوون ببين القصرين وكذلك

---

(٧٩) مثلما هو موجود بشكل جيد على مئذنة مدرسة السلطان قايتباي بجبانة المماليك التي ورد عليها عدة طرز كتابية قرآنية منها شريط يحوي سورة الجمعة بما نصه :-
" بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون سورة الجمعة : آية ١٠
وبأعلى البدن الاسطواني للمئذنة يوجد النص القرآني التالي : -
" بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة واصيلا هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما " .
ومن الواضح أن هذه النصوص تلائم تماما الفرض الوظيفي من المئذنة وهو الاعلان للصلاة وحث للمؤمنين على أدائها (انظر) : -
حسني نويصر : منشآت السلطان قايتباي الدينية جـ ١ ص ١٢٩ : ١٣٠ وانظر أيضا :

Lane poole (s.) Social life in Egypt,P. 122
........., The art of the Saracens in Egypt,P.100
Beadeker (K.) , Egypte et Sudan, pp. 108: 109.
Franz (pascha) , Die grabe moschee Qait Bai, taf. 4 .

(٨٠) نص هذه المئذنة : بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله أمر بتجديد هذه المأذنة في أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبو الفتح محمد وذلك عند ظهور الايات المنزلية وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة في شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام (انظر)
حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد جـ ١ ص ١١٧

نصوص التأسيس فى مئذنتى السلطان المؤيد[٨١] شيخ المحمودى بباب زويلة ٨١٨/ ٢٤ هـ

وتعتبر ديفونشير[٨٢] وجاييه[٨٣] أن هذه النصوص التى تضمنتها المآذن من الحليات الجميلة التى استخدمها المعمار لتزيين المئذنة فى العصر المملوكى الجركسى .

وثانيهما : النمط الزخرفى على البدن الاسطوانى للمئذنة شكل ٦ وهو الذى شكل على هيئة جفت لاعب مضفور من اعلاه وأسفله . ويعتبر هذا النمط من الزخرفة آخرمثال له فى العمارة المملوكية فى القاهرة .

وقد وجدت لهذه الوحدة الزخرفية أمثلة قديمة تعود الى عصر المماليك البحرية لعل أقدمها ماهو موجود على البدن الاسطوانى لمئذنة مدرسة أسنغا الابو بكرى[٨٤] بدرب سعادة بحى الازهر بالقاهرة - أثر رقم ١٨٥ (٧٧٢هـ - ١٣٧٠م)

---

(٨١) نص المئذنة الغربية : عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ أول رجب سنة أثنتين وعشرين وثمان مايه أما نص المئذنة الشمالية : أمر بانشاء هذين المنارين المباركين سيدنا ومولانا السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره وذلك بنظر العبد الفقير الى الله تعالى محمد بن القزاز والفراغ فى شهر شعبان المعظم قدرة من سنة ثلاث وعشرين وثمان مايه (انظر) :
حسن قاسم المزارات الاسلامية ص ٤٥ (وانظر أيضا)
حسن عبد الوهاب : المساجد ١ ص ٢٤٠ عن نصوص مئذنة مسجد بحى زين الدين ومئذنة الامير يشك بمسجد الامام الليث : المرجع نفسه ص ١٩٩ : ٢٠٠

(٨٢) Devonshire , Some Cairo mosques, P. 73.

(٨٣) Geyet l'art Arabe, pp. 198 : 206.

(٨٤) Abou Seif (D.) , The minarets of Cairo. p. 105 . fig . 21 . 43 .

شكل ٧ و ٨ . وفتن مهندس خانقاه السلطان فرج (٨٥)بن برقوق بجبانة المماليك بهذا العنصر فروق به البدن الاسطوانى فى المئذنتين - أثر رقم ١٤٩ (٨٠١/١٣هـ - ١٤٠٠/١١م) شكل ٩و١٠ كذلك ظهر هذا العنصر على البدن الاسطوانى لمئذنة مدرسة السلطان برسباى(٨٦) بشارع المعز لدين الله بحى الاشرفية أثر رقم ١٧٥ (٨٢٦/٢٩هـ - ١٤٢٢ / ٢٥ م شكل ١١و ١٢ . وظهر نفس العنصر على مئذنة جامعة (٨٧) بالخانكة .

وفى عصر السلطان برسباى (٨٣٤ : ٨٤١هـ) طبقت زخرفة الجفت المضفور لاول مرة على القبة الطوبية (٨٨) التى شيدها السلطان لاحدى زوجاته (جلبان) أم خديجة ابنة بشبك الجركسى وهى القبة المعروفة بجبانة المماليك بقية " خديجة أم الاشرف " شكل ١٣ أثر رقم ١٠٦ (٨٣٥/٨٤٥ هـ - ١٤٣٠ - ١٤٤٠م) . ثم زخرفت بها القبة الملحقة بمدرسة الامير تغرى بردى بالصليبة - أثر رقم ٢٠٩ (٨٤٤هـ - ١٤٤٠ م) .

واخيرا ظهر هذا الجفت المضفور ولاخر مرة على البدن الاسطوانى للمئذنة المنسوبة الى جامع قراقجا الحسنى والتى تؤرخ بنفس فترة بنائه بينما هى فى الواقع تعود الى زمن أقدم من ذلك حين كانت جزءا من المسجد المعلق .

---

(٨٥) Hau & Wier(G) , Mosquees du Caire, pl.154.

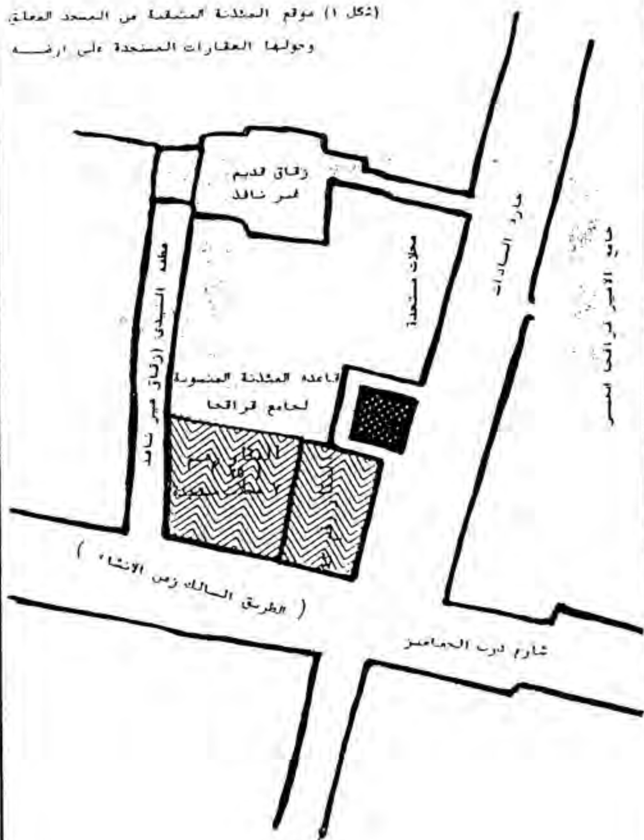
(و) Briggs (M.) Muhammadan architecfurein Egypt and Palestine, pp. 177: 118, fig. 106.

(و) Abou Seif (D.) , Op. cit., fig. 22

(٨٦) Ibid., pl. 53.

(٨٧) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ج ٢ شكل ١٦٩

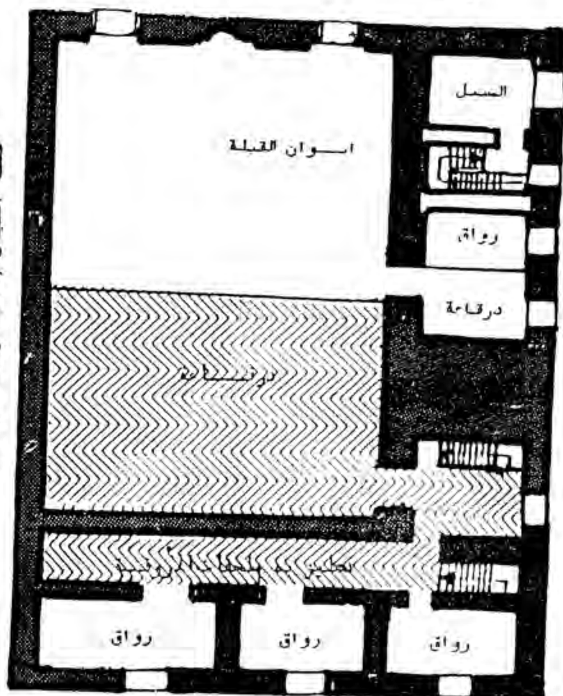
(٨٨) حسن عبد الوهاب : خانقاة فرج بن برقوق وماحولها لوحة ٢٩



(شكل ١) موقع المئذنة المتبقية من المسجد المعلق
وحولها العقارات المستجدة على ارضه

شكل (٢) مسقط افقى (تخيلى) للدور الارضى سفل المسجد المعلق من واقع وثيقة الامير قراقجا الحسنى

زقاق قديم (حاليا حوش مشترك للاستطراق)



عطفة السيدى (حاليا زقاق غير نافذ)

حارة السادات (درب جهاركس فى وثيقة الأمير قراقجا)

شارع درب الجماميز (الطريق السالك زمن الانشاء)

شكل ١٠ مسقط أفقي تخطيطي للطابق أول من المسجد
المعلق وملحقاته من واقع وثيقة الأمير قرقماس الحسني







(شكل ٤) المئذنه المنسوبة لجامع الأمير قراقجا

الحسنى بحارة السادات المتفرعه من درب الجماميز

بالقاهره أثر رقم ٢٠٦ ٨٤٥ هـ - ١٤٤١/٤٢ م



(شكل ه)قاعدة المئذنة المنسوبة لجامع الأميـــر

قراجا الحسنى والقنطرة التى تربطها به من أعلى سطحة .



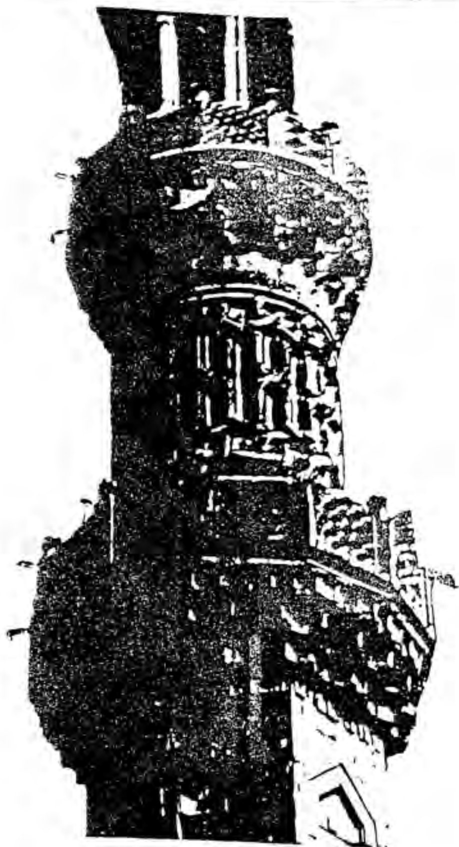
(شكل ٦) تفصيل لزخرفة الحفت المنضفور على البدن

الاسطوانى لمئذنه الجامع المنسوب للأمير قراجا

الحسنى بالقاهرة



(شكل ٧) مئذنه مدرسة الأمير اسنبنا الأبو بكرى بـدرب سعادة بحى الأزهر بالقاهرة أثر رقم ١٨٥ ٧٧٢ هـ ١٣٧٠ م



(شكل ٨) تفصيل لزخرفة الحقت المقفور فى البدن

الاسطوانى لمئذنه مدرسة الأمير آسنبنا الأبو بكرى

بدرب سعـــــــادة بالقاهرة



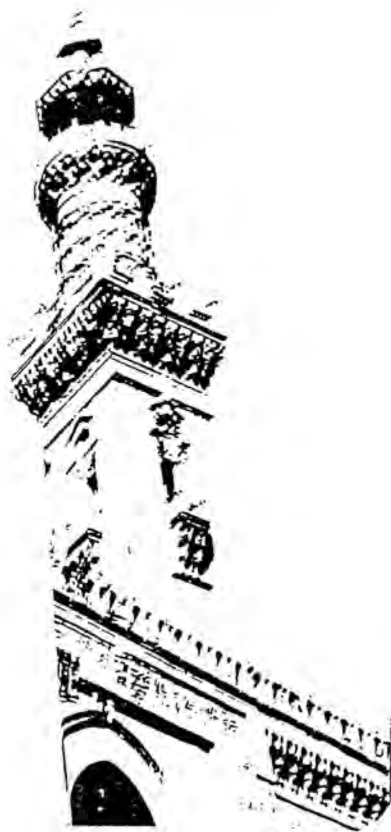
(شكل ٩) زخرفة الجفت المضفور فى البدن الاسطوانى
لمئذنة خانقاة فرج بن برقوق بجبانـــة المماليك
أثر رقم ١٤٩ ٨٠٣ /٨١٣هـ - ١٤٠٠/١١م



(شكل ١٠) تفصيل لزخرفة الجفت المعقود على البـــدن

الاسطوانى لمئذنة خانقاة فرج بـــــــــن

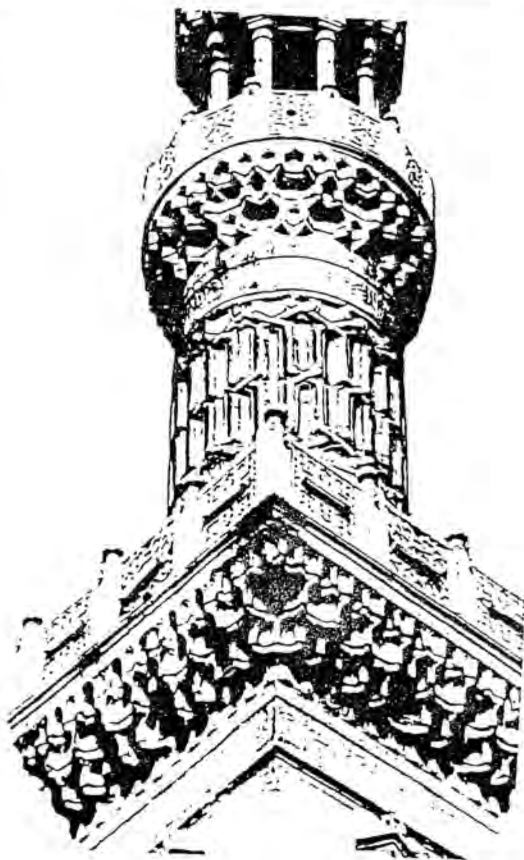
برقوق بجبانة المماليك .



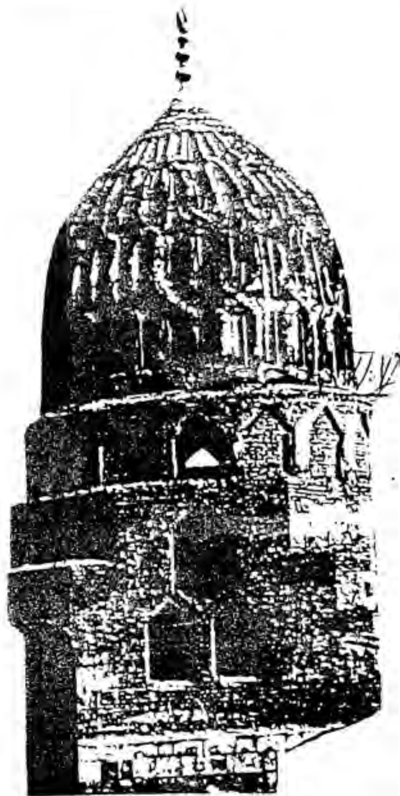
(شكل ١١) زخرفه الحفت المضفور على البدن الاسطوانى

لمئذنه مدرسة السلطان برسباى بشارع المعز بالقاهره

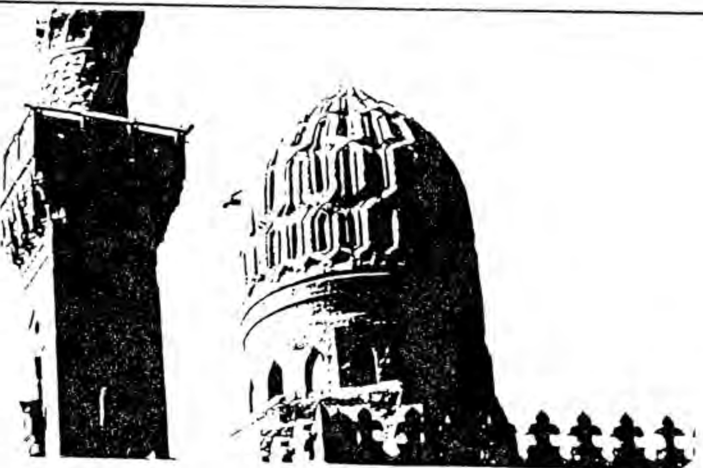
أثر رقم ١٧٥ – ٨٢٦ /٢٩ – ١٤٢٢ /٢٥ م



(شكل ١٢) تفصيل لزخرفه الجفت المفقور على البدن
الاسطواني لمئذنه مدرسة السلطان برسباي بالقاهرة



(شكل ١٣) زخرفه الحفت المفغور مطبقه على خودة القبـة الضريحية لخديجة أم الأشرف المنسوبة الى السلطان برسباى بجبانة المماليك أثر ١٠٦ - ٨٣٥ /٤٥هـ - ١٤٣٠/٤٠م



شكل ١٤ : زخرفة الحفر المضفور مضفرة على خوذة القبة
المربعة الملحقة بمدرسة الأمير تغرى بردى بالصليبة بالقاهرة
أثر رقم ٢٠٩ – ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠م

مصـادر ومراجع البحـث

- القرآن الكريم

أولا : المصادر المنشورة :-

- ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
١٦ جزء طبعة دار الكتب

- السخاوى (شمس الدين محمد)
الضوء اللامع لاهل القرن التاسع
١٢ جزء طبعة القدسى ١٣٥٣هـ

- المقريزى (تقى الدين أحمد)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار
جزءان طبعة بولاق

ثانيا : المراجع العربية

- أحمد السعيد سليمان (الدكتور)
تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة
جزءان القاهرة ١٩٦٩م

- حسن الباشا (الدكتور)
الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية
٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٦ م

- حسن جودة القصاص (الدكتور)
مساجد أمراء جقمق - رسالة دكتوارة مخطوطة بكلية الاثار جامعة القاهرة ١٩٨٦ م

- حسن عبد الوهاب (خبير أثرى)
تاريخ المساجد الاثرية جزءان القاهرة ١٩٤٦ م
خانقاه فرج بن برقوق وماحولها - مطبوعات المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة القاهرة ١٩٧٩م

- حسن قاسم
المزارات الاسلامية والاثار العربية فى مصر والقاهرة المعزية القاهرة ١٩٤٢ م

- حسنى محمد نويصر (الدكتور)
سبل السلطان قايتباى بمدينة القاهرة - رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ١٩٧١ م
منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية الاثار جامعة القاهرة ١٩٧٥ م
منشأة الامير فيروز الساقى بحارة المنجلة بالقاهرة مجلة الازهر عدد صفر ١٤٠٣ هـ - نوفمبر ١٩٨٢م.
مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة (مدرسة الامير سودون من زادة) مطبعة نهضة الشرق القاهرة ١٩٨٢ م
- سعاد ماهر محمد (الدكتورة)
مساجد القاهرة وأولياؤهم الصالحون
٥ أجزاء القاهرة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٢ م
- عباس حلمى (الدكتور)
تطور المسكن المصرى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى - رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة .
عبد الرحمن زكى (الدكتور)
القاهرة - تاريخها وآثارها من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ القاهرة ١٩٦٦ م موسوعة مدينة القاهرة القاهرة ١٩٦٩ م.
- عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور)
وثيقة الامير قراقجا الحسنى - دراسة ونشر وتحقيق مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ج ٣ ديسمبر ١٩٥٦ م.
دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق عصر المماليك

سلسلة الدراسات الوثائقية _ الوثائق فى خدمة الآثار _ مطبوعات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم القاهرة ١٩٧٩ م

وثيقة بيع _ نشر ودراسة وتحقيق _ مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة المجلد ١٩ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٧ م

وثيقة وقف مسرور الشبلى _ نشر ودراسة وتحقيق مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٢١ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٩ م

- - على (باشا) مبارك

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة

٢٠ جزءا فى أربع مجلدات

بولاق ١٣٠٦ هـ

- - فهرس الاثار الاسلامية بمدينة القاهرة

مصلحة المساحة ١٩٥١ م

- - كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ١٨٨٢/١٩٠٥ / ١٩٠٦/ ١٩٠٧ / ١٩١٤ م

- - محمد عبد الستار (الدكتور)

نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة _ رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة أسيوط كلية الاداب ١٩٧٩ م

- - محمد هنداوى

المعجم فى اللغة الفارسية

ثالثـا : المراجــع الافرنجيـــــة : -

- ABOU SEIF(D.) The minarets of Cairo, A.U.C. Caoiro 1985.
- BEADEKER (K.), Egypte et Sudan, paris 1908.
- BRIGGS(M.), Muhammadan architectur in Egypt and Palestine, Oxford, 1924.
- Comite de conservation des monument de l'art Arabe comptes rendus de l'excrcice 1914.
- DEVONSHIRE (L.) , Some Cairo mosques and their founders, London, 1921.
- FRANZ (pascha), Die grabe mosche du Sultan Kait Bai.
- GAYET(A.), L' art Arabe, paris 1893.
HAUT. & WIET (G.), Mosqees du Caire, paris 1932.
- LANE POOLE (X.), The art of the Saracens in Egypt London,1866.
Social life in Egypt, London,1892.
PAPA DOPOULO, Islam and Moslim art London, 1980.

مصر والمصريون عندهيرودوت

(قراءةفي الكتاب الثاني)

د. عبد الحليم محمد حسن
كلية الآداب ـ جامعةالقاهرة

"ملأ الدنيا وشغل الناس ... فما اكثر ما رددت الايام اسم هيرودوت وما اكثر ما ستردده ، وما اكثر ما نظرالناس فى تراثه وما سينظرون ، وما اكثر ما كتبوا عنه وما سيكتبون" .

هكذا كتب العلامة الراحل الدكتور أحمد بدوى فىمستهل مقدمته القيمة للكتاب الثانى من "التواريخ" لابى التاريخ، الذى نقله الى العربية عالم الدراسات اليونانية الراحل الدكتور محمد صقر خفاجه[1] ، وما أظن أنه كتب غيرالصواب. فعلى كثرة الموضوعات فى التاريخ القديم التى لم تحظ بالاهتمام الواجب من جانب الدارسين ، الا أن هيرودوت وكتابه الثانى يجذبان الباحثين فينظرون فى الكتاب من جديد ويعيشون عصر كاتبه ، ثم لا يلبثون ان يضيفوا مزيدا من الكتابات الى الابحاث والدراسات المتراكمة .

ولا شك فى أن الكتاب الثانى ، أو "الاحاديث المصرية" LOGOI AIGYPTIOI كما يفضل هيرودوت نفسه ان يسميه ، قد صادف ـ مع باقى "التواريخ" ـ اقبالا وحقق نجاحا خاصا بين جمهور القراء والدارسين ، منذ صدوره فىحياة هيرودوت نفسه[2] ، لم تحققه كتب اخرى كثيرة من التراث القديم .

---

١) هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر خفاجة ،تقديم وشرح الدكتور احمدبدوى ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٦. جميع نصوص الكتاب الثانى المقتبسة فى بحثنا هذا تعتمد على هذه الترجمة .

٢) قارن W.W. How and J.Wells, A Commentary of Herodotus (Oxford, 1936), I, pp. 36-37; A.D. Momigliano, Studies in Historiography (London, 1969), pp. 127-141 passim.

فاستحق - بعبارة الدكتور احمد بدوى - "ان يكون كتاب الدهر الخالد الذى لا يهرم ولا يشيخ" ولا مراء فى أن هذا النجاح يرجع بالدرجة الاولى الى الثراء غير العادى فى مادته والى عبقرية هيرودوت الفذة فى رواية القصص المثيرة المتدفقة بالحيوية والتى لا تخلو ابدا من طرافة تستحمل على عقل القارئ فتملكه حتى وان لم يصدق مضمون بعضها ، وفى هذه "الاحاديث المصرية" اظهر هيرودوت بوضوح - وهو اليونانى الصميم - تفوق المصريين على اليونانيين[٣] . وقد بلغ تعاطف "أبى التاريخ" مع مصر والمصريين ان اعطى اذنا صاغية لمصادره المصرية واولوية على بنى جلدته وسابقه من اليونانيين[٤] . فلا عجب ان اتهمه بعض الاقدمين بانه "صديق البرابرة"[٥] . كما سلم جمهور الباحثين المحدثين بان الرجل كان يميل الى المصريين .

وفى الحقيقة ان من يقرأ هيرودوت يشعر ، كما سوف نوضح ذلك بجلاء ، بانه كان يعى جدا ابرز الاسباب التى تؤكد تفوق مصر على اليونان ، وعلى وجه الخصوص طول تاريخها واستدامة حضارتها . غير ان الملاحظ ان مصر ،وان كانت تحتل عند هيرودوت مكانة متميزة تتناسب مع دورها التاريخى الفريد فى الماضى ، الا انها قد لا تتناسب مع دورها فى عصر هيرودوت نفسه . فمما يدعو الى التأمل ان هيرودوت اختص مصر بتلك المكانة فى زمن كان دورها السياسى فيه فى شرق البحر المتوسط قد تقلص بشكل حاد ، فقدكانت مصر وقتئذ مجرد ولاية فى امبراطورية فارسية مترامية الاطراف ، وبالتأكيد لم تكن اكبر ولا اهم جوهرةفى التاج

٣) احمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .
٤) انظر على سبيل المثال الفصل الخامس والاربعين منالكتاب الثانى ثم قارن أيضا بالفصل الثانى .
٥) Plutarch, De Malignitate Herodoti, 12: J.L. Myres, Herodotus, Father of History (Oxford, 1953), P. 19.

الفارس . ومع ذلك لم يعط هيرودوت فارس ذاتها او الفرس انفسهم نفس الاهتمام الذى اختص به مصر والمصريين . وقد يدهشنا ذلك بوجه خاص اذا تذكرنا ان "التواريخ" فى جملته ووحدته انما يدور حول محور واحد ، وهو تاريخ الحروب والوقائع بين اليونانيين والفرس .

فالبناء الاساسى الذى اختاره هيرودوت لقصة هذا الصراع ينقسم بوجه عام الى ثلاثة اقسام رئيسية . واول هذه الاقسام يتناول الاحداث التى ادت الى ظهور فارس بوصفها القوة العظمى فى عالم شرق البحر المتوسط . (الكتب الثلاثة الاولى) . وثانيهما يعرض للاحداث التى احبطت مطامح الملك داريوس DARIUS الاول (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م) فى الغزو والفتح، وكيف ان اليونانيين الأيونيين ثاروا ضد الفرس وارطوا معهم بعض بنى جلدتهم من بلاد اليونان البلقانية، الذين استطاعوا ان يتحدوا بنجاح الملك الفارسى ، وتمكنت اثينا من رد فارس مهزومة فى موقعة ماراثون MARATHON(٤٩٠ ق.م) الشهيرة . (الكتب من الرابع الى السادس) . وثالث الاقسام وآخرها يتناول كيف ان الملك كسيركسيس XERXES (٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م) ، وقد ورث عن ابيه مشروع معاقبة اليونانيين البلقانيين الذى لم يحسم ، خطط وشرع فى تنفيذ غزوه الشامل لبلاد اليونان البلقانية . ولكنه تجرع هزيمة مريرة سواء شخصيا فى سلاميس SALAMIS(٤٨٠ ق.م) ، او من خلال قواده فى بلاتايا PLATAEA وميكالى MYCALE (٤٧٩ ق.م) .(الكتب من السابع الى التاسع)(٦) .

---

٦) قارن S.Usher, The Historians of Greece and Rome (Methuen and Co. Ltd., 1970), P.4.
من المعروف ان تقسيم "التواريخ" الى تسع كتب ليس من عمل هيرودوت نفسه ، وانما بعض علماء الاسكندرية فى زمن متأخر (بعد عام ٢٨٠ ق.م) غير ان التقسيم يعكس بصورة فعالة البناء الاساسى الذى اداره المؤلف حتى =

وكما نرى فان "التواريخ" له خطة واضحة فى ذهن هيرودوت ، وهو اشبه ما يكون بملحمة تتصاعد احداثها حتى تصل الى ذروتها - ملحمة الصراع بين اليونانيين والفرس ، والتى تصل الي ذروتها بهزيمة الفرس على ايدى اليونانيين. وفى هذه "الملحمة" لا تلعب مصر دورا حاسما . وقد لاحظ بحق عالم فى الدراسات المصرية [٧] "ان ثورات مصر ضدالفرس ارتبط اغلبها بمصائر الفرس فى نزاعهم الطويل مع الاغريق ، وذلك فى عالم اصبحت موازين القوة والاقتصاد فيه فى ايدى الفرس من ناحية والاغريق من ناحية اخرى" . فالحقيقة ان تطورات الصراع بين الفرس واليونانيين كان لها فى الغالب اثر - ايجابى او سلبى - على موقف مصر من الاحتلال الفارسى ومدى نجاح الثورة فيها . اما جوهر الصراع الكبير ذاته بين الفرس واليونانيين ، وهو موضوع "ملحمة" هيرودوت فلم يكن لمصر فيه دور بارز . ومع ذلك فقد وجد هيرودوت من الاسباب ما حمله على التضحية بالتوازن العام لموءلفه واستطرد باسهاب فى "احاديثه المصرية" . وهكذا جاء الكتاب الثانى - كله - وهو اكبر الكتب التسعة ، بعد الكتابين الاول والثامن - مقحما بصورة ملفتة بين حديثه عن قرار الملك الفارسى قمبيز CAMBYSES (٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م) بغزو مصر (الفصل الاول من الكتاب الثانى) ، وبين حديثه عن دوافع الغزو ووقائعه [٨] (الفصول الخمس عشرة الاولى من الكتاب الثالث) .

وأسباب هذا الاستطراد الضخم يبسطهاهيرودوت نفسه

== ان الباحثين المحدثين لم يأخذوا عليه سوى هنا تبسيطة انظر A.R.Burn, Herodotus, The Histories (Penguin Books, 1974), P. 17.

٧) عبد العزيز صالح ، "الشرق الادنى القديم" القاهرة ١٩٨٤ ص ٣١٤ .

٨) قارن Burn, Op.Cit., P. 17.

للقارئ فى وضوح تام : "سأبدأ الان الكلام عن مصر فى اسهاب ، لانها - دون غيرها من بلاد العالم اجمع - تحوى عجائب اكثر وآثارا تجل عن الوصف ، ومن أجل ذلك، ساطيل الحديث عنها"(٩) . فالقيمة الحضارية الفريدة التى كانت مصر لا تزال تجسدها ، هى التى املت على هيرودوت هذا الاستطراد ودفعته الى هذه الاطالة .

وهيرودوت كان يونانيا آسيويا . فهو سليل اسرة معروفة فى مدينة هاليكارناسوس HALICARNASSUS ، حيث ولد وبلغ مرحلة الشباب وهاليكارناسوس هذه مدينة دورية - كارية ذات صبغة ايونية فى جنوب غرب آسيا الصغرى(١٠) والى جوارها كان يقع باقى اقليم كاريا CARIA الواسع . والى الشمال قليلا كانت تقع ايونيا IONIA بسواحلها وجزرها . وهذه المنطقة كلها - القسم الشرقى من عالم بحر ايجه - تمثل فى الحقيقة أول وأعمق الروابط بين العالم اليونانى ومصر . ان التقدم المبهر الذى حققته الحضارة اليونانية من مراكزها الاوروبية فى القرن الخامس ق.م ، والدور التاريخى الدولى البارز والنشيط الذى قامت به هذه المراكز - خاصة اثينا - فى تلك الفترة ، يجعلنا فى كثير من الاحيان ننسى بسهولة زائدة انه فيما يتعلق بموضوع علاقات مصر الوثيقة ببلاد اليونان ، فانها كانت فى الحقيقة فى مجملها علاقات مع اليونانيين الآسيويين فى الاطراف الشرقية للعالم اليونانى وليست مع بلاد اليونان البلقانية . والجدير بالذكر فى هذا السياق ان كلمة "هلليتيين" اليونانية لا تترجم قط فى النصوص الديموتيقية سوى بكلمة " وينن - WYN-N" وهى الكلمة المصرية لمعنى " الايونيين" . بل ان كلمة "حانيبوت" التى كانت تدل احيانا على الاجانب عموما بالنسبة لسكان

---

٩) الكتاب الثانى ، ٣٥ .

١٠) Myres, Op.Cit., pp. 2-3.

وادى النيل ، ثم صارت تطلق على مجموعة الشعوب التى كانت تسكن آسيا الصغرى ، انتهى بها الامر فيما يبدو ان اصبحت تطلق على الايونيين وحدهم [١١] .

فأول اتصال مباشر فيما نعرف بين اثينا ومصر كان قبل منتصف القرن الخامس بقليل ، وكانت مصلحة اثينا فى محاربة الفرس وشل حركتهم وكذلك حاجتها الى قمح وادى النيل هى الدوافع الحقيقية للتحالف مع ايناروس INAROS بن بسماتيك الصاوى ، الذى كان قد تزعم ثورة ضد الفرس فى غرب الدلتا . ففى عام ٤٥٩ ق.م وصل الى مصر اسطول اثينى كبير لمساعدة الثورة ، وكانت الحالة حينئذ تبشر بالنجاح . ذلك ان ايناروس كان قد تمكن بالفعل من هزيمة قوات الاحتلال الفارسية وقتل قائدها . غير ان حامية منف كانت لا تزال تقاوم ، كما كان هناك أسطول فارسى صغير فى النهر يشد من ازرها . فامكن بسرعة التخلص من هذا الاسطول ، وسيطر الاثينيون وحلفاؤهم على النهر - حسبما يتبئنا ثوكيديدس - وافلحوا فى استرداد منف . ومع ذلك تمكنت الحامية الفارسية من التحصن فى قلعة داخل المدينة ودافعت عنها بنجاح . وهكذا استمر حصارها حتى عام ٤٥٦ ق.م . ولكن بعد وصول الجيوش الفارسية الجرارة انتهت الحملة الاثينية فى مصر بكارثة محققة وهلك اغلب رجالها ومعهم الامدادات التى ارسلتها اثينا وحلفاؤها ، فى حين وقع ايناروس نفسه فى قبضة الفرس فقتلوه (٤٥٤ ق.م) [١٢] . وصحيح ان الثورة

---

(١١) جان فركاتيه ، قدماء المصريين والاغريق ، ترجمة محمد على كمال وكمال دسوقى ، مراجعة محمد صقر خفاجه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٦ - ٣٩ .

(١٢) Thucydides, I.104, 109-110; R. Meiggs. The Athenian Empire (Oxford, 1972), pp. 101-108, 267; H.S. Smith, A visit to Ancient Egypt (Life at Memphis and Saqqara, C. 500-30 B.C.), England 1974, p.3.

استمرت فى الدلتا بقيادة اميرتايوس AMYRATAEUS، الا انها حوصرت فى المستنقعات بينما استعادت فارس بالفعل سيطرتها على كل مصر . ولقد حاول الزعيم الاثينى كيمون CIMON بعد ذلك، اثناء قيامه بحملة فى قبرص (٤٤٩ ق.م) ان يقدم العون الى امير تايوس، فارسل اليه ستين سفينة، ولكنها عادت مسرعة دون ان تفعل شيئا، على ما يظهر بسبب مصرع كيمون فى قبرص[١٣] . ولا مراء فى ان الحملة الاثينية فى مصر كانت نكبة على اثينا واثرت بشكل مباشر فى مركزها وفى سياستها فى شرق البحر المتوسط، وهزت من مكانتها بين حلفائها الايونيين، حتى انها وجدت نفسها مغلولة اليدين فى محاولة استعادة قبضتها على الحلف[١٤]، فاخذت تفكر جديا فى اقامة وفاق مع الملك الفارسى .

هكذا كانت الحملة الاثينية فى مصر بداية مثيرة فى علاقات بلاد اليونان البلقانية مع مصر، ولكن لم يكتب لها التواصل فى ذلك الوقت، بل ان "صلح كالياس PEACE OF CALLIAS (٤٤٩ ق.م) كان يعنى فى الحقيقة - بين امور اخرى - تخلى اثينا تماما عن مصر للفرس، كما سوف نشير بعد قليل .

وعلى النقيض من ذلك نجد ان علاقة مصر باليونانيين الاسيويين او الشرقيين علاقات قديمة ومتجددة على الدوام حتى عصر كاتبنا (وبعد عصره بلا جدال، وان كان هذا خارج مجال دراستنا هذه) . اما انها علاقات قديمة، فهى تعود على الاقل الى بداية عهد بسماتيك PSAMMETICHUS الاول (٦٦٤ - ٦١٠ ق.م) . فطبقا لرواية هيرودوت، كان "الرجال البرونزيون" الذين استخدمهم هذا الملك فى الوصول الى

---

١٣) Thucydides, I.112; Meiggs, Op.Cit., p.126.
١٤) Meiggs, Op.Cit., pp. 111,116,118;123-124.

عرش مصر جنودا مرتزقة من "الايونيين و الكاريين"، وبمساعدتهم تمت له السيادة على كل وادى النيل [١٥] . وقد اجزل لهم بمساتيك العطاء وشجعهم على الاستيطان فى مصر بان اعطاهم اراضى ليسكنوها فى الدلتا . وكان هؤلاء عنصرا هاما من عناصر توثيق الصلات بين مصر وعالم شرق بحر ايجه . وهيرودوت نفسه يقرر انه "بسكنى هولاء مصر وبفضل اتصال اليونانيين بهم عرفنا تماما كل ما جرى بمصر ابتداء من حكم بسماتيك وما بعده" [١٦] .

واما انها متجددة على الدوام ، فان الملوك الذين حكموا مصر بعد بسماتيك الاول ساروا على نهجه ، فجندوا كل من استطاعت اموالهم تجنيدهم من المرتزقة الايونيين والكاريين [١٧] . ويخبرنا هيرودوت ان الملك ابريس IPRIES (٥٨٨ - ٥٧٠ ق.م) كان معه ثلاثون الف جندى مرتزق من الكاريين والايونيين" [١٨] . بل ان اماسيس AMASIS (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) اتخذ من الجند الكاريين والايونيين حرسا خاصا له [١٩] .

ولا شك فى ان كثيرين من اهالى هاليكارناسوس ذاتها - وطن هيرودوت - احترفوا الجندية فى خدمة ملك مصر. وهيرودوت نفسه هو مصدرنا عن كيف ان احد مواطنيه ، ويدعى فانس PHANES ، كان يعمل فى خدمة الملك اماسيس ، غير انه حمل ضغينة على سيده فخانه ولجأ الى قمبيز . ولما كان ذا حيثية فى جيش مصر فانه كان يعرف معلومات دقيقة وخطيرة عن الظروف الداخلية للبلاد ، فلا عجب ان كان لمشورته اكبر

---

١٥) الكتاب الثانى ، ١٥٢ - ١٦٣ .
١٦) نفسه ، ١٥٤ .
١٧) J.Boardman, The Greeks Overseases (1973), pp. 113-114.
١٨) الكتاب الثانى ، ١٦٣ .
١٩) نفسه ، ١٥٤ .

الاثر فى انجاح غزوة الفرس لها وضمها الى الامبراطورية الفارسية [٢٠] .

كانت سياسة ملوك العصر الصاوى تتسم بالعطف على اليونانيين وثقافتهم . وقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى ان اثنين منهم على الاقل ، وهما بسماتيك الاول واماسيس ، استحقا ان يطلق عليهما الكتاب اليونانيين القدماء لقب PHILELLEN اى "محب لليونانيين" [٢١] . فيخبرنا هيرودوت ان الملك نخاو الثانى (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) - أو نيكوس NEKOS بن بسماتيك كما يسميه - ارسل الى معبد البرانخيد اى BRANCHIDAE فى ميليتوس ، الملابس التى كان يرتديها اثناء قيامه بحملته الناجحة فى سوريا (٦٠٨ ق.م) ، ووهبها لابوللون [٢٢] . وان اماسيس "اشتهى ان تكون له امرأة يونانية" ، فتزوج بالفعل من سيدة من أهل كورينى (برقة) تدعى لاديكى [٢٣] . وانه - اى اماسيس - ساهم بمبلغ كبير فى اعادة بناء معبد دلفى الذى كان قد احترق [٢٤] . وانه ارسل ايضا الهدايا الى بلاد اليونان ، بصفة خاصة الى كورينى وليندوس وساموس [٢٥] . غير ان نقراطيس تبقى اعظم مأثرة قدمها ملوك العصر الصاوى لليونانيين وربما من المناسب ان نتذكر هنا ان مصدرنا الادبى الاول

---

٢٠) انظر Herodotus, III,4-7,11; A.W. Lawrence, The History of Herodotus of Halicarnassus, The Translation of G. Rawlinson Revised and Annotated (Bloomsbury,1935),P.246 (Note on chapter 4,"Phanes")

٢١) انظر Diodorus,I.67.309 فى وصف بسماتيك الاول . وهيرودوت ، الكتاب الثانى ، ١٧٨ ، فى وصف اماسيس .

٢٢) الكتاب الثانى ، ١٥٩ ، انظر ايضا Boardman, Op.cit., p. 113.

٢٣) الكتاب الثانى ، ١٨١ .

٢٤) نفسه ، ١٨٠ .

٢٥) نفسه ، ١٨٢ .

والرئيسى عن نقراطيس هو هيرودوت نفسه (٢٦) . فيذكرمورخنا ان المدن التى ساهمت فى بناء الهلليتيوم HELLENIUM - اكبر معابد المدينة واشهرها واكثرها روادا حسب روايته - هى خيوس CHIOS وتيوس TEOS وفوكايا PHOCAFA وكلازومينای CLAZOMENAE ورودس RHODES وكنيدوس CNIDOS وهاليكارناسس - وطن هيرودوت - وفاسليس PHASELIS وميتيليني MYTILENE. وان هذه المدن التسعة هى ايضا التى تعين القناصل الذينيشرفون على التجارة فى المدينة PROSTATAI TOU EMPORIOU . ومما تجدر ملاحظته ان هذه المدن جميعها مدن يونانية آسيوية ليس بينها مدينة يونانية اوروبية واحدة . وغير هذه المدن التسعة يذكر هيرودوت ثلاث مدن اخرى ، كان لها اماكن عبادة منعزلة فى نقراطيس . فقد "بنى اهل ايجينا AEGINA - على حده - معبدا لزيوس خاصا بهم ، وبنى اهل "ساموس" معبدا لهيرا ، والملطيون آخر لابوللون" . ونلحظ هنا ايضا انه فيما عدا جزيرة ايجينا كانت هذه المدن مدنا يونانية آسيوية .

---

٢٦) نفسه ، ١٧٨ - ١٧٩ . عن المصادر الادبية المتأخرة ، انظر M.M.Austin, Greece and Egypt in the Archaic Age(Proceeding of the Cambridge Philological Society, 1970,pp. 22-23, 29. الجدير بالملاحظة ان الادعاء القائل بأن نقراطيس كانت موءسة ملطية نذكرنا بالادعاء الطريف القائل بأن "سايس" ، حاضرة مصر فى عصر الاسرة السادسة والعشرين ، اسسها اثينيون . انظر فى ذلك Austin, Op.Cit., pp.23-32, وعن نشأة نقراطيس انظر : cf. F.W. Von Bissing, "Naukratis", (Societe Royale d'Archeologie d'Alexandrie, No. 39,1951. pp. 35-45; C. Roebuck, "The Organization of Naukratis", (Classical Philology, XLVI, 1951), pp. 216-217.

٣

وعندما ضاقت الحياة السياسية بهيرودوت فى مدينته ، هجرها الى جزيرة ساموس القريبة (٢٧) ، حيث كان الناس هناك لا يزالون يذكرون هدايا اماسيس للجزيرة فى اطار وثيق صلات المودة والكرم بينه وبين وليكراتيس(٢٨) POLYCRATES (طاغيتها من حوالى عام ٥٤٠ حتى ٥٢٢ ق٠م)

وهكذا يتبين لنا ان هيرودوت ولد ونشأ فى مدينة كانت هى وكل ما حولها يرتبط بروابط وثيقة مع مصر ، وفىالحقيقة كانت الظروف الجغرافية ملائمة تماما لاقامة صلات سهلة ومباشرة بين الدويلات اليونانية الآسيوية وبينمصر.وسرعان ما اصبح وادى النيل فى عصر ملوك الاسرة السادسةوالعشرين مركز جذب هام لليونانيين الآسيويين . ثم جاء الغزوالفارسى لكى يزيد - دون قصد بطبيعة الحال - من عمق هذه الصلات وسهولتها . فبعد منتصف القرنالسادس ق ٠م بقليل، استولى قورش الاكبر على بلاد اليونان الاسيوية .وفى عام ٥٢٥ ق٠ م غزا خليفته قمبيز مصر . وبذلك وجدت مصر وبلاد اليونان الآسيوية نفسيهما معا تحت مظلة الامبراطورية الفارسية ، وفتحت ابواب مصر على مصاريعها امام اليونانيين الاسيويين. بهذا الصدد يسجل لنا هيرودوت فى فقرة هامة ما يلى : "اثناء حملة قمبيز فى مصر وفد على البلاد عدد كبير جدا من اليونانيين لسبب او لاخر . فبعضهم بكما كان متوقعا -

---

PH.-E. Legrand, Herodote, Introduction, (٢٧ notice preliminaire sur la vie 9-11; Burn, Op.cit., P. 11.

٢٨) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ١٨٢ . انظر ايضا الكتاب الثالث ، ٣٩ - ٤٧ . الرسالة الى يوردها هيرودوت فى هذه الفصول الاخيرة ، ويزعم ان اماسيس بعث بها الى بوليكراتيس ، ورد الاخير عليها ، يمكن بطبيعة الحال الشك بسهولة فى صحتهما . غير انهما تعكسان اهمية وعمق العلاقة بين اماسيس وبوليكراتيس ، على الاقل فى تصور معاصرى هيرودوت نفسه .

جاءوا بغرض التجارة ، وبعضهم جاءوا للخدمة فى الجيش ، ولكن آخرين بلا ريب زاروا مصر لمجرد حب الاستطلاع وليشاهدوا ما يمكنهم مشاهدته "(٢٩) .

وكلمات هيرودوت هذه واضحة ولا تدع مجالا للشك فى الاثر الكبير الذى احدثه الغزو الفارسى على تطور العلاقات بين مصر والعالم اليونانى ، فحتى الساحة اليونانية فى مصر نشطت وراجت بشكل ملحوظ . اما التجارة بين مصر وعالم بحر ايجه فقد ازدهرت على حين بغتة نتيجة لهذه المستجدات السياسية . فقد اوجد غزو الفرس لمصر وضمها الى الامبراطورية الفارسية عوامل عدة كان من شأنها اعطاء دفعة كبيرة لتجارتها الخارجية مع المدن الدول اليونانية الآسيوية . وابرزهذه العوامل تتمثل بطبيعة الحال فى المظلة الفارسية ذاتها التى شملت الطرفين معا . فلم تعد هناك حكومة مصرية تضع الحدود وتنظم وتقنن المعاملات الخارجية وفق مصالح قومية او محلية فى آخر الامر ، مهما كان تعاطف الملوك مع اليونانيين . وهيرودوت نفسه يؤكد لنا ان نقراطيس - على سبيل المثال - كانت فى ظل ملوك الاسرة السادسة والعشرين تتمتع بمكانة ممتازة جعلتها تحتكر التجارة مع العالم اليونانى . "فاذا بلغ احد ما داخل مصب آخر من مصاب النيل ، وجب عليه ان يقسم انه لم يأت بمحض رغبته . وبعد القسم كان عليه ان يبحر بسفينته وحمولتها الى المصب الكانوبى (حيث تقع نقراطيس) . واما اذا استحال عليه عليه ان ينقل بضاعته فى قوارب مصرية ويطوف بالدلتا حتى يصل الى نقراطيس"(٣٠) . غير ان نقراطيس فقدت خصوصيتها هذه بعد ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية اذ فتحت ابواب مصر على مصاريعها امام التجار اليونانيين الآسيويين دون قيود حتى اصبحت البلاد تضم جاليات يونانية من اى

٢٩) Herodotus, III, 39.

٣٠) الكتاب الثانى ، ١٧٩ .

ولاية فارسية اخرى . وقد شجع هذا التدفق بلا ريب انه فى عهد الملك الفارسى داريوس الاول (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م) تم حفر ، او بالاحرى تم اعادة حفر القناة التى وصلت النيل بالبحر الاحمر عن طريق " وادى الطميلات" ، فربطت بذلك بين البحرين الاحمر والمتوسط(٣١) ، وجعلت مصر بالتالى ، اكثر من اى وقت مضى ، حلقة اتصال رئيسية بين الشرق والعالم اليونانى .

ومنذ ان استعان بسماتيك الاول "بالرجال البرونزيين" ، لا نكاد نلحظ حدثا حربيا هاما فى تاريخ وادى النيل لم يكن للمرتزقة الايونيين والكاريين دور بارز فيه(٣٢).ولم يتوقف هذا الدور بعد ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية بل لعله زاد . فكما سبق ان لاحظنا مع أبى التاريخ. ان بعض اليونانيين الآسيويين الذين تدفقوا على مصر اثناء حملة قمبيز فيها ، جاءوا اليها بغرض الخدمة فى الجيش . وصحيح ان الاحتلال الفارسى لمصر (فى الفترة الاولى) استمر حتى عام ٤٠٤ ق.م ، غير ان المصريين لم يستكينوا له ابدا . بل لجأ كثيرون منهم فى مقاومته الى السلاح حتى اخذت رياح الثورة تهب على البلاد . وفى الفترة التى سبقت زيارة هيرودوت لمصر اندلعت فيها على الاقل ثورتان كبيرتان (٤٨٦ و ٤٦٠ ق.م) . هذا الصراع ضد الفرس اعطى بعدا جديدا لاستخدام المرتزقة اليونانيين . فكثير من اليونانيين - حسب قول الخطيب الاثينى ديموسثينيس - دفعهم " الفقروالرغبة فى اثراء انفسهم" الى تقديم خدماتهم العسكرية الى كل من يدفع لهم . وهكذا كان هناك مرتزقة يونانيون يحاربون فى صفوف المصريين ضد الفرس ، بينما كان هناك آخرون

---

(٣١) نفسه ، ١٥٨ .
(٣٢) انظر على سبيل المثال ، الكتاب الثانى ، الفصول ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ .

يحاربون فى الجيش الفارسى ضد المصريين[٣٣] . ومن ناحية اخرى كان الفرس يجندون قسما رئيسيا من قواتهم من بين اهالى الولايات الفارسية وبعضها مصر . فاذا كان الملك الفارسى كسيركسس قد احرز نجاحا ما فى معركة ارتميسيوم ARTEMISIUM البحرية الشهيرة (٤٨٠ ق٠م) فان ذلك، كما يؤكد هيرودوت ، كان على يد الجنود المصريين فى اسطوله . "ففى تلك الموقعة البحرية من بين كل مقاتلى كسيركسيس ، ابلى المصريون بلاء حسنا ، فالى جانب بطولات اخرى كثيرة حققوها فانهم تمكنوا من أسر خمس سفن يونانية ومعها أطقمها "[٣٤] .

ولا مراء فى ان الحروب الفارسية - اليونانية ، وان لم تلعب فيها مصر دورا حاسما ، قد ربطت ما بين مصير بلاد اليونان الآسيوية ومصير مصر الى حد كبير . فكما اشرنا من قبل ، ان النهاية المأساوية التى انتهت اليها الحملة الاثينية فى مصر قد ادت الى اثارة مشاعر الاستياء بين حلفاء اثينا الايونيين على وجه الخصوص ، الذين شعروا انهم باتوا مهددين مرة اخرى بالفرس ، ورأى بعضهم ان توقعاتهم بالنسبة لقوة اثينا ومقدرتها لم تكن صحيحة فامتنعوا عن دفع الحصة المقررة لها[٣٥] . ثم ما لبثت اثينا ان اتجهت الى اقامة نوع من الوفاق فيما بينها وبين فارس ، وهو ما عرف فى

---

٣٣) Domosthenes, on the Navy-Boards, 31.cf. Diodorus, XI-71; XV. 29, 41,92, XVI. 42.

٣٤) Herodotus. VIII,17. cf. How and Wells, Op. Cit., II, p. 239. See also Herodotus, VII, 34, 89; VIII, 68,100; IX, 32., Dio Chrysostom, On Kingship, 45.cf. H.R.Hall, "The Restoration of Egypt", (The Cambridge Ancient History, III, 1925, reprinted 1970), P. 315.

٣٥) Meiggs, Op.Cit., pp. 123-124; V. Ehrenberg, From Solon to Socrates, Greek History and Civilization During the 6th and 5th Centuries B.C. (London,1973), p.224.

التاريخ باسم "صلح كالياس"(٣٦) .وجوهر الاتفاق الاثينى - الفارسى كان فى الحقيقة يقوم على فصل محدد لمناطق العمليات العسكرية و المصالح لكل منهما فى عالم شرق البحر المتوسط . اذ اتفق الطرفان على ما يبدو على ان يكون الخط الوهمى الممتد من البوسفور فى الشمال الى فاسيليس فى الجنوب حدا فاصلا بين القوتين . وبمعنى آخر أن اثينا تخلت فى الواقع عن ايونيا للفرس . ولكنها فى نفس الوقت تخلت ايضا عن مصر (فضلا عن قبرص)(٣٧) . فاصبح اليونانيون الاسيويين وابناء النيل بذلك حلفاء من نوع ما فى حقيقة الامر يجمعهم تشابه الظروف .

وكما نرى فان علاقات مصر ببلاد اليونان الآسيوية علاقات قديمة ترجع على الاقل الى القرن السابع ق.م وهى علاقات راسخة ومتعددة الوجوه ، ازدادت رسوخا وازدهارا بمرور السنين . ولم تفعل المستجدات السياسية فى شرق البحرالمتوسط سواء الغزو الفارسى لمصر او احداث الحروب الفارسية اليونانية ونتائجها ، سوى توثيق هذه الصلات وتشعب اوجهها .

وكان طبيعيا ان تسيطر مصر بثقلها الحضارى على افق اليونانيين الآسيويين . ويعتقد المؤرخون المحدثون بحق ان مصر احتلت بالفعل المكان الاول فى تأملات وافكار ودراسات

---

٣٦) عن هذا الصلح انظر
Meiggs, Op.Cit., PP. 129-151,598-599; Ehrenberg, Op.Cit., PP. 446-447 (note 74).

٣٧) اذا صح ما تردد فى بعض المصادر (وليس هناك ما يجزم بصحتها) من ان الاتفاق اشتمل على انشاء منطقة محايدة على ساحل آسيا الصغرى ، فان هذا الامر لا يغير من حقيقة ان اثينا ، ومعها وحلفاؤها من اليونانيين الاوروبيين قد تخلوا فى الواقع عن بنى جلدتهم اليونانيين الاسيويين . انظر : Ehrenberg, Op.Cit., P. 225.

الايونيين السابقين منذ ما قبل عصر هيرودوت(٣٨). فاذا كانت زيارة مصر قد اصبحت فيما بعد - وحتى نهاية العصر الروماني على الاقل - بندا اساسيا في قائمة معارف كل عظماء ومشاهير الرجال(٣٩)، فان الدلائل تشير الى ان هذا التقليد بدأ اول ما بدأ بين اليونانيين الآسيويين، والى ان عددا كبيرا من علمائهم وكتابهم وفنانيهم حرصوا على زيارة وادي النيل. فالذين تدفقوا على مصر في العصر الصاوي لم يكونوا فقط جندا مرتزقة وتجارا - وان كان هؤلاء بلاشك هم غالبية المستوطنين الايونيين والكاريين. ففي الحقيقة كان كل القسم الجنوبي من ايونيا بصفة خاصة يرسل الى مصر السياح والدارسين من المشاهير ورجال العلم(٤٠). فكثير من العلماء اليونانيين، سواء قبل هيرودوت او في عصر هيرودوت نفسه، ممن اهتموا عن قرب بمصر، زاروها بغرض جمع المادة العلمية لاعمالهم. ولعل اشهر هؤلاء هو هيكاتايوس HECATAEUS الملطي، ولكن كان هناك آخرون غيره بالتأكيد(٤١). فهيرودوت لم يكن بأي حال اول السابقين الذين زاروا مصر من اليونانيين الآسيويين، وانما سبقه اليها كثيرون، ويبدو مؤكدا انه جاء الى مصر ومعه ذخيرة

---

٣٨) W.H.Heidel, "Hecataeus and the Egyptian Priests in Herodotus, Book II, (American Academy of Arts and Sciences Memoirs, XVII,2, 1935), P.11 note 270.

٣٩) انظر : J.G. Milne, "Greek and Roman Tourists in Egypt (Journal of Egyptian Archaeology, 1916) pp. 76-80.

٤٠) C.Sourdille, La Duree et l'Etendue de Voyage d'Herodote en Egypt. (Paris,1910), P.70.

٤١) D.Mallet, "Les Rapports des Grecs avec l'Egypt" (Memoires Publies par les Membres de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale du Caire,48, 1922), pp. 25-26, 56.

من نتاج تأملات وافكار وتجارب سابقيه من الكتاب والرحالة والعلماء الايونيين(٤٢) .

وجلى ان رحلة هيرودوت الى مصر كانت من بين اخريات رحلاته واطولها ايضا(٤٣) . وفى وسعنا ان نفترض انها كانت ايسرها كذلك . ذلك انه جاءها بعد سنوات من نجاح الفرس فى القضاء على ثورة ايناروس (٤٦٠ – ٤٥٤ ق.م) الخطيرة فى الدلتا ، وما صاحب ذلك من ابادة الحملة الاثينية ،كما ذكرنا . وفضلا عن ذلك فقد جاءها بعد صلح كالياس(٤٤) الذى اخرج القسم الشرقى من بحر ايجه من دائرة الصراع الاثينى الفارسى . وقد وفر هذان العاملان بلا جدال فرصة حقيقية للامن وباعثا على الطمأنينة(٤٥) – اضف الى ذلك ظروف مصر الجغرافية بوصفها بلد سهل الوصول الى جميع مراكزه الهامة بطريق نهر النيل دون مشقة كبيرة – فحتى الاهرام وصل اليها بسهولة فى قارب ، اذ كان الوقت فصل الفيضان(٤٦) .

وكانت هناك عوامل اخرى جعلت من رحلة هيرودوت فى مصر يسيرة سهلة فالجاليات اليونانية كانت منتشرة فى ربوع البلاد . وفضلا عن ذلك فانه كان يستطيع ان يسلك طريقه

---

٤٢) انظر : Burn, Op.Cit., PP. 25-27; How and Wells, Op.Cit., PP. 22-29; Myres, Op.Cit., pp.23-23. Sourdille, Op.Cit., pp. 5-28.

٤٣) وهو يعتقد بان زيارة هيرودوت دامت نحو اربعة شهور ، من اواخر شهر يوليو او قبل ذلك بقليل حتى نهاية شهر نوفمبر او بعد ذلك بقليل . وقد اخذ بهذا الرأى جمهور المؤرخين المحدثين ، غير ان بعضهم يرى ان هيرودوت ربما قام برحلة ثانية لوادى النيل. انظر فى ذلك : Myres, Op.Cit., P. 152.

٤٤) How and Wells, Op.Cit., I,P. 5:"Herodotus' visit to Egypt may be dated almost certainly after 449 B.C.", cf. Ibid., P. 411.

٤٥) Ibid., P.411: "The Persians seem to have been in peaceful possession of Egypt".

٤٦) Myres, Op.Cit., P. 152.

لغته اليونانية اينما ذهب ، وداثما يجد من يفهمها ويستطيع ان يحدثه بها (٤٧) . فعن طريق المستوطنين اليونانيين بدأ بعض المصريين يتعرفون على اللغة اليونانية . ولم يكن هذا فقط النتيجة الطبيعية للمعاملات اليومية مع اليونانيين فى الجيش وفى السوق ، ولكن ايضا لان هذه اللغة نالت تشجيعا رسميا بواسطة الملوك الصاويين . فهيرودوت يسجل لنا ان بسماتيك لم يعط الايونيين والكاريين الذين ساعدوه فى الوصول الى العرش اراضى ليسكنوها فى الدلتا فحسب ، بل ايضا "عهد اليهم بصبية مصريين ليتعلموا اللغة اليونانية" (٤٨) . وفى زمن هيرودوت كان عدد المصريين الذين يعرفون اللغة اليونانية ملحوظا . وطبيعى بالنسبة لرحالة يونانى مثل هيرودوت كان المترجمون الذين يجيدون اللغة اليونانية ظاهرين بوضوح امامه اينما ذهب حتى انه عدهم طبقة من الطبقات السبعة التى ظن ان المصريين ينقسمون اليها (٤٩) .

وفضلا عن كل ذلك ، ثمة عامل آخر جعل الكتاب الثانى يختلف عن باقى مؤلف هيرودوت فى طابعه وفى ثراء مادته . فالدراسات النصية ترجح ان هيرودوت كتبه على حدة ، وبعد ان كان قد فرغ بالفعل من كتابة باقى "التواريخ" ، ثم ادخله فى مكانه الحالى آخر الامر . وبمعنى آخر ان الكتاب الثانى كان فى ارجح الاحتمالات آخر جزء كتبه ابو التاريخ ، وهو لذلك يمثل مرحلة متأخرة فى حياته ونضجه بعد التجربة والخبرة الطويلة (٥٠) .

---

(٤٧) Burn, Op.Cit., P.9.

(٤٨) الكتاب الثانى ، ١٥٤ ، انظر ايضا : Diodorus, I, 67, 8-9.

(٤٩) الكتاب الثانى ، ١٦٤ . قارن D.J.Mosley, "Greeks, Barbarians, Language and Contact", (Ancient Society, II, 1971) P.3.

How and Wells, Op.Cit., P. 14; cf. Myres, Op.Cit., P. 23: "Book II was a separate Composition".

ولا مراء فى ان مصر الارض والنهر شغلت العلماء والمفكرين اليونانيين مثلما شغلتهم حضارة وخصال شعب وادى النيل . فهيرودوت انما يجسد الرأى السائد فى عصره عندما يمجد النيل بوصفه اعظم الانهار جميعا واطولها ، فلا يوجد نهر آخر " يستحق ان يقارن - من حيث الحجم - بأحد فروع النيل" ، كما لا توجد انهار اخرى يمكن ان "تقاس بالنيل فى عظمته" (٥١) . كان نهر النيل فى نظر هيرودوت فريدا فى بابه ، أثار فى نفسه شغفا شديدا ، لم ينكره ، لمعرفة طبيعته واسرار فيضانه وقوته التى اعتقد ان بها تختلف طبيعته عن سائر الانهار . بل انه شغل نفسه بتفصيلات دقيقة ، فحاول ان يجتهد لمعرفة " السبب فى ان النيل وحده - دون سائر الانهار - لا يهب على صفحاته نسيم" (٥٢) وفى الحقيقة كانت منابع النيل وطبيعته يشكلان لغزا مزدوجا امام العلماء الطبيعيين اليونانيين قبل زمان هيرودوت وفى ايامه ، تأسر خيالهم وتفكيرهم العلمى معا . فهيرودوت يذكر لنا ان "بعض اليونانيين - وقد ارادوا ان يشتهروا بالحكمة - ذهبوا فى تفسير ظاهرة فيضانه ثلاثة مذاهب مختلفة" (٥٣) . وبمعنى آخر كانت هناك ثلاث نظريات يونانية على الاقل فى تفسير ظاهرة واحدة من ظواهر النيل ، ذكرها هيرودوت كلها لكى يدحضها ولكى يتبنى هو نفسه نظرية رابعة رأى انها الارجح(٥٤) . وألف شوب عالم الطبيعة فتطوع لتفسير ظاهرة عدم هبوب الرياح على سطح النيل (٥٥) . ثم أسرته مشكلة سر منابع النيل ، مثلما أسرت أهل زمانه وما قبل زمانه من العلماء اليونانيين الآسيويين (٥٦) . ولكن هنا امسك هيرودوت عن استخلاص نتيجة

---

٥١) الكتاب الثانى ، ١٠ .
٥٢) نفسه ، ١٩ .
٥٣) نفسه ، ٢٠ - ٢٣ .
٥٤) نفسه ، ٢٤ - ٢٥ .
٥٥) نفسه ، ٢٧ .
٥٦) W.G. Waddell, Herodotus Book II (London, 1939), PP. 147-8.

محددة ، وحاول باسلوب "الاستدلال من المعلوم على المجهول" ان يحيط عن قرب قدر استطاعته بهذا السر الغامض المزعج ، وذلك بعمل قائمة بالفروض المتعددة الخاصة بمصادر النهر (٥٧) .

ومثلما اعتقد هيرودوت بان نهر النيل يختلف عن سائر الانهار ، تصور ايضا ان شعب وادى النيل يختلف عن باقى الشعوب . فقد قدم ابو التاريخ لما وصفه "بالحديث الطويل" عن مصر بتقرير قاعدة مثيرة تربط فى ظاهرها باحكام مابين طبيعة البلاد ومناخها - على نحو ما اعتقد به هيرودوت - وبين طباع السكان وعاداتهم . "فنظرا لان مناخ مصر منقطع النظير ولان نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقى الانهار ، لذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم" (٥٨) . ثم يستطرد هيرودوت فيضع امام القارىء العديد من الامثلة التى تدلل من وجهة نظره على صدق مقولته وسلامة القاعدة التى صاغها واتخذ منها مدخلا لفهم الشخصية المصرية فى عصره ، او بالاحرى اتخذ منها مدخلا لتقديم الشخصية المصرية لقرائه . وصحيح انه ذكر امورا نستطيع ان نفهمها بسهولة ونجد ما يؤيدها فيما وصل الينا من تراث مصر القديمة ، بل ربما نلمس بقايا بعضها ما زالت حية فى عادات وسلوكيات اهالى مصر فى عصرنا هذا ، الا انها فى مجملها لا تكفى لتبرير مقولته بان المصريين اختلفوا كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم . كما ان بعضها لم يكن قاصرا بالتأكيد على ابناء النيل . غير ان هيرودوت لم يلبث ان اسرف فى تعميماته حتى ذكر امثلة يمكن اثبات زيف بعضها دون عناء بمجرد مقابلتها بما وصل الينا من تراث مصر القديمة . بل ان

---

٥٧) الكتاب الثانى ، ٢٨ - ٣٤ .

٥٨) نفسه ، ٣٥ - ٣٦ ، احمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١١٦-١٢٤ . وانظر ايضا :
How and Wells, Op.Cit., PP. 179-182.

بعضها الآخريرفضها العقل او المنطق السليم من اساسها،حتى ان عالما فى المصريات رأى من الخير الا يعلق عليها، "ذلك لان التعليق عليها قد يوهم القراء اننا نضعها موضع الجد ولو فعلنا لكنا اذا من الهازلين" (٥٩) .

ومع ذلك فينبغى ان نلتمس العذر هنا لابى التاريخ ، فقد كان جلال مجد مصر يروعه وقدم حضارتها يبهره ، فآمن بخصوصيتها وتفردها بين سائر الامم ، وحاول ان يجسد هذا الاعتقاد وان ينقله الى قرائه فانزلق فى شرك المغالاة . وعلى اية حال فالامثلة التى ذكرها قليلة فى مجموعها ، واكثرها قليل الاهمية ، وكلها تقريبا تتعلق بتفاصيل الحياة اليومية ، ولا تدخل فى مجال التقاليد او الاعراف الجوهرية التى تقوم عليها المجتمعات .

فقد كان اليونانيين يدركون تماما انهم شعب "حديث" بالقياس الى شعب وادى النيل صاحب الحضارة العريقة . فاذا كانوا فى عالمهم اليونانى لم يجدوا اقدم من هوميروس وملحمتيه الالياذة والاوديسا لاعطائهم احساسا زائفا بالبعد الزمنى فى ماضيهم ، فانهم فى مصر وجدوا بالفعل العامل الرئيسى فى وحدة الجنس البشرى ، الا وهو " الزمن التاريخى". فمصر هى اقدم البلاد ، تتفوق على غيرها بطول تاريخها وبعد جذورها فى عمق الزمن .

وبهذا المفهوم يبدأ هيرودوت فى الحقيقة كتابه الثانى. وكعادته دائما فهو لا يترك فرصة تسنح له دون ان يمارس عبقرية القصاص فيه ، فيذكر انه "قبل حكم بسماتيك(الاول) ،

---

٥٩) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١١٨ ، قارن ايضا :
Lawrence, Op.Cit., P. 160: "Such sweeping generalities could hardly be accurate and where they can be tested by the monuments it appears that truth has often been sacrificed to rhetorical effect".

كان المصريون يعتقدون انهم اقدم الناس فى الوجود . ولكن لما تولى بسماتيك الحكم اراد ان يعرف اى الشعوب اقدم . ومنذ ذلك الحين يعتقد المصريون ان الفريجيين اسبق منهم، وانهم انفسهم اقدم من الآخرين جميعا" . وبعد هذه المقدمة المثيرة للانتباه يحكى لنا ما سمعه من قصة التجربة التى زعم له رواتها بان هذا الملك اجراها على طفلين حديثى المولد . ثم يخلص آخر الامر الى ان المصريين ، فى ضوء ما اسفرت عنه هذه التجربة المشوقة ، " اعترفوا وحكموا بأن الفرجيين اقدم منهم" (٦٠) .

والنتيجة غير المتوقعة "لتجربة بسماتيك" هذه تستجيب فى اغلب الظن الى مقاصد جدلية تكاد تكون واضحة غير مستورة . فعلى الرغم من ان هيرودوت يدعى بانه سمع من كهنة هيفايستوس (بتاح) فى منف ان الامر قد حدث كما شرح، الا ان القصة كلها تبدو يونانية الهوى وليست مصرية الاصل ، يرى المؤرخون المحدثون انها نسجت على منوال يونانى غريب على القصة المصرية ، ونشأت اغلب الظن بين بعض اليونانيين الذين ربما بدافع من الغيرة ارادوا ان يلقوا ظلالا من الشك على واحدة من ابرز سمات الحضارة المصرية واكثرها اثارة لمشاعر الفخر والاعتزاز عند المصريين ، الا وهى انهم اقدم الشعوب وان حضارتهم هى اقدم الحضارات . والقصة بعد ذلك تختلف فى بعض تفصيلاتها التى " يرويها اليونانيون فيما يروون من سخافات متعددة " - على حد تعبير هيرودوت نفسه (٦١) .

وعلى اية حال فان قصة "تجربة بسماتيك" فى حد ذاتها وبصرف النظر عن مدى صحتها تاريخيا ، تشير الى ان الموضوع المطروح فيها - قدم مصر وعراقة شعبها - كان اكثر ما يبهر

---

٦٠) الكتاب الثانى ، ٢ .

٦١) نفسه ، أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٦٠ - ٦٥ .

اليونانيين ويثير اعجابهم عند اتصالهم بمصر ، وان كان الاعجاب تشوبه فى بعض الاحيان مشاعر الغيرة والانكار فتنشأ عنها مثل هذه القصص . وظاهر الامر ان ابا التاريخ لم يقتنع فى الحقيقة ابدا باسطورة ان الفريجيين اقدم من المصريين . ففى مكان آخر من "التواريخ" يوءكد لنا بتلقائية وبصورة طبيعية تماما ان الفريجيين كانوا فى الاصل من سكان مقدونيا ، عرفوا فيها باسم البريجيس BRIGES ، ثم غيروا اسمهم فى نفس الوقت الذى غيروا فيه وطنهم بهجرتهم الى آسيا الصغرى(٦٢) . وهكذا نتبين ان هيرودوت يوءكد - رغم قصة "تجربة بسماتيك" الطريفة - ان الفريجيين كانوا من اكثر الشعوب حداثة وانهم لا يمكن ان يصمدوا امام حق المصريين فى الادعاء بانهم اقدم الشعوب وهو ادعاء يقبله ويسلم به تماما فى باقى موءلفه ، مثلما قبله وسلم به غيره من الموءرخين والفلاسفة والكتاب اليونانيين(٦٣) .

ولا مراء فى ان من بين الاسباب التى كانت تدفع الى الاعتقاد بان المصريين اقدم الشعوب ، وفرة الآثار العتيقة وشهادات السجلات التى كان الكهنة يعنون بتدوينها وحفظها فى المعابد المصرية ، بل وايضا الشواهد الجيولوجية التى كان لها اثر كبير فى كتابة التاريخ . فقد لاحظ هيرودوت(٦٤) - مثلما لاحظ آخرون غيره من قبله - من الشواهد الجيولوجية الواضحة ما يوءكد ان مصر (وبخاصة الدلتا) ارض مكتسبة وانها هبة النيل . فقد كانت "حسب اقوال الكهنة ، ووفقا لاعتقادى الشخصى" خليجا فى البحر ، ثم كونت تربتها السوداء الخصبة رواسب الطمى التى جلبها النيل من اثيوبيا

---

٦٢) Herodotus, VII, 73.

٦٣) How and Wells, Op.Cit., PP. 155-156.

٦٤) الكتاب الثانى ، ٥ ، ١٠ - ١٢ .

على مدى آلاف السنوات . ووفقا لتقدير هيرودوت استغرق النهر مدة من عشرة الى عشرين الف عام فى تكوين الدلتا وحدهـا وهكذا فان هذه الظاهرة الجيولوجية التى تتعلق بتكوين مصر كانت تظهر لطلاب المعرفة البعد الزمنى للتاريخ بصورة اوضح من اى مكان آخر فى العالم فى ذلك الوقت .

اما المصريين انفسهم فهيرودوت "لا يصدق ابدا انهـم وجدوا فى نفس الوقت الذى تكونت فيه الدلتا التى يسميها الايونيين مصر ، بل هم قد عاشوا منذ بدء الخليقةالبشرية . ولما اخذت بلادهم فى الامتداد بقى الكثير منهم فى الوراء ، بينما انحدر الكثيرون تدريجيا الى الارض الجديدة ، وايـا كان الامر ، فقد كانت "طيبة" تسمى منذ القدم "مصر"[(٦٥)] . فقد كان هيرودوت واهل زمانه يعتقدون ان طيبة أم المدائـن المصرية . ولعل هذا يرجع بالدرجة الاولى الى اصداء امجـاد مصر فى عصر الاسرة الثامنة عشرة عندما كانت طيبة عاصمـة للامبراطورية المصرية ، اولى الامبراطوريات العظيمـة فـى الشرق الادنى القديم ، تلك الاصداء التى لم يتوقف دويهـا على مر العصور حتى ان طيبة كانت هى المدينة المصريـة الوحيدة التى تغنى هوميروس بمجدها على لسان بطل الالياذة ـ اخيليس ـ فاشاد بثرائها واتساعها وعظمتها وقوتها[(٦٦)] . ولهذا كان سهلا على هيرودوت وغيره من اليونانيين ان يقبلوا بالتصور القائل بان "منا" ـ اول ملك على مصر من البشـر على حد زعمهم ـ كان ملكا على طيبة ، "وان مصر فى عهـده كانت كلها مستنقعا ما عدا ولاية طيبة ، بينما لم يظهر فوق

٦٥) نفسه ، ١٥ .

٦٦) The Iliad of Homer (translated by R. Lattimore, Chicago, 1951), IX,381-4:
" .... all that is brought in to Thebes of Egypt, where the greatest possessions lie up in the houses. Thebes of the Hundred gates, where through each of the gates two hundred fighting men come forth to the war with horses and chariots".

الماء جزء واحد من الارض التى توجد الآن شمال بحيرة مويريس (بركة قارون)" (٦٧) .

وهكذا فان هيرودوت - فى حدود البعد الزمنى الذى افترضه لتكوين الدلتا ، طبقا للشواهد الجيولوجية - افترض بالتالى بعدا زمنيا مماثلا على الاقل لازدهار الحضارة المصرية فى الصعيد . وهو فى هذا يفرق بوضوح بين زمن حكم الآلهة والفترة التاريخية الانسانية . فنراه ، كما لو كان يقرر حقيقة غير قابلة للنقاش ، انه "منذ سبعة عشر الف عام قبل ان يتولى امازيس الحكم" (٥٧٠ ق.م) كانت مصر لاتزال تحت حكم الآلهة ، وان الاله الحاكم وقتئذ كان هيراكليس (حرى شاف - معبود اهناسيا) (٦٨) . وقبل زمان امازيس بخمسة عشر الف عام ، كان يحكم مصر الاله ديونيسوس (اوزوريس) . "ويوءكد المصريون انهم يعرفون ذلك بمنتهى الدقة لانهم يحسبون السنين ويسجلونها باستمرار" (٦٩) " اما آخر الملوك من الآلهة فهو "حورس" بن " اوزوريس" - ويسميه اليونانيون " ابوللون" ، حكم بعد ان خلع تيفون (ست) فكان آخر ملوك مصر من الآلهة" (٧٠) .

وصحيح اننا لا نناقش هنا هذه المفاهيم فى حد ذاتها من منظور تاريخى - ولكن اهميتها تنحصر فى حقيقة تاريخية اخرى تتعلق بهيرودوت نفسه ، وبالتأكيد بغيره من اليونانيين الذين وفدوا على مصر ، وتتمثل فى الاحساس الطاغى - فى مصر - بعمق الزمن التاريخى . ولم يكن ذلك الاحساس نابعا من فراغ . ففى مصر كانت آثار الماضى العريق ما تزال تملأ البلاد طولا وعرضا ، وتقف شاهدا على حضارة اصيلة تضرب جذورها فى اعماق الماضى البعيد ، ابعد كثيرا من حضارة

---

٦٧) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ٤ .
٦٨) نفسه ، ٤٣ ، احمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .
٦٩) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ١٤٥ .
٧٠) نفسه ، ١٤٤ .

اى شعب آخر معروف فى ذلك الوقت . ولو كانت الاهرام فقط لكفت ، فانها ـ بعبارة هيرودوت ـ "تجل عن الوصف وان كلا منها يكافىء كثيرا من آثار يونانية ، حتى عظمها" . ولو كان "اللابرنث" وحده لكفى ايضا وزيادة ، ففى رأى هيرودوت انه "لو قدر لامرىء ان يجمع معرضا للمبانى والاثار الفنية التى شيدها اليونانيون لبدت عملا اقل من هذا اللابرنث"(٧١).

وفضلا عن ذلك فان مصر كانت تقدم للشابهين من زائريها تجربة موءثرة انفردت بها بين حضارات الامم المعاصرة ،وكان هيرودوت احد هوءلاء الشابهين . ففى طيبة نستطيع ان نتخيله (ومن قبله هيكاتايوس الملطى الذى يذكر لنا هيرودوت انه مر بنفس التجربة) وقد حبس انفاسه من الروعة والانبهار والشعور بالرهبة عندما قاده كهنة زيوس (آمون) داخل محراب ، "وارونى تماثيل خشبية ضخمة وعدوها فكان عددها كما قالوا تماما ، لان كل كاهن كبير بقيم فى حياته تمثالا لنفسه . وفيما كان الكهنة يعدونها ويطلعوننى عليها اكدوا لى ان كل ابن منهم كان خليفة لابيه ، بادئين بآخر من مات منهم ومارين بهم جميعا حتى اتوا على ذكرهم جميعا". والذى يحبس الانفاس فى هذه التجربة المثيرة هو ان عدد التماثيل ، وبالتالى عدد اجيال كبار الكهنة ابا عن جد ، كان خمسة واربعين وثلاثمائة تمثال ، وكلهم من البشر ، فلم ينسبوهم آخر الامر الى اله او بطل اسطورى(٧٢) .

وفى مصر وحدها كان فى وسع هيرودوت ان يرى سجلات وقوائم تضم اسماء مئات الملوك ـ من البشر ـ الذين حكموا مصر ، والتى كان الكهنة لا يمانعون فى قراءتها على زائريهم من امثال هيرودوت المشغوفين بالبحث والتقصى عن تاريخ

---

(٧١) نفسه ، ١٤٤ .
(٧٢) نفسه ، ١٤٨ .

البلاد . ويحكى لنا ابو التاريخ عن تجربته المؤثرة في معبد هيفايستوس (بتاح) في منف عندما "تلا عليه الكهنة - من ثبت بردي - اسماء ثلاثمائة وثلاثين ملكا آخرين بعد "منا" (٧٣) ، حكموا مصر الواحد بعد الآخر . ثم روى له الكهنة أخبار عشرة ملوك آخرين(٧٤) - على ما يبدو حتى عصر طهرقه بن بيعنخي من ملوك الاسرة الخامسة والعشرين النوبية (٧٥) . وهكذا تعرف هيرودوت من سجلات المعابد على "واحد واربعين وثلاثمائة جيل من البشر" (يضاف اليهم من كان يعرف من ملوك الاسرة السادسة والعشرين) .وقدرهير ودوت الفترة الزمنية التي شغلها اولئك الملوك باربعين وثلاثمائة واحدى عشر الف (١١٣٤٠) سنة (٧٦) .

وليس من اهتمامنا هنا ان نناقش صحة ، او بالاحرى شطط هذا التقدير ، فموضوعنا هو مصر والمصريين عند هيرودوت نفسه . واذا كنا نحن لا نستطيع بأى حال ان نحجب اعجابنا عن الحضارة المصرية القديمة ويروعنا جلالها ، خاصة بالنظر الى طول تاريخها واستدامتها ، عندما نتذكر ان عصر الاسرات فيها قد بدأ في اواخر الالف الرابع او بداية الالف الثالث ق.م . فما بال هيرودوت الذى كان يعتقد ان ذلك العصر قد بدأ قبل زمانه باكثر من مائة وعشرة قرون ، وكانت الحضارة المصرية لا تزال - بعد كل هذه القرون - تنبض بالحياة امام ناظريه . ففى بلد عريق مثل هذا ، يهتم كهنته الى ذلك الحد بتسجيل الاحداث وتدوينها على مر مئات الاجيال وتوالى آلاف السنوات ، كان طبيعيا ان يرى هيرودوت في مصر ام الحضارات ومستودع اسرار الماضى وحكمة الزمان .

---

٧٣) نفسه ، ١٠٠ .
٧٤) نفسه ، ١٠٢ - ١٤١ .
٧٥) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ .
٧٦) الكتاب الثانى ، ١٤٢ .

وهكذا نجده - فى مصر - يتحرى عن صحة معلومات حتى ما يتعلق منها بماضى اليونانيين انفسهم ، وهو مهيأ تماما لتصديق كل ما يسمع . واقدم الاحداث فى ماضى اليونانيين المتواتر فى ذلك الوقت واكثرها جاذبية يتمثل فى قصة حرب طرواده حسبما رواها امير الشعراء اليونانيين هوميروس ، والمدهش ان هيرودوت - وهو اليونانى الصميم الذى لم يخف ابدا اعجابه بهوميروس - استبعد الرواية فى الالياذة عن طروادة ، والتى كان اليونانيين يجمعون على التسليم بصحتها ، باعتبارها رواية باطلة او فارغة MATAIOS LOGOS .(٧٧) فقد سال فى مصر عن حرب طروادة وعن قصة هيلينا . وفى اسهاب وحماس ظاهر روى لنا موءيدا ما اعتبره "قصة هلينا الحقيقية" التى سمعها من الكهنة المصريين.(٧٨) فالاسكندر (باريس) بن بريام الطروادى لم يتمكن فى الحقيقة - طبقا لهذه الرواية الجديدة - من اصطحاب هيلينا الى طروادة . فعلى غير ما فهم اليونانيون من اشعار هوميروس ، وعلى عكس ما صرح به من جاء بعده من كتاب الملاحم ، طوحت الاسكندر فى طريق العودة رياح عاتية مضادة فى بحر ايجه لم تهدأ حتى حط على السواحل المصرية . وكان ملك مصر فى ذلك الوقت يسمى باللغة اليونانية "بروتيوس" (= ست ناخت ، الذى حكم فى حوالى بداية القرن الثانى عشر ق.م ، وبه تبدأ الاسرة العشرون المصرية -(٧٩) والطريف ان جمهور العلماء يجمعون على ان حرب طروادة وقعت بالفعل فى اوائل القرن الثانى عشر ق.م) . وعندما علم الملك المصرى بما حدث من امر هيلينا والخطيئة التى ارتكبت فى حق منلاوس - هكذا تمضى الرواية - احتفظ بهيلينا ضيفة عليه الى حين

---

٧٧) نفسه ، ١١٨ . انظر ايضا :
How and Wells, Op.Cit., p. 14.

٧٨) الكتاب الثانى ، ١١٢ - ١٢٠ .

٧٩) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

حضر زوجها بنفسه لأخذها ، بينما امر الاسكندر بالرحيل عن البلاد ، وكان يود معاقبته على فعلته ، "لو لم اكن اهتم كثيرا بالا اقتل احدا من الاجانب الذين تطوح بهم الرياح ويأتون الى بلادى" ـ هكذا اورد هيرودوت على لسان بروتيوس وقد رأى ابو التاريخ فى هذه الرواية تفسيرا منطقيا لسير الاحداث . "فلم يصب اهل طروادة بخبل لدرجة انهم يعرضون انفسهم للخطر وكذا ابناءهم ومدينتهم ليعاشر الاسكندر هيلينا" . ولكن لم يكن فى وسعهم ان يردوها للآخيين المطالبين بها ، لسبب واضح ، وهو انها لم تكن عندهم بالمرة ، وانما كانت عند ملك مصر . غير ان الآخيين ظنوا ان الطرواديين يسخرون منهم فلم يصدقوا قولهم حتى اقتحموا المدينة بالفعل" . وكان ذلك ـ وهذا رأى الخاص اعلنته ـ تدبيرا الهيا ليتضح للناس من هلاك اهل طروادة الذريع ان الآلهة تنزل العقوبات الصارمة جزاء وفاقا للاخطاء الجسيمة" .

هكذا رحب هيرودوت بسهولة ، ليس فقط بربط احداث حرب طروادة بتاريخ مصر ، وانما ايضا بتأييد الرواية المصرية على حساب الرواية اليونانية التقليدية ، بل وخلص من الرواية المصرية بحكمة دينية بليغة .

ولأن مصر اقدم كثيرا فى الوجود من غيرها ، ولان السجلات المصرية وحدها هى التى يمكن ان تحكى عن احداث وقعت فى الماضى السحيق وتعود الى اكثر من سبعة عشر الف سنة ، عندما "كان حكام مصر آلهة يعيشون مع البشر ، وكان صاحب السلطان دائما واحدا منهم" (٨٠) ـ فان هيرودوت رأى من الطبيعى ان يرجع بآلهة اليونان الى اصول مصرية . "فلقد جاءت اسماء الآلهة كلها تقريبا من مصر الى بلاد اليونان" . هكذا يقرر ابو التاريخ دون تردد (٨١) . وفى مكان آخر

---

٨٠) الكتاب الثانى ، ٤٣ ، ١٤٤ .
٨١) نفسه ، ٥٠ ، انظر ايضا ٥٢ .

يوءكد "ان المصريين كانوا اول من سمى الآلهة الاثنى عشرة بالقابها وان اليونانيين نقلوا ذلك عنهم"(٨٢) . ولقد اثارت هذه التصريحات جدلا ساخنا بين الموءرخين المحدثين(٨٣) ولا نظن ان الجدل حولها سوف يتوقف .

وهيرودوت فى الحقيقة لا يعنى بالضرورة ان الاسماء الفعلية للآلهة اليونانية قد جاءت من مصر . فهو نفسه يشير مرارا الى اختلاف اسماء الآلهة فى اللغتين المصرية واليونانية ، كما سوف نرى . ولكن اسم الاله كان يتضمن ايضا كامل خصائصه الفردية وذاتيته المميزة . وهكذا فان نظرية هيرودوت تقول فى الواقع بان الآلهة اليونانية رفعت الى مرتبة الالوهية وحددت صفاتها وخصائصها المميزة وعبادتها فى مصر قبل ان تنتقل الى بلاد اليونان(٨٤) . ومع ذلك فربما يكون للاسماء الفعلية للآلهة اليونانية ومدى تداولها فى مصر ، دور مساعد فى اعتناق هيرودوت لهذا الرأى . فعلى ما يبدو انها كانت تستخدم بكثرة فى بعض الاوساط فى مصر فى ذلك الوقت عند الاشارة الى نظائرها من معبودات المصريين . فلما جاء هيرودوت الى مصر وسمع بتلك الاسماء ، اختلط عليه الامر ، وتوهم انها مصرية وانها انتقلت من مصر الى بلاده(٨٥) .

---

٨٢) نفسه ، ٤ . انظر ايضا ١٧١ .

٨٣) انظر على سبيل المثال R. Lattimore, "Herodotus and the Names of Egyptian Gods" (Classical Philology, XXXIV, pp.357-365; I.M. Linforth, Greek and Egyptian God" (Herodotus ii-50 and 52)", (Classical Philology, XXXV, 1940), pp. 300-301"; F. Dunand, Le Culte d'Isis dans le Bassin Oriental de la Mediterranee, (Leiden, 1973), pp. 69-70.

٨٤) How and Wells, Op.Cit., pp. 191-192. Lawrence, Op.Cit., P. 172.

٨٥) انظر أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

فقد ادى استيطان اليونانيين مصر الى تزاوج بعضهم وامتزاجهم ببعض ابناء النيل ، مما ادى بالتالى الى ظهور طبقة من المولدين - وهى حقيقة لدينا عنها شواهد اكيدة منذ فترة مبكرة تعود الى مطلع القرن السادس ق.م . ففى نص شهير باللغة اليونانية [٨٦] ، نقش على ساق احد التماثيل الضخمة لرمسيس الثانى فى ابى سمبل ، ويرجع الى عصر بسماتيك الثانى (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) ، نقرأ عن شخص يدعى "بسماتيك بن ثيوكليس" PSAMMETICHUS SON OF THEOKLES الذى كان على ما يبدو يشغل مركزا قياديا فى الجيش المصرى فى ذلك الوقت . وجلى ان اسم الرجل مصرى ، فى حين ان اسم ابيه يونانى . وطبيعى ان يتأثر المستوطنون اليونانيون وذريتهم بالعبادات المصرية العريقة وان يخضعوا لسلطانها ولدينا وثيقة اثرية ترجع الى نهاية القرن السادس ق.م . تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ان العجل "ابيس" - على سبيل المثال - كان مقدسا بين مجتمع من المتحدثين باللغة اليونانية فى الدلتا [٨٧] . وهيرودوت نفسه يسجل لنا انه فى الاحتفال الكبير بعيد ايزيس فى بوسيريس BUSIRIS فى وسط الدلتا (ابو صيربنا - جنوب سمنود) [٨٨] ، حيث كان المحتفلون من المصريين يلطمون الخدود فى ذكرى مصرع اوزوريس على يد اخيه ست ، كان " كل الكاريين الذين يسكنون مصر يبالغون ايضا فى عمل ذلك لدرجة انهم يقطعون جباههم بالمشارط ،ومن ذلك يتضح انهم اجانب غيرمصريين" [٨٩]

---

٨٦) G.Dittenberger, Sylloge Inscriptionum Graecarum (Leipzig 1903-1905-Hildesheim,1970), I, No.I, 1-2 R.Meiggs and D. Lewis, A selection of Greek Historical Inscriptions,(Oxford,1969), No.7 (4).with P.13 note See also Boardman, Op.cit., PP. 113-114.

٨٧) M.J. Vermaseren and G.J.F. Kater-Sibbes, Apis, I (Leiden, 1975), No. 132 and Plate LXXVII.

٨٨) الكتاب الثانى ، ٥٩ ، أحمد بدوى ،المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

٨٩) الكتاب الثانى ، ٦١ .

وواضح ان هيرودوت كان فى وسعه ان يميز هوءلاء على انهم كاريين بالتحديد بسبب طريقتهم الخاصة فى الحداد . ولكن الرجال الذين رآهم ربما كانوا من اصول مختلطة ، وليس من المستبعد انهم كانوا يضمون آخرين تأثروا بهذا الاسلوب الخاص فى ممارسة الطقوس الجنائزية . وفى جميع الاحتمالات فان الايونيين ، او على الاقل اشخاصا من اصول آيونية ، شاركوا فى هذه الاحتفالات ، ولكنهم لم يلفتوا نظر هيرودوت بسلوك مميز ، وربما كانوا ، مثل غالبية المشاركين فى الاحتفالات ، يلطمون الخدود .

وعلى ما يبدو ان محدثى هيرودوت هم الذين استرعوا انتباهه الى امر اسماء الآلهة . فهو يذكر لنا بصراحة انه "على حد قولهم" - اى على حد قول محدثيه من ابناء النيل - ان اوزوريس هو ديونيسوس . وهكذا نراه يمضى فيقول ان زيوس عند المصريين اسمه آمون ، ويطلق عليه ببساطة اسم زيوس الطيبى[٩٠] . وان "فى اللغة المصرية "ابوللون" هو "حورس" و"ديميتير" هى "ايزيس" و"ارتميس" هى "بوبا سطيس"[٩١] . وان لديه "ادلة كثيرة على ان المصريين لم ينقلوا اسم "هيراكليس" عن اليونانيين ، ولكن بالاحرى اخذه هوءلاء عنهم"[٩٢] . بل وفى كثير من الاحيان يستخدم هيرودوت اسماء الآلهة اليونانية بحرية تامة ودون اى تحفظات عند الاشارة الى نظائرها من

---

٩٠) نفسه ، ٤٢ . الجدير بالذكر ان افلاطون مر بتجربة مماثلة فى مصر بعد وقت غير طويل من زيارة هيرودوت ، فيذكر لنا ان اهالى سايس فى مصر يوءكدون ان الالهة "نيت" هى "اثينا" فى اللغة اليونانية . انظر :
Plato, Timaeus, 21 E.

٩١) الكتاب الثانى ، ١٥٦ ، انظر ايضا ٥٩ .

٩٢) نفسه ، ٤٣ . انظر ايضا :
Lawrence, Op.Cit., P. 167.

معبودات المصريين ، كما لو كانت اسماء مصرية(٩٣) .

فالواضح ان قدم الحضارة المصرية كان في الحقيقة - عند هيرودوت - عراقة يجب ان تحسب لها ، وهيبة ينبغي ان تؤخذ في الاعتبار ، وجلال يحسن التسليم به . فلم يرد في خواطره ان يكون المصريون هم الذين نقلوا اسماء الآلهة من اليونانيين ، ببساطة " لان اسماء الآلهة ... وجدت دائما منذ القدم في مصر"(٩٤) .

هذه العراقة جعلت ابو التاريخ يتعصب دائما في نسبة اى ظاهرة يراها في مصر الى اصول غير مصرية . فاذا رأى تشابها بينها وبين غيرها في امر من الامور ، فالاولى بالتصديق ان تكون مصر هي الاصل والمنشأ ، وان يكون غيرها المقلد والناقل . فاذا لاحظ - على سبيل المثال - ان ثمة اتفاقا بين شعائر ديونيسوس (اوزوريس) في مصر وفي بلاد اليونان ، فانه لا يضع في اعتباره حتى احتمال ان يكون ذلك وليد الصدفة ، بل "ولن اقول ابدا ان المصريين نقلوا هذه الشعائر عن اليونانيين ، لا هي ولا غيرها من العادات"، وانما لابد ان يكون اليونانيون هم الذين نقلوها عن المصريين(٩٥) . وهكذا فانه يجزم بان "الطقوس التي تسمى " اورفية " ... هي في الواقع طقوس مصرية"(٩٦) . واذا لاحظ شيوع انشودة حزينة في كثير من بدان شرق البحر المتوسط ، يندب بها العزيز ممن يودعون الدنيا ، وانها "على الرغم

---

٩٣) في مواطن كثيرة من الكتاب الثاني ، انظر على سبيل المثال الفصل الثالث والثمانين .

٩٤) نفسه ، ٥٠ . قارن : W.Spiegelberg (apud How and Wells, Op.Cit.,P. 453): "Herodotus overestimates the civilization of Egypt as the origin of Greek religion, because he was overpowered by the suggestion of its high antiquity".

٩٥) الكتاب الثاني ، ٤٩ .

٩٦) نفسه ، ٨١ .

من ان اسمها يختلف باختلاف الشعوب الا انها بالاجماع نفس الانشودة التى ينشدها اليونانيون باسم لينوس" ، فان هيرودوت يميل الى ارجاعها الى اصل مصرى قديم ، بحكم سبق مصر الزمنى (٩٧) .

والسبق الزمنى فى الوجود وفى الحضارة سند دائم لاستنتاجات جاهزة فيؤكد ابو التاريخ "ان المصريين سبقوا الشعوب الى اقامة الاعياد العامة والمواكب العظيمة ، وعنهم تعلمها اليونانيون" ويضيف ، مؤمنا على صدق مقولته "ودليلى على ذلك انها تقام عند المصريين منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها اليونانيون الا منذ وقت قريب" (٩٨) . وفى هذا السياق يرى ان عبد "ديميتير" الذى يسميه اليونانيون شيسموفوريا" يعود فى الحقيقة الى اصل مصرى ، " وان بنات داناوس هن اللائى نقلن هذا العبد من مصر وعلمنه النسوة" فى بلاد اليونان (٩٩) . واذا تصور ابو التاريخ "ان علم العرافة فى طيبة المصرية يشبه ذلك الذى فى "دودونا" ، فانه يعلن ذلك بعد ان يحدثنا - استنادا الى ما يصفه "بالمعلومات الدقيقة" التى سمعها من كهنة آمون فى طيبة - بأن امرأة مصرية مقدسة من طيبة هى فى الواقع التى انشأت وحى "دودونا" فى بلاد اليونان . وهو ادعاء يدعمه هيرودوت بحماس ، ليس فقط برواية اخرى مؤيدة ينسبها الى عرافات دودونا انفسهن ، وانما ايضا بتحليله الشخصى واجتهاده فى تفسير ما سمع . ثم يضيف فى ثقة "ان العرافة عن طريق فحص الضحايا جاءت الى بلاد اليونان من مصر ايضا" (١٠٠) .

---

٩٧) نفسه ، ٧٩ .
٩٨) نفسه ، ٧٩ .
٩٩) نفسه ، ١٧١ .
١٠٠) نفسه ، ٥٤ - ٥٧ . قارن How and Wells, Op.Cit., P. 192: "Deeply impressed with the antiquity of Egypt, Herodotus was prepared to drive everything from it".

وربما كان هيرودوت مسئولا - دون قصد - عن تقديم مصر بوصفها بلد الثوابت ، لا تتغير ولا تتبدل على مر العصور[١٠١]. فعلى مدى احد عشر الف عام - هكذا قال الكهنة لهيرودوت فصدقهم - "لم يحدث اى تغيير فى مصر ، فيما تغله الارض ، ولا فيما يجود به النهر ، فيما يتعلق بالامراض او الموت". وذلك على الرغم من انه فى نفس الحقبة المزعومة " غيرت الشمس مناطقها المألوفة اربع مرات ، فاشرقت مرتين حيث تغرب الآن ، وغربت مرتين حيث تشرق الآن"[١٠٢]. اما المصريون انفسهم "فهم يتجنبون اتخاذ العادات اليونانية ، وجملة القول انهم يتجنبون عادات الناس جميعا دون استثناء"[١٠٣]. وفى مكان آخر يجمل هيرودوت رأيه فى شخصية المصريين المحافظة بقوله : "يتمسك المصريون بتقاليد اسلافهم ، ولا يزيدون عليها مطلقا اى جديد"[١٠٤] .

وفى الحقيقة ان المصريين كانوا - ربما اكثر من اى شعب آخر فى زمن هيرودوت - يدركون اصالتهم العرقية . "فهم فى رأى انفسهم" الناس" وغيرهم من اشباه الناس ، لسانهم الهى مقدس والسنة غيرهم - من اشباه الناس - رطانة"[١٠٥] . وليس فى هذا ما يدهشنا . ولكن مايدهشنا حقيقة هو ان هيرودوت نفسه - وهو اليونانى الغيور - اذعن لهذه الرؤية المصرية . فهو لم يسلم فقط بوصف اليونانيين فى مصر فى عصر بسماتيك الاول بكلمة "اجانب"[١٠٦] XEINOI

---

١٠١) قارن : Myres, Op.Cit., p. 153.

١٠٢) الكتاب الثانى ، ١٤٢ .
١٠٣) نفسه ، ٩١ . انظر ايضا ٤٩ .
١٠٤) نفسه ، ٧٩ .
١٠٥) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .
١٠٦) الكتاب الثانى ، ١٦٩ .

وهو ما قد يبدو منطقيا على اية حال ، وانما اشار اليهم فى موضع آخر ببساطة باعتبارهم "اعاجم" (١٠٧) ALLOGLOSSOI الاكثر من ذلك انه يسجل بصراحة ـ ودون ان نشتم منه بادرة احتجاج ـ "ان المصريين يسمون كل من لا يتكلمون لغتهم برابرا" (١٠٨) BARBAROI وهذه الكلمة الاخيرة ، كما هو معروف ـ يونانية غير مصرية ، استخدمها اليونانيون ، ومن بينهم هيرودوت نفسه (١٠٩) ، فى وصف غيرهم من الشعوب التى لا تتكلم اللسان اليونانى . ومع ذلك ، فقد قبل هيرودوت من محدثيه من المصريين الذين تكلموا معه بلغته ، ان يستخدموا ذات الكلمة اليونانية ، ولكن فى التعبير عن مفهوم مصرى يجردها فى الحقيقة من مدلولها الاصلى ،ويجعل من اليونانيين انفسهم ، ومعهم باقى الشعوب الاخرى ، "برابرة" فى نظر المصريين .

فان يكون المصريون اقدم شعوب العالم ، فذلك سبب خاص فى حد ذاته يؤكد اولويتهم ، حضاريا ـ على غيرهم . وفضلا عن ذلك فان الناس كانوا يعتقدون ان القدم ونبالة العرق صفتان متلازمتان (١١٠) . وهكذا نرى هيرودوت يردد قول الكهنة بان المصريين " هم اول من عرف السنة الشمسية" ، "وكانوا اول من سمى الآلهة الاثنى عشر بالقابها" ،"وكانوا اول من اوقف للالهة الهياكل والتماثيل والمعابد ، وهم اول من حفر الصور على الاحجار" (١١١) وهو يعتقد بان المصريين

---

١٠٧) نفسه ، ١٥٤ : "Protoi gar houtoi en Aigypto alloglossoi katoikisthesan".

١٠٨) نفسه ، ١٥٨ : "Barbarous de pantas hoi Aigyptioi kaleousi tous me sphisi homoglossous".

١٠٩) انظر على سبيل المثال ، نفسه ، ١٦٧ .

١١٠) How and Wells, Op.Cit., PP. 155-156.

١١١) الكتاب الثانى ، ٤ .

هم اول من اكتشف علم المساحة الذى انتقل الى اليونانيين[١١٢] . وان المصريين كذلك هم اول القائلين بخلود الروح"[١١٣] "وانهم يزيدون كثيرا عن سائر الناس فى التقوى"[١١٤] "وانهم اول من راعى السنة التى تحرم مجامعة النساء فى المعابد ، كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال"[١١٥] . وهو يمتدح فيهم حبهم للنظافة ، "فهم يفضلون النظافة على حسن المظهر"[١١٦] ، وكذلك طريقة الحياة التى يتبعونهامراعاة لصحة ابدانهم ، حتى انهم كانوا – فى نظره – من " اصح الناس عامة"[١١٧] وهو يشيد باخلاقهم ويظهر بوضوح احترامهم لشيوخهم ، فلا يباريهم فى ذلك بين الشعوب الاخرى – حسب قوله – سوى اللاكيدايمونيين ، فالمصريون " عندما يقابل الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ، ويتنحون جانبا . وعندما يقبل عليهم الشيوخ ، يقومون من مقاعدهم"[١١٨] . وفضلا عن ذلك ، فالمصريون – عند هيرودوت " يبزون سائر البشر فى البراعة"[١١٩] ، "وهم يهتمون دون سائر الناس اهتماما كبيرا بتمرين الذاكرة . وهم ، فى العلم يتفوقون كثيرا على كل الشعوب التى خبرتها"[١٢٠] . وقد اعجبه فى هذا السياق بصفة خاصة تقدم علوم الطب عندهم وقيامها على مبدأ التخصص[١٢١] . وهو بعد ذلك يمتدح قوانينهم ويظن انها قوانين حسنة ، وفى يقينه ان "سولون" المشرع الاثينى الاشهر ،

---

١١٢) نفسه ، ١٠٩ . انظر ايضا ٨٢ .
١١٣) نفسه ، ١٢٣ .
١١٤) نفسه ، ٣٧ .
١١٥) نفسه ، ٦٤ . انظر ايضا ٩٢ .
١١٦) نفسه ، ٣٧ .
١١٧) نفسه ، ٧٧ .
١١٨) نفسه ، ٨٠ .
١١٩) نفسه ، ١٢١ .
١٢٠) نفسه ، ٧٧ .
١٢١) نفسه ، ٨٤ ، احمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٩٠–١٩٢ .

نقل بعضها ووضعه للأثنيين ، وأن هؤلاء الاخيرين كانــوا ما يزالون يطبقونه في ايامه ، " اذ لم يوجه اليه اى طعن"(١٢٢)

ومحمل القول ان المصريين - عند هيرودوت وبعبارته - "هم أحكم البشـــر"(١٢٣) .

* * *

١٢٢) الكتاب الثاني ، ١٧٧ .
١٢٣) نفسه ، ١٦٠ .

الجيش الغزنوى
اعداده وتنظيماته الحربية

د. محمود عرفة محمود
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تمهيد :

وجه سبكتكين[(١)] - مؤسس الدولة الغزنوية[(٢)] منذ ولى غزنة سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م من قبل السامانيين ، اهتمامه الى توسيع رقعة ولايته ، فاستولى على بست[(٣)] وقصدار[(٤)] ، ثم اتجه بفتوحاته نحو المشرق وبخاصة بلاد الهند[(٥)] - التى احرز فيها عدة انتصارات[(٦)] ، كان لها أثرها فى اعلاء شأن الغزنويين وتدعيم نفوذهم .

لما خلف الامير محمود بن سبكتكين اباه فى حكم الغزنويين سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م[(٧)] ،سار على نهج ابيه فى توسيع

---

١) سبكتكين : هو الامير ناصر الدين سبكتكين بن جوقى الملقب بقراجكم - التحق بخدمة سيده ، البتكين - سبهسالار السامانيين - وتدرج فى المناصب حتى صار حاكما على غزنة ، قرابجكم : كلمة تركية تتألف من مقطعين ، قرا بمعنى اسود ، بجكم بمعنى زعيم او شجاع .
انظر ، ميرخوند :روضة الصفا (القسم الرابع من المجلد الرابع) ص ١ .

2) Bosworth:Notes on the Preghaznavids of eastern Afghanistan, P. 16.

٣) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة من أعمال كابل.
ياقوت : معجم البدان ، المجلد الاول ، ص ٤١٤ .

٤) قصدار : ناحية مشهورة قرب غزنة تقع على بعد ثمانين فرسخا جنوبى بست .
ياقوت :المصدر السابق ،المجلد الرابع ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

5) Moreland: A short History of India, P.142.

6) Lane-Poole: Mediaeval India under the Mohammedan rule, P.17.

٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ، ص ١٨٥ .
Nazim: The Time and Life of Mahmoud of Ghazna, P. 39, Moreland: A short History of India, P. 144.

رقعة بلاده ، وامتداد نفوذها ، فبسط سلطانه على ملك السامانيين فى خراسان وبلاد ما وراء النهر سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م [٨] ، كما فتح بلاد الغور [٩] ونشر الاسلام بين اهلها واتخذ الامير محمود الغزنوى لقب سلطان [١٠] ، وبعث اليه الخليفة القادر بالله الخلع ولقبه "يمين الدولة وأمين الملة" [١١] .

امتدت فتوحات السلطان محمود الغزنوى الى بلاد الهند [١٢] - التى اصطبغت حملاته فيها بصبغة الجهاد الدينى [١٣] ، ويرجع اليه الفضل فى توطيد قواعد الاسلام وترسيخها فى قلوب اهل البلاد المفتوحة فقد غزاها خمس عشرة مرة على مدى سبع وعشرين عاما [١٤] . من سنة ٣٩١-٤١٧هـ/ ١٠٠٠ - ١٠٢٦م ، فتح خلالها اعظم قلاعهم واهم مدنهم واخضع ملوك الهند وحطم الاصنام ونشر الاسلام فى ولاياتها [١٥]

---

٨) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
، حمد الله مستوفى : تاريخ كزيده ، ص ١٤٦ .
٩) بلاد الغور : بلاد واسعة تغلب عليها الطبيعة الجبلية وتقع بين هراة وغزنة .
الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٥٧ .
١٠) نظام الملك : سياست نامه ، ص ٥١ .
١١) هلال بن الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ١٣٢ .
Habib: Sultan Mahmoud of Ghaznin, P. 37.
Dunbar: A History of India, P. 90.
١٢) انظر حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ، ص ٣٢٤ ، ص ٣٣٠ .
١٢) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، جـ ١ ، ص ٩٠ .
١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٨٥ .
، السبكى : طبقات الشافعية ، جـ ٤ ، ص ١٦ .
١٤) العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ ١ ، ص ٣٦ .
Panikkar: A Survey of Indian Hist.,P.113.
١٥) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ، ص ٩٥ - ٩٦ .
علق العتبى على ذلك بقوله "وغزا (السلطان محمودالغزنوى) الملتان فاجتاحها وتوغل فى الهند عودا على بدء فنكأ جراحها واذل لقاحها وجاس رباعها وافتتح صياصيها واقام عن بيوت الاصنام مساجد الاسلام وعن مشاهدالبهتان معابد التوحيد والايمان.
انظر ، اليمينى ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

واتخذ من لاهور(١٦) مقرا لحكومته فى الهند .

لما ولى الامير مسعود عرش الغزنويين بعد وفاة أبيه سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م واصل فتوحاته فى بلاد الهند فاستولى على قلعة سرستى الجبلية - جنوبى كشمير ، كما فتح قلعتى هانسى وسويتبات فى ربيع الاول سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م ، وواصل مودود بن مسعود وأخوه ابراهيم فتوحاتهم فى بلاد الهند حتى بلغت قلعة أجود - التى تقع على بعد مائة وعشرين فرسخا من لاهور(١٧) .

اعتمد الغزنويين فى تحقيق طموحاتهم منذ قيام دولتهم على قوتهم الحربية ، فبفضل جيوشهم استطاعوا توسيع رقعة بلادهم ومد نفوذها الى شمال الهند شرقا ، والعراق العجمى غربا ، وخراسان وطخارستان وجزء من بلاد ما وراء النهر فى الشمال ، وسجستان فى الجنوب - كماضموا الى ممتلكاتهم خوارزم وطبرستان وأصبهان(١٨) .

١ - تعبئة الجيوش الغزنوية فى حالة الحرب

كان للتنظيم الحربى نصيب موفور من عناية الغزنويين لتكوين جيش قوى يحمى دولتهم ، ويساعدهم على تحقيق آمالهم التوسعية وليكون عونا لهم فى جهادهم ضد المناوئين لهم ، فضلا عن نشر الاسلام .

وليس من شك أن التعبئة تعطى صورة واضحة عن مدى اهتمام الحكام الغزنويين بتنظيم جيوشهم واعدادها وتجهيزها بكل ما تحتاج اليه من عتاد وسلاح ، وتزويدها بالاحمال والمؤن اللازمة لتحقيق النصر .

---

١٦) لاهور : مدينة عظيمة مشهورة فى بلاد الهند .
ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الخامس ص ٢٦ .
١٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ١٢٧ .
Moreland: A short History of India, P. 148.
١٨) جمال سرور: تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ٩٢ .

لم يختلف اسلوب تعبئة الجيش الغزنوى فى بداية تكوينه على عهد سبكتكين عن الطريقة التقليدية - التى تتميز بحشد صفوف المقاتلة فى فرق تتألف كل منها من خمسمائة مقاتل[(١٩)] ، يتناوبون القتال تبعا لطول مدة الحرب ، فكانت تعبئة تلك الفرق تتألف من الفرسان والمشاة مع استخدام الفيلة ، وذلك فى الحرب التى دارت رحاها بين سبكتكين وأبى على السيمجورى[(٢٠)] التى انتهت بهزيمة السيمجورى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م[(٢١)] .

اهتم محمود بن سبكتكين بتدريب الجيش الغزنوى واعداده اعدادا جيدا ، فتطورت تعبئة الجيش على عهده من طريقة الحشد العام الى ترتيب الفرق على شكل اقسام تتألف من الميمنة والميسرة والقلب والجناحين فضلا عن المقدمة والساقة والطلائع .

فلما عزم السلطان محمود الغزنوى على محاربة ايلك خان - الذى سار نحو خراسان يريد الاستيلاء عليها سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م[(٢٢)] ، اتجه الى بلخ واتخذ منها موقعا متقدما ثم أقام معسكره على بعد أربعة فراسخ منها بالقرب من قنطرة جرخيان لتعبئة قواته ، فوضع صفوف الجند فى اقسام التعبئة طبقا لاجناسهم وعناصرهم ، فجعل فى القلب الاكراد والعرب وسائر الجند الهنود بقيادة أبى نصر احمد بن محمد الفريغونى - والى جوزجان ، ومعهم أبو عبد الله

١٩) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ١٣ .
٢٠) السيمجورى : هو ابو على محمد بن ابراهيم السيمجورى - صاحب جرجان ، وكانت الحرب قد قامت بينهما بسبب تطلع السمجورى للاستيلاء على خراسان - التى كان الامير نوح بن منصور بن نصر السامانى قد منحها للامير محمود بن سبكتكين سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م .
انظر ، البيهقى: تاريخ البيهقى ، ص ٢١٥ .
٢١) العتبى : تاريخ اليمينى ، ج ١ ، ص ٩٦ .
، الكرديزى : زين الاخبار ، ج ٢ ، ص ٢٢ - ٢٦ .
٢٢) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٢٢ - ٢٦ .

محمد بن ابراهيم الطائى وعلى رأسهم جميعا أخوه نصر بن سبكتكين ، ورتب فى الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش ومعه الفرسان والرجالة ، وندب للميسرة ارسلان الجاذب فيمن تحت قيادته ، وحصن الصفوف بنحو خمسمائة فيل عليها تجافيف الفيول . بينما اتخذ السلطان مركزه بين المقدمة والقلب راكبا فيلته المغتلمة (الهائجة)(٢٣) .

أما فى موقعة تاردين(٢٤) سنة ٤٠٤هـ/١٠١٤م(٢٥) ، فقد تطورت طريقة التعبئة ، فجعل السلطان محمود الغزنوى الجيش كتائب تتألف كل كتيبة من مائة الى ألف من الفرسان والرجالة تبعا لموقعها من التعبئة ، وجعل لكل كتيبة منها كوكبة من الخيل ، وجعل السلطان أخاه الامير نصر ابن سبكتكين فى الميمنة وارسلان الجاذب فى الميسرة ، بينما عين أبا عبدالله محمد بن ابراهيم فى المقدمة على رأس العرب ، وجعل فى القلب الحاجب التانتاش(٢٦) .

كانت الفيلة توضع فى المقدمة حماية للقوات ، وارهاب أعداء الدولة ، فلما أمر السلطان محمود الغزنوى بتعبئة الجيش حين شرع فى المسير الى بلاد ما وراء النهر تقدمت الفيلة بدروعها وبكامل عدتها لتأخذ مكانها امام

---

٢٣) العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ ٢ ، ص ٨٤ - ٨٦ .
٢٤) تاردين : تقع وسط مملكة الهند .
ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٢٩ .
٢٥) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
٢٦) العتبى ، تاريخ اليمينى ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٩ .
، ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٤٣ .
، التونتاش : هو ابو سعيد التونتاش - كبير الحجاب ، وكان مملوكا تركيا التحق بخدمة الجيش الغزنوى ، وما زال يتدرج فى المناصب حتى صار قائدا للجيش فى عهد سبكتكين ، ثم اختاره السلطان محمود الغزنوى حاجبا له وقائدا لغلمان القصر ، وواليا على خوارزم .
انظر ، البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ١٣ .

الفرسان والرجالة [٢٧] . أما أهل الخدمة فكانوا يعبأون في الساقة حتى لا يتسببوا في اعاقة حركة القوات الاساسية وفي نفس الوقت يكونوا على مقربة منهم لتأدية دورهم عند اعتراض الجيش أي معوقات ، فلما حارب السلطان محمود الغزنوي ولاية نندا - باقليم خوارزم اعترض الجيش غابات كثيفة فتقدم الحدادون والنجارون وقاطعوا الاحجار فعبدوا الطريق وقطعوا الاشجار والاحجار سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٩م [٢٨] .وكان قارعوا الطبول ونافخوا الابواق يعبأون على أجناب القوات ، فلما أمر السلطان محمود ببدء القتال فيحروبه ببلاد ما وراء النهر ، نفخوا الابواق ، وضربوا الاصناج الكبيرة ، ودقوا الدفوف ، فأصموا الاذان من الاصوات وقد علق الكرديزي [٢٩] على ذلك بقوله : "لما سمع الترك قرع طبول الحرب ، قذف جماعة منهم بأنفسهم في الماء (نهر جيحون) خوفا وذعرا" .

تطورت تعبئة الجيش الغزنوي في عهد السلطان مسعود الغزنوي - الذي ولي عرش السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان محمود بن سبكتكين [٣٠] ، فصارت تسير وفق تنظيم محكم ، تبدأ بعقد اجتماع لمجلس شورى الحرب يحضره كل من الوزير والسبهسالار [٣١] والعارض ورئيس ديوان الرسائل [٣٢] وكبار الحجاب برئاسة السلطان ، للتشاور وتبادل وجهات النظر ،

---

٢٧) الكرديزي : زين الاخبار ، جـ ٢ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
٢٨) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٢٢ - ٢٦ .
٢٩) انظر ، زين الاخبار ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .
٣٠) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٦٤ .
٣١) السبهسالار : من اسبهسالار أي كبش الكتيبة أورئيس الجيش انظر ، العتبي : تاريخ اليميني ، جـ ١ ، ص ١٠٥ .
٣٢) كان رئيس ديوان الرسائل يتلقى الرسائل الواردة من ميادين الحرب فيعدها لرفعها الى السلطان فضلاعن مهامه التقليدية في زمن السلم .
انظر ، Bosworth: The Ghaznavids, P. 91.

فاذا ما اتخذ قرار الحرب انضم الى الاجتماع بدعوة السلطان، كبار القادة واصحاب الولايات وبعض الحجاب المختارين ، فضلا عن الموكل بالاصطبلات السلطانية .

كان مجلس شورى الحرب يعقد وفقا للموقف الحربي ، ففى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٢م اجتمع السلطان مسعود الغزنوى مع الوزير الاستاذ الرئيس أحمد حسن(٣٣) والخواجة ابى سهل محمد بن حسن الزوزنى - رئيس ديوان العرض ، وابى نصر مشكان - صاحب ديوان الرسائل - وبعض كبار الحجاب . ولما قرر المجلس ارسال جيش قوى الى خراسان(٣٤) لمحاربة السلاجقة ، ذهب رسول السلطان فدعا اصحاب الولايات التى تقع فى طريق مسير الجيش لضمان الامدادات والمعاونة(٣٥) .

لما حلت الهزيمة بالجيش الغزنوى على أيدى السلاجقة فى شعبان سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٢م ، اجتمع مجلس الحرب على الفور للوقوف على الاسباب التى أدت الى تلك الهزيمة واقتصر الاجتماع على الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل وسورى - صاحب ديوان خراسان ، وجلسوا عند مدخل البستان المؤدى الى قصر السلطان ، وكانوا يتبادلون الرأى لايجاد الوسائل التى تكفل تفادى وقوع الهزيمة فى الحروب المقبلة(٣٦) .

ولما جاءت الانباء من خراسان(٣٧) وجوزجان وسرخس(٣٨)

---

٣٣) هو أحمد حسن الميمندى - ولى الوزارة منذ عهد السلطان محمود الغزنوى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م ثم عزل سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م - واعاده السلطان مسعود الغزنوى فعلا شأنه وصارت له مكانة عالية فى تدبير شئون الدولة زمنى الحرب والسلام . انظر العروضى ، السمرقندى : جهار مقالة ، ص ٢٨ .

٣٤) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٦ .

٣٥) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥١٥ .

٣٦) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٥١٨ .

٣٧) ميرخوند : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

٣٨) سرخس: مدينة قديمة من نواحى خراسان تقع بين نيسابور ومرو . ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٨ .

بأن السلاجقة واتباعهم من تركمان العراق يثيرون الفتن فى ولايات السلطنة ، رأى السلطان عقد مجلس شورى الحرب ، فاجتمع مع الوزير واركان الدولة وذلك فى شهر صفر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٣م ، وقد استقر الرأى فى هذا الاجتماع على ارسال سباشى - كبير الحجاب[٣٩] على رأس عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل الى خراسان ، وان يرابط الفريق العربى والكردى من الجيش بقيادة ابى الحسن العراقى فى هراة - وأن يمتثل الجميع لامر كبير الحجاب ويعملون حسب ما يشير به[٤٠] .

كما استدعى السلطان مسعود الغزنوى مجلس شورى الحرب فى شوال سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٤م حين قرر المسير الى الهند وفتح قلعة هانسى[٤١] ، فاجتمع بالوزير والعارض ورئيس ديوان الرسائل والحاجبين بكتغدى وابى نصر ، وبعد التشاور، أمر ان يسير ابنه مودود الى بلخ وبصحبته الوزير على رأس جيش كامل الاهبة ، وأن يذهب الحاجب سباشى الى مرو على رأس جيش آخر لمنع التركمان من دخول البلاد ، وترتيب شحنات كاملة فى طوس[٤٢] وقهستان وهراة والمدن الاخرى[٤٣] .

كان السلطان الغزنوى يأمر الوزير بالتوجه الى الديوان ليهيىء ما يلزم من الجند والعمال بعد اتخاذ قرار الحرب ، فيقوم الوزير باستدعاء نقباء الجيش

---

٣٩) كان كبير الحجاب يختص بنقل الاوامر السلطانية الى كبار رجال الدولة ويرفع حاجاتهم ومراسلاتهم الى السلطان ، والاشراف على مقر السلطان ، كما كان يعهد اليه بقيادة الجيش فى حالة الحرب .

٤٠) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٥ .

٤١) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٦ - ٧٧ .

٤٢) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ .
ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الرابع ، ص ٤٩ .

٤٣) البيهقى ، المصدر السابق ، ص ٥٧٥ .

واعطائهم الاوامر السلطانية وما يحتاجون اليه من النفقات . فيعهدون بدورهم للمقدمين باعداد جنودهم وتجهيزهم للعرض ، فلما تقرر ارسال ابى سهل الزوزنى على رأس جيش الى الرى والعراق سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٢م (٤٤) ، أمر السلطان مسعود الغزنوى وزيره أن يلزم الديوان لاعداد العدة للتنفيذ ، كما استدعى أمين القصر وكاتب الغلمان لاختيار الغلمان وقادتهم لتدعيم الجيش (٤٥) . أما الجنود والقادة - الذين يشكلون الفرق الرئيسية فى الجيش فكانت تسجل اسماؤهم فى جرائد لتقرير نفقاتهم ومرتباتهم قبيل العرض ، فذكر البيهقى ، أن السلطان مسعود طلب جريدة ديوان العرض فجيىء بها ، ولما حضر العارض صار يقرأ أسماء المقدمين والجند والبيهقى يسجل اسماءهم (٤٦) .

كذلك اهتم سلاطين الغزنويين باستعراض الجيش المزمع ارساله فى مهمة حربية ، فلما تقرر ارسال احمد على نوشتكين الى كرمان لتوطيد سلطان الدولة عليها سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م (٤٧) ، كتبت المنشورات السلطانية بذلك ، ثم أمر السلطان ان تتلى عليه جريدة العرض ، وبعد ان فرغ سار الى ميدان شاهبهار ليستعرض الجيش - الذى كان يتألف من أربعة آلاف فارس ، ألفان من جند الهند ، وألف من الترك ، وألف من الكرد والعرب - فضلا عن خمسمائة راجل من كل صنف بقيادة مقدميهم ، وكان الجيش فى عدة كاملة (٤٨) . كما وقف السلطان على ربوة فى ربيع الآخرة سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م فى أبهة فائقة يحيط به جميع أركان الدولة والى جانبه ولده

---

٤٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤ .
٤٥) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٤١٨ .
٤٦) انظر ، المصدر السابق ، ص ٧١٨ .
٤٧) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦ .
، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلدالرابع ص ٣٨٠ .
٤٨) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٤٥٧ .

الامير مودود لاستعراض الجيش المزمع انفاذه الى خراسان للتصدى للسلاجقة ، وكان الفرسان والرجالة مجهزين فى كامل هيئتهم ، ووقفت الفيلة المختارة عليها السروج والعماريات[(٤٩)] . بينما اتخذ الجنود مواقفهم على هيئة افواج متباعدة ، وظهر على رأس الجيش القائد سباشى فى زينة بالغة مما أثار اعجاب السلطان[(٥٠)] .

كان القائد الذى يقع عليه اختيار السلطان لتنفيذ المهام المكلف بها يحظى باهتمام كبير ، ويتجلى ذلك فى قيامه بتقليد القادة الخلع الفاخرة وتلقيبهم بألقاب تناسب مكانتهم . فأمر السلطان محمود الغزنوى بقبائين مزركشين بالذهب وسيفين بحمائل مرصعة بالجواهر ومنحهما لأرياق - صاحب جيش الهند ، والغازى السبهسالار ، ووضع حمائل السيفين بيده فى عنقهما سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م[(٥١)] ولما قرر السلطان مسعود الغزنوى ارسال تاش فراش - قائدا على الجيش المتجه الى جرجان وطبرستان - أمر أن يعدوا له خلعة فاخرة تشتمل على منطقة من ذهب وقبعة ذات ركنين وسرج ذهبى وستة أفيال فحول وعشر بذلات خاصة وكوسات ورايات[(٥٢)] . وكانت خلعة قائد جيش الهند رائعة ، فلما مثل بين يدى السلطان فى صفر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ، أمرالسلطان الخازن ان يأتى له بطوق مرصع كان قد أعد من قبل ، فاتوا به فأخذه السلطان وأدنى منه القائد (تلك الهندى)[(٥٣)] فطوق به عنقه بيده ، ثم جاء ابو الحسن

---

٤٩) العماريات : الهوادج العالية .
٥٠) البيهقى :تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٥ - ٥٣٦ .
٥١) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .
٥٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٢٩١ .
٥٣) تلك : هو تلك بن جاوسن - نائب السلطان وقائد جيش الهند .
انظر، حسن أحمد محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى ،ص ٢٥١

الكاتب العراقى ، فخلعوا عليه سالارية (قيادة) الكرد والعرب[(٥٤)] .

كذلك عنى السلطان بتزويد قادة الجيش الغزنوى بالوصايا اللازمة لتحقيق النصر قبيل تحرك القوات الى ميادين الحرب ، فمن ذلك وصايا السلطان مسعود للقائدين بكتكين جوكانى وبيرى والقادة التابعين لهما بعد انتهاء الاستعراض والخلع عليهم بقوله : "كونوا عقلاء يقظين وامنعوا الجند من التعدى على الناس سواء فى بلادكم أو فى غيرها من بلاد الاعداء حتى لا يقع ظلم على أحد وحين تلتحقون بجيش التونتاش[(٥٥)] ادوا واجبكم خير اداء ، واشتروا بأمره ولا تخالفوه فى شيء[(٥٦)]" . فقالوا جميعا سمعا وطاعة . ومما يجدر ذكره أن سلاطين الغزنويين كانوا يهتمون بالتوكيد على طاعة القائد العام للجيش مهما تعددت القيادات ، لتجنب الفرقة ونزاع الرأى ، وحتى يتسنى للقائد اتخاذ القرار الصائب خلال القتال ، فلما وقع اختيار السلطان مسعود على عشرة من القادة لمحاربة السلاجقة فى نسا[(٥٧)] سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٦م[(٥٨)] ، وولى الحاجب بكتغدى قائدا عاما[(٥٩)] ، أكد عليهم فى وصاياه طاعته وامتثال أوامره فقال : "ان هذا الرجل هو قائدكم ــ وهو خليفتنا ، فأطيعوه جميعا فان أوامره كأنها أوامرنا[(٦٠)]

---

٥٤) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٤ ــ ٥٣٥ .
٥٥) كان هذا الجيش قد أرسل الى التونتاش خلال قتاله ضد علي تكين الخارجي بالقرب من سمرقند سنة ٤٢٣هـ/١٠٣٢م .
ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٥ ــ ٧٦ .
، العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ ٢ ، ص ٢٥٩ .
٥٦) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٦٢ .
٥٧) نسا : مدينة بخراسان تقع بين سرخس ومرو وابيورد ونيسابور .
ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ٢٨٢ .
58) Osborn: Islam under the khalifs of B.P.320.
٥٩) الكرديزى : زين الاخبار ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ .
٦٠) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥١٧ .

فقبلوا الارض جميعا وقالوا سمعا وطاعة .

كان من تقاليد الغزنويين فى اعداد جيوشهم وتعبئتها للحرب ، الحاق أقسام من مخازن الحرب المتنقلة بالجيوش خلال تحركاتها - وهى عبارة عن خزائن كبيرة بها مئات من الاسلحة والمعدات الكاملة تحمل على ظهور الابل ، لتزويد الجند بما يحتاجون اليه خلال المعركة - كما كان يعين أحد نواب العارض لمرافقة الجيش للاضطلاع بصرف نفقات الجند وارزاقهم ومكافآتهم ، فاختير ابو سهل احمد على لمرافقة الجيش الذى أرسل الى خراسان سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٧م[(٦١)] ، وعهد اليه فضلا عن ذلك بالحل والعقد والاثبات والاسقاط وتدبير شئون الجيش فى خراسان[(٦٢)] .

اهتم الغزنويين بترتيب البريد على طرق الاتصال بين الجيش ومقر السلطنة حتى ترد الاخبار تباعا ، وكان يختار لهذه الخدمة الفرسان الممتازون[(٦٣)] ، فلما احرز الجيش الغزنوى النصر على الامير البويهى علاء الدولة بن كاكويه فى الرى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٧م[(٦٤)] ، جاءت البشرى مع ثلاثة من الفرسان ، فسر السلطان بذلك ودقت الطبول ونفخ فى الابواق وخلع على المبشرين . وكانت الرسائل تكتب بالرموز (وهو ما يعرف بنظام الشفرة فى العصر الحاضر) ، فذكر البيهقى ان الرسائل كانت توضع مع الملطفة المعماه (مفتاح الرمز) بعد حل رموزها وتحويلها الى اللغة الواضحة فى خطاب فتقدم للسلطان للاطلاع عليها[(٦٥)] .

---

61) Habib: Sultan Mahmoud of Ghaznin, P.44.

٦٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٦ .

٦٣) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٥١٩ .

٦٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الرابع ، ص ٣٨١ .

٦٥) انظر ، تاريخ البيهقى ، ص ٧١٦ - ٧١٧ .

٢- خطط الغزنويين الحربية :

اتبع الغزنويون فى حروبهم خططا محكمة وضعت باتقان، كانت على جانب كبير من التطور والرقى ، بعد ان اكتسب القادة والجند الخبرات اللازمة للقتال فى مختلف ميادين الحرب ، فتحقق بذلك للغزنويين انتصارات باهرة فى بلاد الهند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وغيرها من بلدان المشرق ، ويتجلى أسلوب الغزنويين فى القتال من تلك الرسالة الهامة التى انفذها أميرك البيهقى - صاحب خراسان الى السلطان مسعود الغزنوى ، وقد وصف فيها مراحل القتال - الذى دار بين التونتاش - قائدالجيش الغزنوى وبين على تكين - صاحب خراسان - الذى كان قد خرج على طاعة السلطان ، وترجع اهمية الرسالة الى أن أبا الفضل محمد بن حسين البيهقى قد خطها بيده واوردها لنا فى كتابه المعروف بتاريخ البيهقى ، فقال : "وجلس استاذى (ابو نصر مشكان) فى الديوان ونادانى ، وشرعت فى نسخ الرسائل وكانت لاميرك البيهقى" (٦٦) .

ذكر أميرك البيهقى فى رسائله ، أن التونتاش لما وصل على رأس الجيش الى دبوسية (٦٧) ، وقف على ربوة وخطب فى الجند لبث الحماس فى نفوسهم فقال : " ايها الاحرار سوف يقابلنا خصم لدود ماكر وله جيش متحد ، سنقاتلونكم مستميتين ... فكونوا يقظين فطينين ، وسددوا انظاركم الى رايتى التى معى فى قلب الجيش ، فاذا تراخيتم والعياذبالله اختلت أموركم ، أن نهر جيحون العظيم امامكم والشقة بعيدة بينكم وبين المفر فى خوارزم ، والحق انى لن أولى

٦٦) ابن الاثير : الكامل فيالتاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٧ .
٦٧) دبوسية : بليدة من أعمال الصغد من بلاد ماوراء النهر. ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثانى ص ٤٣٧ .

ظهرى فرارا ولو تركمونى وحيدا ، فبأى وجه تقابلون السلطان بعد ذلك ، وقد اعذر من انذر . فقالوا : لقد أنصفتنا وسنقاتل حتى الموت" . فلما ظهرت طليعة على تكين ، أمر ان تدق الطبول وان ينفخ فى الابواق ايذانا ببدء القتال - وتنبيها للجند ومقدميهم ونقبائهم للتقدم نحو العدو . ثم أمر ان تزحف الطلائع من اربع جهات ،بينما وقف القائد فى القلب وجعل فى الجناحين مما يلى القلب اقوى رجال الجيش حتى يتمكن من امداد الميمنة أو الميسرة بالدعم اللازم عند الحاجة ، وعين على الميمنة بكتكين الجوكانى وبيرى الآخور ، بينما جعل سالارتاش على الميسرة مع ثلة من الجيش السلطانى وعبأ واساقتين قويتين . ومن القلب اخذ يوجه الى الطليعة اكثر الفرسان خبرة وكفاءة بينما تقدم القائد حاملا رمحه متقدما الصفوف مما اثار الحماس فى نفوس الجند ، وقادهم الى تحقيق النصر(٦٨) .

كان السلطان مسعود الغزنوى يحرص على اصدار تعليمات القتال لفرق الجيش حتى يتحقق بذلك التنسيق والتعاون فيما بينها ، فلما خرج على رأس الجيش لمحاربة السلاجقة فى بيداء سرخس(٦٩) سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨ - ١٠٣٩م(٧٠) امتطى السلطان فيلته فى القلب ، وكان على الميمنة السبهسالار على دايه وعلى الميسرة الحاجب الكبير سباشى ، وعلى الساقة ارتكين ، وقام الرجالة بحفر الخنادق حول المعسكر ، وكان المقدمون قد اتخذوا مواقفهم فى الميمنة والميسرة والجناحين وعند مخازن الذخيرة والمقدمة والساقة ، بينما رتب السلطان عدة

---

٦٨) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٦٧ - ٣٧٢ .
، ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٧٥ .

٦٩) سرخس : مدينة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو .
ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٨ .

٧٠) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٢ .
، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٧ .

طلائع احتياطة من جهات المعسكر الاربع لحمايتها ليلا ـ وكانت تعليمات السلطان لقائد الميسرة : "اذهب على رأس الميسرة وفكر مليا واصغ لامرنا وارقب حركاتنا فحين نكر على العدو احمل انت في دقة على ميمنته ويحمل السپهسالار على ميسرته ، وساراقب المعركة وأرسل الكم الامدادات من الجناحين . بينما اعطى قائد الساقة تعليماته قائلا : "والتفت حتى لا يحدث خلل في الامدادات واحرس الطريق حراسة دقيقة"(٧١) .

أما خطة الغزنويين في مهاجمة الحصون فكانت تتم بمحاصرة الحصن من جميع الجهات ثم تنصب المجانيق ويتم دك الحصن باستخدامها بالتعاون مع ضاربي السهام ، ففي الحرب التي دارت بين الغزنويين والغور سنة ٤٠١هـ/١٠١٠-١٠١١(٧٢) أمر السلطان محمود الغزنوي بضرب الكوسات وأن ينزل الجيش حول الجهات الاربع للحصن الرئيسي ونصب المجانيق ـ التي اخذت في دك الحصن ، ولما حاول الغور المقاومة على الابراج ـ امر السلطان غلمان الخاصة ان يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بالسهام ، فتم لهم فتح الحصن(٧٣) .

أما فيما يتعلق بالغنائم ، فكان السلطان الغزنوي يضع قواعد توزيعها بعد انتهاء القتال ، فأمر السلطان محمود الغزنوي ان ينادي في الجند : "لقد وهبنا المال والذهب والفضة والرقيق للجيش ، أما الاسلحة فيجب تسليمها"(٧٤) لانها تصير ملكا للدولة فتحمل الى خزائن السلاح لتزويد الجيوش المرسلة في مهام قتالية جديدة .

---

٧١) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٦٢٦ - ٦٣١ .
٧٢) ميرخوند : روضة الصفا ، ص ٣٠ .
، ابن خلدون:العبروديوان المبتدأ والخبر،المجلدالرابع،ص ٣٦٩
٧٣) البيهقي : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
٧٤) البيهقي : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٣ ـ اعداد الجيش الغزنوي في زمن السلم

لم يقتصر دور الجيش الغزنوي على الخروج الى ميادين الجهاد من أجل الحرب والقتال ، بل شارك الجند افرادالشعب في الاحتفالات والمواسم والاعياد ، فضلا عن تعبئة الجيش لاستقبال الرسل وكبار المبعوثين في المناسبات المختلفة .

لما عزم السلطان مسعود الغزنوي على المسير من أصبهان الى نيسابور لخلافة ابيه في عرش السلطنة ، اعد له الغازي الحاجب ـ سبهسالار خراسان استقبالا كبيرا احتفاءا بمرور السلطان في ولايته ، فركب السبهسالار جواده واستدعى اليه النقباء وقال : "ينبغي ان يوعز الى الجند ليتهيئوا للتعبئة ويسيروا ليراهم مولانا ، وعلى الطلائع والمقدمين ان يحسنوا الخدمة "(٧٥) ـ وبدأت الجنائب تسير بكامل اسلحتها ودروعها والغلمان المجهزون بالعلامات وخيل الخاصة وفي اثرهم افواج خيالة كل مقدم بتمهيد حسن وعدةكاملة ، ومروا فوجا فوجا ، وعلى كل فوج قائده ، بينما وقف كثير من الفرسان والحشم للتحية وكانت الاعلام تمتد الى مسافات بعيدة من ابواب قصر شادياخ ، وكان السلطان مسعود قد اخذ مكانه في صفة التاج(٧٦) .

كانت تعبئة الجيش الغزنوي في الاحتفالات بالمواسم والاعياد تأخذ شكلا مبهرا ، ففي الاحتفال بعيد الاضحى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م ، استقل السلطان فيله ميمما شطر مرج شاهبهار في موكب حافل ، وكان الوزير أحمد حسن الميمندي والعارض ابو سهل الزوزني والخواجه ابو نصر مشكان ـ رئيس ديوان الرسائل يحيطون بفيل السلطان ، وتعالى قبل الضحى قرع الطبول والكوسات ، وارتفع نفير الابواق ، فوقف الجميع

٧٥) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٣٦ .
٧٦) البيهقي : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

وتقدم ثلاثة من مقدمي الجيش المحمودي متمنطقين بالاحزمة الذهبية ، وسبعة آخرون بالمناطق الفضية يتلوهم خادم السلطان - جوهر آيين ، يتبعهم عدد من المقدمين وحجاب السلطان ، فكانت الخيول تمر والمقدمون يقفون لتأدية التحية للسلطان عند الوصول الى موقفه العالي (٧٧).

أما تعبئة الجيش في المناسبات الخاصة فتتجلى في مناسبة وفاة القادر بالله وخلافة القائم بأمر الله سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م (٧٨) . فلما انفذ الخليفة القائم بأمر الله رسولا من قبله الى السلطان مسعود الغزنوي لحضور مراسم التعازي واخذ البيعة ، دعا السلطان كبير الحجاب وقائد الغلمان والعارض وصاحب ديوان الرسائل ، وتقرر ان يمثل مبعوث الخلافة في الحضرة السلطانية في غرة شهر المحرم سنة ٣٢٣هـ/١٠٣١م . فأعد كبير الحجاب وجماعة من المقدمين جميع ما يلزم لاعداد الجند وغلمان السراي فوقف اربعة آلاف من غلمان السراي في صفين من جهة القصر مقسمين الى عدة كتائب ، ألفان منهم بقبعات ذات ركنين ومناطق ثمينة ، وألفان آخران بقبعات ذات أربعة اشرطة ، كما وقف ثلثمائة من خاصة الغلمان عند ممرات البهو مما يلي مجلس السلطان بألبسة فاخرة وقبعات ذات ركنين ومناطق ذهبية ودبابيس من ذهب ، واصطف الجند بأسلحتهم في صفين بألبستهم الحريرية المختلفة الالوان ومعهم العماريات والرايات ليستعرضهم الرسول اثناء مروره بينهم ، وتعالت اصوات الابواق والطبول والكوسات ، فلما رأى الرسول هذا المشهد العجيب اخذته الدهشة . وخلال ذلك تقدم ركب السلطان قبيل الظهر وأمامه اربعة آلاف من الغلمان على

---

٧٧) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٣٠٨ - ٣١٠ .

٧٨) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، جـ ٨ ، ص ٥٦-٥٧ .

Muir: The Caliphate, P. 579-580.

تلك الزينة ، وكان القائد بكتغدى من ورائه وفى اثـــــره غلمان الخاصة - وراية السلطان وأصحاب الرتب والحجاب فى المقدمة ، ومن ورائهم كبير الحجاب - بلكاتكين ، والوزير أحمد حسن الميمندى يسير خلف السلطان مع الوجوه واعيـــان الحضرة ، ثم نفخ فى الابواق الذهبية اعلانا باتخاذ السلطان مكانه الجليل ايذانا ببدء العرض(٧٩) .

---

٧٩) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣١٥ - ٣١٩ .

خاتمة البحث

يتجلى من دراسة تقاليد الغزنويين في اعداد جيوشهم وتعبئتها أن هذه الجيوش قد بلغت مستوى عال من التدريب والكفاءة فكانت فخرا للدولة في زمني الحرب والسلام .

كانت تعبئة الجيش الغزنوي في حالة الحرب لا تختلف عنها في زمن السلم ، ولا يميز الحالتين الا نوع الالبسة وصنوف السلاح التي كان يحملها الجند في كل مناسبة .

تطورت أساليب القتال الغزنوية من طريقة الحشد العام على عهد سبكتكين - مؤسس الدولة الى اتباع انظمة مختلفة طبقا للموقف القتالي في ساحات الجهاد ، وطبيعة المعركة مع العدو ، فاتخذ الغزنويين الطلائع المتقدمة والطلائع الاحتياطية لحماية أجناب القوات واقسام التعبئة . كما كان قائد الجيش يزود أقسام التعبئة اثناء القتال بالامدادات من الاحتياط العام الموجود في الجناحين المتاخمين للقلب .

كانت الرسائل المتبادلة بين الجيش في ميدان القتال وبين الحضرة السلطانية تكتب بالرموز (الشفرة) حتى لا يقف العدو على محتواها . وكانت مفاتيح الرمز تحفظ في ديوان الرسائل حيث يقوم رئيس الديوان أو نائبه بتحرير الرسائل بلغتها الواضحة قبل عرضها على السلطان.

حرصت الدولة على الاحتفاظ بالاسلحة بعد انتهاء الحرب دون غيرها من الغنائم للانتفاع بها في تزويد الجيوش ، بينما كان يتم توزيع الغنائم الاخرى على الجنود .

على الرغم من الانتصارات الكبيرة التي حققها الجيش الغزنوي في ميادين عديدة واتساع فتوحاته وخاصة بلاد

الهند ، الا أن هذا الجيش منى بهزائم فى حروبه ضد السلاجقة مما كان له اسوأ الاثر فى اضمحلال الدولة وسقوطها. وترجع اسباب هذه الهزائم الى اختيار مجلس شورى الحرب لعدد من القادة الشبان - الذين لا يتمتعون بالخبرة والتجربة اللازمة لخوض الحرب فضلا عن قائد كبير السن مثل بكتغدى - الذى اعترض على تعدد القيادة ، وأبدى رغبته فى التنحى عنها : "انى عبد مطيع ولكن قد قيل ان القدر لا ينضج اذا كثر الشركاء ، وأنا رجل قد بلغت من الكبر عتيا ووهن عظمى وضعف بصرى ، ولا يجوز النقص فى القيادة ، فانه يؤدى الى خلل عظيم فيوءاخذنى به السلطان[١]" . غير ان السلطان أصر على ارسال بكتغدى قائدا عاما .

كذلك لعبت الاحمال الثقيلة وسوء التدريب دورا هاما فى عجز الجيش الغزنوى واعاقة حركته ، لان الجند كانوا مضطرين الى حماية أنفسهم وحماية متاعهم الثقيل ، بينما كان السلاجقة يتمتعون بخفة الحركة وكانت احمالهم بسيطة .

كانت الهزيمة العظمى للجيش الغزنوى فى موقعة داندانقان سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م ، فقد خاض الجيش الغزنوى المعركة فى يوم شديد الحرارة والموءن قليلة ، والعلف لا وجود له والدواب هزيلة ، وقد مر السلطان مسعود الغزنوى فى الطريق على كثير من أفراد جيشه يجرون جيادهم ويبكون ، فامتلأ قلبه حسرة ، وقال : "ما أسوأ حال هذا الجيش"[٢] .

* * *

١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥١٦ .
٢) البيهقى : المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .

المصادر والمراجع

اولا : المصادر والمراجع العربية

* ابن الاثير : (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ابوالحسن على بن ابى الكرم.

(١) "الكامل فى التاريخ" - ٩ اجزاء (الجزءان ٧ ، ٨) - دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨م .

* أحمد محمود الساداتى :

(٢) "تاريخ المسلمين فى شبة القارة الهندية" - الجزء الاول - القاهرة ١٩٥٨م .

* الاصطخرى :(ت ٣٤١هـ/٩٥٢م) ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى

(٣) " المسالك والممالك" - تحقيق محمد جابر عبد العال - القاهرة ١٩٦١م .

* ابن الجوزى :(ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠-١٢٢١م) جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن .

(٤) " المنتظم فى تاريخ الملوك والامم "- ٥ اجزاء (الجزء الثامن) حيدر آباد الركن ١٣٥٩هـ .

* حسن أحمد محمود :

(٥) " الاسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى" - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

* حسن الباشا :

(٦) " الالقاب الاسلامية " - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م .

* ابن خلدون: (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥-١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد

(٧) " العبر وديوان المبتدأ والخبر " - ٥ مجلدات (المجلد الرابع) - دار الفكر ، بيروت ١٩٧٩م

* ابن خلكان : (ت ٦٨١هـ/١٢٧١م) شمس الدين ابو العباس احمد ابن ابراهيم .

(٨) "وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان" - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - القاهرة ١٩٤٨م .

* السبكي : (ت ٧٧١هـ/١٣٧٥-١٣٧٦م) ابو النصر عبدالوهاب ابن علي بن الكافي .

(٩) "طبقات الشافعية الكبرى" - المطبعة الحسنية - القاهرة ١٣٢٤هـ .

* العتبي : (ت ٤٣١هـ/١٠٣٦م) ابونصر محمدبن عبد الجبار

(١٠) "تاريخ اليميني" ، مطبوع على هامش الفتح الوهبي على تاريخ ابي نصر العتبي للشيخ احمد ابن علي المنيني (الدمشقي) - المطبعة الوهبية ١٢٨٦هـ .

* القزويني : (ت ٦٨١هـ/١٢٧١م) ابو عبدالله زكريا بن محمود القاضي .

(١١) "آثار البلاد واخبار العباد" - دار صادر - بيروت ١٩٦٨م .

* محمد جمال الدين سرور :

(١٢) "تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق" - دار الفكر العربي ١٩٧٦م .

* هلال بن الصابي : (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) ابو الحسين هلال بن المحسن بن ابي اسحق .

(١٣) "رسوم دار الخلافة" - نشر ميخائيل عواد بغداد ١٩٦٤م .

* ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) شهاب الدين أبوعبدالله الحموي الرومي .

(١٤) "معجم البلدان" - ٥ مجلدات - دار صادر بيروت ١٩٧٩م .

ثانيا : المصادر الفارسية

* البيهقى : (ت ٤٧٠هـ/١٠٦٦م) ابو الفضل محمد بن حسين البيهقى .

(١) "تاريخ البيهقى" - نقله الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت - مكتبة الانجلو ١٩٥٦م .

* حمد الله المستوفى :(ت ٧٥٠هـ/١٣٦١م) حمد الله بن ابى بكر بن احمد بن نصر المستوفى القزوينى .

(٢) "تاريخ كزيده" - ملحق بتاريخ بخارى للنرشخى - نقله الى العربية أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازى - دار المعارف بمصر

* الراوندى : (ت ٥٩٩هـ/١٠١٩م) محمد بن على بن سليمان

(٣) "راحة الصدور واية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية" - ترجمة ابراهيم أمين الشواربى وعبد النعيم حسنين وفوءاد عبد المعطى الصياد - القاهرة ١٩٦٠م .

* العروضى السمرقندى :(ت ٥٦٠هـ/١١٦٤- ١١٦٥م) احمد بن عمر بن على النظامى .

(٤) "جهار مقاله" - شرح وتحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى - تعريب يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٩م .

* الكرديزى : (ت ٤٤٢هـ/١٠٥٠م) ابو سعيد عبد الحى الضحاك

(٥) "زين الاخبار" ترجمه عن الفارسية عفاف السيد زيدان - دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢م .

* ميرخوند : (ت ٩٠٣هـ/١٥١٧م) محمد بن خواند شاه بن محمود

(٦) "روضة الصفا" - (القسم الرابع من المجلد الرابع) ترجمة وتعليق احمد عبد القادر الشاذلى .

* نظام الملك : (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٧م) نظام الملك ابو علي الحسن بن علي .

(٧) "سياست نامه" ترجمة السيد محمود الغزاوي- القاهرة ١٩٧٥م .

* * *

ثالثا : المراجع الاجنبية

* BOSWORTH: C.E.

(1) "The Ghaznavids, their Emperian of Afghanistan and Eastern Iran (993-1040 A.D.)" - Edinburgh.

(2) "Notes on the preghaznavids of Eastern Afghanistan" (The Islamic quarterly) - Oxford, 1965.

* DUNBAR: G.

(3) "A History of India from the earliest to the present day".

* HABIB: M.

(4) "Sultan Mahmoud of Ghaznin"- New Delhi. 1967.

* LANE-POOL: Stanley

(5) "The Mohammedan Dynasties" - Paris ,1925.

(6) "Mediaeval India under Mohammedan Rule" London , 1917.

* MORELAND: W.H.& Chatterjee (Atul Chandra)

(7) "A short History of India"- London ,1936.

* MUIR: W.

(8) "The Caliphate, its rise, decline, and fall"- London, 1924.

* NAZIM: M.

(9) "The time and life of Mahmoud of Ghazna" Cambridge, 1931.

* OSBORN: D.

(10)- "Islam under the Khalifs of Baghdad" London, 1877.

* PANIKKAR: K.M.

(11) "A survey of Indian History" -Bombay, 1956.

* * *

نائب السلطنة فى القاهرة
فى عصر دولة المماليك البحرية

د.ليلى عبدالجواد اسماعيل
كلية الآداب - جامعة القاهرة

كان منصب نائب السلطنة واحدا من المناصب الادارية الكبرى ، التى عرفتها مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، حتى ان الخالدى صاحب المقصد الرفيع وضع نائب السلطان على رأس ارباب الوظائف بالقاهرة ، اذ جعل ترتيبه الاول بينهم[١].

والنائب هو الذى يقوم مقام السلطان فى عامة اموره أو فى غالبها ، اما المعنى اللغوى للكلمة فهى اسم فاعل من ناب ينوب فهو نائب ، ويقال ناب فلان عن فلان ينوب نوبا ومنابا ، واذا قام مقامه فهو نائب . واطلق هذا اللقب فى المصطلح التاريخى على كل نائب عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجا عنها فى قرب أو بعد وفقما ذكر القلقشندى[٢] .

وقد عرف السلاجقة منصب نائب السلطنة ، وكان النائب عندهم هو الوالى نفسه ، الذى ينوب عن السلطان فى حكم احدى ولايات السلطنة ، واستمر هذا المنصب فى عصر الاتابكة ثم انتقل الى الدولة النورية ، ومنها الى الدولة الايوبية[٣]. فمنذ عصر صلاح الدين انشغل سلاطين مصر بحروبهم مع الصليبيين فى الشام ، واضطروا لترك مصر لفترات طويلة ، و لذلك اقتضت الضرورة وجود من ينوب عنهم ، ويعتمدون عليه فى ادارة شئون البلاد ، وفى حكمها اثناء غيابهم عنها[٤] . من ذلك انه عندما خرج صلاح الدين لقتال الصليبيين بالشام فى عام ٥٧٣هـ/

---

١) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٤ .
٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٣ .
٣) حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ٣،ص٢٢٤-٢٣ .
٤) سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

١١٧٨ م جعل اخاه العادل نائبا عنه [٥] .

وعندما آلت السلطنة الى العادل سيف الدين اخى صلاح الدين ، استناب ابنه الكامل عند خروجه الى بلاد الشام لقتال الصليبيين فى عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م ، وجعله القائم بامور البلاد فى غيابه [٦] . كذلك اناب السلطان الكامل بدوره ابنه الصالح نجم الدين ايوب عند خروجه الى بلاد الشام فى عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م . ولكنه اشرك معه الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ليقوم بالاشراف على تحصيل الاموال وتدبير امور المملكة . ثم عاد السلطان الكامل واستناب ابنه العادل على مصر ، عندما خرج لصد المغول فى عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، واصطحب معه الصالح ايوب [٧] .

على ان منصب نائب السلطنة ظل فى العصر الايوبى منصبا موءقتا ، بمعنى ان النائب يحل محل السلطان فى حالة غيابه عن البلاد فحسب ، وينتهى دوره بعودة السلطان اليها . ولكن حدث عندما تولى الصالح ايوب السلطنة فى عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠ م ان جعل منصب نائب السلطنة منصبا دائما ، وذلك ليحد من سلطة الوزير ، واصبح نائب السلطنة بصفته الجديدة يلى السلطان فى المرتبة ويتمتع بكل ما كان يتمتع به الوزير من قبل ، الامر الذى ادى الى اضعاف مكانة الوزير بعد ان طغى نائب السلطنة عليه واستحوذعلى ما كان له من سلطات [٨] .

وكان الامير حسام الدين بن ابى على الهذبانى [٩] هو

---

٥) انظر ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ ، ص ١٦١ .

٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ١١٢ - ١٣٠ .

٧) انظر ابن واصل ، نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٧٠ جـ ٥ ، ص ١٦ - ١٧ ، وانظر ايضا :محمدمحمدامين ، "الملك الصالح نجم الدين ايوب" رسالة ماجستير غير منشورة ، ص١٩ ، ص ٢١ .

٨) محمد محمد امين ، الصالح ايوب ، ١٤٩ .

٩) ولد الامير حسام الدين بن ابى على الهذبانى بحلب فى عام ٥٩٢ هـ ، وكان من كبار رجال الدولة الصالح ايوب ، ثم استدعاه وولاه نيابة السلطنة بديار مصر ، واقامه مقام== ==

اول من تولى منصب نائب السلطنة بصفته الجديدة ، وذلك فى عام ٦٤٤ هـ/١٢٤٦ م ، وظل حسام الدين يشغل هذا المنصب حتى وفاة الصالح ايوب ، وعندما خلفه ابنه توران شاه فى السلطنة عين الامير جمال الدين اقوش النجيبى (١٠) بدلا من حسام الدين فى عام ٦٤٨ هـ /١٢٥٠م (١١) .

وفى ظل النظام الاقطاعى الذى طبقته الدولة الايوبية على نطاق واسع كان نائب السلطنة فى العصر الايوبى يقطع اقطاعا ، فيذكر ابن واصل ان الملك الصالح نجم الدين ايوب اقطع نائبه حسام الدين الهذبانى الخبز الذى كان بيد اسد الدين الكاملى ، وهو احد الامراء الذين قضى عليهم الصالح ايوب (١٢) .

كذلك صارت دار الوزارة (١٣) هى مقر نائب السلطنة فى العصر الايوبى ، اذ يذكر ابن واصل ان الصالح ايوب انزل

= نفسه ، انظر ترجمته : العماد الحنبلى ، شذرات ، جـ ٥ ، ص ٢٩٦ ، اعلام النبلاء ، جـ ٤ ، ص ٤٥٥ - ٥٦ ، وانظر ايضا ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

١٠) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ ٣ ، ص ٢٤ - ٢٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٨١ .

١١) المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ، العينى عقد الجمان جـ ١ ، ص ٢٣ .

١٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٣٧ - ٣٨ .

١٣) يبدو ان المقصود بدار الوزارة هنا ،دارالوزارة الكبرى، وهى تلك الدار التى بناها الافضل بن بدر الجمالى فى العصر الفاطمى فى عام ٥٠١هـ / ١١٠٧ م بجوار القصر الشرقى الكبير وسكن سلاطين الايوبيين هذه الدار منذ عهد صلاح الدين حتى عهد الكامل ثم اصبحت تسمى بالدار السلطانية بقلعة الجبل . انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٣ ، حاشية ١ ، ابن واصل ، المصدر السابق، جـ ٥ ، ص ٣٣٤ ، حاشية ٢ .

نائبه حسام الدين الهذبانى بدار الوزارة بالقاهرة بعد ان ولاه نيابة السلطنة ، وذلك ليكون قريبا منه ، ويصل الى خدمته فى اكثر الاوقات لمنادمته ومجالسته والاستضاءة برأيه (١٤) .

ولما كانت دولة المماليك استمرارا - من ناحية كثير من النظم - لما كان عليه الوضع فى دولة بنى ايوب ، فان منصب نائب السلطنة استمر فى عصر الدولة الجديدة ، وابتدا فى صورة منصب موءقت لم تتضح معالمه فى اول الامر حتى كان عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وعندئذ اصبح منصبا دائما ، واخذت تتحدد معالمه ودرجاته ومراسمه واختصاصاته على نحو ما سنرى .

وكان الامير علاء الدين ايدكين البندقدار الصالحى (١٥) هو اول من شغل منصب نائب السلطنة بصفته الموءقتة - فى عصر دولة المماليك البحرية ، اذ اختاره السلطان المعز ايبك فى ١٣ شوال من عام ٦٤٨ هـ / ١٨ يناير ١٢٥١ م ليشغل هذا المنصب عند خروجه من القاهرة لقتال الملك الناصر صاحب حلب ، واخذ الامير علاء الدين يمارس مهام منصبه ، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل لترتيب الامور وكشف المظالم (١٦) .

وفى عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م رتب المعز ايبك الامير سيف الدين قطز فى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وكان قطز واسع النفوذ اثيرا عند السلطان فعاونه على تثبيت ملكه

---

١٤) ابن واصل ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ ، ٣٧٣ ، المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٦ .

١٥) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ ٣ ، ص١٥٩ ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٣٦٥ ، ابن كثير ، البداية ، جـ١٣ ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

١٦) المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٣ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١ ، تحقيق محمد محمد امين ، ص ٣٩ - ٤٠ .

وتدعيم اركانه (١٧) . وظل قطز يشغل منصب نائب السلطنة فى عهد المنصور على بن المعز ايبك ، ويؤكد ذلك ما ذكره كل من المقريزى والعينى فى حوادث عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م ، وعام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨م من ان الاميرسيف الدين قطز ظل على عادته نائبا للسلطنة فىعهد المنصور على وصار مدبر دولته (١٨) .

وعندما اعتلى قطز عرش السلطنة اتخذ من الاميرعزالدين ايدمر الحلى او الحلبى (١٩) نائبا لسلطنته بمصر عندخروجه لقتال المغول ، واعلن المقريزى ذلك صراحة (٢٠) . هذا فى حين يذكر العينى ان الامير فارس الدين اقطاى المستعرب (٢١) هو الذى كان نائبا عن قطز بقوله : "فلما وصل بيبرس هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر الى الدهليز ، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاى المستعرب وهو الذى كان اتابكا لنور الدين على بن الملك المعز ايبك التركمانى ، فلما تسلطن قطز ، اقره على نيابة السلطنة بالديار المصرية (٢٢) ويبدو ان فارس الدين اقطاى المستعرب حمل اللقب ، ولكن قطز عند خروجه لمحاربة المغول فى الشام استناب بمصر الامير عز الدين الحلى (٢٣) .

وبعد ان استقرت الامور للسلطان الظاهر بيبرس ، استناب مملوكه الامير بدر الدين بيليك الخازندار (٢٤) فى ذى القعدة

---

١٧) المقريزى ، المصدر السابق ، نفس الجزء والقسم ، ص ٣٨٤ .
١٨) المقريزى ، نفس المصدر ، ص ٤٠٥ ، العينى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، التحقيق ، ص ١٣٩ ، ٢١٦ .
١٩) انظر ترجمته فى المنهل ، جـ ٣ ، ص ١٧١ ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢٢٧ .
٢٠) انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ ، وانظر ابن دقماق ، الجوهر الثمين ص ٦٦ .
٢١) انظر ترجمته فى المنهل ، جـ ٢ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .
٢٢) العينى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، التحقيق ، ص ٢١٦ .
٢٣) ابن ايبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٦٢ .
٢٤) الامير بدر الدين بيليك الخازندار ، اشتراه السلطان الظاهرو رباه من صغره ، وكان خازنداره ثم استاداره فى الامر ، وتوفى بيليك فى ربيع الاول ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧ م عن ==

سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م ، وفوض اليه شئون الدولة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، ينفذ الامور من غير مشورة السلطان ، ويتصرف فى امور المملكة التصرف المطلق . ثم وسع السلطان الظاهر فى اختصاصات نائبه الامير بدر الدين، ففوض اليه النظر فى امر الجيوش بقطع الاقطاعات ، كما فوض اليه امر الرعايا وكشف ظلاماتهم (٦٦٠ هـ/١٢٦١م)[٢٥] .

ويعد الامير بدر الدين بيليك الخازندار اول نائب دائم فى عصر دولة المماليك البحرية ، وقد استمر يشغل منصبه هذا طيلة حياة السلطان الظاهر بيبرس ، وعندما كان الامير بدر الدين يصاحب السلطان ويخرج معه الى بلاد الشام لقتال المغول[٢٦] ، كان السلطان الظاهر بيبرس يعين نائبا اخر موءقتا لحين عودة نائبه الدائم الامير بدرالدين بيليك الخازندار . من ذلك ما ترويه المصادر من ان السلطان الظاهر بيبرس كان يستنيب الامير عز الدين الحلى اثناء خروجه الى بلاد الشام لقتال المغول ، وكان يجعله فى خدمة ولده الملك السعيد ومعه الصاحب بهاء الدين بن حنا وذلك كما حدث فى اعوام ٦٦١هـ/١٢٦٢م ، ٦٦٣هـ/١٢٦٤م، ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[٢٧].

== خمسة واربعين عاما ، اما كلمة بيليك فتعنى باللغة التركية العالم او الحكيم ، انظر ترجمته فى المنهل ،جـ٣، ص ٥١٢ - ١٣ ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ق ٢ ، ورقة ٣٧٣ وانظر ايضا المفضل ، النهج منشور فى P.O.T. XII, P.401 M.S. ابن عبد الظاهر ، الروض،ص ٨٦ - ٨٧ ،المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ .

٢٥) المقريزى ، السلوك ،جا ،ق ٢،ص ٤٣٨ ،النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٢٨ ،ورقة ٥ ،٤٦، ٤٧ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ٦٨ ، ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٣١٠ .

٢٦) انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٣ ، الكتبى ، عيون التواريخ ،جـ٢١ ص ٢٩ - ٣٠ ، ٩٩ ، النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٢٨ ،ورقة ٣٥٠ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، جـ ٣ ، ص ١٧٥ ، المفضل ، النهج . P.O.T. XII, P.421

٢٧) لمزيد من التفاصيل انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص١٧٠ ، ٢٢٨ ، ٢٩ ، النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٢٨ ، ورقة ١١٠،==

واستمر الامير عز الدين الحلى يعمل كنائب غيبة للسلطان الظاهر بيبرس ، ويحل محله فى حالة غيابه عن البلاد هونائبه الدائم الامير بدر الدين حتى عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م ، وهو العام الذى توفى فيه الحلى ، ويرجع ذلك الى ان الحلى كان كما ذكر ابن تغرى بردى "من اكبر امراء الدولة واعظم محلا عند الظاهر بيبرس ، وكان نائب السلطنة عنه بالديار المصرية فى غيبته عنها لوثوقه به واعتماده عليه" (٢٨) .

وبعد وفاة الامير عز الدين ايدمر الحلى ، وعند خروج السلطان الظاهر الى الشام فى جمادى الاخرة من عام ٦٦٩هـ/ يناير ١٢٧١م ، وصحبته ولده الملك السعيد ونائبه الامير بدر الدين بيليك الخازندار - اناب عنه بالقاهرة الامير شمس الدين اقسنقر الفارقانى (٢٩) كنائب غيبة (٣٠) .

وظل الامير اقسنقر الفارقانى يعمل كنائب غيبة فى القاهرة خلال الاعوام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م - ٦٧٥هـ/١٢٧٦م فى اوقات خروج السلطان الظاهر بيبرس ونائبه بدر الدين بيليك الى بلاد الشام لقتال المغول (٣١) .

== ١٢٧ ، بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، التحقيق ص ٧٨ ، المقريزى، المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٠٥-١٠٦

٢٨) ابن تغرى بردى ،المنهل ،جـ ٣ ،ص ١٧١ ،النجوم ،جـ٧،ص ٢٢٧ .

٢٩) الامير اقسنقر الفارقانى من مماليك نجم الدين صاحب صلاح الدين ، ثم اتصل بخدمة السلطان الظاهر بيبرس ، وتقدم عنده وجعله السلطان استادارا كبيرا،وولاه نيابة الغيبة لوثوقه به ، ثم ولى اقسنقر نيابة الحضرة لفترة قصيرة وتوفى فى عام ٦٧٧هـ عن خمسين عاما ، انظر ترجمته فى المنهل ، جـ ٢ ، ص ٤٩٤ - ٩٦ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

٣٠) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٨ ، ق ١ ، ورقة ١٨٠ - ١٨١ المفضل ، النهج منشور فى P.O.T.XII,P. 527.

٣١) النويرى ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ورقة ٣٥٠ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، الكتبى،عيون التواريخ ، جـ ٢١ ، ص ٢٩ - ٣٠ ، ص ٩٩، اليونينى ،المصدرالسابق ، جـ ٣ ، ص ١٧٥ .

يتضح مما سبق انه منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس بدأت تتحدد درجات منصب نائب السلطنة ، وبدأت تتضح معالمه ، وبدا واضحا انه منذ ذلك العهد انقسمت النيابة الى درجتين او قسمين وهما : نيابة السلطنة بالغيبة ونيابة السلطنة بالحضرة . والحق ان كثيرا من أنظمة الحكم والادارة فى عصر دولة المماليك اخذت تتبلور فى عهد السلطان الظاهر بيبرس بالذات(٣٢) .

أولا : نيابة الغيبة :

نائب الغيبة كما جاء فى التعريف هو الذى يترك اذا غاب السلطان والنائب الكافل اى نائب الحضرة لاخماد الثوائر وخلاص الحقوق(٣٣) ، وكان السلطان عند خروجه من البلاد ورحيله عنها - يكتب لنائب الغيبة "تذكرة" والتذكرة هى مكتوب من السلطان لنائبه ، يذكره فيه بتفاصيل ما يوكل اليه وما يطلب منه عمله اثناء غياب السلطان عن البلادوقد اورد لنا كل من القلقشندى وابن الفرات نسخة تذكرة سلطانية كتبت عن السلطان الصالح على ابن المنصور قلاوون عند سفره الى الشام للامير زين الدين كتبغا عند استقراره نائبا للسلطنة وهى من انشاء احمد بن المكرم الكاتب(٣٤) .

وتتضمن التذكرة فصولا توضح ما كان يطلب من نائب الغيبة عمله ، فكان عليه ان يتشدد فى تنفيذ احكام الشرع الشريف ، وان يعمل على نشر الحق والعدل والانصاف فى جميع ارجاء البلاد . وكان على نائب الغيبة فى داخل القاهرة ان يوفر ما يكفل لها الحراسة والحماية وذلك باصدار

---

٣٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٣٠ .
٣٣) العمرى ، التعريف ، ص ٦٥ . وانظر ايضا القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧ - ١٨ .
٣٤) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٩١- ٩٨ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

اوامره بالا يمشى احد فى ضواحيها ليلا ، ولا يخرج احد من بيته الا لضرورة ماسة ، وان يضاعف الحراسة فى الليل على السجون ، وان يرتب جماعة من الجنود اشبه بالخفراء للطواف حول المدينة ، والتأكد من اغلاق ابواب الدروب ، وغيرها ، وتفقد اصحاب الرباع ، وتأديب من يخل بمركزه منهم . كذلك كان على نائب الغيبة ان يشرف على خليج القاهرة وحفره ، وان يهتم بجسور ضواحى القاهرة ، وذلك بالعمل على تعريضها وحسن رصفها ، وحفظها من الطارق عليها ، وعليه ايضا ان يتفقد القناطر والترع ويصلح ما تهدم منها .

اما فى خارج القاهرة فكان على نائب الغيبة ان يتصل بالولاة ، ويحثهم على ضرورة ترتيب الخفراء فى بلادهم لحمايتها وحفظها ، ويوءكد عليهم لاستخلاص الحقوق الديوانية واموال الخراج من جهاتها ،ويحث النائب الولاة ايضا على عدم الفتور واظهار العجز والتقصير . ويكتب لهم ايضا بالا يحمل احد من العربان سيفا ولا رمحا ولا سلاحا ، وانه لن يسمح لاحد منهم بشراء سلاح من القاهرة ، ومن يخالف هذه الامور يوءدب .

وجاء فى التذكرة ايضا تعليمات لنائب الغيبة تتعلق بالثغور ، وضرورة الحفاظ عليها والاحتراز على المعتقلين بها ، والتيقظ لمهمات الثغر ، واستمالة التجارومعاملتهم بالعدل والرفق حتى يأتوا الى الثغور ، وعدم الاسراف فى فرض الرسوم المقررة على المراكب القادمة الى الثغر ، ولا يقلل متحصلها فى نفس الوقت . وعلى نائب الغيبة ايضا ان يحصل الاقمشة والامتعة على اختلاف انواعها ، وكذلك الجوارى والمماليك وغيرها .

ولم تغفل التذكرة امر الامراء والجنود الغائبين فى ميادين القتال ، فقد جاء فيها انه على النائب الاهتمام بمصالحهم اثناء غيابهم ، واستخلاص حقوقهم لنوابهم

وغلمانهم ووكلائهم - وهكذا شملت التذكرة كل امر من الامور التى تتعلق باحوال البلاد وحمايتها ومصالحها .

وكانت التذكرة تقرأ على المنابر ليسمعها سائر الناس ويعملوا بها وبما جاء فيها ، ومن يخل يكون جزاءه العقاب .

وعلى هذا فان نائب الغيبة كان يحل محل السلطان ويقوم بمهامه فى حالة غيابه عن البلاد فى حرب أو صيد أو حج .ونظرا لانه كان نائبا موءقتا ، يشغل منصبه لفترة محدودة لذلك كانت القابه محدودة ، فلا يعبر عنه بالكافل كنائب الحضرة أو النائب الدائم ، ومع ذلك فانه كان يتمتع بالسلطة والنفوذ اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه ، فقد وصف لنا المؤرخ بيبرس الدوادار الامير زين الدين كتبغا الذى تولى نيابة الغيبة فى عهد السلطان الاشرف خليل بقوله : " انه كان نائب السلطان فى الغيبة ومضاهيه فى الهيبة"(٣٥) .

ثانيا : نيابة الحضرة :

وهى النيابة العظمى ، ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل(٣٦) وكافل الممالك الاسلامية ، وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان ، وبقية النواب لا يعلم الرجل منهم الا على ما يتعلق بخاصة نيابته ، وجميع نواب الممالك تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان ، وهو يستخدم الجند من غير مشورة السلطان ويعين الامراء لكن بمشاورة السلطان . ولذلك فهو اعلى نواب السلطان

---

٣٥) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ،ج٩،تحقيق زبيدة عطا ، ص ٣١٧ .

٣٦) الكافل فى اللغة هو الذي يكفل الانسان ويعوله ، ويستعمل هذا اللقب باضافة ياء النسب اليه فيقال (الكافلى) وهو يشير الى نوع الوظيفة التى ينتمى اليها الملقب ، وهو نائب السلطنة بالحضرة . انظر حسن الباشا ، الالقاب ص ٤٣٤ - ٣٥ .

رتبة واكثرهم تميزا ، وهو سلطان مختصر بل وهو السلطان الثانى [٣٧] .

وكان نائب السلطنة بالحضرة يجمع بين النيابة والكفالة اى نيابة السلطنة المعظمة وكفالة الممالك الاسلامبةالشريفة مصر وشاما وسائر البلاد الاسلامية [٣٨] .

اما عن القابه فهى تظهر بوضوح تام فيما اورده لنا العمرى من رسم الكتابة اليه على النحو التالى : "اعز الله انصار الجناب الكريم العالى الاميرى الاجلى الكبيرى العالى العادلى الموءيدى الممهدى المشيدى الزعيمى الزخرى المقدمى العونى الغياثى المرابطى المشاغرى المظفرى المنصورى الاتابكى الكافلى الفلانى ركن الاسلام والمسلمين سيد الامراء فى العالمين اتابك الجيوش مقدم العساكرزعيم الجنود عاقد البنود ذخر الموحدين ناصر الغزاةوالمجاهدين غياث الامة وغوث الملة مشيد الدولة كافل الممالك منجد الملوك والسلاطين" [٣٩] .

اما عن مراسم تعيين نائب السلطنة بالحضرة فعند تعيينه كان يكتب له تقليد [٤٠] بذلك وقد اوردلناالقلقشندى نموذجين من تقاليد نواب السلطنة عامة ، كما اورد نسخة بتقليد نيابة السلطنة بالقاهرة ، كتبت عن السلطان اى

---

٣٧) العمرى ، التعريف ، ٦٥- ٦٦، مسالك الابصار ، تحقيق ايمن فوءاد ، ص ٥٤- ٥٦ ، الخالدى المقصد ، ورقة ١٢٤ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ ، ج ٧ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ج ١١ ، ص ١٣٤ . وانظر ايضا : عبد المنعم ماجد ،نظم دولة المماليك ورسومهم ، ص ٤٣ .

٣٨) العمرى ، التعريف ،ص ٦٥-٦٦،القلقشندى ، ج ٧،ص١٥٤-١٥٥ .

٣٩) العمرى ، التعريف ، ص ٦٦ . وانظر ايضا حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤٣٦ ، ٤٥٥ - ٤٥٨ ، ٥٢٣ .

٤٠) تقليد والجمع تقاليد ويقال قلده امر كذا ، اذا ولاه اياه ، وهو مأخوذ من القلادة فى العنق . ويقال قلدت المرأة فتقلدت . انظرالقلقشندى ،المصدر السابق ج ١١،ص١٠١

بكر بن الناصر محمد بن قلاوون للامير طقز دمر (٤١) عنـد توليه نيابة السلطنة فى عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م (٤٢) . كذلك اورد لنا الشجاعى نسخة تقليد بنيابة السلطنة للامير طشتمر حمص اخضر (٤٣) ، كتبت عن السلطان الناصر احمد ابن الناصر محمد (٤٤) .

وفى بعض الاحيان كان التقليد يكتب عن الخليفة .وغالبا ما كان ذلك يحدث فى حالة صغر سن السلطان الجالس على العرش . ففى عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م قام الخليفة بكتابة تقليد الامير سيف الدين قوصون (٤٥) بنيابة السلطنة ، وذلك لصغر السلطان كجك ، الذى لم يتجاوز السادسة من عمره (٤٦) .

---

٤١) الامير طقز دمر بن عبد الله الحموى الناصرى ، اصله من مماليك الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ثم انتقل الى ملك الناصر محمد ، فولاه عدة مناصب ، وزوجه من احدى بناته ، وتولى طقز دمر نيابة السلطنة فى عهد ابنه المنصور ابوبكر ، وتوفى طقز دمر فى عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ، انظر ابن تغرى بردى ،النجوم ،جـ ١٠،ص ١٤٢

٤٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ١١ ، ص ١٣٧ — ١٤٨ .

٤٣) الامير طشتمر حمص اخضر ، سمى بذلك لانه كان يحب اكل الحمص ، وولى نيابة السلطنة فى شوال ٧٤٣هـ ، فى سلطنة الناصر احمد ، ولم يستمر بها اكثر من اربعين يوما قبض عليه بعدها ، واعتقل بالكرك ، وقتل عام ٧٤٣هـ ، انظر ابن حجر ، الدرر ،جـ٢ ،ص ٣٢٠ ،الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد واولاده ،ص ٢٤٩— ٢٥٠ ، ابن حبيب،تذكرة ،جـ ٣ ،ص٤٦ .

٤٤) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

٤٥) الامير سيف الدين قوصون ، ولى نيابة السلطنة فى عهد كجك فى عام ٧٤٢هـ فاستبد بالامور لصغر سن السلطان،غير ان بعض الامراء قبضوا عليه وسجنوه ، ثم نفوه الى ثغر الاسكندرية . انظر ترجمته فى ابن حجر ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٤٢ — ٤٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٤٦ — ٤٧ ، ٣٨ — ٤٣ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤—٥٧٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ،جـ١ ، ص٤٩٣—٩٤ .

٤٦) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .

ويهمنا من التقليد طرته (٤٧) التى يكون عنوانها "تقليد شريف" ويكتب فى طرة تقليد نائب السلطنة " تقليد شريف" بان يفوض الى المقر الكريم العالى الامير الكبيرى الكفيلى (٤٨) فلان الفلانى - باضافة لقب السلطان الـ كالناصرى مثلا - نيابة السلطنة الشريفة بالديار المصرية والممالك الاسلامية اعلاها الله تعالى على اجمل العوائد ، واكمل القواعد ... (٤٩) .

اما عن نوع الورق الذى كان يكتب عليه تقليد نائب السلطنة او النائب الكافل فهو من قطع الثلثين (٥٠) ،ويكتب عليه بقلم الثلث الثقيل (٥١) ، وكان التقليد يقرأ فى الايوان المعروف بدار العدل (٥٢) من القلعة بحضرة السلطان

٤٧) الطرة فى الاصطلاح عبارة عن طرف الدرج من اعلاه ، ثم اطلقت على ما يكتب فى رأس الدرج مجازا . وهى فى الاصل مأخوذة من طرة الثوب اى طرفه ، ويجوز ان تكون مأخوذة من الطر بمعنى القطع ، لان الطرة مقتطعة عن كتابة المتن ويفصل بينهما بياض - انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

٤٨) الكفيلى لقب ارفع مرتبة من الكافلى لانه يغلب عليه الاختصاص بنائب السلطنة وذلك لعلو مرتبته ، انظر حسن الباشا ، الالقاب ، ص ٤٣٩ .

٤٩) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٤٧ - ٤٨ ،ج ١١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٦ .

٥٠) القلقشندى ، ج ١١ ، ص ١٠٧ .

٥١) يراد بقطع الثلثين من الورق ثلثا الطومار من كامل المنصورى ، وعرض درجة ثلثا ذراع بذراع القماش المصرى ايضا ، وتكتب فى هذا النوع من الورق مناشير الامراء والمقدمين وتقاليد النواب الكبار والوزراء ، واكابر القضاة ومن فى معناهم . انظر القلقشندى ، المصدر السابق ج ٦ ، ص ١٩٠ .

٥٢) ايوان دار العدل انشاه المنصور قلاوون ، ثم جدده الاشرف خليل ، ثم هدمه الناصر محمد فى عام ٧١١هـ ثم اعاد بناءه وزاد فيه فى عام ٧٣٥هـ واندثر هذا الدور الان ، ومكانه اليوم الارض القائم عليها جامع محمد على وملحقاته بالقلعة . انظر العمرى ،مسالك الامصار ،تحقيق ايمن فؤاد ، ص ٣٦ ، حاشية ١ .المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

والامراء وسائر ارباب الدولة (٥٣) .

وبعد ان يتم التقليد يجرى التحليف ، اى يؤدى النائب الجديد يمينا على طاعة السلطان والعمل بما فيه صالح البلاد والعباد ، اذ جرت العادة على نحو ما يذكر القلقشندى - انه اذا استقر نائب من النواب فى نيابة السلطنة حلف ذلك النائب عند استقراره (٥٤) .

ويبدو ان نائب السلطنة كان يؤدى اليمين ثلاث مرات على ثلاثة ايام على التوالى ، اذ يذكر ابن ايبك ان السلطان بيبرس الجاشنكير خلع على الامير سيف الدين سلار (٥٥) خلعة النيابة بعد التحليف بدار النيابة ، واستمر التحليف ذلك اليوم واليوم الثانى واليوم الثالث (٥٦) .

ثم يخلع السلطان على نائبه خلعة النيابة ، ويجرى عليه اقطاعاتها ، فقد فوض السلطان الاشرف خليل نيابة السلطنة الى الامير بدر الدين بيدرا المنصورى (٥٧) ، وخلع عليه على عادة نواب السلطنة ، واجرى عليه ما كان جار

---

٥٣) المقريزى، السلوك ، ج ٣، ق١، ص ٢٢٥ ، الشجاعى ، الناصر محمد، ص ١٤١، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١١ ، ص ٦٥ .

٥٤) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣١٩ .

٥٥) الامير سيف الدين سلار المنصورى من مماليك المنصورقلاوون تولى نيابة السلطنة فى عام ٦٩٨هـ ، فى عهد الناصر محمد ابن قلاوون ، واستمر فيها ما يزيد عن عشر سنوات ، ثم قبض عليه الناصر محمد لاتفاقه مع جماعة من الامراء على قتله ، وتوفى سلار فى ٧١٠هـ . انظر ابن حجر ، الدرر ج ٢ ، ص ٢٧٦- ٢٧٨ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٦٩ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ١٩ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

٥٦) ابن أيبك ، الدر الفاخر ، ص ١٥٨ .

٥٧) الامير بدر الدين بيدرا المنصورى اصله من مماليك المنصور قلاوون ، ثم ترقى حتى تولى نيابة السلطنة فى ٦٨٩هـ فى عهد الاشرف خليل ، وقتل بيدرا على يد الامير كتبغا فى ٦٩٣هـ/١٢٩٤م . انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ - ٩٥ ، ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٨٨ ، ابن حبيب ، تذكرة ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

على الامير حسام الدين طرنطاى(٥٨) - النائب السابق من الاقطاعات وغيرها(٥٩) وكذلك خلع السلطان الناصر احمد بن الناصر محمد على نائبه طشتمر حمص اخضر فى عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م خلعة هائلة بطراز زركش وتركيبة زركش زائد عن العادة(٦٠).

وبعد ان يرتدى نائب السلطنة تشريف النيابة او خلعتها، يخرج فى موكب عظيم ، يعرف "بموكب النيابة" مع اكابر الامراء ، ثم يجلس فى دست النيابة ثم يمد سماطا يعرف "بسماط النيابة" يجلس فيه مع اكابر الامراء . وكان السلطان ينعم احيانا على النائب بزيادة اقطاعه من اجل سماط النيابة هذا ، فقد انعم السلطان الملك المظفر حاجى على نائبه ارقطاى فى عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م ناحيتى المطرية والخصوص زيادة على اقطاعه من اجل سماط النيابة (٦١) . واولى نواب السلطنة السماط عناية خاصة ، فقد حرص الامير سيف الدين قوصون نائب السلطنة فى عهد السلطان كجك على زيادة راتب سماطه واكثر من الحلوى والدجاج والاوز ونحو ذلك(٦٢) .

واخيرا يجلس نائب السلطنة فى شباك النيابة لمباشرتها وممارسة اختصاصاته وكان يجلس والحجاب بين يديه والامراء

---

٥٨) حسام الدين طرنطاى تولى نيابة السلطنة فى عهد المنصور قلاوون فى رمضان ٦٧٨هـ/١٢٨٠م ، وبعد وفاة قلاوون قبض ابنه الاشرف خليل على طرنطاى ، وعذبه حتى مات فى ٦٨٩هـ . وعنه انظر : بيبرس الدوادار ، زبدة ، جـ ٩ ، التحقيق ، ص ٣١٩ - ٢٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ص ٣٨٣ - ٨٤ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٦١ .

٥٩) بيبرس الدوادار ، المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٣٢٠ ، النويرى نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٥٢ ، ابن العمرات ، جـ ٨ ، ص ١٠٢ .

٦٠) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

٦١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١٥٢ ، المقريزى السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٠ ، ٧١٨ .

٦٢) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ص ٣٢ ، المقريزى ، نفسه ، ص ٥٨٠ .

فى خدمته ، واحيانا كان الوزير يجلس بين يديه ، وكذلك موقعو الدست لامضاء ما يرسم به (٦٣) .

دار النيابة :

اما عن مقر نائب السلطنة فهو دار النيابة ، يقيم فيها لممارسة مهام منصبه . واول من بنى هذه الدار هو السلطان المنصور قلاوون ، بناها فى عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م فى قلعة الجبل ، وكانت هذه الدار تقع امام دركاة (٦٤) القلعة ، التى ينتظر بها الامراء حتى يوءذن لهم بالدخول ، اذا ما دخلوا من باب القلعة الاعظم . وكان الامير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة فى عهد المنصور قلاوون ، هو اول من سكن هذه الدار واقام بها (٦٥) .

على ان المصادر لا تذكر مقر اقامة نواب السلطنة الذين سبقوا حسام الدين طرنطاى والذين تولوا هذا المنصب قبل انشاء دار النيابة فى عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م . وربما اقام هوءلاء فى دار الوزارة كما فعل نواب الايوبيين ، وربما ايضا ان منصب نائب السلطنة لم يكن قد استقر الاستقرار

---

٦٣) ابن تغرى بردى ، نفسه ، ص ٦١ ، المقريزى ، نفسه ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٥ .

٦٤) الدركاة لفظ فارسى مركب من قطعين : در بمعنى/راى وكاه بمعنى محل وهى العتبة اوالفضاء او الممر او باب الساحة الصغيرة المربعة او المستطيلة التى تلى الباب وتؤدى الى داخل البناء . ومن اغراضها ان المار بالشارع اوالطريق لا يطلع على ما بداخل القلعة مثلا .
انظر : محمد محمد امين ، وثائق من عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٣٩ ، حاشية ١ .

٦٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٠ ، ص ٢٢ ، حاشية ٤ ، المنهل ، جـ ٣ ، ص ٨٦ ، حاشية ٥ .

الفعلى فى بداية عصر سلاطين المماليك البحرية ، ثم بدأ يأخذ هذه الصفة فى عهد السلطان المنصور قلاوون مما دفعه الى انشاء دار النيابة .

وتتألف دار النيابة من ايوان وشباك وعدة قاعات من بينها قاعة تعرف بالقاعة الحسامية . وكان نائب السلطنة يجلس فى الايوان مع الامراء لتناول سماط النيابة ولمناقشة اى امر من الامور الهامة . اما الشباك فكان نائب السلطنة يجلس فيه لممارسة مهام منصبه وبعض اختصاصاته ، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان الامير الحاج آل ملك(٦٦) نائب السلطنة فى عهد الصالح اسماعيل يجلس فى شباك النيابة طول نهاره ولا يمل من ذلك ولا يسأم(٦٧) . أما القاعات فيبدو انها كانت لسكنى نائب السلطنة فيذكر النويرى فى حوادث عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ان السلطان الناصر محمد انعم على الامير سيف الدين الماس الحاجب(٦٨) بسكنى دار النيابة فيما عدا القاعة الحسامية ، فانه رسم بافرادها ،ويذكر النويرى فى موضع اخر ان الامير طشتمر حمص اخضر سكن هذه القاعة الحسامية(٦٩) .

---

٦٦) الامير الحاج آل ملك بن عبد الله الجوكندار من كبار الامراء ، تولى نيابة السلطنة فى المحرم من عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م ، وظل يشغل هذا المنصب حتى تسلطن الاشرف شعبان ، الذى اخرجه من مصر الى دمشق وجعله نائبا عنه فيها ، ثم قبض عليه ، وتوفى مقتولا بسجن الاسكندرية فى عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م . انظر ترجمته فى المنهل ، جـ ٣ ، ص ٨٥ - ٨٨ ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٧٥-١٧٦ . ابن حجر ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٠ ، ابن حبيب ، تذكرة ، جـ ٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

٦٧) ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ ٣ ، ص ٨٦ .

٦٨) الامير سيف الدين الماس الحاجب من مماليك الناصر محمد ابن قلاوون ، وكان جاشكيرا ، ثم تنقل فى المناصب حتى صار حاجب الحجاب . ثم شغل منصب النيابة بالغيبة ، ثم قبض عليه ، وخنق فى صفر ٧٣٤هـ ، وتعنى كلمة الماس (ما يموت) . انظر ترجمته فى المنهل ، جـ ٣ ، ص ٨٩ - ٩١ ، الدرر، جـ ١ ، ص٤٣٨-٤٠، النجوم، جـ ٩، ص١٠٧-١٠٨ .

٦٩) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٣١ ، ورقة ٧٤ ، ٧٥ .

استمر نواب السلطنة يسكنون دار النيابة ويجلسون في شباكها حتى ابطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون النيابة ثم امر بعد ذلك بهدم هذه الدار في عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦ م ، وازيل الشباك الذى كان يجلس به حسام الدين طرنطاى نائب السلطان المنصور قلاوون في الثامن من ربيع الاخر من هذا العام (٧٠) .

وعندما اعيدت نيابة السلطنة في عام ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م واستقر بها الامير سيف الدين قوصون ، اقام في موضع من باب القلعة ، وادار حوله درابزين يحجبه عن الزحمة من كثرة الناس ، وصار يجلس في هذا المكان ، ويمد فيه سماطه ثم مالبث ان بنى قاعة لجلوسه مع الامراء من داخل باب القلعة وفتح فيها شباكا يطل على الدركاة ، وجلس فيه مع الامراء وذلك في جمادى الاولى من عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م (٧١) .

ولكن لم تكتمل دار النيابة في عهد الامير قوصون اذ ما لبث ان قبض عليه ، وحاول خلفته في نيابة السلطنة الامير طشتمر حمص اخضر - عمارة دار النيابة ، ولكن قبض عليه ايضا دون ان يكمل عمارتها (٧٢) ، وعندما تولى الامير اقسنقر السلارى (٧٣) نيابة السلطنة ، شرع في تعمير دار

٧٠) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ، السلوك جـ ٢ ، ق ٢ ، ص ٤١١ .
(٧١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٨٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ص ٣٢ ، ابن حجر ، الدرر جـ٣ ، ص ٤٣،٣٤٢ .
٧٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٠٤ ، الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد ، ص ٢٣٥ .
٧٣) الامير اقسنقر السلارى ، ولى نيابة السلطنة في عهد الناصر احمد ثم في عهد الصالح اسماعيل في عام ٧٤٣ هـ ، ثم قبض عليه في المحرم من عام ٧٤٤هـ وارسل الى الاسكندرية حيث سجن بها ثم قتل في سجنه في عام ٧٤٥هـ ، ولقب بالسلارى لانه كان من مماليك الامير سلار . انظر ترجمته في المنهل ، جـ ٢ ، ص ٤٤٩-٥٠٠ ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١٠٥ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٣ ، ٥٨ .

النيابة فى صفر من عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ، وفتح بها شباكا، ثم جلس فى دار النيابة بعد ان تمت عمارتها وبذلك يكون الامير آقسنقر السلارى اول نواب السلطنة الذين اقاموا بدار النيابة بعد تجديدها واعادتها[(٧٤)] . وظل نواب السلطنة يجلسون فى هذه الدار ويقيمون فيها حتى عهد النائب تمرار فى عهد فرج بن برقوق ، فهجرها ولم يقم بها[(٧٥)] .

اعمال نائب السلطنة بالحضرة واختصاصاته :

كان نائب السلطنة بالحضرة يشارك السلطان فى كثير من الاعمال فيوقع على المراسيم والمناشير[(٧٦)] ويعين الامرة ويمنح لقب الامارة ، فقد انعم الامير قوصون نائب السلطنة فى عهد كجك فى عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م ، على واحد وعشرين مملوكا من المماليك السلطانية بامريات ، منهم ستة طبلخاناه والبقية عشرات كما امر من حاشيته واقاربه ستين اميرا ، واكثر من العطاء وبذل الاموال[(٧٧)] . كذلك جعل السلطان الناصر حسن نائبه بيبغا روس[(٧٨)] يتحدث فى المملكة فخرج

٧٤) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ ، الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
٧٥) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢،ص ٢١٥،محمود رزق سليم عصر سلاطين المماليك ، جـ ١ ، ص ١١٧ .
٧٦) عن المناشير بتوقيع النائب الكافل عليها ، انظر القلقشندى، صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ١٥٧ ، وانظر ايضا محمد محمد امين ، "منشور بمنح اقطاع" بالمجلة التاريخية المصرية (١٩٨١ - ١٩٨٢م) ص ١٣ - ١٥ .
٧٧) المقريزى ،السلوك ،جـ٢ ،ق٣،ص ٥٧٢،المواعظ والاعتبار،جـ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابن تغرى بردى ،النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٣ .
٧٨) الامير بيبغاروس من جملة امراء الناصر محمدبن قلاوون، ولى نيابة السلطنة فى عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، ثم قبض عليه فى اول سلطنة الناصر حسن فى ٧٥١هـ ، ثم اطلق سراحه ، ونقل الى نيابة حلب ٧٥٢هـ ، وتوفى فى عام ٧٥٤هـ/١٣٥٢ م انظر ترجمته فى الدرر ، جـ ٢،ص ٤٤-٤٥ ، المنهل ،جـ٣، ص ٤٨٦-٨٩ ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٩٣ - ٩٤ .

الاقطاعات للاجناد والامرات للامراء بمصر والشام (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م)[٧٩] .

وكان نائب السلطنة ايضا يرتب فى الوظائف ، واما ما هو جليل منها كالوزارة والقضاء وكتابة السر[٨٠] والجيش ، فانه ربما عرض على السلطان من يصلح وقل ان لا يجاب[٨١] ، وجاء فى وصية لنائب سلطنة التأكيد على التخير للوظائف[٨٢] وكان نائب السلطنة يقوم احيانا بعزل ارباب الوظائف فقد فوض السلطان الاشرف شعبان لنائبه الامير منجك اليوسفى[٨٣] فى عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م ان يعزل من يشاء من ارباب الدولة ، ويولى من يشاء ، ويقرر فى سائر اعمال المملكة من اراد

---

٧٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٥١ .

٨٠) يسمى من يتولى هذه الوظيفة بكاتب السر وهو صاحب ديوان الانشاء ، ويقوم بقراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة اجوبتها اما بخطه او بخط كتاب الدست ويجلس بدار العدل بين يدى السلطان لقراءة القصص عليه والتوقيع عليها بخطه ، وترجع اليه امور القضاة ومشايخ العلم فى سائر المملكة .
لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ ، السبكى ، معيد النعم ص ٣٠ .

٨١) العمرى ، المسالك ، ص ٥٥ ، المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ ، ص ٨٤ .

٨٢) العمرى ، التعريف ، ص ٩٢ .

٨٣) الامير سيف الدين منجك من كبار الامراء تولى الوزارة فى سنة ٧٤٨ هـ بينما كان اخوه بيبغاروس نائبا للسلطنة ثم عزل منها . وفى عام ٧٧٥ هـ عهد اليه الاشرف شعبان نيابة السلطنة والنظر فى الاوقاف والخاص والوزارة انظر : ابن حبيب ، تذكرة ، جـ ٣ ، ص ١٠٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٥٢٠ ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ .

وان يخرج الطلخانات ، والعشرات بسائر الممالك الشامية[٨٤].

ومن اختصاصات نائب السلطنة ايضا النظر فى الاحباس ففى بعض الاحيان كان السلطان يفوض للنائب الاشراف على ديوان الاحباس (الاوقاف) فقد خلع السلطان الناصر محمد ابن قلاوون على الامير بيبرس الدوادار وولاه منصب نيابة السلطنة ونظر الاحباس ، وكذلك خلع السلطان الاشرف شعبان فى عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م ، على الامير منجك بنيابة السلطنة والنظر فى الاحباس والاوقاف ، وجعل له التحدث فى الخاص والوزارة[٨٥] ، ولذلك كان على النائب " اجراء الاوقاف على شرط كل واقف" على نحو ما جاء فى وصية لنائب سلطنة[٨٦].

كذلك كان من اختصاص نائب السلطنة " الجلوس لكشف المظالم والنظر فيما يقدم اليه من القصص[٨٧] بشكايات الناس" . فكان نائب السلطنة يعقد مجلسا عاما للناس ، يحضره كبار موظفى الدولة ، وارباب الوظائف بها . ويقف الحجاب بين يديه ثم تقدم اليه القصص، ويذكر القلقشندى ان العادة جرت على ان يكون عند نائب السلطنة كاتب من كتاب الدست ، يجلس بين يديه لقراءة القصص عليه ،

٨٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٥ ، ابن اياس المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٣٢ .

٨٥) السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٥ ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٥ ابن حبيب ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤١٧ ، ٤٤٦ ،وانظر ايضا محمد محمد امين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية ص ١١١ - ١١٢ .

٨٦) العمرى ، التعريف ، ص ٩٣ .

٨٧) القصص مفردها قصة ، وهى الطلب او الالتماس ، وسميت قصصا على سبيل المجاز من حيث ان القصة اسم للمحكى فى الورقة لا لنفس الورقة ويجب ان يشترط فى القصة الايجاز والاختصار مع تبليغ الغرض المطلوب والقرب من فهم المخاطب . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٦ ، ص ٢٠٢ .

وتنفذ ما يكتب عنه . فاذا رفعت القصة الى النائب قرأها عليه كاتب الدست ، وامتثل امره فيها ، واصلح فى القصة ما يجب اصلاحه ، وضرب (اى حذف) ما يجب الضرب عليه ، وزار بين سطورها ما تقضيه الزيادة . ثم تدفع القصة الى النائب الكافل ، فيكتب على حاشيتها فى الوسط آخذا جهة اسفلها الى جهة اعلاها بقلم مختصر الطومار (٨٨) ما مثاله "يكتب" ثم تحمل القصة بعد ذلك الى كاتب السر ، فيعطيها لبعض كتاب الانشاء فيكتبها (٨٩) .

وعند قراءة القصص على النائب ، كان ينظر فيها ايضا فان كان مرسومه فيها يكفى اصدره عنه ، اما اذا كان لا يكفى فيها الا مرسوم السلطان ، فانه بعد ان يطلع عليها يأمر بكتابتها ، واصدارها الى السلطان مع التنبيه على انها باشارة النائب ، وذلك لان السلطان لم يكن يتصدى لقراءة القصص وسماع الشكاوى بنفسه بل كان يعتمدعلىنائبه فى ذلك ، ويكتفى هو بان يأمر بكتابة مثال او صورة اصطلاحية معينة ، تقدم اليه فيوقع عليها بالعلامة السلطانية (٩٠) .

اما عن نوعية القصص التى كانت ترفع لنائب السلطنة ، فمنها ما كان يتعلق بقلة الاخبار (الاقطاعات) وضعف

---

٨٨) قلم مختصر الطومار هو قلم يكتب به النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتماد على المراسيم ونحوها ويبدو انه يؤخذ من لب الجريد الاخضر او من القصب الفارسى او من قصب البوص الابيض الغلظ الانابيب ، لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى ، صبح الاعشى ج ٢ ، ص ٤٥٤ ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

٨٩) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

٩٠) القلقشندى ، ج ٤ ، ص ١٧ ، العمرى ، مسالك الابصار ص ٥٦ ، المقريزى ، الخطط ج ٢ ، ص ٢١٥ ، اما عن العلامة السلطانية فتمثل فى حالة المظالم ان يكتب السلطان عليها اسمه . انظر المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، حاشية (١) .

الاقطاعات . فبعد ان تم الروك(٩١) الحسامي في سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م ، غضب الاجناد على متحصلاتهم التى فرقها عليهم منكوتمر نائب السلطنة لانها تناقصت عما كانت عليه من قبل في عهد المنصور قلاوون وذهبوا اليه يشكون ضعفها وقلتها وقالوا له : "انا لم نعتد بمثل هذا ، فاما ان تعطونا ما نقوم بكفايتنا والا فخذوا اخبازكم ، واما نخدم الامراء او نقيم بطالين(٩٢)". غير ان منكوتمر لم ينصت الى شكواهم ، والقى القبض عليهم وسجنهم ، كما حسن للسلطان حسام الدين لاجين فكرة القبض على جماعة من الامراء ممن شكوا قلة اخبازهم ، وقبض على جماعة منهم بالفعل ، وارسلوا الى سجن الاسكندرية(٩٣) .

ومن القصص ما تكون خاصة بطلب زيادة اقطاع ، فحدث ان رفع احد امراء العشرات ويدعى علاء الدين القلنجقي قصة لنائب السلطنة الامير الحاج آل ملك يطلب فيها زيادة اقطاعه ، وكان الحاج يمقت من يطالب بزيادة اقطاعه ، فوقع له عليها بمائتي فدان من الجبل الاخضر زيادة على ما بيده(٩٤) .

---

٩١) الروك كلمة مأخوذة من الكلمة القبطية روش ومعناها قياس الارض بالحبل والروك هو قياس الارض الزراعية في بلد من البلاد لتقدير الخراج عليها وهو ما يعرف في الوقت الحاضر بعملية "فك الزمام" "وتعديل الضرائب". ولمزيد من التفاصيل عن الروك الحسامي انظر: المقريزي ، السلوك ، جـ ١، ق ٣ ، ص ٨٤٣-٨٤٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٩٠-٩٥ ، ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

٩٢) بطال والجمع بطالون وهم الاجناد والامراء العاطلون من اعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها لكبر سنهم اولغضب السلطان عليهم او اضطرار الى الاختفاء او حب الانزواء والابتعاد . انظر سعيد عاشور ، العصر المماليكي ص٣٩٧ .

٩٣) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٩٥ ، ابن اياس ، المصدر السابق جـ ١ ، ص ٣٩٧ .

٩٤) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ، ق٣ ، ص ٦٤٣ ، الشجاعي ، تاريخ الناصر محمد ، ص ٢٥٧ ، ابن حجر ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٠ .

اما عن الشكايات التى كانت تعرض على نائب السلطنة ، فبعضها كان يشكو اصحابها البطالة ، مثلما حدث فى ذى الحجة من عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م عندما وقف نحو مائتين ممن كانوا بخدمة الامراء ـ للنائب سيفاروس يشكون البطالة ، فقام النائب بتوزيعهم على كل امير مائة ثلاثة اشخاص ، وعلى كل امير طبلخاناه اثنين ، وعلى كل امير عشرة واحدا ، واذا لم يكن لدى الامير اقطاع كبير ، رتب للواحد منهم مائة درهم واردبين غلة فى الشهر(٩٥) .

ومن الشكايات ايضا ما يتعلق بالمشاجرات التى قد تحدث بين شخصين ، فقد حدث فى شعبان من عام ٧٥٣هـ/١٣٥١م ، ان سب رجل يدعى ابن ايوب الشرابيسى محتسب القاهرة ابن الاطروش ، واخذ يهزأ به ، ثم وثب عليه والقاه عن بغلته وركب صدره ، وتدخل الناس وخلصوا ابن الاطروش بعد جهد ، وكانت عمامته قد تباعدت ، وانكشف رأسه فطلع ابن الاطروش الى الامير قبلاى(٩٦) نائب السلطنة يشكو له ما حدث ،فاحضر النائب ابن ايوب وضربه وحبسه(٩٧) .

وكان هناك من النواب من كان متساهلا لين الجانب ، يحنو على اصحاب الحوائج ولا يرد سائلا شيئا ، ولا يمنع عن احد شيئا يطلبه ، بل يلبى للناس طلباتهم على الفور ، ويقضى حوائجهم ، ومن هوءلاء النواب الامير اقسنقر السلارى ، الذى كان قلمه اخضر لا يرده عن احد ، ولا قدمت له قصة الا وكتب عليها ، بل واكثر من ذلك كانت تقدم له القصة وهو ياكل فيترك اكله ،ويكتب علىها بدون ان يعرف ما فيها ،

---

٩٥) المقريزى ، المصدر السابق،جـ ٢ ،ق ٣ ، ص ٧٥١ .
٩٦) الامير قبلاى اصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون،ولى نيابة الكرك ثم الحجوبية الثانية بمصر ، ثم الحجابية الاولى او الكبرى بها ، ثم نيابة السلطنة ، وتوفى فى عام ٧٥٦ هـ ،انظر :ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٣٢١ .
٩٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٧٦ .

ولذلك قصده الناس من الاقطار يسألون الاراضى وشيايات القلاع وولايات الاعمال والرواتب واقطاعات الحلقة ، فلم يرد احدا سأله او طلب منه شيئا (٩٨) .

هذا فى حين ان هناك من النواب من كان يكتب على القصص ما ينكث صاحبها او رافعها ومن هوءلاء النواب الامير الحاج ، الذى كتب على قصة سأل رافعها ان يسقط ما عليه من الدين "ومن تقاضى ديون الناس يوفيها" (٩٩) . كذلك تعاظم بعض النواب تعاظما زائدا ، ومن هوءلاء طشتمر حمص اخضر الذى كان اذ اتته قصة باقطاع او غيره ، اخذها وطرد من هى باسمه واحدق به (١٠٠) .

كان نائب السلطنة يقوم ايضا بتوزيع الاقطاعات ولكنه اختص بتوزيع بعض الاقطاعات دون البعض الاخر ، فكان السلطان يقوم بتوزيع الاقطاعات على الامراء والمقدمين ، بينما يقوم نائبه بتوزيع الاقطاعات على الاجناد اى اجناد الحلقة (١٠١) فبعد ان راك السلطان المنصور حسام الدين لاجين ارض مصر فى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م فيما عرف بالروك الحسامى قام السلطان بتفرقة المثالات (١٠٢) على الامراء والمقدمين ، هذا فى حين

---

٩٨) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ، المقريزى ، السلوك جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٣٩ ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٨٧ .

٩٩) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ .

١٠٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٠٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٦٣ .

١٠١) اجناد الحلقة : هم احدى الطوائف الثلاث الاساسية التى يتألف منها جيش المماليك ، وهذه الطوائف هى المماليك السلطانية ومماليك الامراء واجناد الحلقة ، وهم مماليك السلاطين ، والامراء السابقين واولادهم ، واحترف هوءلاء الجندية واصحوا بمثابة جيش ثابت للدولة ، ومرتباتهم من ديوان الجيش . انظر سعيد عاشور ، العصر المملوكى ، ص ٣٥٩-٣٦٠ .

١٠٢) المثالات مفردها مثال وهو عبارة عن ورقة رسمية او وثيقة رسمية لتقرير اقطاع لشخص جديد على الاقطاع يكتبها ==

تولى نائبه الامير سيف الدين منكوتمر تفرقة مثالات الاجناد حيث جلس فى شباك دار النيابة ، ووقف الحجاب بين يديه ، واعطى لكل تقدمة مثالاتها ، واستمر على ذلك اياما (١٠٣) . وفى اليوم العاشر شرع منكوتمر فى تفرقة المثالات على الحلقة والبحرية ومماليك السلطان وغير ذلك (١٠٤) .

وفى عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م جلس الامير آقسنقر السلارى نائب السلطنة بدار النيابة ، ورسم له ان يعطى الاجناد الاقطاعات التى عبرتها (١٠٥) من ثلثمائة دينار الى اربعمائة دينار ، ويشاور فيما فوق ذلك (١٠٦) . كذلك رسم السلطان الناصر حسن فى ذى القعدة من عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م لنائبه بيبغاروس بان يخرج الاقطاعات للاجناد (١٠٧) . كذلك قام الامير منجك نائب السلطنة فى عهد الاشرف شعبان باخراج اقطاعات الحلقة

= ناظر الجيش ، ويبين بها مقدار ما خصه بالفدان من الارض الزراعية التى يستغلها وحدودها ، واسم الاقليم والقرية والحوض الكائن فيها الارض التى خصصت له . انظر السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ،ص ٨٤٤،حاشية ٦، ج ١،ق٦ ، ص ٤٩٠ . حاشية ٣ ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٣ ، حاشية ٢ ، محمد محمد امين ، منشور بمنح اقطاع ، ص ٩ - ١٠ .

١٠٣) المقريزى ، السلوك ،ج ١ ،ق٣ ،ص ٨٤٥-٤٦ ، ابن تغرى بردى النجوم ج ٨ ، ص ٩٤ .

١٠٤) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٨،ص ٩١ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، التحقيق ،ص٣٩-٩١ .

١٠٥) العبرة كلمة اصطلاحية معناها مقدار المساحة ، وقدتطلق على مقدار ما يكون فى حيازة كل شخص من الارض ، كما تطلق على مقدار مساحة كل ناحية او اقليم ويقابلها فى الوقت الحاضر زمام كذا او مديرية كذا . اما فى الاصطلاح المالى فهى تعنى مقدار المربوط من الخراج او الاموال على كل اقطاع من الارض . انظر النجوم ، ج ٨ ، ص ٩٣ ، حاشية ١ ، سعيد عاشور ، العصرالمماليكى ص ٤٣٤ .

١٠٦) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٨٠ ،المقريزى السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٢١ .

١٠٧) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٥١ .

التى عبرتها ستمائة دينار فما دونها (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)(١٠٨).
وبذلك ارتفعت عبرة الاقطاعات التى كان يخرجها نائب السلطنة من ثلثمائة دينار الى ستمائة دينار .

وفى بعض الاحيان كان نائب السلطنة يخرج اقطاعات الامراء، فقد فوض السلطان الملك المنصور على بن الاشرف شعبان لنائبه الامير اقتمر الصاحبى(١٠٩) أن يخرج الاقطاعات للامراء والاجناد ونواب المماليك ، والا يكون لاحد معه تحكم(١١٠) (٧٧٨هـ/١٣٧٦م) . كذلك اخرج الامير سيف الدين قوصون نائب كجك اقطاعات الامراء(١١١) .

وكان نائب السلطنة يقوم بعرض اجناد الحلقة لتوزيع الاقطاعات عليهم او ليوفر من اقطاعاتهم ، فحدث ان قام النائب الحاج آل ملك فى رمضان من عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م بعرض اجناد الحلقة ليوفر منهم اقطاع الشيخ العاجز والجندى المستجد(١١٢) كذلك كان نائب السلطنة يقوم بعرض الاجناد لانتقاء القادرين منهم على اداء الخدمة العسكرية وارسالهم الى ميادين القتال أو لتأديب العربان فيذكر العمرى ان نائب السلطنة يقوم "بتفقد العساكر المنصورة وعرضها واتهاصهم لنوافل الخدمة وفرضها(١١٣)" فحدث فى عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م ، ان رسم بتجريد اجناد الحلقة الى بلاد الصعيد لتأديب

---

١٠٨) المقريزى، السلوك ، جـ ٣ ، ق١، ص ٢٢٥، ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٥ .
١٠٩) اقتمر بن عبدالله الصاحبى الحنبلى ، من جملة الامراء ترقى حتى ولى نيابة دمشق ،ثم نيابة القاهرة فى عام ٧٤٧هـ واستمر بها حتى توفى فى القاهرة فى عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م، وسمى بالحنبلى لكثرة مبالغته فى الطهارة والوضوء . انظر ترجمته فى المنهل ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ١٩١ .
١١٠) ابن تغرى بردى ،النجوم، جـ ١١ ، ص ١٥٢ ، المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٨٤ .
١١١) الشجاعى ، الناصر محمد ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .
١١٢) المقريزى ، المصدرالسابق ، جـ ٢، ق٣، ص ٦٧٢، وانظر :محمد محمد امين ،منشور بمنح اقطاع ، ص ٧ .
١١٣) العمرى ، التعريف ، ص ٩٢ .

العربان . فقام الامير سيف الدين قبلاى نائب السلطنة بعرض مقدمى الحلقة ، وعين منهم تسعين مقدما ، واضاف الى كل مقدم جماعة ، وعرضت اوراق باسمائهم على السلطان والامراء وتم الاختيار منهم ورسم بتجهيزهم لتأديب العربان فى الصعيد(١١٤) .

وقام نائب السلطنة ايضا بعرض اجناد الحلقة وذلك بسبب دخول جماعة كبيرة من اصحاب الحرف والصناعات فى حملتهم ، اذ حدث منذ عهد اولاد الناصر محمد واحفاده ان تنازل كثير من اجناد الحلقة عن اقطاعاتهم للآخرين بمال أو بمقايضة بغيرها ، ونتيجة لذلك كثر الدخلاء فى الاجناد ، حتى صار اكثرهم من اصحاب الحرف والصناعات مما ادى الى تدهور الجيش المملوكى فى هذا العصر ، ولذلك اصبح عرض الاجناد ضروريا ، ولهذا السبب قام الامير بيبغا طظر نائب السلطنة بعرضهم فى ذى الحجة من عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م(١١٥) .

ابطل الامير الحاج كذلك فى عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م ، واثناء توليه النيابة النزول عن الاقطاعات والمقايضات بها ، بعد ان انتشر ذلك بين الاجناد ، حتى أن جنديا قايض آخر باقطاعه ومبلغ الفين وخمسمائة درهم ، اقبضه منها الفين فالزمه الحاج بحمل الالفين لبيت المال ، ولذلك كف الاجناد عن المقايضات(١١٦) .

ولم يقتصر دور نائب السلطنة على عرض اجناد الحلقة ومقدميها فحسب بل كان يقوم احيانا بعرض المماليك السلطانية ولكن باوامر من السلطان ، ففى عام ٧١٩هـ/١٣١٩م أمر السلطان

---

١١٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٩٠١ ، ٩١١ .
١١٥) لمزيد من التفاصيل أنظر المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٣٠ - ٣١ .
١١٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٣ .

الناصر محمد نائبه ارغون الناصري(١١٧) بعرض المماليك ، ففرق منهم واخرج منهم ثمانين الى الشام ، فرقهم على الامراء هناك ، ثم اخرج جماعة منهم من الطباق(١١٨)، وكان النائب يشترك مع السلطان ايضا في عرض المماليك ، فقد جلس السلطان حاجي مع نائبه الامير ارقطاي(١١٩) في شوال من عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م لعرض المماليك ، وانتقى من كل عشرة اثنين وزاد اقطاعاتهم واكرامهم ، وقدم منهم جماعة(١٢٠) .

ومن اختصاصات نائب السلطنة ايضا رئاسة ديوان الجيش اذ يذكر القلقشندي ان هذا الديوان كان لايجتمع الا برئاسته ولا يكون له خدمة الا عنده ولا اجتماع له بالسلطان في امر من الامور ، وما كان من الامور المعضلة التي لابد من احاطة السلطان بها علما ، فانه يعلمه به تارة بنفسه وتارة بمن يرسله اليه(١٢١) .

وكان نائب السلطنة يخرج على رأس الجيش الى بلاد الشام لمشاركة السلطان في قتال المغول ، كذلك كان يخرج

---

١١٧) الامير ارغون الناصري اصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، اشتراه ورباه وادبه ورقاه الى ان جعله دوادارا بعد الامير بيبرس ،ثم ولاه نيابة السلطنة في عام ٧١٢هـ ، وظل ارغون يشغل هذا المنصب طيلة ١٦عاما ، ثم ولي نيابة حلب وتوفي في ربيع الاخر من عام ٧٣١هـ/١٣٣١م . وعنه انظر المنهل ،ج ٢ ، ص ٣٠٦-٣٠٨ ،الدرر، ج ١،ص ٣٧٤ ، الدرر الفاخر ، ص ٤٤، ٣٢٢،النويري،نهاية الارب ج٣٠،ق٢ورقة ٢٧٨ - ٢٧٩ .

١١٨) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٧٣ .

١١٩) الامير ارقطاي بن عبدالله المنصوري ، اصله من مماليك المنصور قلاوون ،وجعله الناصر محمد من جملة امرائه ، ثم ولاه نيابة حمص وصفد ثم حلب ،وجاء ارغون الى مصر وولي نيابتها نحو عامين في عهد المظفر حاجي ، وتوفي في عام ٧٥٠هـ. انظر ترجمته في المنهل ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ - ٢٥٤ ،الدرر ، ج ١ ، ص ٣٧٦ ، تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ١٣٣ .

١٢٠) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٢١ .

١٢١) القلقشندي ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٧، وانظر ايضا: العمري مسالك الابصار ، التحقيق ، ص ٥٦ ، المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

يخرج بالجيش لنائب الخارجين على السلطان والقضاء على حركات التمرد والفتن ، اذ يذكر صاحب معيد النعم ان من مهام نواب السلطنة "النظر فى امر المفسدين من قطاع الطرق واهل الفتن والغلظة والتشدد عليهم" (١٢٢) .

ومن نواب السلطنة الذين خرجوا مع السلطان الى بلاد الشام لقتال المغول الامير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة فى عهد الظاهر بيبرس والامير حسام الدين طرنطاى نائب السلطان المنصور قلاوون (١٢٣) (٦٨٠هـ/١٢٨١م) ، والامير بدر الدين بيدرا نائب السلطان الاشرف خليل (١٢٤) ، كذلك خرج الامير حسام الدين لاجين نائب العادل كتبغا (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) بالعساكر الى بلاد الشام (١٢٥) . كما قام الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة فى عهد الناصر محمد ابن قلاوون (٦٦٩هـ/١٢٩٩م) بدور هام وبارز فى قتال المغول

---

١٢٢) السبكى ، معيد النعم ، ص ٢٣ .

١٢٣) لمزيد من التفاصيل عن خروج الامير بدر الدين بالجيش انظر ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٣ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٨ ، ورقة ٣٥٠ ، الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ٢١ ، ص ٢٩ - ٣٠ ، ص ٩٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٧ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، جـ ٣ ، ص ١٧٥ ، المفضل ، النهج ، منشور فى P.O.T. XIV, pp. 382,421. اما عن خروج حسام الدين طرنطاى فانظر : ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، ص ١٤٦ - ١٥٠ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، التحقيق ، ص ٢٠٩ ، النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٢٩ ، ورقة ٧ ، ٩ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ - ٩٤ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢١٢ - ٢٢١ .

١٢٤) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٨ ، ص ١٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٤ - ٨٥ ، ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٥٥ ، ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٣٧١ .

١٢٥) ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٨ ، ص ٦١ ، ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ٢١٢ .

فى بلاد الشام ، وبعد انتهاء القتال عاد الى مصر على راس الجيش(١٢٦) .

وكان نائب السلطنة يخرج ايضا لتأديب الخارجين على طاعة السلطان ففى عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ارسل السلطان المنصور قلاوون نائبه حسام الدين طرنطاى بالجنود للقبض على سنقر الاشقر ، الذى اظهر العصيان للسلطان ، وتسلطن بدمشق ولقب نفسه بالملك الكامل ، وخرج على طاعة السلطان المنصور قلاوون ، ووصل طرنطاى بالفعل الى قلعة صهيون (فى طرف جبل من اعمال حمص) وحاصر سنقر الاشقر بها حصارا شديدا ، حتى اضطر سنقر ان يطلب الامان من حسام الدين فأمانه وعندئذ سلمه سنقر الحصن ، فرتب حسام الدين فيه واليا عن السلطان واقام به رجالا ، ثم عاد الى مصر مصطحبا معه سنقر الاشقر(١٢٧) .

اما عن خروج النائب بالجيش لتأديب العربان ، فقد خرج الامير حسام الدين طرنطاى ايضا فى اوائل عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م ومعه جماعة من الامراء والعساكر الى الوجه القبلى لتأديب العربان ، وقتل منهم جماعة ، وحرق بعضهم بالنار واخذ خيولهم وسلاحهم ، بل واخذ رهائن منهم ، وعاد الى قلعة الجبل سالما(١٢٨) . وعندما تزايدت سطوة العربان فى الصعيد فى عام (٧٠٠ - ٧٠١هـ/١٣٠٠ - ١٣٠١م) وكثر

١٢٦) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغرى بردى ، المصدر السابق جـ ٨ ، ص ١١٦، ابن ايبك ، الدر الفاخر ، ص ١٥ ، ٣٩ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق٣ ، ص ٨٨٦ - ٨٩٦ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .
١٢٧) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٣٤ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٤٩ - ٥٠ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٠٨ ، بيبرس الدوادار ، المصدر السابق ، جـ ٩ ، التحقيق ص ٣٠١ - ٣٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٧ ، ص ٣١٩-٣٢٠ ، ابن اياس جـ ١ ، ص ٣٥٥ .
١٢٨) ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ٩٠ .

فسادهم ، وحرموا الجنود والامراء من اقطاعاتهم بالصعيد، ونهبوا وسلبوا وقتلوا عالما كثيرا ، بل وفرضوا ضرائب على التجار وارباب المعاش بسبوط ومنفلوط ، واستخفوا بالولاة ، ورفضوا دفع الخراج ، توجه اليهم الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة بجماعة كبيرة من الامراء والمقدمين ونجح فى ايقاع الرعب فى قلوبهم ، وقضى على فسادهم (١٢٩) كذلك خرج الامير قشتمر المنصورى فى عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م الى الصعيد ليحفظ تلك الجهة من تمرد العربان (١٣٠) .

لعب نائب السلطنة ايضا دورا هاما فى القضاء على الفتن فى داخل البلاد فقد نجح الامير زين الدين كتبغا - اثناء توليه نيابة السلطنة - فى القضاء على الفتنة التى اثارها الوزير علم الدين سنجر الشجاعى فى صفر ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م واعاد الامان والاطمئنان الى البلاد ، وعادت الحياة الى القاهرة من جديد ، بعد ان اغلقت ابوابها وتوقف العمل فيها بالاسواق (١٣١) ونجح الامير كتبغا ايضا فى العام التالى ٦٩٤هـ/١٢٩٥م فى القضاء على الفتنة التى اثارتها المماليك السلطانية الذين توجهوا الى القلعة وحاولوا احصارها ، ولكن باءت محاولتهم بالفشل ، اذ تمكنت حامية القلعة من القبض عليهم بمساعدة الامير زين الدين كتبغا ، ثم جلس الامير كتبغا على باب القلعة لتأديبهم ، فضرب رقاب بعضهم وقطع ايدى بعضهم وارجلهم ، ونفى بعضهم ونجح بذلك فى القضاء على هذه الفتنة (١٣٢) ، كذلك تصدى

---

١٢٩) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن ايبك ، الدر ، ص ٦٣-٦٤، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، التحقيق ،ص ٤٥١ - ٤٥٢ ، المقريزى ،السلوك ،جـ ١،ق٣، ص ٩٢١ - ٢٢ .

١٣٠) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٦٥ .

١٣١) ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

١٣٢) لمزيد من التفاصيل انظر: بيبرس الدوادار ، المصدر السابق جـ ٩ ، التحقيق ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٩١ - ٩٢ ، المفضل ، النهج منشورفى: P.O.T. XIV, pp. 581-82. النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٨٠ .

الامير اقسنقر السلارى (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) للامير رمضان اخى السلطان الصالح اسماعيل ، الذى حاول انتهاز فرصة خروج السلطان الى سرحة سرياقوس وقام بفتنة يساعده فيها جماعة غير ان الامير اقسنقر اجبره على الفرار ، بل وارسل ورائه من يتعقبه حتى تم القبض عليه وعلى مماليكه (١٣٣) .

حرص بعض نواب السلطنة على تطبيق تعاليم الشريعة الاسلامية ، واقامة منار الشرع وجاء فى وصاياهم "ضرورة تقوى الله وتنفيذ الاحكام الشرعية ومعاضدة حكامها واستخدام السيوف لمساعدة اقلامها (١٣٤)" . ومن هؤلاء النواب نذكر الامير الحاج آل ملك ، نائب سلطنة الصالح اسماعيل ، فقد امر الحاج فى المحرم من عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م ، بهدم خزانة البنود ، وتسويتها بالارض ، وكانت فى ذلك الحين حانة يسكنها اسرى النصارى ، ويبيعون فيها الخمور ، ويفتحون ابوابها للمقامرين ويمارسون فيها اعمال الفسق والبغى (١٣٥) . وبعد هدمها اقيم مكانها مسجدا ودورا ، غير ان الناس عزفوا عن الصلاة فى هذا المسجد فكتب احد الشعراء هذه الابيات على لسان هذا المسجد وارسلها الى الحاج يقول :

انا مسجد سميت بيت عبادة
عارى الملابس ليس فى حصير
هجر الموءذن والمصلى جانبى
وجفانى التهليل والتكبير (١٣٦)

---

١٣٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ .
١٣٤) العمرى ، التعريف ، ص ٩٢ .
١٣٥) لمزيد من التفاصيل انظر : الشجاعى ، الناصر محمد ، ص ٢٥٤-٢٥٦ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٠-٤١ ، ابن تغرى بردى . النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٨٨ ، وما يليها ، ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .
١٣٦) ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٥٠٠ .

كذلك شدد الامير الحاج فى منع الخمر وغيره من المحرمات ، وتتبع اهل الفساد ، فقام بالقبض على عدد كبير من شربة الخمر وباعته وضربهم عرايا وكشف روءسهم وشهرهم ، ونادى ان من اشترى عنبا بالقنطار قبض عليه ، بل واكثر من ذلك منع الحاج الفرنج من ان يحملوا الخمر الى الاسكندرية (١٣٧) . وفى ربيع الاخر عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م دله بعض العامة على موضع يباع فيه الخمر والحشيش فاحضر اولئك الذين يبيعونها ، وضربهم فى دار النيابة بالمقارع وشهرهم وخلع على ذلك العامى واقامه عنه فى ازالة المنكر فصار يهاجم البيوت لاخذ الخمور منها (١٣٨) .

كذلك منع الامير الحاج آل ملك الناس من ضرب الخيم على شاطئ النيل بالجزيرة وغيرها للنزهة ، لانها كانت محل فساد كبير لاختلاط الرجال فيها بالنساء وتعاطيهم المنكرات (١٣٩) .

وحرص الامير الحاج كذلك على اقامة الصلوات فى اوقاتها ، وعلى تحريم القمار والمقامرة ، فامر الباعة فى الاسواق وكل من يعملون بها ان يقوموا للصلاة امام دكاكينهم عند سماع الاذان ، وان يفرشوا حصرا فى الطرقات ويصلوا عليها ، كما خص لكل سوق اماما وموءذنا (١٤٠) اما بالنسبة للقمار فقد حرم الحاج القمار والمقامرة ،فابطل بعض وسائل التسلية التى انتشرت فى عصر سلاطين المماليك واتخذت طابع المقامرة والتى عرفت باسم (الملعوب) ومن بينها المناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك ، والمصارعة والملاكمة والمشابكة والمعالجة (رفع الاثقال) وغيرها

---

١٣٧) المقريزى ، السلوك ، ج ٢، ق ٣ ، ص ٦٤٦ - ٤٧ .

١٣٨) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٦٧ .

١٣٩) المقريزى ، نفسه ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٢ .

١٤٠) الشجاعى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ، السلوك ، ج ٢، ق٣، ص ٦٥١ .

من الالعاب التى تتم بطريق المقامرة والرهان[١٤١] .

وكان نائب السلطنة يخرج كذلك بنفسه الى بلاد الشام ليرتب امورها ، وذلك اذا كان السلطان قاصرا او صغيرا ، ويعين ارباب الوظائف بها ، فقد خرج الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة فى عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م الى الشام ، وذلك فى سلطنة الناصر محمد الثانية عندما كان السلطان صغيرا والامر كله بيد نائبه الامير سلار . وعندما وصل الامير سلار الى دمشق جلس بدار العدل بها مع الامراء والقضاة ، وخلع على الصاحب عز الدين حمزة ابن القلانسى وولى قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة قضاء دمشق ، كذلك ولى قاضى القضاة شمس الدين محمد بن صفى الدين الحريرى قضاء الحنفية ، وولى ايضا الامير سيف الدين اقجبا المنصورى شد الدواوين اى التفتيش عليها ومراجعة حساباتها ، كما ولى سلار امين الدين يوسف الرومى حسبة دمشق ، وولى تاج الدين بن الشيرازى نظر الدواوين ، وخلع على الامير ارجواش نائب قلعة دمشق ، وانعم عليه بعشرة الاف درهم[١٤٢] .

ثم قام الامير سلار بتعيين نواب السلطنة بالشام على نحو ما رسم السلطان له ، فأقر الامير جمال الدين الافرم على عادته نائبا بدمشق ، وفوض الى الامير زين الدين كتبغا نيابة حماة ، كما فوض الى الامير شمس الدين قراسنقر نيابة حلب ، وفوض الى الامير سيف الدين قطلبك نيابة السلطنة بالفتوحات بالمملكة الطرابلسية ، واعاد الامير سيف الدين كراى المنصور الى نيابة صفد على عادته .

---

١٤١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٢ ، وانظر ايضا سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٠٦ .

١٤٢) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠١ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ورقه ١١٨ .

وبعد ان استقرت احوال دمشق والاوضاع فى الممالك الشامية، عاد سلار الى الديار المصرية(١٤٣) .

وكان سائر نواب الشام يكاتبون نائب السلطنة فى مهام الامور المتعلقة بنياباتهم ، كما يكاتبون السلطان، ويراجعونه كما يراجع السلطان وكانوا يلقبونه فى مكاتباتهم له (بكافل الممالك الاسلامية)(١٤٤) ، كذلك حرص نواب الشام على حسن علاقاتهم بنائب السلطنة فى القاهرة ، فكانوا يرسلون تقادمهم له فى المناسبات ،ففى عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م عندما خرج الامير بيبغاروس نائب السلطنة للحج تواردت اليه تقادم نواب الشام والامراء بديار مصر(١٤٥) .

ومن بين الاعمال التى كان نائب السلطنة يشترك فى الاشراف عليها حفر الخلجان ، واصلاح وترميم الجسور،وانشاء جسور جديدة اذا ما اقتضت الضرورة ذلك ، كما كان نائب السلطنة يخرج للاحتفال بوفاء النيل ويقوم بتخليق المقياس اى تعطيره بالزعفران وماء الورد ، وكسر سد الخليج .

فعندما شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج ، الذى عرف باسم "الخليج الناصرى"(١٤٦) فى عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م ، فوض هذا العمل الى نائبه ارغون الناصرى ، فقام ومعه المهندسون وارباب الخبرة بمسح شاطئ النيل ،

---

١٤٣) النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٢٩ ، ورقة ١١٨ .
١٤٤) العمرى ، التعرف ، ص ٦٦ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ص ١٦ ، المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ .
١٤٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢١ .
١٤٦) يمر هذا الخليج من خارج القاهرة الى سرياقوس ، حيث بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون قصوره ونقل الميدان من تحت القلعة الى هناك وكان يمكن للمراكب عن طريق هذا الخليج ان تسير فى النيل محملة بالغلال وغيرها الى قصور السلطان فى سرياقوس . انظر : المقريزى، المواعظ جـ ٢ ، ص ١٤٥ ، وانظر ايضا : قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٣١ - ٣٢ .

بقصد اختيار المكان الذى يبدأ منه حفر الخليج ، وبعد ان تخير موضع يبدأ منه الحفر ، كتب ارغون الى ولاة الاعمال باحضار الرجال للحفر (١٤٧)

وزاد النيل فى عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م زيادة كبيرة بعد وفائه ، فركب النائب الحاج آل ملك الى جسر بركة الحبش (١٤٨) ومعه جماعة من الامراء ، واقام ثلاثة ايام حتى اتقن بعض الجسور (١٤٩) ، واشترك الامير طقز دمر نائب السلطنة ايضا فى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م فى قياس النيل ، وفى عمل جسر ليدفع الماء بقوة الى بر مصر وبولاق ، واشرف على عمل اللازم لهذا الجسر (١٥٠) .

اما عن الاحتفال بوفاء النيل ، فكان هذا الاحتفال يتم على مرحلتين الاولى تخليق المقياس (اى تعطيره) والثانية كسر سد الخليج ، وكان السلطان يشارك بنفسه هو ونائبه فى هذا الاحتفال ، ولكن لم يحرص معظم سلاطين المماليك على حضور هذا الاحتفال ، ولذلك كان السلطان يعهد الى نائبه بالقيام بهذا الاحتفال بدلا منه (١٥١) .

واذا كان نائب السلطنة يشارك فى الاحتفال بوفاء النيل ، فانه كان يقوم بدور فعال ايضا حينما يحل القحط بالبلاد وتتعرض للازمات الاقتصادية ففى شهر رجب وشعبان من عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وفى عهد السلطان الاشرف شعبان ارتفعت الاسعار وزاد الغلاء ، وزاد عدد الفقراء نتيجة لانخفاض منسوب مياه النيل ، فجمع الامير منجك نائب السلطنة

---

١٤٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٢٦١ - ٦٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٨١ - ٨٢ .

١٤٨) عن بركة الحبش انظر المقريزى المواعظ ، جـ ٢ ، ص ١٥٢

١٤٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٨ .

١٥٠) المقريزى ، المصدر السابق نفس الجزء والقسم ، ص ٧٦٢ .

١٥١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاحتفال انظر : قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٤٣ - ٤٥ .

الفقراء والمحتاجين ، وقام بتوزيعهم على الاغنياء وعلى الامراء والتجار ، وذلك ليضمن لهم العيش والاستمرار في الحياة (١٥٢) .

وكان نائب السلطنة يخرج ايضا لصلاة الاستسقاء فعندما توقف النيل عن الزيادة في ربيع الاول من عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م ، واضطربت احوال الناس وازداد قلقهم وتكالبوا على شراء القمح ، خرج الامير اقتمر عبد الغني ، نائب السلطنة - في عدد من الامراء مع سائر الناس لصلاة الاستسقاء (١٥٣) .

ولم يكن نائب السلطنة يساهم في حل الازمات الاقتصادية التي تتعرض لها البلاد فحسب ، بل اكثر من ذلك كان يشارك في الاشراف على اطفاء الحرائق التي تتعرض لها البلاد . ففي عام ٧٢١هـ/١٣٢١م ، وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، تعرضت القاهرة لحريق هائل قام به النصارى بعد هدم كنائسهم فنزل نائب السلطنة الامير ارغون من القلعة وجميع من بها ، وجمع اهل القاهرة ، ونقل المياه على جمال الامراء من المدارس والحمامات والابار لاطفاء الحريق (١٥٤) وعندما وقع حريق بالقاهرة في عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م ركب الامير بيبغاروس نائب السلطنة وجماعة من الامراء بمماليكهم ، ووصلوا الى مكان الحريق ، وهناك نزلوا عن خيولهم ، ورفعوا العامة من اللهب (١٥٥) .

---

١٥٢) المقريزي ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٣٥ ، ابن اياس بدائع ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٤٠

١٥٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٢٤ .

١٥٤) لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٦ .

١٥٥) المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ق٣ ، ص٨١٦-١٧ ولمزيد من التفاصيل انظر : ص ٨١٦-٨١٨ ، ابن اياس ، المصدر السابق جـ١ ، ص ٥٣٥-٣٦ .

ديوان النيابة :

ويساعد نائب السلطنة فى القيام باختصاصاته واداء اعماله ديوان يعرف باسم "ديوان النيابة " وكان هذا الديوان يتألف من ناظر وكاتب ودوادار ونقباء . اما الناظر فهو من كبار الموظفين الذين اشتركوا مع النائب فى تصريف اموره ، وكان ناظر ديوان نائب السلطنة الامير سيف الدين ارغون يدعى شرف الدين عبد الرحمن وقد استدعاه القاضى فى ٦ ربيع الاول من عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥،وفوض اليه نظر النظار(١٥٦) .

اما كاتب نائب السلطنة ، فكان كما يذكر القلقشندى يقرأ عليه القصص وينفذ ما يكتب عنه(١٥٧) ، ومن بين كتاب نواب السلطنة شرف الدين يعقوب كاتب الامير شمس الدين قراسنقر ، وكان قد قبض عليه فى عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦ م ، وضرب حتى مات تحت الضرب على حد تعبير المقريزى(١٥٨) .

كذلك كان الاسعد غبريال كاتب الامير سيف الدين ارغون نائب السلطنة ، وكان قد تم القبض عليه ايضا فى عام ٧١٣هـ/١٣١٣م ،" لانه كان كثير الظلم ، ونقل الى استاذه امور تضر بالدولة ... وبعد القبض عليه ضرب بالمقارع واوقعت الحوطة على موجوده"(١٥٩) .

ويساعد نائب السلطنة ايضا دوادارا ، وهوالذى يحمل له الدواة ، ويقدم له القصص والشكايات ، ويقوم بابلاغ الرسائل عنه ، ولذلك يذكر السكى من بين اعمال نائب السلطنة "النظر فى امر دواداره" ، فميزان بابه الدوادار ولذلك عليه الاحتياط فى امره ، وعدم الاصغاء اليه فيما

---

١٥٦) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٣١ ، ورقة ٦٦ .
١٥٧) انظر ما سبق ص .
١٥٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ .
١٥٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق١ ، ص ١٢٥ .

بقوله ، بل يستوضح الحال ويستكشفه من بطانة الخير(١٦٠):
ويذكر كل من المقريزى وابن اياس فى حوادث عام ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦م ، ان قاضى القضاة برهان الدين ابن جماعة طلب دوادار الامير اقتمر الصاحبى الحنبلى نائب السلطنة وسهره فى مجلسه ، لانه ضرب رب دين بحضرة مديونه (١٦١) .

اما النقباء فيساعدون نائب السلطنة فى تأدية الخدمات الصغيرة ، فحدث فى ربيع الاخر من عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ان كان الامير الحاج جالسا بشباك النيابة ، فمرت به جمال تحمل خمرا ، فبعث نقيبا بنظر اين تدخل ويأتيه بالجمال(١٦٢) . وكان من عادة الامير الحاج ان يجلس بشباك النيابة طول نهاره وتروح اصحاب الوظائف ولا يبقى عنده الا النقباء البطالة ، الذين لم يعهد اليهم بأى خدمة يؤدونها اليه (١٦٣) .

وكان لديوان النيابة اقطاعات ، ومما يدل على ذلك ان الامير بدر الدين بيدرا نائب سلطنة الاشرف خليل اخذ اقطاع الامير حسام الدين طرنطاى - النائب السابق عليه - واضاف اليه الكثير من النواحى التى اشتراها لديوانه من مقطعيها ، وبلادا استحوذ عليها(١٦٤) . وعندما تم الروك الحسامى فى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م تقرر اقطاع نيابة السلطنة من اعظم الاقطاعات ، واكثرها متحصلا ، فكان من جملته بالاعمال

---

١٦٠) السبكى ، معيد النعم ، ص ٢٤ .
١٦١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦٤ ، ابن اياس بدائع ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٦٥ .
١٦٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٦٧ .
١٦٣) ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ ٣ ، ص ٨٦ .
١٦٤) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، التحقق ص ٣٢٠ .

القوصية مرج بنى هميم[(١٦٥)] ، وكفورهـا ، وسمهنود[(١٦٦)] وكفورها ودواليبها[(١٦٧)] ومعاصرها وخرجة مدينة قوص وادفو ، وهذه النواحى يزيد متحصلها من الغلال خاصة على مائة الف وعشرة أردب ، هذا فضلا عن الاموال والاعسال والثمار والاغنام والاحطاب وغير ذلك[(١٦٨)] .

وكان بديوان النيابة اقطاعات للجند ايضا ، ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزى فى حوادث عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م من ان الامير منكوتمر نائب السلطنة فى عهد المنصور حسام الدين لاجين " كان اول من نزل عن اقطاعات الجند التى كانت فى ديوان النيابة ، ومتحصلها فى السنة الف اردب غلة[(١٦٩)] .

وبعد ان ابطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة السلطنة فى عام ٧٢٧هـ وعزل نائبه الامير سيف الدين ارغون، فرق اقطاع النيابة ، فاعطى الامير سيف الدين بكتمر الساقى منية بنى خصيب (فى الصعيد) واعطى الامير سيف الدين مائة فارس وتقدمة الف من جملة تقدمة نائب السلطنة واعطى بقية اقطاع النيابة زيادة على اقطاعات الامراء مماليكه[(١٧٠)] .

علاقة نائب السلطنة بالوزير :

لاشك فى ان النفوذ الواسع الذى تمتع به نائب

---

١٦٥)عن الاعمال القوصية انظر ابن الجيعان، التحفة السنية ، ص ١٩٠-١٩٥ ، اما عن مرج بنى هميم ، فانظرص ١٩٥ من المصدر نفسه .
١٦٦)سمهنود او سمهود وهى بلدة قريبة من فرشوط بمركزنجع حمادى بمديرية قنا الحالية .
١٦٧)دواليب مفردهادولاب وهى الالات العجلة المستعملة فى الزراعة والصناعة انظر: سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٧ .
١٦٨)النويرى ،نهاية الارب ، جـ ٢٩، ورقة ١٠٠ ،المقريزى،السلوك جـ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٣ - ٤٤ .
١٦٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٥٨ .
١٧٠) النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٣١ ، ورقة ٨٤ .

السلطنة جاء على حساب مكانة الوزير ، الذى اصبح يلى نائب السلطنة فى المرتبة ، بمعنى انه صار الرجل الثالث فى الدولة بعد ان كان الرجل الثانى . ويشير المقريزى الى ذلك بعبارة نصها :

" ان وضع الوزير انه اقيم لنفاذ كلمة السلطان وتمام تصرفه ، غير انها (اى الوزارة) انحطت عن ذلك بنيابة السلطنة [(١٧١)] " . وليس ادل على ذلك من ان الامير سيف الدين كوندك الساقى [(١٧٢)] نائب السلطنة فى عهد الملك السعيد امر الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا أن يجلس بين يديه ، وان لا يوقع الا بامره [(١٧٣)] . كذلك استبد الامير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة فى عهد حسام الدين لاجين بالسلطة ، واضعف من نفوذ الوزراء "فصار الوزير بين يديه يمتثل مراسمه ، ويستعطف مراحمه ،ولايمضى امرا الا بامره [(١٧٤)] " .

واصبح نائب السلطنة يتحدث كذلك فى امر الوزارة ، ويعين من يصلح لها فعين الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون التاج بن سعيد الدولة وزيرا ، واستدعاه ، وامره ان يرتدى خلعة الوزارة وعندما رفض ان يرتديها حلف سلار لئن لم يلبسها ضرب عنقه فخاف التاج ولبسها فى المحرم ٧٠٤هـ/١٣٠٤م وقبل يد الامير

---

١٧١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .
١٧٢) الامير سيف الدين كوندك كان زميل الملك السعيد فىالمكتب وهما صغيرين ، فقامت بينهما صلة الود ، واصبحكوندك بعد ذلك احد خاصكية الملك السعيد ، وولاه الاخير نيابة السلطنة فى عام ٦٧٧هـ ، وفى عام ٦٨٠هـ قبض عليه الملك المنصور : انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ،ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ،التحقيق ص ١٥٢ .
١٧٣) النويرى ، المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ق ٢ ، ورقة ٣٧٨ ،المفضل ، النهج ، منشور فى P.O.T.XIV, P. 463.
١٧٤) المفضل ، النهج ، منشور فى P.O.T.XIV, P.600

سلار ، مما يظهر الى اى مدى ضعفت سلطة الوزير وانحط منصبه (١٧٥) .

وكان نائب السلطنة يعامل الوزير - فى بعض الاحيان- بمنتهى العنف والقسوة ، واذا ما ارتكب اى خطأ ، وكان يحاسبه حسابا عسيرا ، مثلما فعل الامير سلاربالوزير ناصر الدين محمد بن الشيخى ، اذ اتهمه سلار باخذ مال السلطان، وقبض عليه ، وامر الحاجب بضربه ، فضربه على رأسه الى ان خرب شاشه (١٧٦) ، ثم سلمه لشد الدواوين ، وامره بمعاقبته ومعاقبة مماليكه ، وكان بأمر شاد الدواوين بين الحين والحين يضرب الوزير ابن الشيخى بالمقارع واستمر يعاقبه حتى مات (١٧٧) .

ولهذا كان من الطبيعى ان تسوء العلاقة بين الوزير ونائب السلطنة وان يتحين الوزير الفرص ليحد من سلطة نائب السلطنة ومن نفوذه ، ويحاول ان يستخف به معتمدا فى ذلك على تقربه من السلطان وعلاقته الودية به ، فنجد ان الوزير ابن السلعوس (١٧٨) ، بدأ يستخف بنائب السلطنة الامير بدر الدين بيدرا ، ولا يلتفت اليه ،ويحاولمشاركته فى وظيفته ومعارضته فيما يقصد فعله ، وتعطيل ما يوءمر

---

١٧٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٦ .

١٧٦) الشاش هو ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

١٧٧) لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، المصدر السابق ج ٢ ، ق ١ ، ص ٩ - ١١ .

١٧٨) كان ابن السلعوس فى بداية حياته تاجر من اهل دمشق ثم تقرب من وزير دمشق الصاحب تقى الدين ، واخذ يتنقل فى المناصب حتى ولى حسبة دمشق فى عام ٦٨٧هـ ، ثم نظر ديوان الاشرف خليل بالشام ، ثم نقله الاشرف الى نظر ديوانه بمصر فى ٦٨٩هـ ، وعندما ولى الاشرف خليل السلطنة ، جعله وزيرا له فى عام ٦٩ هـ،لمزيد من التفاصيل انظر :
ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٠٦ - ١٠٨ .

ـه (١٧٩) حتى طغى نفوذه على نفوذ النائب ، واعتمد في ذلك على صلته القوية بالسلطان الاشرف خليل وعلاقته الودية به .

وظل الوزير ابن السلعوس يتربص بالنائب بيدرا ويتحين الفرص للايقاع به ، وواتته الفرصة في عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢ م ، حينما خرج السلطان الاشرف خليل الى الصعيد وسبقه ابن السلعوس اليها ، ليجهز له الاقامات ، فلم يجد ما يكفي لتجهيزها ، في حين وجد ان املاك بيدرا قد اتسعت وشملت البلاد وكثرت اقطاعاته واموالهوامتلأت شونه بالغلال ، فانتهز هذه الفرصة ليوغر قلب السلطان عليه ، وارسل يقول له : "هذا بيدرا قد اكل البلاد واستولى عليهاوما ترك للسلطان شيئا" . فتغير السلطان على نائبه بيدرا ، وحقد عليه حقدا كان يظهره حينا ، ويخفيه حينا آخر (١٨٠) .

وفي عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م كان العداء قد اشتد بين ابن السلعوس ونائب السلطنة الامير بيدرا ، وفي المحرم من هذا العام خرج السلطان الاشرف خليل للصيد بجهة البحيرة واصطحبهما معه ، وعندما وصل السلطان الى تروجه - على مقربة من الاسكندرية - سبقه وزيره الى مدينة الاسكندرية لتجهيز الاقمشة والاستعمالات للسلطان ، ولتحصيل الاموال من المدينة ، ويرتب احوالها ، فلما دخل ابن السلعوس مدينة الاسكندرية ، وجد نواب الامير بيدرا قد استولوا على المتاجر والاستعمالات (الاقمشة) وغير ذلك ، فكتب للسلطان

---

١٧٩) النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٩ ، ورقة ٥٣ ، ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٠٩ .

١٨٠) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٣٤٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٣ ، ابن الفرات ، ج ٨، ص ١٥٤ ، النويري ، نهاية الارب ج٢٩ ، ورقة ٧٠ -٧١ ، المفضل النهج ، ج ٢ ، منشور في P.O.T.XIV, pp. 562-63:

يخبره بذلك ويغريه ببيدرا ، فاشتد غضب السلطان ، واستدعى بيدرا ، واغلظ له فى القول ، واهانه فى وجود الامـــراء الخاصكية (١٨١) وتوعده بانه لابد وان يمكن ابن السلعوس من ضربه بما لا يذكر (١٨٢) . ونجح الوزير ابن السلعوس بذلـــك فى الايقاع بنائب السلطنة وبتشويه صورته عند السلطان .

وبعد مقتل الوزير ابن السلعوس ، تولى الوزارة الامير علم الدين سنجر الشجاعى فى صفر من عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣ م ، فاحكم امر البلاد وهابه الناس وصار يستخف بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون لصغر سنه ، ولذلك اصبح هو صاحب الحـــل والعقد فى البلاد فى تلك الايام ، بل وحدثته نفسه بالسلطنة ، ولذلك بذر بذور الفتنة بين الامراء وبين الامير زين الديـن كتبغا نائب السلطنة ، بل وسعى فى اتخاذ كافة الحيل للقبـــض على الامير كتبغا وجماعة من الامراء الموالين له ، مستعينا فى ذلك بالمماليك السلطانية وبعض الخاصكية ، كذلك اتفـق الوزير الشجاعى مع الامير سنجر البندقدارى على انه عندما يطلع كتبغا الى قلعة الجبل بعد انتهاء الموكب يقبض عليـه هو ومن معه من الامراء . غير ان هذه المؤامرة لم تفلـــح اذ علم بها الامير كتبغا فاحتاط لنفسه ، واخبر الامـــراء المقربين له فاخذوا حيطتهم (١٨٣) .

ودبر الشجاعى مؤامرة اخرى للقبض على كتبغا ، عندما

---

١٨١) الخاصكية قسم من المماليك السلطانية ، يجعلهم السلطـــان حرسه الخاص ، وهم يلازمون السلطان فى خلواته وفى اوقات فراغه ، ويجهزون فى المهمات الشريفة ويسوقون المحمل ، لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٤ حاشية (٤) .

١٨٢) بيبرس الدوادار ، المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٣٤٨ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٨ ، المفضل ، النهج ، منشور فى : P.O.T.XIV, pp. 567-86 ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٦٦ .

١٨٣) لمزيد من التفاصيل انظر : النويرى ، نهاية الارب ، ٢٩-٣٠ ورقة ٧٨ ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٧٨-١٧٩ ، ١٨٠ .

كان يستعد للخروج فى الموكب وبصحبته الامراء ، غير أن كتبغا اكتشف هذه المؤامرة ايضا ، وطلب من السلطان أن يرسل فى طلب الشجاعى ، ولكنه امتنع عن الحضور ، وعندئذ زحف كتبغا على القلعة وحاصرها وبداخلها الشجاعى ، وقطع عنها الماء وانتهى الامر بالقبض على الوزير الشجاعى وقتله فى صفر ٦٩٣هـ/١٢٩٤م[١٨٤] .

على ان النفور الشديد والعداء المستحكم الذى اتسمت به علاقة الوزير بنائب السلطنة انما كان مرجعه فى الاصل الى حسد الوزير على النائب ، فقد انتزع منه نفوذه واصبح النائب يتمتع بالسلطة والنفوذ فضلا عن الجاه والثروة الواسعة ، اذ يلاحظ ان نواب السلطنة كان معظمهم على درجة كبيرة من الثراء ومن هؤلاء النواب حسام الدين طرنطاى[١٨٥] والامير سيف الدين سلار[١٨٦] والامير سيف الدين قوصون[١٨٧] والامير بكتمر الساقى[١٨٨] وغيرهم .

---

١٨٤)لمزيد من التفاصيل انظر: النويرى ، نهاية الارب ،جـ ٢٩، ورقة ٧٨ – ٧٩ ، ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٨١–١٨٢ . ابن تغرى بردى ،النجوم ،جـ ٨، ص ٤٢ – ٤٦ ، ابن اياس ،بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٣٨١ – ٨٤ .

١٨٥)عن ثراء حسام الدين طرنطاى انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣١٨ ، ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٠٠ – ١٠٢ ، ١٠٧ ، النويرى ،المصدر السابق ، جـ ٢٩ ، ورقة ٥١، المفضل ، النهج ، P.O.T.XIV,pp.535-36 المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٠٨ ، ابن تغرى بردى ،النجوم ، جـ ٧ ، ص ٣٨٤ .

١٨٦)عن ثراء الاميرسلار انظر: ابن حجر ،الدرر،جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ ١ ،ص ٢٦٩ ، المقريزى ،السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٩٧–٩٩، ابن اياس ،بدائع ،جـ١ ،ص٤٣٦–٣٨ .

١٨٧)وعن ثراء قوصون انظر: ابن حجر ،المصدرالسابق ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ – ٤٤ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٩١–٩٢ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٩٣ .

١٨٨)عن ثراء بكتمر الساقى انظر : العماد الحنبلى ،شذرات الذهب ، جـ ٩ ، ص ١٠٥ .

اما عن علاقة نائب السلطنة بالسلطان ، فقد قامت بينهما - فى بعض الاحيان - علاقات طيبة ، تتسم بالحب والمودة ، بل ان السلطان كان يعتبر نائبه ابنا له ، "فيحله محل الولد " على حد تعبير النويرى (١٨٩). وكان يخطب له ويزوجه ويحتفل بعرسه احتفالا عظيما ، فحدث ان خطب السلطان الظاهر بيبرس لنائب سلطنته بدر الدين بيليك الخازندار ابنة الملك الرحيم بدر الدين لوءلوء صاحب الموصل فى شوال من عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ، ثم انكحه فى المحرم من العام التالى ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، واحتفل به احتفالا عظيما ، وقدم له هدية الزواج ، وكانت ملكيته لبانياس وقلعتها بالبيع والشراء او البيع الشرعى ، كما اقطعه زيادة على ذلك خمسين فارسا فى الشام (١٩٠) .

وفى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م ، وكل السلطان الظاهر بيبرس الامير بدر الدين بيليك نائبه فى قبول نكاح ولده الملك السعيد من ابنة الامير سيف الدين قلاوون (١٩١) . كذلك كان الامير حسام الدين طرنطاى نائب السلطان المنصور قلاوون وكيلا للملك الصالح على ابن المنصور قلاوون عندما عقد قرانه فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م (١٩٢) .

وكان السلطان يواسى نائبه ايضا فى وقت الازمات ، فعندما سمع السلطان الظاهر بيبرس - وهو فى بلا الشام فى عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م - بان شخصا طعن الامير عز الدين ايدمر الحلى نائب السلطنة بالغيبة وهو يجلس فى دار العدل مع

---

١٨٩) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٨ ، ق ١ ، ورقة ٤٦ - ٤٧ .
١٩٠) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٦ - ٨٧ ، النويرى المصدر السابق ، جـ ٢٨ ، ورقة ٤٦ - ٤٧ .
١٩١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ ، النويرى المصدر السابق ، جـ ٢٨ ، ورقة ٢٢٨ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٥١ ، الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ٢١ ، ص ٧٥ .
١٩٢) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، ص ٢٠ .

القضاة والوزير الصاحب بهاء الدين ، عز عليه ذلك وواساه بقوله : "والله يهون على موت ولدى بركة ، ولا يموت الحلى" (١٩٣) .

كذلك ربطت صلة المصاهرة بين السلطان ونائبه ففى عام ٧٢٢هـ/١٣٢٢م ، زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون ابنته للامير ابى بكر بن ارغون الناصرى نائب السلطنة ، وتولى العقد قاضى القضاة شمس الدين الحريرى على اربعة آلاف دينار ، وانعم السلطان على نائبه بمنية بنى خصيب بالصعيد زيادة على اقطاعه بمناسبة هذا الزواج (١٩٤) .

دان بعض نواب السلطنة بالولاء لسلطانهم ، ففى عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وبينما كان السلطان المنصور قلاوون فى طريقه الى عكا اصابه المرض ، ولزم الفراش وعندئذ منع الامير حسام الدين طرنطاى نائبه عنه الزيارة ،وقعد على رأسه حتى مات ، وعندما تحقق الامراء من وفاة السلطان ، جاءوا الى نائبه ، يحرضونه على قتل ابن السلطان - الاشرف خليل- للعداء بينهما ، غير انه رفض ذلك وقال لهم : "كيف امسك ابن استاذى او اقتله ، ويشاع عنى بين الناس انى قتلت ابن استاذى ، وانا مملوك والده ، فان رضى بى وابقانى على حالى ، فكان الفضل له ، وان قتلنى رحت شهيدا من جملة الشهداء" (١٩٥) .

واكثر من ذلك قام الامير حسام الدين بارسال خزائن المال والاطلاب (اى الحرس الخاص) التى كانت مع السلطان

---

١٩٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٤٩ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٠ - ٥١ ، النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٢٨ ، ق ١ ، ورقة ١٣٠ .
١٩٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٧٤ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٢٣٧ ، ٢٤٦ .
١٩٥) ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ .

الى الاشرف خليل ، كما ارسل له من يخبره بوفاة ابيه وحمل السلطان فى محفة ، وطلع به الى القلعة فغسله وكفنه ودفنه (١٩٦) .

تطور نفوذ نائب السلطنة بالقاهرة :

تزايد نفوذ نائب السلطنة بالقاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية وبخاصة فى الفترات التى اعتلى فيها العرش سلاطين ضعاف او صغار السن ، ويؤكد ذلك ان الامير زين الدين كتبغا عندما تولى نيابة السلطنة فى المحرم من عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م فى سلطنة الناصر محمد الاولى ، استغل صغر سن السلطان ، وجعل نفسه صاحب الامر والنهى فى البلاد ، يقوم بتعيين ارباب الوظائف ويعزلهم اذ يذكر ابن الفرات ان الامير كتبغا "كان صاحب الامر والنهى والولاية والعزل(١٩٧)".

وعظم نفوذ كتبغا وصار هو المتحدث فى امور البلاد ، واكثر من ذلك تطلع الى عرش السلطنة ، واتخذ خطوات عملية فى الوصول اليه ، اولها انه انقطع فى دار النيابة ، واظهر انه معتل الجسد ، ضعيف البدن وذلك من اجل ان يستميل الامراء الى صفه ، ثم استغل الفتنة التى قام بها المماليك السلطانية (١٩٨) واتخذها ذريعة لخلع السلطان الناصر محمد ، وجمع الامراء والقضاة فى دار النيابة وقال لهم : "قد انخرق ناموس المملكة ، وحرمته لا تتم بسلطنة الناصر محمد لصغر سنه (١٩٩)" ، وعندئذ اتفق الامراء على خلع الناصر محمد وسلطنة كتبغا وذلك فى المحرم من عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وجلس كتبغا فى دست السلطنة وتلقب بالملك

---

١٩٦) ابن اياس ،بدائع الزهور، جـ ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .
١٩٧) ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ١٩٢ .
١٩٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفتنة انظر ما سبق
١٩٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٠٦ .

العـــادل[٢٠٠] .

واذا كان كتبغا قد نجح فى انتزاع عرش السلطنة من الناصر محمد مستغلا صغر سنه ، فقد نجح نائبه الاميرحسام الدين لاجين فى انتزاع العرش منه ايضا مستغلا فرصة خروجه الى بلاد الشام بالعساكر ، ولما لم تنجح محاولة حســـام الدين فى الانقضاض على كتبغا والتخلص منه ، فقد انقـــض حسام الدين على دهليز السلطان[٢٠١] وعلى الخزائن والحرس والعساكر وساقهم امامه الى مدينة غزة حيث بايعه الامراء بالسلطنة ، ثم دخل حسام الدين مصر ، وخطب له على منابرها ولم يكتف حسام الدين بذلك بل كتب نسخة تقليد لكتبغـــا بنيابة صرخد[٢٠٢] .

عين السلطان المنصور لاجين الامير سيف الدين منكوتمر نائبا لسلطنته فى عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م فاستبد بالامور، وازداد نفوذه وتسلطه لدرجة انه كان اذا رسم السلطان المنصـــور لاجين مرسوما او كتب لاحد توقيعا ليس باشارة من نائبـــه منكوتمر ، كان منكوتمر يأخذ هذا المرسوم من يد المعطـــى له ويمزقه وعلامة السلطان[٢٠٣] عليه ولا يبالى ، بل ويرده ويمنع السلطان منه[٢٠٤] .

---

٢٠٠) لمزيد من التفاصيل انظر: بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، جـ ٩، التحقيق ، ص ٣٦٢، المقريزى ، السلوك ،جـ ١ ،ق ٣ ، ص ٨٠٦ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٨١ ، ابن الفرات ، جـ ٨، ص ١٩٢-١٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم، جـ ٨ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

٢٠١) دهليز السلطان . وهو الخيمة التى ترافق السلطان فـى الحرب وتختلف عن غيرها من الخيام .

٢٠٢) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغرى بردى ، النجـــوم ، جـ ٨ ، ص ٦٣ - ٦٤ ، ٨٦ - ٨٧ .

٢٠٣) علامة السلطان او العلامة السلطانية هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع انظر :المقريزى ، السلوك ،جـ ١،ق٢ ، ص ٣٤٤ ، حاشية (١) ، وانظر ايضا المواعظ والاعتبار،جـ ٢،ص ٢١١ .

٢٠٤) بيبرس الدوادار،زبدة الفكرة ،جـ ٩،التحقيق،ص٣٩٦ ،النويرى، نهاية الارب،جـ ٢٩،ورقة ١٠٢ ، ابن تغرى بردى ،النجوم ، جـ ٨ ، ص ٨٩ .

كذلك زين منكوتمر للسلطان ان يجعله وليا لعهده ويبايعه بالسلطنة من بعده خاصة وان السلطان لاجين لم يكن له ولدا يخلفه على العرش ، وطلب منكوتمر من السلطان ايضا ان يقرن اسمه باسمه فى الخطبة ، والسكة ، غير ان منكوتمر لم يصل الى ما تمنى اذ لم يمهله الامراء ، وانقضوا عليه وقتلوه بعد ان ثقلت وطأته عليهم لاتباعه سياسة العنف معهم (٢٠٥) .

وعندما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى عرش السلطنة للمرة الثانية ، وكان لا يزال صغيرا ، اقتسم نائبه الامير سيف الدين سلار واتابك عسكره (اى القائد العام للجيش) الامير بيبرس الجاشنكير السلطة والحكم وكان السلطان معهما - كما تروى المصادر - كالمحجور عليه لا يتصرف فى امور المملكة الا باختيارهما ، واكثر من ذلك انهما منعاه من كل ما يريد ، حتى لم يستطيع الوصول الى ما تشتهى نفسه من المأكل لقلة المرتب المخصص له ، ولولا ما كان يحصل عليه من املاك ابيه واوقافه لما وجد سبيلا الى بلوغ بعض اغراضه (٢٠٦) .

وحاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من كل من نائبه سلار واتابكه بيبرس بعد ان ضيقا عليه ، فدبر موءامرة ضدهما فى عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ، ولكن كان لهما بقصر السلطان عيون وجواسيس ابلغوهما بما عزم السلطان عليه فاتخذا حيطتهما ، وعندما ضاق السلطان الناصر محمد بنائبه واتابكه ذرعا عزل نفسه من السلطنة ، وذهب الى الكرك

---

٢٠٥) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٩٥ - ٩٦ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٥٢ .

٢٠٦) النويرى ، المصدر السابق، جـ٢٩ ورقة جـ١٨٦ ، المقريزى، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٤٣ ، ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٧٥ ، ٢٢١ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٤٢١ .

للاقامة هناك (٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨م) (٢٠٧) .

ولكن عندما تولى السلطان الناصر محمد العرش للمرة الثالثة ، كان قد اشتد عوده ، واصقلته التجارب ،وحنكته الخبرات واستطاع لذلك ان يتصدى لنوابه ويحكم القبض على زمام الامور ، وليس ادل على ذلك من انه عندما حاول نائبه بكتمر (٢٠٨) ان يدبر موءامرة لخلعه فى عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م ، واقامة ابن اخيه الامير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح فى السلطنة ، مستعينا فى ذلك ببعض الامراء المظفرية من اتباع المظفر بيبرس الجاشنكير - وعلم السلطان الناصر بتفاصيل هذه الموءامرة من احد المماليك المظفرية ويدعى بيبرس الجمدار اتخذ على الفور الاجراءات اللازمة للقضاء على تلك الموءامرة ، فالقى القبض على نائبه بكتمروجماعة من الامراء فى جمادى الاولى ٧١١هـ/١٣١١م ، ووضعه فى سجن الاسكندرية ، ثم نقله الى سجن الكرك(٢٠٩) .

وبعد القبض على بكتمر ، عين السلطان الناصر محمد الامير بيبرس الدوادار الموءرخ نائبا له ، غير انه مال الى جانب نائب الشام ، الامير شمس الدين قراسنقر ، الذى خرج على طاعة السلطان ، فما كان من السلطان الناصر الا ان قبض على نائبه بيبرس وسجنه بالاسكندرية ، فى ٧١٢هـ/ ١٣١٢م (٢١٠) .

---

٢٠٧) انظرالنويرى ، نهاية الارب ، جـ ٣٠ ، ورقة ١٨٤ - ١٨٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٧٠ - ١٧٥ .

٢٠٨) الاميرسيف الدين بكتمر كان جوكندارثم اميرجاندار ،وتولى النيابة لمدة عامين ،قبض عليه بعدهما ،وتوفىفى عام ٧١١هـ/ ١٣١١م . انظر :ترجمته فى ابن تغرى بردى ،المنهل ، جـ ٣ ، ص ٣٩٨ - ٤٠١، ابن حجر ، الدرر ،جـ ٢ ،ص ١٨ - ١٩ .

٢٠٩) لمزيدمن التفاصيل انظر: ابن ايبك،الدرر ،ص ٢١٢، ٢١٣ ، المقريزى،السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٩١-٩٣،ص ١٠٢ - ١٠٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ،جـ ٩،ص ٢٤ - ٣٠ ، النويرى ، المصدر السابق ، جـ ٣٠ ، ورقة ٢٤٤ .

٢١٠) النويرى ،المصدر السابق ، جـ ٣٠ ، ورقة ٢٤٤ - ٤٥ ، ورقة == ==

عهد السلطان الناصر محمد بعد ذلك الى الامير ارغون الناصرى بنيابة السلطنة فى مستهل جمادى الاولى٧١٢هـ/١٣١٢م وعندما تباطىء الامير ارغون فى تنفيذ ما طلبه السلطان منه بان يقضى على فتنة قام بها احد الثائرين ويدعى مهنا ، قبض السلطان عليه فى المحرم من عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦ م(٢١١) . وابطل النيابة واستقل باعباء الدولة وحده ، فقام بعمل النائب والوزير بعد ان الغى الوزارة كذلك فى نفس العام ، وصار السلطان الناصر محمد يتحدث بنفسه فى الجليل والحقير من الامور(٢١٢) .

ومن الجدير بالذكر ان نيابة السلطنة بالغيبة لم تتأثر بقرار الناصر محمد بابطال النيابة ، وكان هذا القرار قاصرا على نيابة الحضرة فحسب اذ ظل نائب الغيبة يوءدى دوره ، ويوءكد ذلك ان السلطان الناصر محمد عندما شرع فى السفر الى الحجاز الشريف للحج فى عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، نجده يستنيب الامير سيف الدين الماس على الديار المصرية كنائب غيبة مدة سفره الى الحجاز(٢١٣) .

وخلال الفترة التى الغى فيها السلطان الناصر محمد منصب نائب السلطنة كان حاجب الحجاب يقوم بعمل نائب السلطنة لشغور منصب النيابة والغائه ، فقد فوض السلطان الناصر محمد الى الامير سيف الدين الماس ، بعد ان تولى منصب حاجب الحجاب - القيام بمهام منصبه ، فكان يتحدث فى امر الجيوش وشكاوى الناس ، وترفع اليه المحاكمات التى

== ٢٧٦ - ٢٧٧ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ١٠٣ .

٢١١) ابن ايبك ، الدر ، ص ٣٧١ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٣٥١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٨٨ .

٢١٢) المقريزى ، المواعظ ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٣٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٧٤ .

٢١٣) ابن ايبك ، الدر ، ص ٣٧١ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٣٥١ ، وابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٠٢ ، المنهل ، جـ ٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

كانت ترفع للنائب الكافل ، بل كان اكبر الامراء وصاغرهم يركبون فى خدمته وكان يجلس على باب القلعة ويقف الحجاب بين يديه (٢١٤) .

اعيد منصب نائب السلطنة مرة اخرى فى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م فى سلطنة المنصور ابو بكر بن الناصر محمد ، وكان الامير طقز دمر هو اول من تولاه بعد اعادته وذلك فى ذى الحجة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، وكتب له السلطان المنصور ابو بكر تقليد بنيابة السلطنة فى المحرم من عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م (٢١٥) .

ولم يظل طقز دمر فى منصبه اكثر من شهر ، اذ خلع السلطان ابو بكر وخلفه سلطان صغير آخر وهو كجك . وعين كجك الامير سيف الدين قوصون نائبا لسلطنته فى صفر ٧٤٢هـ ، فاستغل قوصون صغر سن السلطان واستبد بالامور وجمع بين النيابة والاتابكية (اى قيادة الجيوش) وقام بعزل وتولية ارباب الوظائف ، فيذكر ابن اياس " ان الامير قوصون عزل من عزل وولى من ولى وظن ان الدهر قد صفا له وعند صفو الليالى يحدث الكدر" (٢١٦) .

ولم تطل مدة تولى الامير قوصون منصب نيابة السلطنة اذ ما لبث ان خلع السلطان كجك وخلفه الناصر احمد ، وفى ١٥ شوال ٧٤٢هـ ، تولى الاميرطشتمرحمص اخضر نيابة السلطنة (٢١٧) .

---

٢١٤) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٦ ، ابن ايبك ، الدر ، ص ٣٤٤ ، المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٠٨ .

٢١٥) انظر نسخة تقليد طقزدمر فى القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ١٤٣ - ١٤٨ ، وانظر ايضا : الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد ، ص ١٣١ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ١٩ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٧٨ .

٢١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

٢١٧) الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد ، ص ٢٠٥ .

وبلغ من تسلط طشتمر وتحكمه ان السلطان كان اذا عين شخصا فى وظيفة ما دون علمه ، يقوم بخلعه ، فعندما خلع السلطان الناصر احمد بن الناصر محمد على احد الكركيين ويدعى بفأر السقوف ومنحه وظيفة امام السلطان وناظر المشهدالنفيسى بدون علم نائبه طشتمر حمص أخضر بعث طشتمر الى هذا الشخص عدة نقباء ، ونزع عنه الخلعة ،وامر بضربه والزمه بحمل مائة الف درهم ، فضرب عريانا ، واخذ منه المبلغ ، ثم افرج عنه بعد ان تعهد بالا يطلع الى القلعة (٢١٨) .

ثم اخذ منصب نائب السلطنة فى التدهور والانحطاط فى اواخر عهد دولة المماليك البحرية ، بل واصبح يعرض على الامراء فيرفضون قبوله ، ويرجع ذلك الى اختلال نظام الدولة نتيجة لصغر سن السلاطين من احفاد الناصر محمد وعدم تمكنهم من ضبط الامور هذا فضلا عن كثرة الثورات والفتن التى تدخل فيها المماليك الشراكسة . وهناك امثلة عديدة على رفض الامراء قبول منصب نيابة السلطنة منها : ان السلطان الكامل شعبان خلع فى عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ، على الامير آقسنقر الناصرى بنيابة السلطنة "فامتنع اشد الامتناع ، وحلف ايمانا مغلظة الا يليها (٢١٩) " كذلك عرضت النيابة فى عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م على اكابر الامراء فلم يقبلها احد ، ثم عرضت على الامير بيبغا طظر فتمنع منها ايضا تمنعا كبيرا ثم قبلها (٢٢٠) كذلك عرض السلطان الاشرف شعبان على الامير منكلى الشمسى منصب نائب السلطنة وخلع عليه ، ولكنه ابى ان يكون نائبا ، فانعم عليه السلطان بتقدمة الف وجعله اتابك العسكر (٢٢١) .

---

٢١٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢، ق ٣ ، ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .
٢١٩) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ٦٨٣ .
٢٢٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠، ص ٢٢٠ ، المقريزى السلوك ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٣ .
٢٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٩ .

ولیس ادل علی انحطاط وظیفة نائب السلطنة ممایذکره ابن ایاس فی عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م من ان السلطان الناصر حسن خلع علی الامیر شیخو العمری وقرره امیر کبیر (٢٢٢) وصارت وظیفة من یومئذ ، وصارت اکبر من نیابة السلطنة ثم یقول ابن ایاس : "وانحط قدر نیابة السلطنة من یومئذ عما کانت" (٢٢٣) .

ولعل هذا ما دفع السلطان الناصر حسن الی أن یقوم بالغاء نیابة السلطنة فی عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م کما الغاها ابوه من قبل ، واحل محلها وظیفة الامیر الکبیر ،الذیاصبح صاحب الحل والعقد فی البلاد ، وعندما زالت سلطنة الناصر حسن فی عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م عادت نیابة السلطنة الی الظهور من جدید فی عهد المنصور طلاح الدین محمد بن حاجی ، وعین فیها الامیر قشتمر المنصوری (٢٢٤) .

ولکن عاد منصب نائب السلطنة اضعف مما کان ، لدرجة اصبح معها نائب السلطنة یتلقی الاوامر من اتابك العسکر ولیس من السلطان مباشرة ، فقد عهد الامیر یلبغا اتابك العسکر الی الامیر قشتمر المنصوری نائب السلطنة بانیتوجه الی الصعید لیحفظهامن فساد العربان الی ان یحضرالسلطان من الشام (٢٢٥) . وعلت مکانة اتابك العسکر علی مکانة نائب السلطنة واصبح هو مدبر الدولة ، اما النائب فاصبح "آلة یتعاطی الاحکام لا غیر" علی حد تعبیر ابن تغری بردی (٢٢٦) .

---

٢٢٢) الامیرالکبیرلقب یطلقعلی اکابر الامراءواعظمهمواقربهم الی السلطان مخاطبة وجلوسا ورکوبا ، ویستشیره السلطان فی مهمات الدولة ویعول علی رأیه انظر:الخالدی ،المقصد ورقة ١٢٤ .
٢٢٣) ابن ایاس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٥٥٣ .
٢٢٤) ابن ایاس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨٢ .
٢٢٥) ابن ایاس ، نفس المصدر ، والجزء والصفحة .
٢٢٦) ابن تغری بردی ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٤٦ .

على ان نائب السلطنة استطاع ان يستعيد بعض ما كان له من نفوذ فى عهد السلطان الاشرف شعبان ، الذى عهد فى عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م الى الامير منجك اليوسفى بنيابة السلطنة فى القاهرة ، "وفوض اليه النظر فى الاحباس والاوقاف والنظر فى الوزارة ، والنظر على ناظر الخاص ، واقامه السلطان مقام نفسه فى كل شئ ، وفوض اليه سائر امور المملكة ، وان نخرج الاقطاعات التى عبرتها سبعمائة دينار او مادونها .. بل ورسم للوزير ان يجلس قدامه فى الدركاة مع الموقعين(٢٢٧)".

ثم توقفت نيابة السلطنة للمرة الثالثة والاخيرة فى سلطنة المماليك البحرية فى عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م ، فى عهد الاشرف شعبان ، وتفوقت عليها الاسرة الكبيرة ، فقد عزل - فى هذا العام ، الامير اقتمر الحنبلى من نيابة السلطنة واستقر اميرا كبيرا يجلس بالايوان وقت الخدمة ، وخلع على الامير اقتمر عبدالغنى واستقر حاجب الحجاب وابطلت النيابة (٢٢٨)

وهكذا يتضح من العرض السابق ان وظيفة نائب السلطنة بالاضافة الى كونها من وظائف الدولة الكبرى فى عصر دولة المماليك البحرية ، فان صاحبها اسهم اسهاما واضحا فى اكساب نظام الحكم فى ذلك العصر شكله وهيكله المميز فضلا عن ان نائب السلطنة قام عندئذ بدور بارز ملحوظ فى توجيه سياسة الدولة داخليا وخارجيا .

* * *

---

٢٢٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٥ .
٢٢٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٧١ .

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

قائمة باسماء نواب السلطنة بالحضرة فى عصر دولة المماليك البحرية

١ - بدر الدين بيليك الخازندار	(ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م)
٢ - شمس الدين اقسنقر الفارقانى	(ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م)
٣ - شمس الدين سنقر المظفرى	(ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م)
٤ - سيف الدين كونداك الساقى	(ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م)
٥ - عز الدين ايبك الافرم	(ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م)
٦ - حسام الدين طرنطاى	(ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م)
٧ - بدر الدين بدرا	(ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م)
٨ - شمس الدين قراسنقر المنصورى	(ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)
٩ - سيف الدين منكوتمرالحسامى	(ت ٦٩٨هـ/١٢٩٨م)
١٠ - سيف الدين سلار المنصورى	(ت ٧١٠هـ/١٣١٠م)
١١ - بكتمر الجوكندار المنصورى	(ت ٧١٦هـ/١٣١٦م)
١٢ - بيبرس الدوادار المنصورى	(ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)
١٣ - ارغون الدوادار الناصرى	(ت ٧٣١هـ/١٣٣٠م)
١٤ - طقز دمر الناصرى	(ت ٧٤٦هـ/١٣٤٥م)
١٥ - سيف الدين قوصون الساقى	(ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)
١٦ - طشتمر حمص اخضر الساقى	(ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م)
١٧ - شمس الدين آقسنقر السلارى	(ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م)
١٨ - سيف الدين الحاج آل ملك	(ت ٧٤٧هـ/١٣٤٦م)
١٩ - ارقطاى القفجقى	(ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)
٢٠ - بيبغاروس الناصرى	(ت ٧٥٣هـ او٧٥٤هـ/١٣٥٢م)
٢١ - سيف الدين ارغون الكاملى	(ت ٧٥٨هـ/١٣٥٦م)
٢٢ - سيف الدين قبلاى الناصرى	(ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)
٢٣ - قشتمر بن عبدالله المنصورى	(ت ٧٧١هـ أو٧٧٥هـ/١٣٦٩م او١٣٧٣م)

٢٤ - على المارديني (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م)

٢٥ - طشتمر العلائي (ت ٧٨٤هـ/١٣٨٢م)

٢٦ - ايدمر الدوادار (ت ٧٧٥هـ-٧٧٦هـ/ ١٣٧٣م - ١٣٧٤م)

٢٧ - سيف الدين منجك اليوسفي (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٣م)

٢٨ - اقتمر بن عبد الله الصاحبي الحنبلي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

٢٩ - اقتمر بن عبد الغني (ت ٧٨٣هـ/١٣٨١م)

* * * *

ملحق رقم (٢)

اسم النائب	فترة توليه النيابة
بدر الدين سليك الخازندار	ذو القعدة ٦٥٨هـ/ اكتوبر ١٢٥٩م – ربيع أول ٦٧٦هـ/ اغسطس ١٢٧٧م
شمس الدين اقسنقر الفارقانى	ربيع اول ٦٧٦هـ/ اغسطس ١٢٧٧م – ربيع آخر ٦٧٦هـ/سبتمبر ١٢٧٧م
شمس الدين سنقر المظفرى	بضع ايام فى جمادى الاولى من عام ٦٧٦هـ/ اكتوبر ١٢٧٧م
سيف الدين كوندا ك الساقى	جمادى الثانى ٦٧٦هـ/نوفمبر ١٢٧٧م – – – ربيع آخر ٦٧٨هـ/ اغسطس ١٢٧٩م
عز الدين ايبك الافرم	ربيع آخر ٦٧٨هـ/ اغسطس ١٢٧٩م – رمضان ٦٧٨هـ/يناير ١٢٨٠م
حسام الدين طرنطاى	رمضان ٦٧٨هـ/يناير ١٢٨٠م – ذوالقعدة ٦٨٩هـ/نوفمبر ١٢٩٠م
بدر الدين بيدرا	ذوالقعدة ٦٨٩هـ/نوفمبر ١٢٩٠م – رجب ٦٩٣هـ/مايو ١٢٩٣م
زين الدين كتبغا	رجب ٦٩٣هـ/مايو ١٢٩٣م – محرم ٦٩٤هـ/ديسمبر ١٢٩٤م
حسام الدين لاجين	محرم ٦٩٤هـ/ديسمبر ١٢٩٤م – صفر ٦٩٦هـ/نوفمبر ١٢٩٦م
شمس الدين قراسنقر	صفر ٦٩٦هـ/نوفمبر ١٢٩٦م – ذوالقعدة ٦٩٦هـ/ اغسطس ١٢٩٦م
سيف الدين منكوتمر الحسامى	ذوالقعدة ٦٩٦هـ/ اغسطس ١٢٩٦م – جمادى الاولى ٦٩٨هـ/فبراير ١٢٩٨م
سيف الدين سلار المنصورى	جمادى الاولى ٦٩٨هـ/فبراير ١٢٩٨م – شوال ٧٠٩هـ/مارس ١٣٠٩م
بكتمر الجوكندار المنصورى	شوال ٧٠٩هـ/مارس ١٣٠٩م – جمادى الاولى ٧١١هـ/سبتمبر ١٣١١م
بيبرس الدوادار المنصورى	جمادى الاولى ٧١١هـ/سبتمبر ١٣١١م – ربيع آخر ٧١٢هـ/ اغسطس ١٣١٢م
ارغون الدوادار الناصرى	جمادى الاولى ٧١٢هـ/سبتمبر ١٣١٢م – صفر ٧٢٧هـ/ديسمبر ١٣٢٦م
طقزدمر الناصرى	المحرم ٧٤٢هـ/يولية ١٣٤١م – صفر ٧٤٢هـ/يولية ١٣٤١م
سيف الدين قوصون الساقى	صفر ٧٤٢هـ/يولية ١٣٤١م – شوال ٧٤٢هـ/مارس ١٣٤٢م
طشتمر حمص أخضر	شوال ٧٤٢هـ/مارس ١٣٤٢م – ذوالحجة ٧٤٢هـ/مايو ١٣٤٢م
شمس الدين اقسنقر السلارى	محرم ٧٤٣هـ/يونيه ١٣٤٢م – محرم ٧٤٤هـ/مايو ١٣٤٣م

اسم النائب	فترة توليه النيابة
سيف الدين الحاج آل ملك	محرم ٧٤٤هـ/مايو ١٣٤٣م — ربيع آخر٧٤٦هـ/ اغسطس ١٣٤٥م
سيف الدين ارقطاى القفجقى	رمضان ٧٤٦هـ/ديسمبر١٣٤٥م — شوال ٧٤٨هـ/يناير ١٣٤٨م
بيبغاروس الناصرى	شوال ٧٤٨هـ/يناير ١٣٤٨م — ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م
بيبغا ططر حارس الطير	٧٥١هـ/ ١٣٥٠م — رجب ٧٥٢هـ/ اغسطس ١٣٥١م
سيف الدين ارغون	رجب ٧٥٢هـ/ اغسطس ١٣٥١م — ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م
سيف الدين قبلاى الناصرى	٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م — ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م
قشتمر بن عبدالله المنصورى	٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م — ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م
علاءالدين على الماردينى	٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م — ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م
طشتمر العلائى	٧٧١هـ/ ١٣٦٩م — ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م
ايدمر الدوادار	٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م — ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م
سيف الدين منجك	شوال ٧٧٥هـ/مارس ١٣٧٤م — ذوالحجة ٧٧٦هـ/مايو ١٣٧٥م
اقتمر بن عبدالله الصاحبى	ربيع أول ٧٧٧هـ/يوليه ١٣٧٥م — رمضان ٧٧٨هـ/ يناير ١٣٧٧م وتولى فترة اخرى من :- ذى القعدة ٧٧٨هـ/مارس ١٣٧٧م — صفر ٧٧٩هـ/يونيه ١٣٧٧م —

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

أ) المخطوطات :

- الخالدى ، المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا
مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .
- النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب(ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م)
نهاية الارب فى فنون الادب .
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (معارف عامة)
جـ ٢٨ ميكروفيلم برقم ٤٢٧١٥ ، ٤٣٣٣١ .
جـ ٢٩ ميكروفيلم برقم ١٧٩٢٤ .
جـ ٣٠ ميكروفيلم برقم ٧٠٢٥ ، ٤٣٠٣٥ ، ٤٢٧١٠ .
جـ ٣١ ميكروفيلم برقم ١٧٩٢٣ .

ب) المصادر المطبوعة :

- ابن اياس ،محمد بن احمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
الجزء الاول القسم الاول والثانى تحقيق محمد مصطفى،
فيسبادن ١٩٧٥ ، القاهرة ١٩٨٣م .
- ابن ايبك الدوادارى ، ابو بكر بن عبد الله (ت بعد٧٣٦هـ
/١٣٣٥م)
كنز الدرر وجامع الغرر.
الجزء التاسع : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر .
تحقيق هانس روبرت رديمر ، القاهرة ١٩٦٠م .
- ابن تغرى بردى ، جمال الدين ابوالمحاسن(ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م).
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
الاجزاء من ٦-١٢ طبعة دار الكتب بدون تاريخ .
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى .
جـ ١، ٢ تحقيق محمدمحمد امينالقاهرة ١٩٨٤- ١٩٨٥م

جـ ٣، تحقيق نبيل عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٦م .
- - ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)
تذكرة النبيه فى ايام المنصور وبنيه .
الاجزاء ١ - ٣ تحقيق محمد محمد امين . القاهـــرة ١٩٧٦ - ١٩٨٦م .
- - ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين احمد بن على(ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)
الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة .
تحقيق محمد سيد جاد الحق .
خمسة اجزاء - القاهرة ١٩٦٦م .
- - ابن عبد الظاهر ، محى الدين بن عبد الظاهـــر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)
-الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر .
تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م
- تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون ، (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ)
تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١م .
- - ابن العماد الحنبلـــى ، ابو الفلاح عبد الحى بن احمـد بـــن محمد (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب
الاجزاء ٥ ، ٦ القاهرة ١٣٥١هـ .
- - ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم المصرى (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)
تاريخ ابن الفرات .
مجلد ٧ تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٤٢م .
مجلد ٨ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩م .
مجلد ٩ ، جـ ١ ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٦م .

مجلد ٩ ، ج ٢ ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين
بيروت ١٩٣٨م .
- ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين احمد بن يحيى
(ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
- التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ .
- مسالك الابصار فى ممالك الامصار .
ممالك مصر والشام والحجاز واليمن .
تحقيق ايمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٥م .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)
البداية والنهاية .
الاجزاء ١٣ - ١٤ ، بيروت ١٩٦٦م .
- ابن واصل ، محمد بن سالم ، جمال الدين(ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب .
الجزء الثالث تحقيق جمال الدين الشيال ، الاسكندرية
١٩٦٠م .
الاجزاء ٤ ، ٥ تحقيق حسنين ربيع القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧.
- بيبرس الدوادار ، الامير ركن الدين بن عبدالله المنصورى
(ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)
زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة .
الجزء التاسع ، تحقيق زبيدة عطا ، القاهرة ١٩٧٢م .
- الذهبى ، محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
العبر فى خبر من غبر .
الجزء الخامس ، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٦٦م.
- السبكى ، تاج الدين عبد الوهاب بن على (ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م)
معيد النعم ومبيد النقم .
حققه وضبطه وعلق عليه : محمد على النجار ، ابو زيد
شلبى ، محمد ابو العيون ، القاهرة ١٩٤٨م .
- الشجاعى ، شمس الدين (ت)

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي واولاده .
(٧٣٧ - ٧٤٥هـ/١٣٣٧ - ١٣٤٥م)
تحقيق بربارة شيفر فيسبادن ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

- الشوكاني ، محمد بن على بن محمد (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .
جزءان ، القاهرة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م .

- القلقشندي ، ابوالعباس احمدبن على بن احمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م)
صبح الاعشى فى صناعة الانشا .
١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٢ - ١٩٢٢م .

- الكتبي ، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
عيون التواريخ .
ج ٢١ (٦٧١ - ٦٨٧هـ)
تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، العراق ١٩٨٤م.

- المفضل بن ابى الفضائل
النهج السديد والدر الفريد فيما بعدتاريخ ابن العميد .
منشور فى
Patrologia Orientalis
Vol. XII,XIV,Paris,1920

- المقريزي ، تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
- السلوك لمعرفة دول الملوك .
الجزءان الاول والثاني : تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨م .
الجزءان الثالث والرابع : تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار
جزءان ، بيروت ، مصور عن طبعة بولاق١٢٧٠هـ/١٨٥٣م .

- اليافعي ، ابو محمد بن عبد الله بن سعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان . الجزء الرابع بيروت ١٣٣٩هـ .

- اليونينى ، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)
ذيل مرآة الزمان .
المجلد الثالث (٦٧١هـ - ٦٧٧هـ)
حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

ثانيا : المراجع :

- حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار الاسلامية
الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٦م .

- سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك فى مصر والشام
القاهرة ١٩٧٠م
- الظاهر بيبرس
القاهرة ١٩٦٣م
- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٢م
- العصر المماليكى فى مصر والشام
القاهرة ١٩٦٥م

- عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم
فى مصر
الجزء الثانى ١٩٦٧م

- على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية
القاهرة ١٩٦٧م
- "نظم الحكم في دولة المماليك الاولى(٦٤٨ - ٧٨٤هـ/
١٢٥٠ - ١٣٨٢م)"، دكتوراة غير منشورة .
جامعة القاهرة ١٩٤٢م

- محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر
القاهرة ١٩٦٠م
- دولة بنى قلاوون فى مصر
القاهرة د . ت .

- محمد محمد امين ، الاوقاف و الحياة الاجتماعية فى مصر
٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م
دراسة تاريخية وثائقية
القاهرة ١٩٨٠م
-"السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب
١٢٤٠ - ١٢٤٩م "
ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦٨م
- منشور بمنح اقطاع من عصر السلطان الغورى
مقال بالمجلة التاريخية المصرية
(م ٢٨ ، ٢٩) لعامى (١٩٨١/١٩٨٢) ص ٣ - ٤٠ .
- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى الادبى
الجزء الاول ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٤٧م .

* * * *

الحملة الفرنسية والمتغيرات التاريخية والحضارية

د. وجيه عتيق
كلية الآداب - جامعة القاهرة

منذ بداية القرن التاسع عشر اكتشف المجتمع المصرى تخلفه الكبير عن ركاب المدنية ، ومنذ ذلك الوقت يدور البحث فى تحديد أسباب هذا التخلف وفى كيفية اللحاق بما أحرزته الشعوب الأوربية على اختلاف أجناسها من امتلاك ناصية التقدم . ومن خلال الرغبة الملحة فى تطوير المجتمع المصرى اكتشفت صفوته ان هناك علاقة وثيقة بين تحديث المجتمع وتحديد الهوية القومية ، وأن تلك العلاقة هى أهم سمات العصر الحديث . فمسألة تحديد الهوية القومية انما هى مرحلة مرت بها الدول الاوربية بشكل متفاوت زمنيا منذ أواخر القرن الثانى عشر كأساس للانطلاق فى النهضة الشاملة . أما مصر فقد عاشت هذه المرحلة فقط منذ مجئ الحملة الفرنسية .

وليس هناك خلاف على أن مسألة الهوية القومية للمجتمع المصرى منذ دخول الاسلام حتى بداية القرن التاسع عشر كانت غير مطروحة للنقاش ، حيث كان هناك شعور عام بسيادة هوية اسلامية قائمة على اعتبارات دينية . ولكن الذى حدث خلال القرن التاسع عشر كنتيجة للمتغيرات التى أحدثتها الحملة الفرنسية أنه ظهرت الرغبة من جانب صفوة المجتمع فى الوصول الى طرح جديد لهوية مصرية تقوم فى الأساس على اعتبارات وطنية .

ولذا فنحن نذهب من منطلق ان الهوية القومية المصرية التى تبلورت مع بداية القرن العشرين فى الفكرة المصرية انما هى افراز لواقع معين عايشه المجتمع المصرى منذ مجئ

الحملة الفرنسية اليه ، وفى نفس الوقت نتاج مرحلة تلمس الخصائص المشتركة لابناء هذا المجتمع . وهذه المرحلة بدأتها الحملة الفرنسية - التى هى محل دراستنا الآن - استمرت طوال القرن التاسع عشر حتى امكن الى حد ما استيضاح هذه الملامح المشتركة لابناء المجتمع المصرى .

* * *

يكاد يكون هناك شبه اجماع بين المؤرخين على أن الحملة الفرنسية على مصر ، والتى وصلتها فى ٢ يوليه ١٧٩٨م ، قد لعبت دورا بعيد الاثر والعمق فى تطوير المجتمع المصرى ، وهذا الدور يؤهلها لكى تصبح واحدة من تلك الحوادث التاريخية الفاصلة فى تاريخ المجتمعات .

ونحن كذلك نعتبر أن الحملة الفرنسية من الناحية الفكرية لعبت الدور الاول فى اضفاء سمات العصور الحديثة على الشخصية المصرية ، كما أنها وبالرغم من قصر المدة الزمنية التى قضتها فى مصر - ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تقريبا - تعد الاساس الذى قامت عليه العديد من الاحداث التاريخية التى شهدتها مصر الحديثة . وهنا تأتى أهمية الدارسة .. ونحن هنا لا نهدف الى التأريخ للحملة الفرنسية فى مصر بقدر ما نهدف الى تحليل المتغيرات التى احدثتها والبحث عن البذور التى زرعتها فى نفوس الشعب المصرى لتكون بعد ذلك جذور الفكرة المصرية .

فحتى ينمو الشعور بالهوية المصرية المشتركة بين أبناء المجتمع المصرى كان لابد من احداث العديد من المتغيرات التى قد عايشها المجتمع خلال فترة الدراسة . فى بعض الاحيان فى ضوء سياسة محددة ، وفى احيان اخرى خارج نطاقها ، وتلك المتغيرات بشتى أشكالها كانت بمثابة تمهيد للتربة المصرية لتقبل مرحلة حضارية جديدة

بدأتها الحملة الفرنسية ، وتلك المرحلة هى ما يطلق عليها النهضة المصرية الحديثة .



من الناحية السياسية يعد تغير نظرة المصريين لمفهوم السلطة اول المتغيرات التى أحدثتها الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى . فالحكم كان منذ ابعاد المصريين عنه فترات طويلة يقوم عليه الاجنبى وحده ، ولذا فى الغالب ترسخ فى ذهن المصرى ان شخص الاجنبى هو الجدير دون المصريين بأن يمارس السلطة ، وأن المصرى ما عليه الا ان يمول الحكم بحاجته من الضرائب . وبالرغم من اعتراض المصريين فى بعض الفترات على اسلوب الحاكم فى ممارسة السلطة ، فان الثقة لم تتوفر فى أى من تلك الفترات لديهم بالشكل الذى يسمح لهم بالاقدام على طلب ممارسة السلطة . وظل انعدام ثقة المصرى فى القدرة على مباشرة السلطة الكاملة ملحوظا حتى جاءت الحملة الفرنسية وأحدثت تغييرا جذريا فى علاقة المصريين بالجهاز الحاكم . ولعل هذا ما حدى بالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى أن يصور أثر مجىء الفرنسيين الى مصر بأنه " انعكاس المطبوع "(١) .

واذا كان لا يخفى علينا أهداف سياسة نابليون الاستعمارية فى استمالة الزعامات الشعبية حتى يتمكن من الاستقرار فى مصر ، وأنه لم يسمح للزعامات المصرية طوال فترة وجود الحملة الفرنسية بممارسة السلطة الكاملة ، فان اتباع قادة الحملة لسياسة التقارب مع الزعامات المصرية كانت كفيلة بتغيير نظرة المصريين الى السلطة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم . فالسلطة الاستشارية التى

---

١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الاثار فى التراجم والاخبار ج ٢ ، دار الجيل ، بيروت بدون تاريخ ، ص ١٧٩ .

عرضها نابليون على علماء ومشايخ مصر فى منشوره الاول كانت مبادرة لم يتوقعها هوءلاء العلماء والمشايخ، ولذلك لم يسعوا اليها بعد انهيار مقاومة المماليك ، بل أن القوة المنتصرة (الفرنسية) هى التى سعت اليهم بها ، وهذا هو الجديد فى الامر . فنشر قرار نابليون على الزعماء والمشايخ كان أحد مقاصده أن يبعث فى نفوسهم الثقة تجاه الجهاز الحاكم بخصوص توزيع السلطات ،فيذكر المنشور :

"من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها"(٢) .

وقد بادر نابليون بنشر هذا المنشور فى نفس يوم احتلاله للاسكندرية فى يوم ٢٧ يونيه ١٧٩٨ .

فبسرعة خاطفة وجد المصريون انفسهم وجها لوجه أمام القوات الفرنسة بعد فرار المماليك جنوبا وشرقا . وكان مطلب المصريين الوحيد من خلال زعمائهم بعد فشل المقاومة الشعبية فى الرسالة التى بعثوا بها الى نابليون هو مطلب الامان لسكان مصر ، فاذ بهم يتلقون مذكرة تفصيلية لقراره السابق بكيفية اشراك العلماء والمشايخفى السلطة . حيث أوضح ذلك المنشور الثانى فى ٢٢ يوليه :

"ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الامر"(٣)

وعلى الجانب الآخر كان مطلب نابليون أيضا بعد ان وجد أمامه الزعامات الشعبية فى المواجهة أن يستقر فى فى القاهرة دون مخاطر ، حتى يتمكن من السير فى تنفيذ

---

٢) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

٣) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

أهداف الحملة . أى انه وبالرغم من قيادته لحملة عسكرية ذات قوة ضاربة بمقياس ذلك الوقت يطلب أيضا الامان لقواته على أرض مصر . ولذا تقدم قائد الحملة بعرضه للزعامات الشعبية بالاشتراك فى تدبير أمور البلاد . كما يعكس هذا روءيته لصور التعاون بين الجانبين فى مباشرة السلطة ، تحقيقا لمطلب الامان للطرفين .

تبادل الطرفان المصرى والفرنسى الضمانات الاولية لتوفير سبل الامان ، فذهب عن الجانب المصرى وفدا بزعامة الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى لمقابلة نابليون فى الجيزة ، وفى هذه المقابلة التى تخللها العشاء طلب نابليون من الوفد أن يكتبوا الى المشايخ الكبار الفارين خارج القاهرة بالحضور للاشتراك فى الديوان، وطلب الوفد من نابليون أن يحرر عهدا بالامان حتى يطمئن الناس(٤) . وهنا نجحت خطة نابليون فى الدخول الى القاهرة فى أمان ودون أن يواجه بعض من الصعوبات التى واجهها عند دخول الاسكندرية . فعاد بعض كبار المشايخ الفارين الى القاهرة مرة أخرى مثل الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وغيرهم من المشايخ ، ودخل الفرنسيون المدينة منذ ٢٤ يولية ١٧٩٨ "ومشوا فى الاسواق من غير سلاح ولا تعديل ، صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه باغلى ثمن "(٥) دون القيام بنهب أو سلب عند دخول الاسواق أو البيوت .

وبهذه الخطة اجتذب نابليون قلوب المصريين الى السلطة ، ولم تعد مصدرا للسلب والنهب والظلم ، فقد لاحظ المصريون أنها يمكن أن تصبح محل تفاهم وتعاون يقوم على أساس المصلحة المشتركة وليست لمصلحة الحاكم وحده . وأصدر نابليون فى ٢٥ يوليه أى فى اليوم الثانى لدخوله القاهرة

---

٤) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ .
٥) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ .

أمره لتألف ديوان القاهرة ثم فى ٢٧ يوليه لتأليف دواوين الاقالم .

ونلاحظ على هذه المرحلة المتقدمة من دواوين الحملة الفرنسية الآتى :

١ - أن هذه الدواوين قد ضمت العلماء والمشايخ من بين المصريين الاصليين ، وأنها تعد أول تجمع سياسى للوطنيين المصريين لممارسة السلطة الاستشارية أو المعاونة وأول تجمع على مستوى السلطة لا يضم من بين النواب غير المصريين .

٢ - أن هذه الدواوين قد تم تشكيلها على أساس مصدر سياسى هام من مصادر تشكيل السلطة وهذا المصدر هو نظام التشاور ، فلم تعتمد الحملة الفرنسية على مصدر القوة العسكرية عند تشكيل ديوان القاهرة او غيره من الدواوين . حيث تم فى اجتماع عام للمشايخ والوجاقلية بحضور نابليون التشاور فيما بينهم حول أشخاص أعضاء ديوان القاهرة حتى تم الاتفاق حول أسماء الاشخاص العشرة الذين تكون منهم الديوان[٦] . ويذكر الرافعى أن هذه الطريقة تشبه طريقة الانتخاب ذى الدرجتين ، وهذا فى الحقيقة تشابه فى محله[٧] .

٣ - قام الديوان فور تشكيله بمباشرة سلطة مدنية كبيرة عند اختيار رجال الادارة فى القاهرةفقاموا باختيار أغا الشرطة وأغا المالية وغيرهم من بين بيوت المماليك القديمة المشهود لهم بالامانة والكفاءة وعدم الظلم ، بالرغم من تعجب الفرنسيين لاختيار أعضاء الديوان لمثل هؤلاء المماليك فى هذه المناصب . وكانت وجهة نظر أعضاء

---

٦) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .
٧) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٩٨ .

الديوان أن "سوقة مصر" لا يهابون الا هوءلاء الاتراك[٨] .

ويعكس اختيار العلماء والمشايخ من أعضاء الديوان لمماليك فى هذه المناصب حقيقة الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت من أن المصرى غير موءهل لممارسة السلطة بشكل عام والسلطة التنفيذية منها بوجه خاص ، فهذا الشكل من أشكال السلطة يجب أن يتولى أمرها غير المصريين ، وعند ذلك سوف تصبح السلطة عمليا محل خوف ورهبة فى نفوس من تسوله نفسه للخروج عن النظام ، فى حين أنه اذا تولى أمرها مصرى فلن تلقى الاحترام الكافى عند أهل مصر بشكل عام . ولذا كان اختيار أشخاص الادارات من بين بيوت المماليك القديمة . وهذا يوءكد أن الاحتلال الاجنبى طويل الامد لمصر ، وشغله الدائم لمراكز السلطة ، قد رسخ الاعتقاد عند المصريين بأن السلطة والسياسة انما هى امور ليس للمصرى قبل بها ، بل أنها اولا واخيرا مسئولية الحاكم الاجنبى . ومن الملاحظ أن مثل هذا الاعتقاد قد ظل ثابتا فى الاذهان حتى ساعدت الحملة الفرنسية على تفتيت اركانه ، وأعادت الى المصريين ثقتهم فى التعامل مع السلطة .

وقد ضرب نابليون مثلا فذا فى أسلوب ممارسة السلطة أمام أعين المصريين وذلك عند اجتماع المجلس العلمى المصرى لاختيار الرئيس فى أولى جلساته فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ ، حيث قرر أعضاء المجلس تعيين المسيو مونج Monge العالم الرياضى رئيسا للمجمع ، وأن يكون نابليون - القائد العام لجيش الشرق - نائبا للرئيس[٩] . وهذا الموقف من جانب نابليون ، الذى يوءكد تفضيل أهل الخبرة والتخصص عند شغل المناصب لابد وأنه كان محل تأمل عن جانب

---

٨) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ .

٩) صلاح الدين البستانى ، صحف نابليون فى مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ لاديكاد ابجيبسيين "دار العرب للبستانى" القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٦

أعضاء الديوان من المصريين ، وتعلموا مبدأ جديدا من مبادئ الحكم هو مبدأ توزيع السلطات ، وعدم تركيزها فى يد الحاكم ، كأحد مبادئ الحكم الحديث فى ممارسة السلطة . كما اتضح لهم أن أهل العلم والفكر محل تقدير واحترام قادة الحملة الفرنسية .

ونلاحظ هنا ان العالم مونج لمنزلته وعلمه قد عينه نابليون مع برتوليه Berthollet بصفة " قوميسيرين" فى الديوان العام الذى تألف من ٢٥ نائبا عن القاهرة ومختلف أقاليم مصر حتى يستفيد أعضاء الديوان العام من أسلوبهم المتطور فى مُباشرة السلطة . وفى رسالة واضحة من نابليون الى العالمين بين لهم فيها الغرض من تألف الديوان بشكل عام فى مصر . يقول نابليون فى رسالته "ان الغرض من عقد "الديوان العام" هو تعويد الاعيان المصريين نظم المجالس الشورية والحكم فقولوا لهم انى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آراءهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية" (١٠) .

ومن الجدير بالاشارة أن الحملة الفرنسية كونهاطلائع الثورة الفرنسية وممثلة لمبادئ تلك الثورة فى الشرق ، كانت ترى أن هناك قدرا من المسئولية الحضارية يقع على عاتقها خلال وجودها فى مصر . وهذا يفسر لنا رغبة نابليون الحماسية فى تعويد الاعيان المصريين على نظم الحكم الحديثة منذ مجيئه الى مصر .

وكان مبدأ الانتخاب أحد المبادئ التى روعى تطبيقها من قبل قيادة الحملة عند تأليف الديوان العام ، وقد أصدر نابليون قراره فى ٤ سبتمبر بتكوين ديوانا عاما يحل محل النظام السابق للدواوين ، ويشمل النظام الجديد

---

١٠) الرافعى ، الحركة القومية ، جـ ١ ، ص ١٠٥ .

نواب القاهرة والاقاليم معا . وهي خطوة الى الامام في تطور نظم الحكم روعي فيها توحيد الديوان في شكل مجلس موحد يمكن خلاله معالجة المشاكل في اطار عام دون الفصل بين القاهرة والاقاليم . وفي ٦ أكتوبر عقد الديوان العام أولى جلساته لانتخاب الرئيس . وأعتقد أعضاء الديوان أن الانتخاب يمكن ان يتم بالتصويت العلني لانتخاب رئيس المجلس فارتفعت الاصوات تطالب بالشيخ الشرقاوي رئيسا ، الا أن الجانب الفرنسي وخاصة العالم مونج المراقب لهذا الاجتماع طلب أن يكون الانتخاب بالاقتراع السري "فعملوا قرعة بأوراق فطلع الاكثر على الشيخ الشرقاوي" (١١) .

ويفهم من وصف الجبرتي لهذه الجلسة أنه كان هناك تنافس على رئاسة الديوان بين الاعضاء . فمما لا شك فيه أن الاقتراع السري كان هو الحل الذي يكفل وحدة المجلس ، والمخرج لعدم فضح اتجاهات أعضائه ، بالتالي عدم انقسامه عند ممارسة نشاطه العملي . وهذا يفسر تمسك الجانب الفرنسي بسرية انتخاب الرئيس ففاز الشيخ الشرقاوي بأغلبية أصوات الاعضاء . من ناحية أخرى فان هذا الاقتراع السري يؤكد أيضا لاعضاء الديوان العام عدم تدخل السلطة في اختيار رئيس الديوان ، وأن هذا الاختيار انما تم وفق مشيئة اغلبية الاعضاء دون ضغط من قبل الفرنسيين .

بعد ثورة القاهرة الاولى التي اشتعلت في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ لاسباب دينية واجتماعية بالدرجة الاولى ، كان من المتوقع أن يلجأ نابليون الى الغاء كافة الاجراءات السياسية الرامية الى تحديث نظم الحكم في مصر وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ومن تلك الاجراءات انشاء الديوان العام . ولكن فاجأ نابليون المصريين مرة أخرى

---

١١) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

بقرار اعادة العمل بالديوان بعد أن تعطل بسبب الثورة لمدة شهرين . بل ان قرار اعادة الديوان قد خطا خطوة الى الامام فى تطوير نظم الحكم ، حيث نص اعلان نابليون الى أهالى القاهرة الذى صدر فى ٢١ ديسمبر فى بنده الاول على أن ينشأ فى القاهرة ديوانا كبيرا ويسميه الجبرتى "الديوان العمومى" وكون من ٦٠ عضوا من العلماء ومشايخ الحرف فى مصر . ثم نص البند الثانى على أن ينتخب أعضاء الديوان الكبير من بينهم ديوانا صغيرا "الديوان الخصوصى" أو "الديوان الدعومى" موءلف من ١٤ شخصا(١٢) .

أوجد اعلان نابليون ديوانين مختلفين فى طريقة التأليف والوظيفة غير متشابهان فى الوظيفة . فقد قام قادة الحملة بتعيين ٦٠ عضوا فى الديوان الكبير دون اجراء انتخاب بين المصريين لاختيار هوءلاء الاعضاء ، ويعد هذا الاجراء أحد ردود الفعل ازاء قيام الثورة . فمما لا شك فيه أن تعيين الفرنسيين لهوءلاء الاعضاء قد تم فى ضوء مواقفهم أثناء الاحداث التى شهدتها القاهرة . كما ان الديوان كانت له وظيفة محددة وهى انتخاب أعضاء الديوان الصغير خلال ثلاثة أيام لا يعود بعدها الى الاجتماع الا بدعوة غير عادية .

أما الديوان الصغير فانه تألف بطريقة الاقتراع وبالاغلبية المطلقة ، وأن يصدق القائد العام على نتيجة هذا الانتخاب كاجراء وقائى حتى يتألف هذا الديوان من العناصر المتعاونة مع السلطة الفرنسية ، أما وظيفة الديوان الصغير فهى الاجتماع يوميا للاطلاع بكافة الاعمال الخاصة بتحقيق العدل ورفاهية الاهالى ومصالح الجمهورية الفرنسية(١٣) .

---

١٢) البستانى ، صحف نابليون "كوريبه دى لبجيبت"ص ٨٣، ٨٤.
١٣) البستانى ، "كوريبه دى لبجيبت" ص ٨٤ .

ومن الملاحظ أن رد فعل السلطة الفرنسية الغاضب تجاه اشعال الثورة قد انعكس على اجراء تأليف الديوان الكبير والتصديق على انتخاب الديوان الصغير ، وهى تعد فى ذلك الوقت من الاجراءات الشكلية . فلم ينسحب رد الفعل الى الغاء المبدأ من الاساس أو صرف النظر عن الهدف منه ، بل اقتصر على تعديل طريقة الوصول الى الهدف وهو اقامة جسور الثقة بين الزعامات الشعبية وبين السلطة وتعويد بعض الزعامات الشعبية على تولى درجات من السلطة . وهذا ما نجح فيه قرار اعادة الديوان بعد الثورة بشكله الاخير ، حيث ارتفع قدر الثقة عند المصريين فى نوايا السلطة الفرنسية تجاه أسلوب الحكم من ناحية وفى مقدرة الزعامات الشعبية على مباشرة العمل السياسى من ناحية ثانية .

وتأكيدا لدور أعضاء الديوان الصغير (الخصوصى) فى توجيه الاحداث فقد نشروا بيانا على الاهالى فى ٢٨ يناير ١٧٩٩ للحض على الهدوء والسكينة ، وابلاغهم بالعفو الشامل الذى أصدره نابليون عمن شارك فى الثورة ، وطالب البيان كل "من كانت له حاجة فليأت الى الديوان العام بقلب سليم" (١٤) .

وتأكيدا للمهمة الحضارية التى اضطلعت بها القوات الفرنسية فى الخارج كممثل لمبادىء الثورة فى ذلك الوقت التزم خلفاء نابليون فى مصر بنظام الديوان المؤلف من العلماء والمشايخ المصريين . وكان الديوان الكبير والصغير قد الغى عندما بدأ الفرنسيون فى الاستعداد للرحيل بعد توقيع معاهدة العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ . الا أنه بالرغم من فشل تنفيذ بنود هذه المعاهدة وقيام ثورة القاهرة الثانية ومقتل كليبر ، فقد أعاد منو تأليف

---

١٤) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ .

الديوان مرة أخرى من تسعة أعضاء برياسة الشيخ الشرقاوى.(١٥)
وكان هذا الديوان اخر دواوين الحملة الفرنسية .

* * *

من الناحية الاقتصادية فان الاهتمام بالتجارة وما ترتب على هذا الاهتمام من نتائج بعيدة المدى يعد المتغير الثانى الذى أحدثته الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى .

وفى الحقيقة لم يقتصر اختلاف نشأة الفكر القومى الحديث فى مصر عنه فى أوربا على الفارق الزمنى ، بل هناك فارقا آخر وهو الفارق الطبقى ، يعود الى اختلاف تكوين الطبقة الوسطى فى مصر عنه فى أوربا . ففى الوقت الذى تحملت فيه الطبقة الوسطى (البورجوازية) بصفة عامة والشريحة التجارية القوية فيها بصفة خاصة عبء ازكاء الروح القومية فى البلدان الاوربية ، نجد أن هذه الطبقة فى مصر عند مجئ الحملة الفرنسية عليها اما انها كانت هشة التكوين وتقوم اساسا على طوائف الحرف من سكان المدن الكبرى ، أو أنها لا تتكون فى معظمها من المصريين الاصليين ، أو أنها تفتقد لوجود الشريحة التجاريةالقوية ، صاحبة رأس المال الذى يساند الفكر القومى ، واذا اعتبرنا تجاوزا أن هناك طبقة وسطى فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر تتكون من سكان المدن ، فان الشريحة المثقفة (العلماء والمشايخ) كانت أقوى شرائح هذه الطبقة ، وأن هذه الشريحة المثقفة هى التى تلقفت بذور الفكرة المصرية . ويعد افتقار الطبقة الوسطى للشريحة التجارية القوية أحد نقاط ضعف الفكر القومى المصرى الحديث وأدت الى تحجيم الفكرة المصرية وحصرها داخل شريحة مصرية ضيقة خلال القرن

---

١٥) الرافعى ، الحركة القومية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ .

التاسع عشر ، ولذا لم تجد هذه الشريحة المثقفة الدعم المادى الكافى الذى ترتكز عليه فى نشر الفكرة المصرية بين باقى أبناء المجتمع المصرى .

ولقد حاولت الحملة الفرنسية خلال فترة وجودها لفت نظر المصريين الى أهمية مركز مصر التجارى ، كذلك حاولت انعاش التجارة الداخلية والخارجية لمصر ، كذلك اتخذت العديد من الاجراءات التى ترمى الى تقوية الشريحة التجارية المصرية . فالحملة الفرنسية التى هى من نتاج الثورة الفرنسية (البورجوازية) كانت تضع الاعتبار التجارى نصب أهم أهدافها . واذا كان لا يغيب عنا فشل الحملة فى ايجاد الطبقة المصرية الوسطى المنشودة بسبب استمرار حالة الحرب خلال فترة وجودها ، فانها اصابت قدرا من النجاح فى مهمتها فى ضوء سياستها التجارية فى مصر .

أوضح منشور نابليون بتاريخ ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ الى جنوده مهمة الحملة الفرنسية على مصر ، مخاطبا اياهم بقوله " انكم ستخوضون غمار حملة لها اثار لا تحصى فى حضارة العالم وتجارته ... ولا تنقضى أيام معدودات على نزولنا الى البر حتى نمحق المماليك الذين يناصرون التجارة الانجليزية "(١٦) .

ونلاحظ على المنشور الآتى :

١ - ان هذا المنشور الذى صدر قبل وصول الحملة الى الاسكندرية ، جاء فى توقيت زمنى يعكس أهمية تحديد الاهداف قبل بدء المهمة أمام الجنود ، كما يعكس أولوية الهدف التجارى بين الاهداف .

٢ - ان التنافس التجارى بين فرنسا وانجلترا يقتضى

---

١٦) الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

القضاء على سيطرة المماليك على التجارة فى مصر ، وأن سيطرة فرنسا على التجارة العالمية سوف يتم حسمها على أرض مصر .

كما أشار منشور نابليون الاول الموجه الىالمصريين الى أسباب انهيار تجارتهم بقوله " وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع منالمماليك(١٧)!

وبذلك تكتمل عناصر خطة الحملة الفرنسية من الناحية التجارية . فقد تم تحديد الغاية . وتحديد الارض التى سوف تشهد تحقيق الغاية . تم تحديد الوسيلة أو الطريق الذى سوف تتبعه الحملة للوصول الى تلك الغاية التى يمكن اجمالها فى احياء التجارة المصرية ، لخدمة المصالح الفرنسية التجارية .

وكانت مصر بالرغم من اكتشاف طريق الرجاء الصالح ما زالت تعتبر محط أنظار الدول التجارية ، وخاصة تلك التى تعتبر قوة النشاط التجارى هو المدخل الطبيعى لتحقيق النفوذ الدولى ، وفى مقدمة تلك الدول انجلترا وفرنسا . كما أن أهمية مركز مصر الجغرافى للتجارة الدولية كان قد بدأ يشد انتباه الساسة الاوربيين منذ أن طرحت فى أوربا فكرة توصيل مياه البحر المتوسط بالبحر الاحمر . وهذا يفسر لنا تخوف انجلترا على مستقبلمصالحها التجارية العالمية ، ومن ثم اصرارها على اخراجالفرنسيين من مصر . كما يفسر لنا اختيار فرنسا لمصر على وجه الخصوص دون بلدان الشرق كهدف للحملة الفرنسية .

نشرت صحيفة "كوريه دى ليجيبت" الصادرة فى مصر على عهد الحملة فى عددها الرابع رسالة عشر عليها بعد

---

١٧) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

بعد تحطم سفينة حربية بريطانية بالقرب من مالطة وموجه الى احد أعضاء مجلس العموم البريطاني ، تكشف عن أهمية موارد مصر الاقتصادية فى أعين البريطانيين .وتذكر الرسالة التى كتبت بعد وصول الحملة الفرنسية الى مصر بوقت قليل : "أما غزو مصر .. فلا يمكن لاى مواطن بريطانى أن يتأمله ويتأمل نتائجه الوخيمة دون أن يتحرك الدم فى عروقه . ماذا ؟ هل تصبح هذه البقعة من العالم ملكا للفرنسيين . هذه البلاد وجيرانها التى تغذى الامبراطورية العثمانية بأثرها والكتان الذى يمون أساطيلها ، بسيطر عليها أعداؤنا الذين سيمتلكون وحدهم من السكر وغيره من المواد اكثر مما يوجد منها فى جميع جزرنا ، وقد أصبح البن والمطاط وتجارة الجزيرة العربية والبحر الاحمر بأكملها ملكا خاصا للفرنسيين"(١٨) .

وكما استرعى جيش الشرق انتباه أوربا بأثرها ، وكانت الحملة حديث الناس هناك ، الامر الذى جعل أغلب الصحف الاوربية يوميا ولمدة ثلاثة شهور تتابع بشغف اخبار الحملة فى مصر التى "سوف تكون أغنى مركز للتجارة فى العالم ، وأنه اذا ما ظفرت بادارة ثابتة ومنظمة بدلا من الحكم الظالم للمماليك المغتصبين فانها سوف تصل الى أعلى درجات الازدهار والرخاء . واذا تمكنت فرنسا من اسعاد الشعب فستفتح لنفسها ينابيع لا تنضب من الكنوز والاموال" على حد ما جاء فى صحيفة "كورييه دى ليجيبت"(١٩)

وتتضح لنا مما ذكرته "كورييه دى ليجيبت" الصلة القوية بين سياسة انعاش الحالة الاقتصادية للشعب وسياسة تأمين المصالح الفرنسية ، فقادة الحملة الفرنسية يرون فى اسعاد الشعب المصرى مكاسب لا تحصى لفرنسا ، وهذا ما

---

١٨) البستانى ، "كورييه دى ليجيبت" ، ص ٧ .
١٩) البستانى "كورييه دى ليجيبت" ، ص ٥٤ .

أرادت الصحيفة اظهاره للفرنسيين بصفة عامة ولجنود الحملة بصفة خاصة . واذا كان لا يخفى علينا الجانب الدعائى لصحيفة " كوريية دى لجيبت" ، حيث أنها كانت جريدة سياسية موجهة لاعضاء الحملة وليس للمصريين ، فان ذلك أيضا يعنى ان الهدف الدعائى للصحيفة لم يستهدف التغرير بالمصريين . بل يستهدف توجيه جنود الحملة لاهمية اسعاد الشعب المصرى فى تنمية الموارد الاقتصادية . ومن الجدير بالتنويه ان الصحيفة الاخرى للحملة وهى "لاديكاناجيبسين" كانت اكثر تخصصا فى الجوانب العلمية والاقتصادية حيث صدرت لنشر أبحاث المجمع العلمى المصرى ومناقشات أعضائه وخاصة تلك التى تدور حول موارد مصر الاقتصادية . وتلك كانت السمة الغالبة لنشاط علماء المجمع .

وقامت الحملة فى مصر باجراء بعض الاصلاحات الاساسية التى تعتبر مطلب أساسى لنجاح عملية انعاش التجارة المصرية واصدار بعض القوانين التى تنظم المعاملات التجارية . ففى منتصف سبتمبر ١٧٩٨ أصدر نابليون قراره بانشاء مكتب تسجيل وتوثيق فى كل عاصمة من أقاليم مصر ، يكون مهمته تسجيل مختلف عقود البيع ونقل الملكية والمبادلات التجارية والهبات الادارية من قبل الادارة مقابل رسوم محددة .وبذلك تعد الحملة أول من قام بعملية انشاء مصلحة تسجيل وتوثيق المعاملات .

وبالرغم من أن هذا القرار قد أشاع قدرا من التذمر بين أهالىَ مصر لانه يضع نظاما جديدا عليهم لاثبات الملكية بالتسجيل والتوثيق ، كما اعتبروه وسيلة من وسائل السلطة لزيادة مواردها المالية ، ومن هنا قل تجاوبهم مع هذه الاصلاحات عن القدر المطلوب ، فان هذا القرار يعد خطوة أساسية لاستقرار المعاملات التجارية ، واشاعة الثقة فى هذه المعاملات باكسابها القوة القانونية . كما أن وجود

مثل هذه الاجراءات اليوم بمنع التعدى والسطو على أملاك الغير او الاملاك العامة . وتلك كانت أهداف القرار الذى أصدره نابليون حيث ذكر أن الادارة لن تعترف بالممتلكات الخاصة سواء الثابتة منها أو المنقولة التى لا يكون لها سند ملكية مسجل ، وأن الممتلكات الاخرى التى ليس لها سند ملكية سوف تعد ممتلكات عامة ويطلق عليها (ممتلكات أهلية) ، وطالب القرار أهالى مصر الذين لم يكن لديهم عقود ملكية سرعة التقدم الى هذه المكاتب لاثبات ملكيتهم وبالتالى الحصول على عقود موثقة [٢٠] .

ومن هذه الاجراءات أيضا تشكيل لجان هندسية لترقيم منازل القاهرة ، بوضع رقم على كل منزل ، وانشاء المحاكم التجارية فى القاهرة وغيرها من المدن التجارية للفصل فى المنازعات التى تنشب بين التجار . وكان مقدرا لهذه الاجراءات أن تحقق الامل المرجو منها لولا أن قيام ثورة القاهرة الاولى قد أعاقت خطة تنفيذها .

كما أمر بونابرت بانشاء دار للضيافة فى القاهرة يأوى اليها التجار الذين تضطرهم تجارتهم الى البقاء فى المدينة أو أولئك المسافرون عبرها ، وكان الغرض من انشاء دار الضيافة هو تقديم الخدمات الصحية وغيرها الى التجار حتى تتمكن القاهرة من أن تجنى أقصى فائدة من مركزها الوسط بين شعوب الشمال وشعوب أواسط أفريقيا بالاضافة الى وقوعها على طرق المواصلات الهامة بين أوربا وآسيا [٢١] .

كذلك عزمت الحملة على تنفيذ بعض مشروعات الملاحة النهرية والبحرية . وكانت ترعة الرحمانية تجف أغلب فصول السنة ولا تصلها مياه النيل الا مدة الفيضان ، فارتئ

---

٢٠) البستانى ، "كورييه دى ليجيبت" ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
٢١) البستانى ، "كورييه دى ليجيبت" ، ص ٦٤ .

قيادة الحملة اجراء بعض الاصلاحات التى تجعل المياه تجرى فى الترعة طوال العام وبكمية تسمح للسفن الملاحة فيها بصفة مستمرة "ويكون فى ذلك ميزات قيمة بالنسبة للتجارة فى الاسكندرية والقاهرة واقليم البحيرة"(٢٢) . وقد كانت التجارة قد انتعشت فى الاسكندرية عندما امكن تسيير السفن لمدة شهر كامل ، ومن هنا قلنا أن نتصور تقدم التجارة فى حالة تسيير السفن طوال العام كما كانت تهدف الحملة .

ويعد مشروع شق قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر لخدمة الملاحة البحرية من أهم أهداف الحملة فى مصر ، وقد أجريت دراسات عديدة حول طرق انشاء هذه القناة وكان التصور المحتمل أن يعاد شق هذه القناة من السويس الى الاسكندرية عبر نهر النيل . ولهذا الهدف شكلت لجنة من كبار مهندسى الحملة برياسة المهندس ليبير Lepere لتقفى اثر القناة القديمة التى كانت تصل قديما (خليج أمير المؤمنين) بين القاهرة والسويس . وقد قامت اللجنة منذ منتصف يناير ١٧٩٩ بدراسات أولية ناجحة ، كذلك أجرت هذه اللجنة دراسات حول احتمالية شق قناة مباشرة من البحر المتوسط الى البحر الاحمر عبر البحيرات المرة (وهى قناة السويس التى نفذت بعد ذلك عام ١٨٦٩) . وفى المشروع الذى نشره نابليون بمناسبة سفره الى الشام أفصح الى أهالى مصر عن أهم أهداف الحملة وهو تيسير الملاحة البحرية أمام التجارة ، حيث جاء فى المنشور بخصوص سفر نابليون الى الشام "ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل الى جسر السويس لتخفيف أجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز الافخم وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطرق وتكثر عليها أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق"(٢٣) .

---

٢٢) البستانى ، "كوربيه دى ليجيبت" ص ٥ .
٢٣) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

وهناك دلالة اخرى تعكس اهتمام الحملة بالتجارة فى مصر وهى تاليف الديوان الكبير من اعضاء يعمل معظمهم بمختلف أنواع النشاط التجارى ، وهذا يعنى أن التجارة لها الاولوية عند تطوير نظم الحكم وتشكيل السلطة ، وترجوا الحملة ان يقوم التجار الاعضاء وهم الاغلبية بجانب العلماء ومشايخ الازهر برعاية النشاط التجارى وآن ينشط الديوان فى حماية المصالح التجارية .

عملت الحملة آيضا على استتباب الامن على الطرق حتى تتمكن القوافل التجارية من الانتقال والسفر من مكان الى مكان دون آن تتعرض للاغارة والنهب خلال الرحلات . وقد بعث نابليون برسالة الى شريف مكة فى الحجاز يطلب فيها طمئنة جميع التجار فى انحاء الجزيرة العربية بأن التجارة فى مصر آصبحت منذ مجيء الحملة فى مأمن ممن يحاولون النيل منها . وجاء رد الشريف على رسالة نابليون يعكس تخوف تجار الحجاز ، لما كانت التجارة تلقاه فى عهد المماليك يقول الشريف فى رده "أما فيما يختص بما ذكرتموه عن تشجيع تجارة البن فاعلموا ان تجار الحجاز ما زالوا يخشون من مشاكسات المماليك لهم . واذا رغبتم فى تنمية هذه التجارة ينبغى عليكم أن تتخذوا بعض تدابير من شأنها ادخال الطمانينة الى قلوبهم ، ومصارحتهم بالرسوم التى ستطلبونها منهم على كميات البن أو غير ذلك فسوف ترونهم يهرعون اليكم جموعا وفرادى ، والا فسيمنعهم خوفهم من المشاغبات والمشاكسات عن الحضور الى مصر" (٢٤) .

وكان عدم استتباب الامن على الطرق من المشاكل الرئيسية التى تهدد تجارة مصر الداخلية والخارجية بعدم الازدهار . ففى تقرير كتبه المسيو "جيرار" أحد أعضاء

---

٢٤) البستانى ، "كوربيه دى ليجيبت" ، ص ٣٦ .

الحملة بعد عودته الى فرنسا ، وصف حالة التجارة الداخلية فى ظل انشغال المماليك عن نشر الامن على طرق التجارة المصرية بقوله "كان يمكن لنشاط التجارة الداخلية فى مصر أن يتضاعف لو أن مختلف طرق المواصلات كانت آمنة وكان استخدامها ممكنا من مكان لآخر"(٢٥) . كما يحدد التقرير تحديدا دقيقا حل أزمة التجارة المصرية آنذاك عندما أضاف "ان اقامة نظام افضل للأمور لتأمين الطرق لن يساهم فقط فى ازدهار التجارة الداخلية ، وانما سوف يساهم أيضا بتسهيل تموين موانى مصر بمنتجات البلاد ، فى اتساع نطاق تجارتها الخارجية"(٢٦) . وتلك كانت السياسة التى ترمى اليها الحملة الفرنسية فى مصر .

ولم تقتصر الرغبة فى انعاش التجارة على تأمين الطرق وفتحها أمام تجارة البن أو قوافل دارفور وسنار وفزان وغيرها من القوافل التجارية التى كانت ترد فى بعض الاحيان محملة بالبضائع الداخلية من أفريقيا والتى يباع كميات منها الى أوربا ، بل أن الامر كان يتطلب أيضا ازالة أسباب الشكوى الشبه دائمة من جانب التجار الاجانب لما يلاقونه من عنت وظلم من جانب المماليك . وتتمثل هذه المظالم فى حصول المماليك على سلع لا يسدد ثمنها على الاطلاق ، أو فى اقتراض أموال لا يبالون بردها . كما كان يزج بهؤلاء التجار فى بعض الاحيان فى السجون لارغامهم على شراء حريتهم بدفع مبلغ من المال يتفاوت مقداره للخروج من السجن . وقد أدى هذا المسلك من جانب المماليك تجاه التجار الفرنسيين على سبيل المثال الى عودة القنصل الفرنسى فى مصر المسيو "ماجالون M.Magallon " الى فرنسا وقطع الصلات التجارية بين فرنسا ومصر قبل مجىء الحملة(٢٧) .

---

٢٥) زهير الشايب ،وصف مصر جـ ٤، مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢٣٤ .
٢٦) الشايب ، جـ ٤ ، ص ٢٣٤ .
٢٧) الشايب ، جـ ٤ ، ص ٣١٥ .

واذا كانت سياسة الحملة التجارية بشقيها الداخلي والخارجي في مصر لم تؤت ثمارها سريعا بسبب دخول الحملة نفسها مرحلة عدم الاستقرار منذ سفر نابليون وما ترتب على ذلك من عدم تتابع الاجراءات التجارية بنفس قوة الدفع التي كانت قد بدأت بها الحملة عهدها ، الا ان نتائج هذه السياسة ظهرت في مرحلة لاحقة بدأها محمد على بالسير في نفس السياسة التجارية ، كما أدت الى نمو الطبقة الوسطى التي قد لفت نظرها الى أهمية موقع بلادهم الجغرافي وغناء مواردها .

* * *

كان المتغير الاجتماعي الذي أحدثته الحملة الفرنسية - كرأس جسر للمدينة الاوربية الحديثة - هو المتغير الثالث الذي يعد انقلابا في العلاقات الاجتماعية بكل المقاييس في مجتمع شديد المحافظة مثل المجتمع المصري . أسفر هذا المتغير عن نتائج سريعة في صورة اكتساب رؤية جديدة لعلاقة الرجل بالمرأة ، وتقليد مسلك الفرنسيين في بعض الاحيان ، وادخال عادات مستحدثة . كما كان له نتائج أخرى بعيدة المدى تتلخص في انفتاح اجتماعي ، من جانب الصفوة المصرية بصفة خاصة ، على انماط الحياة الاوربية .

ومن منطلق ان التغيير الاجتماعي ضرورة اولية لانجاح التحول الفكري في المجتمعات فقد بذل قادة الحملة الفرنسية في مصر جهدا ملموسا من أجل اكساب سكان القاهرة على وجه الخصوص عادات وقيم اجتماعية جديدة ، وقد برز هذا الهدف بوضوح في مشروع انشاء حديقة على الطريقة الفرنسية في ميدان الازبكية تكون وسيلة "لجلب سكان المدينة ونسائها للاختلاط بمجتمعنا والاقتباس من عاداتنا واذواقنا الفرنسية" (٢٨)

---

٢٨) البستاني ، "كوريبه دى ليجيبت" ، ص ٣٦ .

وكان من الطبيعى أن يكون التغيير الاجتماعى فى القاهرة محل عناية الفرنسيين فهى مركز السلطة وسكانها أكثر قبولا للتغيير شأن سكان المدن الكبرى ، كما أن القاهرة فى الغالب مصدر اشعاع فكرى وتأثير فى باقى أقاليم مصر . ولذا فان تغيير العلاقات الاجتماعية من علاقات تتميز بالانغلاق التام وتقوم أساسا على دور الرجل الى علاقات أكثر مرونة واكثر استجابة لفكرة المساواة كان لابد وأن تتأثر بها باقى أقاليم مصر من خلال القاهرة ، فالمجتمع المصرى بصفة عامة كان شديد الحساسية والرفض للمؤثرات الاجنبية ، ومدينة القاهرة تكون فى العادة أقل مناطق الرفض بالرغم من وجود قطاع من السكان يخشى من عواقب التغيير الاجتماعى .. ولعل الصعوبة الرئيسية التى تواجه قضية التغيير الاجتماعى فى المجتمع المصرى تكمن فى صعوبة ايجاد السبيل الذى يمكن من خلاله توطيد قيم وسلوكيات وعادات تعين المجتمع على اجتياز مرحلة التخلف وتحقيق النهضة . دون أن يؤدى ذلك السبيل الى الاخذ بما لدى المجتمعات المتقدمة من علاقات اجتماعية تخالف التراث الاجتماعى للمجتمع المصرى .

ولعل هذه الصعوبة هى التى وقفت أمام المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى حائلا فى فهم سلوك الفرنسيين الاجتماعى وتشبه بعض المصريين بهم فى القاهرة ، وقد أدى ذلك الى تناقض موقف المؤرخ الجبرتى تجاه الفرنسيين ، ففى الوقت الذى يعجب بدقة نظامهم ومهارتهم العلمية عندما زار المجمع العلمى الفرنسى بالقاهرة ، نجده يستهجن خروج نسائهم الى شوارع القاهرة بصورة تخالف تقاليد المجتمع المصرى واختلاطهم بالمصريين . ويصف الجبرتى ما أصاب مجتمع النساء فى القاهرة من خروج "غالبهن عن الحشمة

والحياء"(٢٩) بعد أن شاهدوا خروج بعض الفرنسيين من الضباط والجنود مع نساوءهم الى الشوارع " وهن حاسرات الوجه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشمير والمذركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقنها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش فتداخلن معهم "(٣٠) ومن وجهة نظر الجبرتى بحكم انتمائه الى مجتمع شديد الحساسية لكل ما يخالف تراثه فان كل من استجاب للمؤثرات الفرنسية هم من حرافيش العامة وأهل الهوى الاسافل من سكان القاهرة ٠

وبغض النظر عن وصف الجبرتى للشريحة الاجتماعية التى تأثرت بالفرنسيين فهناك العديد من الشواهد التى أوردها الجبرتى نفسه التى نستشف منها أن التأثر بالفرنسيين والاختلاط بهم كان أعمق من ذلك بكثير ، الامر الذى أدى الى تكرار حادث زواج النساء المسلمات من بنات أعيان القاهرة من ضباط وجنود الحملة الفرنسية وسلك النساء المسلمات بعد الزواج من الفرنسيين نفس مسلك الفرنسات وتزينوا بزيهم ومشوا مع أزواجهن حكام الاخطاط للنظر فى أمور الرعية والاحكام العادية والامر والنهى.(٣١) كما كانت حالات ارتباط بعض الرجال المصريين من غير المصريات قديمة ومتكررة ، وهذا يوءكد عدم سطحية اختلاط المصريين بالاجانب من الفرنسيين وغيرهم ، ويذكر لنا الجبرتى فى ترجمته عن الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالجوهرى وهو من علماء الازهر أنه تزوج بابنة الخواجة الكريمى - الذى لا نعرف على وجه التحديد جنسيته - وسكن بدارها المجاورة

---

٣٠) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ ٠
٣١) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

لـب والده .(٣٢)

ولابد وأن خروج المرأة المصرية فى القاهرة للمشاركة فى الاعياد أثناء تواجد الحملة الفرنسية فى مصر سواء الاعياد المصرية مثل وفاء النيل أو ذكرى تأسيس الجمهورية الفرنسية وما صاحب هذه المشاركة من التعرف على العلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع الفرنسى والاعجاب بها ، قد أدى الى تطلع النساء المصريات الى شكل أفضل من أشكال التعامل معها من جانب زوجها المصرى . كما أن الحرية التى كانت تتمتع بها النساء الفرنسيات أصبحت أملا يراود العديد من النساء المصريات فى القاهرة وبعض مدن مصر . وقد انعكس ذلك فى تولد نوع من الرغبة فى محاكاة السلوك الفرنسى فى الغناء وترديد العديد من ألفاظ لغتهم من جانب بعض المصريات(٣٣) . كما انعكس ذلك أيضا فى تمرد نساء مدينة رشيد على قرار عمدة المدينة بحظر حضور النساء للاحتفال الذى يقام بمناسبة استطلاع هلال شهر رمضان ، فقد دافعت نساء رشيد بشدة عن حق حضور هذا الاحتفال العام وكتبن الى الجنرال مينو الذى كان موجودا فى رشيد يتظلمن من هذا القرار . وازاء هذا الموقف عقد مجلس لبحث هذا التظلم ضم أعيان المدينة والعمدة والجنرال مينو وبحضور مندوبات عن نساء المدينة وتقرر فى هذا الاجتماع الغاء قرار الحظر(٣٤) .

ولم يتوقف أمر التقليد والمحاكاة على الجانب الاجتماعى بل نلمسه أيضا فى التشبه بالفرنسيين فى الجانب الحربى . فعندما قام المعلم يعقوب القبطى باذن من

---

٣٢) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ .
٣٣) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .
٣٤) البستانى ، "كوريية دى ليجيبت" ، ص ١٣٢ .

الفرنسيين بتكوين فرقة عسكرية من شان القبط واستقر بهم فى القاهرة منذ منتصف عام ١٨٠٠" حلق لحاهم وزياهم بزى متشابه لعسكر الفرنساوية ... ورتب على باب القلعة (التى بناها فى حارة النصارى فى القاهرة) الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية" (٣٥) .

يذكر لنا العلامة ابن خلدون فى مقدمته "ان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب ... والسبب فى ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى انما هو لكمال الغالب ، فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به" (٣٦) .

واذا كنا نسلم بصحة مقولة بن خلدون فى عموميتها وانطباقها الى حد كبير على المجتمع المصرى فى مراحل زمنية محددة أخذ خلالها الانقياد للجانب الغالب فى بعض المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فاننا اذا حققنا هذه المقولة بشىء من الايجاز لا نستطيع قبولها قبولا مطلقا . فهناك العديد من المجتمعات المغلوبة ترفض باصرار الانقياد للغالب ، وفى فترات تاريخية عديدة وقف المجتمع المصرى هذا الموقف . وهناك مجتمعات تأثر فى الغالب بقدر تأثير الغالب فيها ، ولذا فالاقتداء انما هى عملية نسبية الى حد كبير . وفى المرحلة التاريخية التى هى محل الدراسة قدر للمجتمع المصرى أن يكون المغلوب والمولع بالاقتداء .

---

٣٥) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .
٣٦) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٦٣ .

يصف المسيو جيرار أحد علماء الحملة الفرنسية في تقرير له كتبه بعد عودته الى فرنسا عن أثر الحملة الاجتماعى بقوله "ان الحضارة سوف تنفذ الى الشرق ... لقد جعلت حملتنا على مصر سكان هذه البلاد يأتلفون مع عادات تختلف عن عاداتهم ولقد وسع ذلك من أفق أفكارهم وأضعف من سطوة خرافاتهم عليهم" (٣٧) .

ولقد أصاب العالم جيرار كبد الحقيقة فى تحليله لاثر الحملة الاجتماعى فى مصر .

كما ساهمت الحملة الفرنسية من خلال الجهد الذى بذل فى القضاء على سلطة المماليك أثناء وجودها فى مصر فى سرعة القضاء على مركزهم السياسى والاجتماعى بعد خروجها من مصر . وتعد هذه المساهمة واحدة من اهم اشكال التغيير الاجتماعى الذى شهده المجتمع المصرى فى أوائل القرن التاسع عشر . ففى ضوء المواجهة التى وقعت بين المماليك والفرنسيين والنتيجة التى أسفرت عنها تلك المواجهة تبين لاهل مصر عدم جدية أمراء المماليك فى الدفاع عن البلاد . ففى الوقت الذى كانت تجرى فيه الاستعدادات فى امبابة لمنع الفرنسيين من الوصول للقاهرة أخذ أمراء المماليك فى الانصراف الى ثرواتهم وامتعتهم وتركوا أمر الحرب والدفاع عن القاهرة وانشغلوا بأمر نقل ثرواتهم منقصورهم الى أماكن مجهولة فى القاهرة وخارجها استعدادا للفرار (٣٨) .

كشف هذا المسلك حجم المماليك الحقيقى امام الشعب وايقن أهل القاهرة أن هزيمتهم واقعة لا محالة ، وكانذلك فى حد ذاته كفيل بان يزيل هيبتهم فى نفوس الشعب كما كان يضعف من قدرهم الاجتماعى كشريحة مميزة ومنفصلة عن باقى أهل مصر .

---

٣٧) الشايب ، وصف مصر ، ج ٤ ، ص ٣٦١ .
٣٨) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

وعندما حلت هزيمة امبابة (الاهرام) بالمماليك فعلا تركوا الشعب وحده فى مواجهة الفرنسيين ، واسرع مراد بك تاركا ساحة المعركة وحمل ثروته وهرب بها الى الصعيد ، وكذلك فعل باقى الامراء المماليك حيث فر ابراهيم بك فى اتجاه الشام بعد أن جمع ثروته استعدادا لهذا الفرار . وبدلا من أن يقاوم المماليك الفرنسيين عند دخول القاهرة شاهد أهل مصر عملية فرار جماعى مهين للمماليك من المواجهة أمام الفرنسيين ، وكيف أنهم تركوا القاهرة مفتوحة تلقى مصيرها المحتوم أمام الفرنسيين .

ومن المؤكد أن موقف المماليك هذا قد أصاب أهل القاهرة بخيبة أمل كبرى فى القوة العسكرية الوحيدة فى البلاد . فالمماليك بالرغم من أنهم عاملوا المصريين دائما معاملة سيئة ، الا أنهم كانوا يتمتعون بقدر من ثقة المصريين فيهم كقوة عسكرية تتحمل عبء الدفاع عن مصر . ولكن سرعان ما افتقد المماليك هذا القدر الضئيل من الثقة فى أول مواجهة لهم أمام الفرنسيين ، وقد وصف الجبرتى أحوالهم فى معركة امبابة بما يلى : "متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم"(٣٩) .

وتجمعت عوامل الغضب والحنق على هذا الموقف للمماليك من جانب الشعب ، فكان رد أهل القاهرة على هذا هو انهم نهبوا وأحرقوا قصور أمراء المماليك كما يذكر لنا الجبرتى(٤٠) .

ومما زاد من ثورة المصريين على المماليك هو انهم فى المراحل الاولى للمواجهة مع الفرنسيين قد ساندوا

---

٣٩) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .
٤٠) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

قوة المماليك بما ايتح لهم من وسائل المساندة ، فمن منطلق الشعور الاسلامى العام قدم الشعب لهم بصفتهم مسلمين الدعم المتاح لمقاومة القوات الفرنسية غير المسلمة . فالمشاركة العسكرية فى الدفاع عن مصر لم تكن متاحة للمصريين ، فتلك كانت مهمة المماليك الاساسية . ولكنهم شاركوا بالدعم المادى والمعنوى المطلوب لنصرة المماليك على الفرنسيين ، فعلى سبيل المثال نقدم لنا الجبرتى صورة من صور هذا الدعم بمناسبة توجه مراد بك لملاقاة الفرنسيين بقوله : "وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك تجتمع بالازهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمية والقادرية والسعدية وغيرهم من أرباب الاشاير ويعملون لهم مجالس بالازهر وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الاسماء"(٤١) .

منذ هزيمة المماليك أمام الفرنسيين أخذ مركزهم الاجتماعى فى الانهيار . واذا كانت هذه الهزيمة هى السبب الاول فى القضاء على هذا المركز المميز كسلطة حاكمة ، فان منشورات نابليون الموجهة للمصريين وما احتوته هذه المنشورات حول المماليك يعد السبب الثانى فى انهيار هذا المركز .

وجه نابليون حديثه على سبيل المثال فى منشوره الاول للمصريين قائلا : "اننى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ... ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشىء الذى يفرقهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر

---

٤١) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ .
٤٢) الجبرتى ، جـ ٢ ، من ص ١٨٢ الى ١٨٤ .

وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها" وبعد أن يناقش نابليون الحجج الواهية للمماليك للانفراد بالسيطرة على مصر بختم منشوره بقوله "لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية"(٤٢) وبهذا المنشور ذكرنابليون المصريين بانفصال المماليك عن باقى المجتمع المصرى وبعدم جدوى تميزهم عنهم . الامر الذى لعب دوره فى تطلع المصريين لزوال المماليك . وينعكس هذا التطلع عند الجبرتى فى ترجمته لمراد بك بمناسبة وفاته عام ١٨٠١ بقوله "فلعل الهم يزول بزواله"(٤٣) .

* * *

بعد الاهتمام بالآثار المصرية القديمة نقطة تحول هامة كان للحملة الفرنسية الفضل الاول فيها فى اطار المتغير الثقافى والفكرى الرابع الذى احدثته فى تاريخ مصر الحديث .

فمنذ انهيار اخر الدول المصرية القديمة ووقوع أول احتلال أجنبى طويل الامد لمصر ، انزوى الشعب المصرى والمتمصر مع تعاقب أشكال الاحتلال الاجنبى القديم لمصر داخل الدائرة التى رسمت له وانقطعت صلته التاريخية بحضارته القديمة ، ولم يبق لهذا الشعب من ماضيه العريق الا ثلاثة أشياء : أولها الآثار المنتشرة فى كل مكان من أرض مصر تشير الى الشموخ الحضارى للانسان المصرى القديم وتحدث المصرى فى كل زمان عن عظمة الاجداد ، وثانيهما اللغة التى ظلت بقايا من مفرداتها تتردد على اللسان المصرى . وثالثهما تميز الشخصية التى انفرد بهاالمصرى عن غيره فى العادات والتقاليد وغيرها من أنماط الحياة

---

٤٣) الجبرتى ، حـ ٢ ، ص ٤٥٠ .

اليومية وهو ما يسمى بالخصوصية .

وعندما جاء العرب الى مصر استطاعوا بشكل ملفت للنظر وبفضل تسامح الدين الاسلامى تفهم جوانب الشخصية المصرية فى كثير من الاحيان ، والاندماج مع هذه الشخصية مع مرور الزمن ، مما سهل حدوث تفاعل بين الجانبين الامر الذى جعل العرب الذين استقروا بمصر يتميزون بسمات خاصة عن غيرهم من العرب الذين استقروا فى البلاد الاسلامية الاخرى ، وأصبح المصرى والعربى المتمصر مشتركان فى نفس أسلوب الحياة الاجتماعية .

كما أن اللغة العربية الوافدة على مصر والتى اصبحت لغة التعبير بين المصريين ، تأثرت بالكثير من مفردات اللغة المصرية القديمة التى ما زالت تردد حتى يومنا هذا بشكل يميز اللغة العربية فى مصر بوضوح عن عربية البلاد الاخرى ، خاصة فى تركيب جمل اللهجة العامية أو فى انتشار المفردات الزراعية والمرتبطة بالارض والفلاحة ، التى هى أمور كانت جديدة على العرب ولغتهم ولذا كان تأثير اللغة المصرية القديمة أقوى . ومن الكلمات شائعة الاستعمال عن المصرية القديمة : تعنع (نعناع) جرجر (جرجير) وبرسيم وشبح وقلة وربر ولقمة وعيش وخبز وشونة وماجور وغربال وفاس وأردب ومكيال وسخام (الطين) ووزير وواحد واثنين علاوة على الاشهر القبطية (٤٤) .

وبالاضافة الى اللاوعى بقيمة الآثار التاريخية فان العرب المتمصرين كان لهم موقف من الآثار الفرعونية أدى الى تكريس انقطاع الصلة مع الحضارة المصرية القديمة . وكان هذا الموقف نابع من :- أولا : معاداة فرعون مصر وملئه لنبى الله موسى ، وأنه طغى وأفسد من فى الارض ،

٤٤) كمال الملاخ ، الاهرام ، ١٩٨٧/٥/٦ .

ضال ومخادع ، الامر الذى وجب احتقاره على كل مسلم كما بدى منبوذ عند الله فى القرآن الكريم . فقد جاء فى قوله تعالى "فرعون وملته انهم كانوا قوما فاسقين" (القصص ٣٢) . وحفل القرآن الكريم بالعديد من الآيات تشجب مسلك فرعون وقومه وتنذرهم بالعذاب الاليم .(٤٥)

فكان اهمال وتحقير آثار هوءلاء الفراعنة شعورا دينيا عاما ، نتجت عنه الرغبة فى تدمير وتخريب تلك الآثار المصرية القديمة من جانب القوى الاسلامية فى مصر .

ثانيا : رفض الاسلام لكل أشكال التماثيل وعبادة الفرد فكانت الآثار الفرعونية عند المسلمين رمز بغيض لوثنية ما قبل الاسلام ، وترادف عندهم أصنام اللات والعزة . كما يرفض الاسلام مختلف أشكال القبور التى قد توءدى الى تقديس الموتى وانتشار مظاهر الوثنية ، فلاقت جبانات الفراعنة الكثير من التخريب والتدمير ، خشية ان يتمسك المصريون بعادة تشييد قبور الموتى بالصورة التى كان يفعلها أجدادهم من قبل .

استمرت عملية التوافد والتمصير البشرى على أرض مصر بجانب التجاهل والاهمال للاثار المصرية حتى مجىء الحملة الفرنسية ، لتفتح صفحة جديدة تماما فى حياة مصر الثقافية والفكرية . فمن وجهة نظرنا فان هذه الحملة أعادت الاتصال الحضارى بين المصرى وحضارته القديمة ، من خلال الجهد الذى بذله علماثها فى دراسة آثار تلك الحضارة وما ترتب على هذه الدراسات من توالى الاكتشافات الاثرية القيمة ، ومن خلال فك رموز اللغة المصرية القديمة وما ترتب على ذلك من كتابة التاريخ الفرعونى . ومن

---

٤٥) لمزيد من التفاصيل انظر : أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسنة ، سلسلة "اقرأ"، العدد ٣٧٣ .

وجهة نظرنا أيضا ان العناية بالآثار المصرية القديمة من شتى النواحى لا يعنى بأى حال العودة الى عبادة الاصنام أو العودة الى تبجيل الموتى الفراعنة ، وأن البحث فى تاريخ هذه الآثار الفرعونية لا يعنى تكريم فرعون منبوذ عند الله . فمن تاريخ هذه الحضارة نتعرف على العديد من الجوانب الاخرى الايجابية التى تدعوا المصريين لمزيد من الشعور بالانتماء والافتخار(٤٦) .

يعكس المنشور الموجه من نابليون الى أعضاء حملته بمناسبة الوصول الى الاسكندرية فى ٢٨ يونيه ١٧٩٨ ادراكا أوربيا مبكرا بقيمة الحضارة المصرية القديمة ، كما يؤكد قدوم كوكبة من علماء الطبيعة والادب والفنون وغيرهم مع هذه الحملة العسكرية الاهتمام البالغ بالبحث العلمى فى كشف غموض هذه الحضارة . يخاطب نابليون جنوده و ضباطه فى نهاية منشوره بقوله "وستجد عند كل خطوة تخطوها بها آثارا مجيدة جديرة بأن تثير اعجاب الفرنسيين وغيرهم"(٤٧) . وكان نابليون لا يهدف فقط الى لفت نظر أعضاء الحملة الى القيمة الحضارية للآثار الفرعونية وحتى لا يرتكب أحد حماقة تدمير أو تخريب هذه الآثار ، بل أنه كان يرمى أيضا - كما تؤكد لنا الشواهد- الى تنبيه المصريين الى أهمية الانتماء الى هذه الحضارة . ومن هذه الشواهد أنه بمناسبة الاحتفال بالذكرى السابعة لتأسيس الجمهورية الفرنسية وعلى مشهد من أعضاء ديوان مدينة رشيد والاهالى جرى بناء نموذج لهرم يمثل أحد أهرامات الجيزة فى الساحة التى جرى فيها الاحتفال . وهذا يعنى أن الاهرامات عند الفرنسيين جديرة بأن يشار

---

٤٦) لمزيد من التفاصيل انظر: طاهر عبد الحكيم ، الشخصية الوطنية المصرية ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٨٦ .

٤٧) الرافعى ، الحركة الوطنية ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

اليها فى تلك المناسبة الهامة ، أو أن أهمية تلك المناسبة قد تقارن بأهمية الاهرام التاريخية . ولذا وأمام الحشد قام حاكم مقاطعة رشيد وحوله أعضاء الديوان من المصريين بالتوجه الى نموذج الهرم قبل البدء في الاحتفال ورفعوا عليه العلم المثلث الالوان للجمهورية الفرنسية (٤٨) .

وبالرغم من أننا قد نستشف من رفع العلم المثلث على الهرم اشارة خفية لانتصار الفرنسيين على أرض الحضارة (مصر) فان ذلك في حد ذاته يعنى الاعتراف بعظمة الحضارة الفرعونية ، بل الاعتراف بتفوق هذه الحضارة على حد قول المهندس شابرول أحد مهندسى الطرق والكبارى فى الحملة بعد مشاهدته لآثار الفراعنة فى الجنوب " ان المرء يكون منها فكرة صحيحة عن تفوق القدماء علينا " (٤٩) .

وفى مجال دراسة الآثار الفرعونية بشكل عام وفى الصعيد بشكل خاص ، فقد بذلت جهودا عظيمة فى كشف تلك الآثار وازالة الغموض حول أكثرها ، حيث ألف نابليون لجنتين للكشف عن آثار الفراعنة فى الصعيد ، ورسمها ودراستها . ويضيف لنا الرافعى عن نتائج أعمال اللجان "فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية" (٥٠) .

أسدت الحملة وعلماؤها خدمة جليلة الى الحضارة المصرية التى كانت حتى ذلك الوقت يحيطها الغموض الكامل . فقد أمكن الوصول الى فك رموز اللغة المصرية القديمة من خلال الحجر الذى سجلت عليه مقاطع من تلك اللغة ، والذى عثر عليه عام ١٧٩٩ بمدينة رشيد وعرف تاريخيا "بحجر

---

٤٨) البستانى ، "كوربيه دى لجيبت" ، ص ٢٨ .
٤٩) البستانى ، "كوربيه دى لجيبت" ، ص ١٤٩ .
٥٠) الرافعى ، الحركة القومية ، جـ ٢ ، ص ٧٥ .

رشيد" نسبة الى المدينة . ومن خلال ترجمة ومقارنة مجموع أحرف اللغات الثلاث التى احتواها الحجر بعضها البعض - الهيروغليفية ، اللغة المصرية العامية القديمة ، اليونانية القديمة - التى تمكن العالم الفرنسى الشهير شامبليون عام ١٨٢٢ من مقارنتها وبالتالى فك رموز الحجر كاملة "وكان هذا العمل هو مفتاح اللغة المصرية القديمة ، والاساس اللازم لمعرفة تاريخ مصر القديم"(٥١) .

فى اطار جهد الحملة لاحداث تغيير ثقافى وفكرى فى المجتمع المصرى ، فقد فتحت مكتبة المجمع العلمى المصرى بالقاهرة أمام المصريين بغرض نشر المعارف عليهم واطلاعهم على تطور الغرب وفرنسا بصفة خاصة ، وقد زار الجبرتى هذه المكتبة عدة مرات واستقبله القائمين عليها من الفرنسيين الذى يذكر لنا عنهم "واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب"(٥٢) .

ومن رأينا ان هذه المكتبة بما احتوته من مراجع وكتب فرنسية وعربية فى مختلف العلوم والفنون كان يمكن لها فى حالة استقرار الحملة فى مصر أن تصبح نواة جامعة علمية حديثة على النسق الاوربى ، وكان النبهاء من المصريين الشبان سوف يترددون عليها وينهلون من معارفها ويشاركون الفرنسيين فى كشف أسرار العلم . وكانت هناك قاعة مخصصة كمعمل ملحق بالمجمع العلمى المصرى تجرى فيه

٥١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٥٤٨ .
٥٢) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

التجارب الكيمائية وغيرها من التجارب العلمية سمح للمصريين بالتردد عليها ، وقد عبر الجبرتي عن دهشته لما شاهده من تجارب بقوله "لا تسعها عقول أمثالنا" وهنا يعترف الجبرتي وهو على قمة مثقفي مصر الكبار في ذلك الوقت بأنه عاجز عن فهم مثل هذه الانجازات العلمية.(٥٣)

وفي مجال الصحافة فبجانب انشاء المطبعة الاهلية عرفت مصر المجال الصحفي والطباعة لاول مرة من خلال الحملة الفرنسية ، فقد أصدرت الحملة جريدتين باللغة الفرنسية : الاولى هي جريدة "كورييه دى ليجيبت" وتعني بالعربية "الجوانب المصرية" وقد صدر منها ١١٨ عددا وأولها كان في ٢٩ اغسطس ١٧٩٨ ، واخرها في يونيه ١٨٠١ ، أي أنها توقفت عن الصدور قبيل الجلاء عن مصر بوقت قصير وكانت تصدر كل أربعة أيام في أربعة صفحات صغيرة .

أما الثانية فهي صحيفة "لاديكاد ايجيبسين" وتعني بالعربية "العشرية المصرية" صدر عددها الاول في اكتوبر ١٧٩٨ وذلك بغرض نشر أبحاث ومناقشات المجمع العلمي المصري .

وبالرغم من عدم استقرار الاحوال أثناء وجود الحملة بمصر ، فقد كان هناك خطط لاصدار صحيفة عربية . شرع مينو عندما تولى القيادة في تنفيذ تلك الخطط ، حيث أصدر أمرا في ٢٦ نوفمبر ١٨٠٠ بصدور صحيفة باللغة العربية يكون الغرض منها نشر المعارف على المصريين ، واخبارهم بسياسة الحملة وتعريفهم بجميع أنواع الادارات الفرنسية وأعمالها في مصر . وقد اختير لهذه الصحيفة العربية اسم "التنبيه" وأسندت رئاسة تحريرها الى الشيخ سيد اسماعيل الخشاب أمين محفوظات الديوان . كما كانت هناك

---

٥٣) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٢٣٦

خطط لتوزيع هذه الصحيفة خارج مصر الى البلاد المتحدثة بالعربية عن طريق القوافل التجارية (٥٤).

الا أن خطط اصدار صحيفة "التنبيه" قد توقفت وخرجت الحملة من مصر دون أن ترى "التنبيه" النور . ولكن مما لاشك فيه أن هذه التجربة الصحفية خلال فترة وجود الحملة فى مصر قد استفاد منها محمد على بعد ذلك فى اصدار صحفة "الوقائع المصرية" التى طبعت بالمطبعة الاهلية .

* * *

<u>نتائج الدراسة</u> :

من خلال تحليل المتغيرات التى أحدثتها الحملةالفرنسية فى مصر يتضح لنا النتائج الآتية :

١ - أن تجربة الحملة الفرنسة فى ممارسة السلطة خلال فترة وجودها فى مصر ، بما تضمنته هذه التجربة من تقديم شكل جديد من أشكال ممارسة السلطة الى المصريين ، قد أدى الى حد كبير فى المدى القريب الى استيعاب صفوة المجتمع من المشايخ والاعيان لهذه الممارسات التى تقوم على المنفعة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم ، وتغير موقفهم تجاه السلطة من موقف اللامبالاة والشك والريبة الى موقف التجاوب والمشاركة السياسية . والدليل على ذلك على سبيل المثال ما يذكره الجبرتى فى أعقاب ثورة القاهرة الثانية فى وصف ذهاب المشايخ لمقابلة كليبر بقوله "بكروا بالذهاب الى بيت سارى عسكر ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيأتهم ، وطمع كل واحد منهم وظن أن سارى عسكر يقلده فى هذا اليوم أجل المناصب ، أو ربما حصل التغيير

---

٥٤) البستانى ، "كوريه دى ليجيبت" ، ص ٢٣٨ .

والتبديل فى أهل الديوان ، فيكون فى الديوان الخصوصى".(٥٥)
ويعكس هذا الوصف رغبة المشايخ والاعيان الحميمة فى الدخول للجهاز المعاون الحاكم "الديوان" الذى أنشأه الفرنسيون .

كما صاحب تطلع المصريون للمشاركة فى السلطة وتغيير نظرتهم لمفهومها ، تعرفهم أيضا على مفهوم جديد للوطن بعد أن تردد على أسماعهم العديد من العبارات الوطنية المستمدة من شعارات الثورة الفرنسة مترجمة الى العربية (٥٦) الامر الذى كان يعنى تأثرهم بشئ من تعاليم تلك الثورة ، والتطلع للتخلص من الاستبداد المملوكى والتركى معا . وبالتالى بث فكرة اخراج مصر من دائرة الخلافة العثمانية وهو ما كانت تهدف اليه الحملة أيضا . ونلاحظ على المنشور الذى نشر عن لسان المشايخ فى أعقاب ثورة القاهرة الاولى لنهى أهل مصر عن الثورة أنه احتوى بايحاء من الفرنسيين على عبارة "لاجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم" (٥٧) ، ويفهم من تلك العبارة أن الوطن هو ذلك المكان الجغرافى المحدد الذى تشعر فيه الجماعة بالامان وتمارس فيه بحرية اقامة الشعائر الدينية .

٢ - أن جهد الحملة الفرنسية لاحداث التغيير قد اتجه فى الدرجة الاولى الى النخبة فى المجتمع المصرى آنذاك ، وهم العلماء ومشايخ الازهر والاعيان فى مصر . وقد التفت نابليون الى أهمية دور هذه الصفوة فى قيادة المجتمع المصرى ، وأبلغ مثال على ذلك النصيحة الذى تضمنتها رسالته الى خليفته كليبر عندما قرر مغادرة مصر الى فرنسا فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ، حيث جاء فى الرسالة "أن من يكسب ثقة

٥٥) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
٥٦) انظر البستانى ، "كوريبه دى ليجيبت" ص ٢٤ .
٥٧) الجبرتى ،ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

كبار المشايخ فى القاهرة يضمن ثقة الشعب المصرى". كما طلب نابليون من كليبر فى نفس الرسالة ، فى حالة استقرار الحملة ، ارسال خمسمائة أو ستمائة من أعيان المصريين الى فرنسا للاقامة بها سنة أو سنتين بهدف "أن يروا عظمة الامة الفرنسة ويقتبسوا عاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ويعودوا الى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم".(٥٨)

وقد عمل كليبر بالنصيحة وبالرغم من أن علاقته بالاعيان المصريين تميزت ببعض الجفاء فانه سار على نهج نابليون وقام بزيارة الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان فى داره ، كما أنه لكى يستميل الاعيان والتجار والمشايخ كان يقوم بدعوتهم الى منزله واقامة حفل عشاء لهم .

وهذا التركيز على الصفوة واهتمام السلطة بها وعدم الاهتمام بالعامة من أهل المدن والفلاحين يوءكد لنا أن الانشغال بالقضايا التى سيطرت على الحياة السياسية والفكرية فى مصر منذ بداية القرن التاسع عشر انشغلت بها وعبرت عنها صفوة المجتمع المصرى فقط ، وأن هذه الصفوة كانت فى الغالب أداة التغيير والتطوير .

أما "الاغلبية الصامتة" من أبناء المجتمع فقد كانت لا تشارك من بعيد أو قريب فى مناقشة مثل هذه القضايا ، وانغمست فى معاناتها اليومية المعتادة . وهنا فاننا نعتبر الاهتمام بدور الصفوة وتجاهل الدور الشعبى من قبل السلطة فى احداث التغيير والتطوير بالمجتمع المصرى انما هى نقطة ضعف يعانى منها التاريخ المصرى كله تقريبا وجديرة فى حد ذاتها بالدراسة .

٣ - أن فترة وجود الحملة الفرنسية فى مصر قد شهدت عملية تمصير فى عدة اتجاهات . تمصير السلطة

---

٥٨) الرافعى ، الحركة القومية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

التشريعية المدنية من خلال الهيئة الحاكمة المعاونـة "الديوان" . وتمصير السلطة التشريعية الدينية من خلال تغيير النظام القديم للقضاء الشرعى الذى كان يرأسه قاضى تركى ، حيث تولاه لاول مرة بالانتخاب الشيخ أحمد العريشى أحد علماء مصر بناء على طلب نابليون بأن يكون قاضى مصر "من أهل مصر ومولودا بها ، يتولى القضاء ويقضى بالاحكام الشرعية"(٥٩) .

كذلك تمصير العديد من أنماط الحياة السياسية والاجتماعية الاوربية من خلال ارساء فكرة الانتخابات ومبدأ احترام المعارضة وسيادة القانون ، فقد أبقى نابليون السيد محمد كريم حاكما للاسكندرية بالرغم من مقاومته له ، ثم قام بمحاكمته بعد ذلك بتهمة الخروج عن القانون ومراسلته للمماليك . كما أنه بالرغم من فرار السيد عمر مكرم نقيب الاشراف مع ابراهيم بك الى الشام لم يتم عزله عن رئاسة النقابة الا بعد أن رفض العودة الى مصر وعضوية الديوان . ثم عندما احتل الفرنسيون يافا أثناء حملة سوريا ، ووقع عمر مكرم فى الاسر ، عندئذ استقبله نابليون لمنزلته الكريمة ، وأمر بعودته الى مصر معززا مكرما(٦٠) .
كما شاهد المصريون حرص الفرنسيين على اتباع المبدأ القانونى القائل بأن "المتهم برىء حتى تثبت ادانته" خلال محاكمة سليمان الحلبى بتهمة قتل كليبر . ثم كذلك محاولة تمصير الهرم الاجتماعى من خلال خلخلة هذا الهرم بالقضاء على سيطرة المماليك على قمته .

٤ - ان اهتمام الحملة الفرنسية بالحضارة المصرية قد عجل بالنهوض بدراسة آثار تلك الحضارة واكتشاف جوانب عظمتها مما فتح أمام أعين المصريين مجالا جديدا للانتماء

٥٩) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .
٦٠) الرافعى ، الحركة الوطنية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ .

الوطنى ، تبلور هذا الانتماء أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى "الفكرة المصرية" ، فكانت الاكتشافات الاثرية المتتالية من أهم العوامل المساعدة لدعوة الانتساب للفرعونية .

كما انتفت شبهة الوثنية فى الجانب الدينى أوالعنصرية فى الجانب البشرى فى الانتساب الى الحضارة المصرية القديمة ، وجرى التركيز على التميز الحضارى والثقافى للشعب المصرى فى ضوء تميز الحضارة المصرية القديمة بين حضارات العالم . وأصبح الانتماء الفرعونى لا يعنى بالضرورة أن كل المصريين ينتسبون الى أصول فرعونية بل يعنى فى الاساس الانتساب الى ثقافة خاصة تمتد جذورها الى العصر الفرعونى ومن خلال عناية الحملة الفرنسية بالآثار المصرية أخذ ينمو لدى المصريين الشعور بعظمة تلك الآثار ، وقد ظهرت بوادر هذا فى خطاب أعضاء الديوان فى نوفمبر ١٨٠٠ الموجه الى مينو لقيامه باصلاح مقياس النيل حيث شكروه بقولهم :- "نحيطكم علما أيها الجنرال السعيد أنك قد قمت بعمل شئ خاص جدا يتناسب مع عظمة قدماء المصريين ، وهو اصلاح مقياس النيل ... ان اصلاح المقياس لهو عمل لا يستطيعه الا العظماء"(٦١) .

٥ - ان أحداث الحملة الفرنسية على مصر تؤكد أن مرحلة فصل الدين عن الدولة قد بدأت منذ مجئ هذه الحملة . فقد أحدثت نوعا من الفصل بين الولاء السياسى والولاء الدينى ، وأنها فى الوقت الذى نجحت فيه فى تشكيك المصريين فى جدوى الابقاء على الولاء السياسى للدولة العثمانية ، فان نجاحها كان محدودا ازاء تمسك المصريين بالولاء الدينى لخليفة المسلمين . فقد وضح للمصريين فشل

---

(٦١) البستانى ، "كوربيه دى ليجيبت" ، ص ٣٧٠ .

الدولة العثمانية فى توفير الحماية لمصر من وقوعها فى يد القوى الاوربية ، وعدم قدرة الجيش العثمانى وحده فى اخراج الفرنسيين من مصر . ونلمس فى الشهور الأخيرة للحملة وبالتحديد فى أعقاب توقيع اتفاق العريش الذى لم ينفذ بين العثمانيين والفرنسيين أن شعورا عاما بالفرح ساد المصريين لقرب جلاء الفرنسيين ولبس لعودة العثمانيين بأى حال من الاحوال ، والدليل على ذلك هو الوصف الذى يقدمه لنا الجبرتى لدخول العثمانيين القاهرة "وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم" (٦٢) .

كما كان الشعور السائد فى القاهرة بين العامة والصناع وأهل الحرف هو التخوف من عودة العثمانيين لما يصاحب عودتهم من اشتغال عسكرهم فى نفس الصناعات والحرف التى يعمل فيها أهل مصر ، وبالتالى منافستهم ومضايقتهم فى مجال النشاط الاقتصادى(٦٣) . كما يتضح لنا عدم رغبة المصريون لعودة السلطة العثمانية من خلال استجابتهم لدعوة بليار حاكم القاهرة بعدم القيام بالثورة على الفرنسيين ، فى الوقت الذى كانت فيه الظروف مواتية تماما للقيام بثورة ثالثة ضد الفرنسيين ، فالقاهرة كانت محاطة بالقوات العثمانية والانجليزية من كل جانب قبل التسليم .

وتوءكد لنا المقابلة الاولى بين أعيان أهل مصر والصدر الاعظم يوسف باشا حقيقة تخوف أهل القاهرة من عودة العثمانيين الى سوء معاملتهم للمصريين . فقد ذهب الاعيان لتحية يوسف باشا ، ولكنهم قابلوا من جانب الصدر الاعظم استقبالا مهينا وأذى مشاعرهم وأظهر لهم الازدراء عندما

---

٦٢) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ .
٦٣) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٠ .

رفض القيام لاستقبالهم . ويعكس هذا أيضا عزم العثمانيين على تجاهل القوى المصرية فى ادارة شئون البلاد ،وأن دور الاعيان فى معاونة السلطة قد انتهى بخروج الحملة من مصر . وفى كل هذه الشكوك والتخوفات نجد أهم دوافع مشروع المعلم يعقوب الذى تقدم به الى الفرنسيين أو مشروع محمد بك الألفى الذى تقدم به الى الانجليز للاستقلال بمصر .



المصادر والمراجع

- ابن خلدون : المقدمة ، دار الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٥٦)
- أحمد عبدالحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ، (سلسلة اقرأ العدد ٣٧٣)
- جلال يحيى : مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ١٩٨٢)
- زهير الشايب : وصف مصر ، ج ٤ ، مكتبة الخانجى (القاهرة ١٩٧٨)
- صلاح الدين البستانى : صحف بونابرت فى مصر ١٧٩٨ -١٨٠١ دار العرب للبستانى (القاهرة ١٩٧١)
- طاهر عبد الحكيم : الشخصية الوطنية المصرية ،دار الفكر (القاهرة ١٩٨٦)
- عبدالرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، الجزء الثانى ، دار الجيل - بيروت بدون تاريخ)
- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، الجزء الاول والثانى ، دار المعارف (القاهرة ١٩٨١)

* * *

دور القبائل الحجازية والشامية
فى الثورة العربية ١٩١٦ م

د. عبد العليم على أبوهيكل
كلية الاداب - جامعة القاهرة

العرب والدولة العثمانية

تمثل الثورة العربية التى تزعمها الشريف حسين بن على عام ١٩١٦ م ضد الاتراك قمة الصحوة العربية التى بدأت ملامحها بالظهور فى المشرق العربى خاصة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولاتزال هذه الثورة تمثل بأسبابها ووقائعها ونتائجها مادة خصبة لدارسى التاريخ العربى الحديث باعتبارها الحدث الذى أنتهى بقيامه ذلك الارتباط العربى بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر .

وبالرغم من محاولات الدولة العثمانية المتعددة القيام باصلاحات تمكنها من أحكام السيطرة على الولايات التابعة لها ومجابهة الضغط الغربى على مناطق سيادتها معتمدة حينا على بعض الاتجاهات العلمانية وأحيانا أخرى على التيار الاسلامى كفكرة الخلافة أو الجامعة الاسلامية ، الا أن تنامى الفكر القومى الذى غمر كيان الدولة منذ بداية القرن ١٩ نتيجة للمؤثرات الاوروبية [١] ، ومع اتجاه الدولة أيضا نحو مركزية قد دفع بتلك العناصر المحكومة نحو البحث عن الطريق الامثل لتحقق هذه الكيانات شخصيتها معتمدة أما على العنصر أو الدين أو التاريخ .

وأججت جماعة الاتحاد والترقى التى تبوأت أريكة الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ م من قوة التيار الذى يعتمد على العنصر كأنسب السبل لتقوية سلطات الدولة والتعامل من خلاله مع بقية الكيانات الاخرى . ومنهم العرب

---

١) ساطع الحصرى - نشوء الفكرة القومية - ط٤ - بيروت ١٩٥٩ - ص ص ٢٠٨ / ٢٢٥ .

الذين ازدحمت ساحتهم الفكرية أيضا بالعديد من التيارات كالتيار الوطنى الاقليمى والقومى العربى أو العثمانى الى جانب التيار الاسلامى الاشد وضوحا لتحديد علاقتهم بالدولة العثمانية (٢) بصورة عامة وبصورة خاصة مع كشف تلك الجماعة القناع عن وجهها ووضوح نواياها .

ودعى أحرار العرب الى عقد مؤتمر بباريس عام ١٩١٣ ناقشوا فيه الوضع العربى والموقف مع الدولة العثمانية والخطوط الاصلاحية العريضة التى يرونها مناسبة لنهضتهم وترجمت قرارات المؤتمر طموحاتهم القومية ، وأعلنوا رغبتهم فى استمرار العلاقة مع الدولة اذا حافظ أولى الامر فيها على شخصيتهم العربية ،بالرغم من تجاربهم المريرة معها (٣)

وبالرغم من قبول رجال الاتحاد والترقى لما أعلنه المؤتمر العربى من قرارات اصلاحية الا أنهم سرعان ماتراجعوا عن وعودهم بحجة الظروف الدولية ،بل أقدموا على تشتيت الضباط العرب الى مناطق نائية عن المنطقة العربية مما زاد من شقة الخلاف بين الطرفين وتعميق الشكوك المتبادلة بينهما .

ومع قيام الحرب العالمية الاولى وأنضمام الدولة العثمانية الى الالمان ، تردد العرب بين مؤيد للاشتراك بدافع من الحماس والارتباط الدينى ، ومعارض لهم بدافع من التيار الوطنى أو القومى مفضلا البحث عن أفضل السبل وعن طريق آخر لتحقيق الامانى العربية بالاستقلال والنهضة .

وألتقت أمال الشريف حسين بن على ونواياه مع بعض القوميين العرب فى هذا الاتجاه الثانى المعارض للانضمام

---

٢) على المحافظة ـ الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ـ بيروت ـ ١٩٨٣ ص ص ٩٥ / ١٥٦ .

٣) المقطم ـ العدد ٧٣٨٨ ـ ١٥ يوليو ١٩١٣ .

ودخول الاتراك الحرب الى جانب الالمان . فلم يكن الحسين منذ توليه شرافة الحجاز أول نوفمبر ١٩٠٨ على وئام مع حكومة الاتحاديين فيما يتعلق بمسئوليات ونطاق سلطاته خاصة موضوع (التجنيد الاجباري) الذى لم يحز على قبول الشريف وتطبيقه بالحجاز بسبب أوضاعه الدينية والبشرية [٤] بينما رأى الاتحاديون أن الاقليم لايعدو - بالرغم من ذلك ولاية من ولايات الدولة يطبق مايطبق على بقية الولايات ، ثم زاد من شقة الخلاف تعيين (وهيب بك) واليا على الحجاز محملا بمسئوليات تنفيذ هذه السياسة حرفيا [٥] في ذات الوقت الذى بدأت فيه الاتصالات بين الشريف والانجليز منذ أوائل عام ١٩١٢ بواسطة أبنه الامير عبدالله بالقاهرة عند توقفه بها خلال ذهابه وايابه من أستانبول لحضور مجلس المبعوثان كعضو فيه ، وأستمرت هذه الاتصالات حتى بداية عام ١٩١٤ . أستطاع خلالها الشريف تلمس موقف يمكن الاستناد اليه في تقوية مركزه سياسيا وعسكريا أمام موقف الاتحاديين المتعنت ورأى الانجليز من جانبهم فيما أبداه الحسين بوادر صراع بين العرب والترك يستطيعون من خلاله تسهيل مطامحهم بالمشرق العربي [٦] .

أما القوميون العرب فقد سئموا مما أصابهم من عنت سياسة الاتحاد والترقي بعد تخليهم نهائيا عما وعدوا به عقب مؤتمر باريس بل ساروا شوطا بعيداً بالاتجاه المضاد للعرب مع تعيين (أحمد جمال باشا) وزيرا للبحرية وقائد

---

٤) سليمان موسى - الحركة العربية ١٩٠٨/١٩٢٤ ط ٢ بيروت ١٩٧٧ ص ص ٥٤ / ٥٦ .

٥) تولى منصب الولاية بالحجاز خلال تولي الحسين بن علي الشرافة (١٩٠٨ / ١٩١٦) ستة من الاشخاص هم (كاظم باشا) وقد أستقال - (والفريق فؤاد باشا) وقد عزل (حازم بك) ونقل الى بيروت ثم (أحمد نديم) و (منير باشا) و (وهيب بك) وأخيرا (غالب باشا) أنظر - سليمان موسى - الحركة العربية - ص ص ٥١/٥٢ .

٦) F. O. 371/2482, Letter from Kitchener to Grey, 14 / April, 1914

للجيش الرابع التركي بسوريسة ، وحمل من خلال هذه القيادة مسئوليات عسكرية وسلطات ادارية مطلقة بهذا الاقليم الذى برزت أهميته الحربية مع أندلاع المعارك الحربية لاهمية خطوط المواصلات به والحصار الذى ضربه الحلفاء على سواحله والقى على عاتق جمال باشا مسئوليه مهاجمة القوات البريطانية على قناة السويس ، وفور مباشرته لسلطاته ،بدأ الاعداد للحملة باستدعاء الضباط العرب للاشتراك وأرسل الى الشريف حسين لاعداد مالديه من قوات للمساهمة ووافق على هذا الطلب ظاهريا [٧]. عندما أستثار بالفعل قواته الغير نظامية وسارببهم الامير (علىّ) قائد فرقة الحجاز نحو المدينة المنوره ثم توقف بهم عندها - بحجة الراحة بينما واصل الجند الاتراك زحفهم باتجاه الشمال - خلال ذلك عثر على محفظة للاوراق السرية لـ (وهيب بك) والتقطها أحد أعوان الشريف ، فأرسلها اليه ، وتضمنت بعض أوراقها مراسلات بين الوالى وحكومته بالاستانه تتعلق بكيفية القضاء على الشريف حسين وذريته وأقصاءهم عن الحجاز ووضع أسس اداريه تضمنت عدم استقلاليه هذا الاقليم عن كيان الدولة العثمانية [٨]

أنحسار امكانات الشريف عند القبائل :

عند هذا الحد تأكدت شكوك الحسين أزاء سوء فهم الاتحاليين وبدأ بصوره فعلية بعد العده لتحقيق أهدافه الذاتيه المغلفه بالاطار القومي وسار فى هذا الاتجاه على محورين أساسيين:
المحور الاول : الاطلاع على موقف القوميين السوريين وامكانياتهم بارسال ابنه فيصل الى دمشق بغية دراسة هذه المواقف عن كثب .

٧) مذكرات عبدالله ،نشر أمين أبوالشعر - عمان ١٩٦٥ ص ص ٩٦ / ١١٣ .
٨) نفس المصدر ص ص ٧٠ / ٨٠

المحور الثاني : معاودة الاتصال ببريطانيا بصورة مكثفة حتى يمكن تحديد موقفها بصورة واضحه ومايمكن أن تقدمه للحركة العربية .

وعلى المحور الاول سافر فيصل الى دمشق فى أواخر ديسمبر ١٩١٤ محملا بمهمة مزدوجه ظاهرها عرض شكوى والده الشريف على الصدر الاعظم من تصرفات وهيب باشا وماضمنته وثائقه الخاصة . وباطنها الاتصال باعضاء وقادة الحركة العربية بدمشق .(٩)

وبعد أداء فيصل مهمته بالاستانه وحصوله على وعد بعدم عودة وهيب بك الى الحجاز حيث صدر بالفعل قرار تعينه قائدا للجيش الثاني باستانبول - عاد الى دمشق فى أواخر مايو ١٩١٥ - حينئذ كان الشعور المضاد للاتراك قد بلغ ذروته ، نتيجة لسياسة جمال باشا التعسفيه التى بدأ أتباعها عقب حملته الفاشلة على قناة السويس فى فبراير ١٩١٥ - ومحاكمته لبعض قادة الشام ثم تنفيذ حكم الاعدام بأحد عشر رجلا منهم وعلى رأسهم (عبد الكريم الخليل رئيس المؤتمر العربي بباريس .(١٠) وأطلع زعماء الحركة فيصل - على ماتوصلوا اليه من أتفاق سمى (ميثاق دمشق) وضم شروط العرب لعقد اتفاق مع بريطانيا ، باعتبارها أكثر القوى الاجنبية حضورا بالمنطقة ولضمان تأيدها لمشروع الدولة العربية المستقلة والمقترحة ،وعقد معاهدة دفاعية معها ،واعطاءها حق الافضلية لتنفيذ المشروعات

---

٩) أمين سعيد - الثورة العربية الكبرى - ط القاهرة - ص ص ١٠٧ / ١١٣

١٠) نفذ حكم الاعدام بالفعل فى ٢١ أغسطس ١٩١٥ . وضمت هذه القائمة بالاضافة الى الخليل - مسلم عابدين - محمود العجم - محمود المحمصاني - صالح حيدر - نايف تللو محمد المحمصاني ، عبدالقادر الخرسا ،نور القاضى على الارمنازى ،سليم عبد الهادى .

الاقتصادية بتلك الدولة بعد قيامها[١١] ووعد فصل قادة دمشق باطلاع والده على بنود هذا الاتفاق وقد قام بذلك فعلا عقب عودته الى مكة المكرمة فى منتصف شهر يونيه عام ١٩١٥ .

وفور ذلك بدأ الشريف الخطوات الفعلية لمحوره الثانى بالاستوثاق من موقف بريطانيا الذى استأنفه بمذكرته الاولى الى هنرى مكماهون Henry Mcmahon فى يوليو ١٩١٥ بما أشتهر تاريخيا (مراسلات حسين / مكماهون-Correspondence Between Sir H. McMahon and The Sherif of Mecca). ازداد الشريف حسين خلالها قناعة وميلا نحو القيام بالثورة ضد الاتراك خاصة بعد أن تلق رسالة مكماهون فى سبتمبر١٩١٥ وأعدا اياه بمساندة الثورة حال قيامها[١٢].

والتقت أهداف الشريف مع رغبة بريطانيا فى استنفار العرب ضد الاتراك فقامت فى هذا الصدد بعدد من الاجراءات منها ما أصدرته من بيانات وتصريحات تضمنت احترام انجلترا لمشاعر المسلمين ، وملتمسه من العرب عدم تقديم المساعدة (للاعداء) فى ذات الوقت الذى طلبت فيه من الشريف البدء بالخطوات التنفيذية للقيام بالثورة مع ترك أمر تحديد مكانها وزمانه ، تبعا لما يراه هو .[١٣].

ظل الشريف خلال الاشهر الاولى من عام ١٩١٦ ،على قناعة بامكانية العرب باشتعال الثورة فى آن واحد بكل من سوريه والحجاز ،بالرغم من التشتت الذى أصاب الضباط العرب بدفعهم نحو جبهات القتال ، الا أنه ظل موقنا بامكانية قيام

---

١١) جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ ترجمة - ناصر الدين الاسد وأخر بيروت ١٩٦٦ ص ص ٢٣٩ / ٢٤٤ .

١٢) Correspondence between sir H. McMahon and the Sherif Hussein of Mecca. London , 1939.

١٣) F.O. 371/ 2486. Letter from R. Wingate to Sherif of Mecca , 19 7/1915

سكان الشام بثورة شعبية كبديل لتلك القوات على أن يساعد تلك الثورة الضغط العسكرى الانجليزى على سواحل الشام .

وما لبث ألشريف أن تقوقعت أماله بعيدا عن هذا الهدف وتلك الخطط مع أعدام الدفعة الثانية من الوطنيين بالشام فى مايو ١٩١٦ (١٤) وزج جمال باشا بالكثيرين بالسجون وأبعد البعض الاخر خارج البلاد (١٥) وأحجام بريطانيا عن انزال قواتها على سواحل الشام متعلله بالعديد من الحجج كان منها أن تنفيذ مثل هذه الخطة مرتبط ارتباطا وثيقا بالخطط الحربية مع حلفائها فى الحرب ، ولكنها فى ذلك الوقت - مايو ١٩١٦ كانت قد وصلت الى أتفاق مع فرنسا لتقسيم المنطقة العربية ، فيما عرف باتفاق (سايكس - بيكو (Sykes - Picot Agremeent) عندها انحسرت امكانية الثورة عند حدود الحجاز جغرافيا وبشريا ،بعد أن أفرغت سوريه من قيادتها الوطنية وأضحت الثورة الشعبية داخليا بعيدة المنال مع التركيز العسكرى التركى بها من أجل القيام بهجوم عسكرى أخر على جبهة قناة السويس .

لم يكن لدى شريف مكه من العناصر التى تؤهله للقيام بعمليات عسكرية ،سوى ما يسطر عليه جغرافيا وبشريا ،والوعود البريطانية بالامداد والتموين وبالسلاح حال قيام الثورة ، بدعوى عدم رغبتها الزج بنفسها عسكريا فى شئون داخلية

١٤) صدرت أحكام الاعدام على واحد وعشرين شخصا ،كان منهم عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر العربى بباريس وعضو مجلس المبعوثان وشكرى العسلى وشفيق المؤيد ورشدى الشمعة من أعضاء المجلس أيضا والامير عمر الجزائرى ورفيق سلوم عضو جمعية العربية الفتاه وعبدالوهاب الملجى وسليم الجزائرى وأمين الحافظ وعارف الشهابى .

١٥) أحمد قدرى - مذكراتى عن الثورة العربية - دمشق ١٩٥٦ ص ٣٦ / ٤٣ ولايضاح موقف جمال باشا - أنظر مذكرات جمال باشا - ترجمة على أحمد شكرى .

خاصة بالحجاز لوضعه الديني في المشرق العربي .

وهنا كان على الحسين أن يستثمر فقط طبيعة الارض وولاء القبائل ومساعداتهم ثم عامل المفاجأة الذي يؤهله لاخذ زمام المبادرة ، أمام قوات منظمة يبلغ تعدادها مايقرب من ثلاثة عشر ألف رجل مسلحين بالمدافع والبنادق الحديثة (١٦) وموزعين بمكة المكرمة التي بلغت حاميتها مايقرب من ألف وخمسمائة رجل تحت قيادة درويش بك ومعهما مايزيد قليلا على العشرين مدفعا ، وتألفت قوة (جدة) من ألفين وخمسمائة جندي وضابط ومعهم عشر مدافع ، أما قوة (الطائف) فكانت تحت قيادة الفريق (غالب باشا) الذي تولى ولاية الحجاز بعد عزل وهيب بك ، ومعه قوة تصل الى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ومعهم عشر مدافع ،ثم سهل الخط الحديدي من أستانبول الى المدينة المنورة مهمة نقل الامدادات والذخيرة الى تلك القوات (١٧).

أما الحسين فكان قوام قواته تعتمد على مامنحته الطبيعة لبيئته من تضاريس جغرافية ، وأغلبية ساحقة من القبائل البدوية .

فمنطقة الحجاز التي يسيطر عليها تمتد لمسافة ١٨٠٠كم من العقبة شمالا حتى جيزان جنوبا تتباين فيها التضاريس من المرتفعات الحادة كجبال (السروات) ومايتخللها من وديان الى الهضاب التي تأخذ بالانحدار التدريجي باتجاه

---

١٦) F. O . 371/148, Despatch from Sherif of Mecca to Mr. storrs, oriental Secretary of British Represe-entative, Cairo, 26 th Aug. 1915

١٧) F . O . Ibid.

الشمال والشرق كهضبة الحجاز والحسمى [١٨] مما نجم عنه من تشتت بأنواع النشاط (الاقتصادى) لقاطنى تلك البقاع بين زراعة ورعى الى صيد للاسماك [١٩].

ثم أضاف بأس القبائل وتناقض العلاقات بينها تشتتا آخر فقد أستظلت قبيلتى (جهينه) و (بلى) بقوة قبيلة (حرب) أعظم قبائل الحجاز عددا ونفوذا ،وتحكمت(الحويطات) بما بسطته من نفوذ لها على المنطقة الفاصلة بين شمال الحجاز والجنوب الغربى لبلاد الشام وأشتهر من فروعها (آل جازى) ثم (أبوتايه) الذين آلت اليهم زعامة القبيلة ،ولعب شخيها (عوده) دورا ملموسا ومؤثرا خلال مراحل الثورة [٢٠].

وتوازت قوة (الحويطات) مع قبيلة (الرولا) وزعيمها (نورى الشعلان) . الذين اتخذوا المنطقة الممتدة على طول (وادى السرحان) حتى الصحراء السورية موئلا لهم ، ولم يفت فى عضدهم مافرضه عليهم آل الرشيد - أصحاب حائل - من نفوذ منذ عام ١٢٨٩ هـ ١٨٧٢م [٢١].

ومن الصعوبة بمكان ايجاد حد فاصل بين (مصالح القبائل الاقتصادية) و (موقع سكناهم جغرافيا) مع انعدام تلك المفاهيم لدى البدو الا أننا نستطيع اعتبار المنطقة الصحراوية شرق نهر الاردن ،مجالا غير محدد الانتماء

---

١٨) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى - صفة جزيرة العرب تحقيق - حمد الجاسر الرياض ١٣٩٤م/ ١٩٧٤ م ص ص ١٠/١٤١

١٩) أيوب صبرى باشا - مرآة جزيرة العرب - ترجمة د. أحمد فؤاد وذ . الصفصافى مرسى ط ١ الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ ص ص ١٩٩ / ٢٠١ .

٢٠) لورانس (ته أ) أعمدة الحكمة السبعة - ط ٣ بيروت - فبراير ١٩٧٩ - ص ١٥٢ ط

٢١) حمد الجاسر - فى شمال غرب الجزيرة ط ٢ الرياض - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ - ص ص ١٢٣ / ١٢٩ .

بالنسبة لقبائل الحجاز والشام على حد سواء ، وماىلى ذلك المجال شمالا وغربا بمكن ادخاله ضمن نطاق القبائل الشامية انتماء ومصالح .

واذا ما أتفقنا على ذلك فقد أنضوت بين ثنايا هذا الحيز الجغرافى الاخير قبائل (السراحين) الذين امتدت فروعهم الى (بير سبع) (وجبل الخليل) وقبيلة (بنى صخر) الذين تزعمهم ، (فواز الفايز) ثم (السردية) و (القيسية) الممتدة بسكنى عشائرها حتى (درعا) .

وجمعت تلك القبائل الشامية بين صفات البدو الرحل والجماعات المستقرة ، وبالتالى بين سمات الرعى والزراعة (٢٢). أما (الدروز) الذين شهدت حياتهم وتاريخهم صراعا متواطلا مع البدو الرحل فقد احتفظوا لانفسهم بحياة اقطاعية جمعوا فيها بين الفروسة والقوة الاقتصادية ، مما تمخض معه نفوذا سياسيا واداريا فى منطقة الشام لفترات طويلة (٢٣).

وبالرغم من تباين القبائل الحجازية والشامية فى ميولها وتعدد أنشطتها وأهتماماتها الا أنهم جميعا قد أكتسبوا صفات ـ خاصة فيما يتعلق بالقتال ـ تكاد تتشابه فيما بينهم خلقتها متطلبات معيشتهم وهى فى النهاية لاتستقيم بصورة متوازية مع أساليب (القتال الحديث)

---

٢٢) (بيك) فردريك ـ تاريخ شرق الاردن وقبائلها ـ ترجمة بهاء الدين طوقان عمان ١٩٤٦ م ص ص ٨٧ / ١٠٣ ـ ولمزيد من القاء الضوء على أوضاع المنطقة جغرافيا وبشريا أنظر أيضا ـ خطط الشام ـ لمحمد كرد على ـ دمشق١٩٢٨.

٢٣) ظل الدروز يكونون بؤره لمقاومة الدولة العثمانية خاصة خلال ق ١٩ متخذين من حوران والسويداء مركزهم الرئيسى منطلقا لذلك ، وأشهر مثال على ذلك ثورتهم أعوام ١٨٥١م/١٨٧٩م و ١٨٩٠ ..... الخ وحاول ولاة سورية من جانبهم اتخاذ أساليب متعدده ـ لاستقطاب موقفهم بنشر التعليم فيما بينهم والتقرب الى زعمائهم ودفع مرتبات سنوية لهم انظر :الادارة العثمانية فى بلاد الشام ـ عبدالعزيز محمد عوض القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٩٠ / ٢٩٣ .

نسبيا الذى اعتمد عليه الاشراك وأشهر تلك الصفات التى أشتهروا بها (القيافة) أو تتبع الاثر (٢٤) والاعتماد على الذات الشخصة ، فالقليل من التموين أثناء القتال يكفى ، مما خفف من تلك الاعباء على الشريف خلال مراحل الثورة (٢٥).

واتقن البدو أسلوب الحصار والمباغته ليعوضوا افتقارهم الى الاسلحة ، وتبلور ذلك من خلال المراحل الاولى لقيام الثورة ، وفى تلك النقطة تختلف قبائل الحجاز عن القبائل الشامية .

فبينما اعتمد الفريق الاول على هذا الاسلوب ، فاذا بالفريق الاخر ، تغلب على طاعة الميل الى المواجهة المباشرة باستخدامهم الجيد للخيول ، سواء عند الالتحام المباشر أو بالمساعدة فى نقل المدافع من مكان الى آخر (٢٦).

أسباب أنضمام القبائل للثورة العربية :

لقد كان الشريف على ادراك كامل لهذه الصفات التى اتسم بها البدو عندما قادته اليها الاحداث السابقة على المستوى الخارجى أو ظروف بلاده داخليا ، وعندها تقوقعت حدود الامكانيات لديه للقيام بالثورة التى القى على كاهله مسئولية قيادتها على اقليم الحجاز مع امكانياته

٢٤) اشتهر (بنى مرة) وهم فرع من قبيلة حربا بتلك الحرفة بين أبناء الجزيرة العربية ، وزاع صيت رجل منهم يدعى (صالح بن عامر بن جابر) بصورة خاصة ، ومن غرائب الامور أحتكارهم هذه المهنة لانفسهم دون غيرهم ، وحافظوا عليها بعدم التزاوج من غيرهم لمذيد من التفاصيل أنظر . الجزيرة - حديث الذكريات مع أشهر قصاص الاثر - (الشيخ صالح بن عامر) -٢١- ذى الحجة ١٤٠٢ هـ / ٨ أكتوبر ١٩٨٢ م.

٢٥) لورنس المصدر السابق - ص ص ٥٧ / ٨٧

٢٦) Thesiger , (Wilfred), Arabian Sands, London, 1959 . pp. 96/106

المتواضعة شخصا والتي اعتمد أهاليها على العواطف والتاريخ ، والوعود البريطانية له ويعلم في ذات الوقت أن البدو لن يسيروا من وراءه تبعا لتوجيهاته الا بحثا عن مصالحهم الذاتية الآنية ،وقد أستطاع خلال توليه الشرافة وبما تعارف عليه من تقليد في تقسيم مهام الحكم بينه وبين من سبقه من جهة وولاة الحجاز، بأن يتولى الاشراف تأمين قوافل الحج ومعالجة شؤون القبائل وحل الخلافات بينهم معتمدا على عصبيته الخاصة [٢٧] ويتولى الوالي شؤون الحضر خاصة بالمدن والامور القضائية المتعلقة بها بالاضافة الى قيادة الجند النظامي التركي .

ومن أجل الحفاظ على سلامة وأمن قوافل الحج ، كانت الدولة العثمانية تكثر من العطايا لشيوخ القبائل خاصة قبيلتي (حرب) و (جهينه) عن طريق الشريف وتستعين به من أجل الحد من غلواءهم وتعطشهم الاستيلاء على مال الحجيج [٢٨].

يقول نصيف بهذا الصدد :

(انه - أي الشريف - لم يترك واحدا من الاهالي يتقاضى في قليل أو كثير الا عنده سواء كان ذلك في المسائل الشخصية أو الحقوق المدنية بساعده على ذلك خبرته الواسعة باستانبول وضعف الامراء الذين تولوا الامارة ،فاذا حدثت أحدهم نفسه بمعاكسة الشريف أوعز الى أعيان الحجاز بالكتابة الى العاصمة بالشكوى فلايلبث أن ينقل أو يعزل .

---

٢٧) نشأت الشرافة في أوائل القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي على يد أحد الاشراف الحسينين ويدعى (أبا محمد جعفر الموسوي - من نسل الحسين بن علي ،ويعتبر مؤسس العائلة الشريفية الاول . أنظر - فؤاد حمزه قلب جزيرة العرب - ص ٣١٣ .

٢٨) حسين محمد نصيف - ماضي الحجاز وحاضره . القاهرة ١٩٥١م ص ص ١٥ / ١٦ .

وهنا نستطيع تفسير ظاهرة تعاقب الولاة بالحجاز - كما سبق أن المحنا خلال شرافة الحسين بن على فى الفترة من ١٩٠٨ حتى ١٩١٦ .

أمام هذا كله لانتفق مع (لورنس) فيما ادعاه من انسياق البدو وراء الحسين لهدف قومى [٢٩]. فاذا صدق هذا القول نسبيا على القبائل التى قطنت الشام لاحتكاكهم بصورة اوسع بالاحداث بها ، فانه كان بعيدا تماما عن قبائل الحجاز التى لم يكن لديها الادراك الكامل ثقافيا وسياسيا - [٣٠] ناهيك عن الهدف القومى - بل لم يدركوا مغزى الاحداث أو مايجرى حولهم ، حتى يؤيدوا الشريف أو يعارضوه ، بل جهلت معظم القبائل مغزى الحرب والثورة على حد سواء [٣١].

ولم يحاول الحسين أيضا الضرب على أوتار العامل الدينى حتى لايوقع نفسه أسير التناقض بين مكانته الدينيه بالحجاز بل ونسبه هو شخصيا - وانحيازه للانجليز ضد الاتراك الذين رفعوا قبل ذلك وعند قيام الحرب العالمية الاولى شعار - الدفاع عن المسلمين - وحماية العالم الاسلامى فاعتمد فقط - لكى يضمن تأييد القبائل له والاشتراك معه فى الثورة ضد الاتراك على أسلوب الاثارة والدفاع عن مصالحهم الذاتيه ، وأنهم - أى الاتراك من وراء حجب المعونات والامدادات التى كانت تصل اليهم من مصر قبل وظلال الحرب العالمية ، بالاضافة الى استغلاله لبعض مظاهر القسوة التى ظهر بها الولاه والجند التركى بالحجار .

---

٢٩) لورنس - المصدر السابق - ص ٥٤ .

٣٠) F. O. 371/5149. Letter forl Kitchener To Grey 9,5/ 1915 .

٣١) رسالة من شيخ مشايخ (ريم) عز الاسلام محمد بن على الى مكتب القاهرة مؤرخه ٨ صفر ١٣٣٩ هـ .

من هنا كان انسياق البدو وراء الشريف - جريا وراء مطامحهم الذاتية لكل قبيلة على حده وتنوعت هذه الاسباب أقتصاديا ودينيا وسياديا .

فأما قبيلتى (حرب) و (جهينه) فكانتا من أكثر القبائل التى أصيبت بالضرر نتيجة لقيام الحرب العالمية فمن ناحية أدى فرض الحصار على شواطىء الحجاز الى منع وصول الامدادات الغذائية القادمه من مصر والسودان . وتهديد القوافل التجارية التى كان تعتمد عليها هاتين القبيلتين فوقع البدو والحضر على حد سواء فى ضائقة شديدة ، ومن ناحية أخرى تقلص الحجيج لموسم عام ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م ، وبالرغم من الدعاية التركية المكثفة بأن الانجليز هم السبب فى منع الكثير من المسلمين أداء فريضة الحج ، الا أن من قدم منهم من جنوب ووسط السودان مثلا ، أفهموا بعض أفراد حرب وجهينه أن الانجليز لم يضعوا عراقيل أمام تأديتهم الفريضة (٣٢) .

هنا بدأت فروع حرب التصدى للاتراك ، فقتلوا أربعة من الجند بالمدينة المنورة عندما شاهدوا عددا من المدافع الالمانية يستقدمها الوالى الى المدينة فى ربيع الاول ١٣٣٣هـ يناير ١٩١٥ م . (٣٣)

ونرى فى الخلاف المذهبى عاملا أساسيا فيما ضمته أعداد غفيرة من حرب من عداء للاتراك حيث ينتشر (التشيع) بكثرة بين أفرادها ، خاصة بفروعها القاطنة حول (جبل رضوى) قرب

---

٣٢) F.O. 371/2486, Letter from Mc Mahon to E.Grey, 26 th Aug. 1915 .

٣٣) فؤاد حمزه - المصدر السابق - ص ١٠٣ / ١٥١ .

ينبع ، فاشتهروا فرصة الثورة للانتقام من الاتراك ـ السنة والجدير بالذكر هنا أن (ابن عريفان) رسول الشريف الى مكماهون من معتنقى هذا المذهب فهو من (زبيد) أحد أفرع حرب (٣٤).

وكان لهذا العامل أثره فى توالى الهجمات من قبل هذه القبيلة على الحاميات التركية حول المدينة المنورة ـ خلال شهر ديسمبر ١٩١٤ ، عندما قتلوا مايزيد على عشرة جنود من الترك والالمان . ويبدوا أن الشريف أراد أستغلال هذه الثغرة المذهبية عندما ظل يحث الانجليز على انزال حملة عسكرية على سوريه ـ بهدف اثارة (الحماس المذهبى) بين أهل سورية وشيعة الحجاز (٣٥). على حد قوله ، وان امتنعت انجلترا عن ذلك لاسباب تتعلق بأمر مصالحها مع فرنسا.

أما (الشرارات) و (بلى) و (الحويطات) و(الرولا) التى تمتد فروعها الى بادية الشام فقد أستغلوا قيام الثورة ومناشدة الشريف لهم الاشتراك فيها للانتقام والتخلص من مظاهر السيادة الى فرضها عليهم آل الرشيد بمعاونة الاتراك منذ عام ١٨٨٩ ،وقدمت لهم الدولة العثمانية يد المساندة لضرب القوى المعادية لهما داخل الجزيرة العربية كآل سعود وآل الصباح من ناحية ، ومن أجل حماية سكة حديد الحجاز الذى يمر بين سكنى تلك القبائل من ناحية أخرى (٣٦).

---

34) F.O. 371/2486, Letter of Mc mahon, 26th Aug. 1915
35) F.O. 371/8215. Letter from Hussein to Mc Mahon, 6 th Mar. 1916
٣٦) حمد الجاسر المصدر السابق ـ ص ١٢٦ / ١٢٧ وانظر كذلك : Hawarth , (David) The Desert King, london 1964 , pp. 142/167

ومن خلال هذه العلاقة عومل سكان الجوف ووادى السحان وكأنهم جزء من حائل أو نجد [٣٧] ففرضوا الاتاوات على القبائل ، وعاث ال الرشيد فى أرضهم فسادا ، فقطعوا نخيلهم وأستولوا على خيلهم عند أية بادرة تثير الشك ، لذا فقد كان الترحيب من قبل (ثورى الشعلان)و(عودة أبو تايه) برسل فيصل السهم فى سبيل التخلص من هذه السيطرة أمرا منطقيا لم يتوان رجال القبائل عن قبوله [٣٨].

أما قبائل الشام ،فقد تداخلت أهدافها بين المصالح الذاتية عند بعضها وبين الاهداف القومية عند بعضها الاخر فأما الفئة الاولى فقد ضمت بقية فروع الرولا (والد راوشه) و (الزاويده) و (الزلساني) الذين قطنوا شرقى نهر الاردن وشماله وأستغلوا أحداث الثورة للتخلص من سطوة (عودة أبوتايه) عليهم واستشارد بالمعونات والامدادات التى كانت تصل لحسابهم حينا من الاشراف وأحيانا أخرى من الاتراك وأشترطوا على فيصل أن تعود (العلاقات) بينهم بصورة مباشرة حتى ينضموا اليه [٣٩].

أما زعماء (بنى صخر) (مثقال) وأخوانه (فواز وقايز) فبالاضافة الى رغبتهم فى استمرارية تدفق الاموال الانجليزية السهم واشتراطهم زيادتها ، فقد أشتركوا فى الموءتمر الذى انبثق عنه (ميثاق دمشق) - كما ذكرنا سابقا وبهذا فقد جمعت هذه القبيلة بين المطامح الذاتية ، والاهداف القومية والتى تندرج بها فى الفئة الثانية من قبائل الشام والتى ضمت (بنى سرحان - السراحين)

٣٧) كانت نجد فى هذه الفترة حتى دخول عبد العزيز ال سعود الرياض عام ١٩٠١ تحكم بواسطة عجلان) من قبل الالرشيد.
٣٨) الجاسر - نفس المصدر - ص ١٢٧ .
٣٩) لورنس - المصدر السابق - ص ٣٤٦. (٥) نفس المصدر -ص ٣٣١.

و(السردية) و (القرشية) وساد فيهم (طلال الحريديني) سيد سهل حوران المحيط بدرعا والذى أنضم هو الاخر الى (لجنة دمشق) - مع الزعيم الدرزى (نسيب البكرى) الذى كان ناقما على الاتراك - مع بعض الزعماء الدروز الاخرين أمثال (نسيب الاطرش) واللواء متقاعد (على رضا الركابى) [٤٠].

مقدمات وأحداث الثورة :

كان اعدام الدفعة الثانية فى مايو ١٩١٦ هى التحديد الدقيق لنطاق وامكانيات الثورة بالحجاز وأهله جغرافيا وبشريا ،خاصة بعد أن مهد الحسين أوضاعه امنيا ،وامن جانب منافسيه سياسيا بما عقدته بريطانيا مع الادريسى وابن سعود وتعهدا ـــ بعدم الاعتداء على أصدقاءها بالمنطقة [٤١] وبما أرسلاه من رسل تؤيد الشريف فى حركته ضد الاتراك .

ثم كانت أبرز المهام (الدبلوماسية) للتمهيد للثورة ماقام به (محمد بن عريف بن عريفان) من فرع (المسروح) من حرب - حين أختاره الشريف حسين كرسول له مع مكماهون مستغلا كثرة أسفاره التى تبعد عنه الشبهات ، وكراهيته الشديدة للاتراك الذين أعتقلوه لمدة ثلاث سنوات بالحديدة

---

٤٠) سليمان د. موسى - الحركة العربية ص ١٢٥ - وكان آل البكرى - هم مضيفى فيصل خلال أقامته بدمشق ،وكونوا همزة الوصل بينه وبين بقية زعماء سوريا ، كما تعهد فيصل مع زعماء الدروز وعلى الركابى - رئيس بلدية دمشق حينئذ بالمساندة والمشاركة بالثورة . أنظر أمين سعيد - الثورة العربية الكبرى - ص ص ٢٦ / ٢٩ .

٤١) عقدت بريطانيا معاهدة مع الادريسى ٥ أبريل ١٩١٥ - نصت على أن الهدف منها هو الاعداد لشن الحرب على الاتراك وحماية الادريسى ضد أى هجوم يقع عليه أنظر : محمد بن أحمد عيسى العقيلى - المخلاف السليمانى - ص ص ١١٤ . كما عقدت أيضا معاهدة مع عبدالعزيز ال سعود فى أواخر ديسمبر ١٩١٥ - تعهد فيها الاخير بعدم الاعتداء أو المساس بمن لهم علاقة ود مع بريطانيا والا يعقد اتفاقا أو معاهدة الا بموافقتها . أنظر : أمين الريحانى - تاريخ نجد الحديث وملحقاته - ص ص ٢٠٣/ ٢١٠ .

عام ١٩٠٧ [٤٢].

ومع آخر رسائل مكماهون الى الشريف فى مايو ١٩١٦ - والتى حملها (ابن عريفان) ونصت على أن يبدأ الحسين ثورته بالحجاز أولا ، حتى يمكن بريطانيا على ضوءها تقديم المساندة اللازمة لها ، معتمدا أولا على القبائل [٤٣] التى يمكن تقسيم دورها الى أدوار - ثلاثة على النحو التالى :-

الدور الاول : عندما مثلت القبائل القوة الرئيسية فى تطور أحداث الثورة وبدأ هذا الدور منذ قيامها حتى سقوط مدينة (الوجه) عام ١٩١٧

الدور الثانى : ويبدأ من سقوط (الوجه) عندما أخذ دور القبائل يتحول الى المساندة للقوات النظامية العربية ، ومع بداية التركيز على نسف الخط الحديدى والمحطات ،وأستمر هذا الدور حتى سقوط العقبة والوصول الى (درعا) فىّ أغسطس ١٩١٨ .

الدور الثالث : ويبدأ بالتمهيد للزحف على(درعا) وتحول دور القبائل والقوات النظامية على حد سواء الى مجرد العمل على جذب أهتمام الاتراك وتشتت جهدهم العسكرى أمام الهدف الرئيسى لزحف القوات البريطانية بقيادة (اللنبى Allenby) من فلسطين الى دمشق ابتداء من أغسطس ١٩١٨ حتى أوائل اكتوبر من نفس العام .

---

42) F.O. 371/2486? letter from sherif of Macca to Mr. Storres, Oriental secartary of British Representative, 14 th guly, 1915.

43) F.O. 882/19 , Letter from Mc Mahon to Sherif of Mecca 22 th May 1916.

أعد الشريف نفسه القيام بالثورة فى شهر أغسطس عام ١٩١٦ عندما تأوى القبائل الى مواطنها فى أشهر القيظ وبعد انتهاء موسم الحصاد ، لكن تواتر الانباء عن قيام حملة تركية فى طريقها الى اليمن ، أثارت مخاوف الشريف ، وظنها خدعة من الاتراك للقضاء عليه ، فدعى بواسطة ابنه (على) شيوخ (جهينه وحرب وبلى) للاجتماع به فى المدينة المنورة فى الاول من يونيه ، وأنضم الى الاجتماع شيوخ (بنو سالم) لفرع الاخر لحرب والذين كانوا عونا لال الرشيد نكاية بالفرع الاول (المسروح) بعد أن أجزل لهم (على) العطاء خاصة مع توقف المعونات التركية اليهم بسبب الحرب ، وتعهد الجمع على المؤازره والمساندة [٤٤].

تقهقرت القوات التابعة للشريف والملتفه حول المدينة المنورة بدعوى مساندة الاتراك من أجل القيام بالحملة الثانية على القناة باتجاه الجنوب وبادروا بقطع أسلاك التليفون بين (جدة) و(مكة المكرمة) و (المدينة المنورة) و (الطائف) التى انتقلت اليها معظم القوات التركية هربا من شدة الحر - كعادتها كل عام .

وبالرغم من ادراك (فخرى باشا) قائد قوات المدينة المنورة ، بأن شيئا مايجرى تدبيره الا أنه لم يجروء على الخروج من مصيفه بالطائف خشية تربص البدو بين أودية جبال (الهدى) المحيطة وقلة أبار المياه بها [٤٥] بهذه القوات المنسحبة وبزعامة (محسن بن منصور) زعيم حرب والتى لم تتلق سوى تدريبات ثانوية على القتال ، طوقت تشكيلات

---

٤٤) القبلة - السنة - العدد الاول - ١٤ أغسطس ١٩١٦.
٤٥) نفس المصدر .

القوات التركية بمدن الحجاز الرئيسة بواسطة البدو ، في الوقت الذي حدده الشريف حسين بن علي لبدأ الثورة وهو العاشر من يونيه مع (ابن منصور) في الوقت الذي أبلغ فيه (ابن عريفان) (ستورس) وكان على مقربة من شاطيء الحجاز بموعد الثورة .

وكانت اشارة البدء ، طلقات من قصر الشريف فجر ذلك اليوم ، معها أحكم البدو الحصار وقطعوا سبل قوافل التموين والامداد التركية للقوات دون الدخول معها في قتال مباشر (٤٦).

لم يكن بمقدور هذه القوات البدوية تحقيق نتيجة حاسمة بالقتال اللهم الا مع يأس الاتراك ونقص الامدادات اليهم ، أو بمساعدة قوة أخرى من قبل انجلترا مثلا . وظل هؤلاء البدو أسرى لعاداتهم وتقاليدهم التي نشأوا عليها وتقوقعوا داخل نطاق أفقهم الذاتي وقدراتهم العسكرية المحدودة ، معتمدين في المقام الاول على عنصر المباغتة وطبيعة الارض .

فقد أستلمت جدة فقط عند وصول ثلاثة من السفن الحربية (دوفرين) و (هاردنج) و (فوكس) يوم ١٣ يونيه وضربها ثكنات الاتراك .

وفي ٩ يوليو استلمت (مكة المكرمة) بعد وصول ثلاثة مدافع من جدة ،ووصول اثنى عشر مدفعا انجليزيا بقيادة الاميرال (سيد علي المصري) مع بعض البنادق وبعد اقدام البدو على قطع أسلاك الهاتف بينها وبين المدن الاخرى ولم ينجحوا في الاستيلاء على قلعتي (آجياد وجرول) ببنادقهم ، فتراجعوا أمام قوة نيران المدفعية التركية (٤٧)

٤٦) القبلة - السنة الاولى - العدد الاول والثاني ١٤/١٧ أغسطس ١٩١٦ .

٤٧) مذكرات الامير عبد الله - نشر أمين أبو الشعر - عمان ص ١٠٩ / ١١٨ .

حتى استطاع القائد المصرى بمدافعه هدم القلعتين فسهل لعشائر حرب دخول مكه فى ذلك اليوم وقضوا بقيته فى جمع الغنائم .

وكذلك كان الحال بالطائف ،عندما اعتمد (عبدالله) قائد قواتها المهاجمة على تشديد الحصار ، واشعال النار على رؤوس الجبال لايقاع الرعب بالاتراك ، وبالرغم من وصول ثلاثة مدافع ومعهم أفراد طاقمهم ممن استسلموا فى مكة المكرمة ، الا أن تلك القوات المهاجمة لم تتمكن من دخول الطائف التى لم تستسلم الا مع انقطاع سبل الامداد والتموين فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٦ (٤٨).

أما فى المدينة المنورة ،فبالرغم من أنها كانت أولى المدن التى أستشعرت حاميتها بوادر الثورة الا أن ، أسلوب الحصار الذى أتبعه (على وفيصل) لم يجد نفعا أمام تدفق الامدادات الى المدينة عبر خط السكة الحديد وعندما لجأت (حرب) الى نزع القضبان استطاع الاتراك اصلاح الخط بل وتحولوا الى الهجوم على مواقع البدو بالمدفعية فأرغموا على التراجع لمسافة تزيد على العشرين كيلو متر فارتد فيصل الى الشمال ومعه عشائر جهينه وبلى وتحصنوا بتلال (ينبع) ، واتجه (على) جنوبا الى (رابغ) ومعه عشائر (حرب) (٤٩)

هنا بدأت القبائل تفقد حماسها الذى لازمها منذ بداية الثورة وبدا لهم أن انساقهم خلف فيصل وعلى لم يعد يحقق لهم استمرارية تدفق الغنائم ، فبدأت أفرع منهم تتحول الى الجانب السلبى فى علاقتهم بقوات الثورة ،فاستولى

---

٤٨) نفس المصدر .
٤٩) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ٢٩٥ .

(حسن بن مبيريك الحربى) على المؤن الانجليزية التى ضمت بعض الاغذية والملابس وأختفا ومن معه بجبال رابغ [٥٠] وأنصرفت عشائر جهينه عن مواقعها القتالية الى مواطن مرعاها بدعوى الرغبة فى الراحة والترود بالطعام [٥١] وأستغل (دخيل الله) قاضى - جهينه - أيضا صراعه مع (محمد على البيضاوى) للوصول الى زعامة القبيلة فتحول لتحقيق هذا الهدف الى عين للاتراك على قوات الثورة وأنحسرت مهام السقة من حرب الذين ظلوا على ولاءهم لفيصل وعلى ، وعلى رأسهم (محسن بن منصور) على رصد تحركات القوات التركية دون أدنى بادرة للمواجهة [٥٢].

وبدأت الثورة تدخل مرحلة الخطر ،مع هذا التحول للقوات التركية من الدفاع الى الهجوم وتعقب قوات القبائل حول رابغ وينبع ، دخل الشريف حسين فى جدال مع انجلترا حول مسألة منصة (كملك للدولة العربية) المقترحة دون الوصول الى اتفاق .

فى هذا الوقت من أوائل يناير ١٩١٧ بدأت الثورة أيضا تشهد خطوط دور جديد للقبائل من دور أساسى الى مساعد نتيجة لعاملين أساسيين : -

فأما العامل الاول : فيرجع الى بداية تطور القوات بوصول قافلة تزيد على المائة جندى وضابط عربى الى (جدة) كان (نورى السعيد) أعلاهم مرتبة فى شهر نوفمبر ١٩١٦ وبصحبتهم مايقرب من عشرين مدفعا من الطراز القديم ،كما وصل (عزيز على المصرى) فى سبتمبر من نفس

---

٥٠) نفس المصدر السابق - ص ٣٨/٣٧

٥١) نفس المصدر - ص ٨٠ / ٨١.

52) F.O. 371 / 6237 letter from 18th Jun 1917 .

العام ، وبالرغم من تباين الاسباب التى دفعته لمغـــادرة الحجاز بعد ستة أشهر فقط الا أن الفضل يعود اليه ، فيمـا وضعه من تقسيم انصب على توزيع القوات الى قسمين :-

الاول : نظامى حسب الاصول المتبعـــة .

الثانية : خفيف من القبائل للعمل خلف خطوط العدو (٥٣).

أما العامل الثانى : فكان ازدياد التركيز الانجليـــــزى لمساعدة الشريف وقوات الثورة ، خاصة بعد الفشل الذى منيت به القـــوات التركية فى حملتها الثانية علـــى قناة السويس فى أغسطس ١٩١٦ ووصـــول المستشارين الانجليز أمثال (جارلند Garland وولسون Wilson وأشهرهم لورنس Lawrence الى الحجاز مع مايزيد على الثلاثين مدفعا نصبت حول رابغ وينبع بالاضافة الى السفن الحربية التى توجهت شمال البحر الاحمر فى مواجهة (الوجه) (٥٤)

بدأ فيصل - الاتصال بقبائل الشمال - بعد أن اتخـــذ من قرية (سمحه) (٥٥) مقرا له ، فبعث بخمس وعشرين رسالـة الى زعماء عشائر (بنى عطيه) و (الحويطات) مؤكدا علـــى وصول جيشه - قريبا الى الوجه ، فجاءه فى منتصف ينايـــر

---

٥٣) نورى السعيد - محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربى فى الحجاز وسوريه ص ص ١٣ / ٢٠

٥٤) أعتبرت أنجلترا - مدينة الوجه - هى بداية خـــط الدفاع - عن المنطقة التى لها حق الدفاع عنهـــا وأولوية أقامة المشروعات بها بموجب أتفاق سايكـس بيكو ضمت تلك المنطقة المعروفة بـ (ب) كركوك وشرق الاردن والنقب والعقبة) .

٥٥) (سمحة) قرية تابعة لخيبر - تبعد مسافة ١٧ كيلـــو متر الى الشرق من خط خيبر / تيماء .

١٩١٧ (عاص بن عطية) وأقسم يمين الولاء . ثم تحولا سويا في أرض العشيرة وقبيلة الرولا (٥٦).

ثم بدأت العشائر بالتجمع في هذه القرية - سمحه ومعها بعض الجند النظامي وحملت السفن الانجليزية عددا من البدو متجهة نحو (الوجه) فقصفتها وأرغمت حاميتها التركية على الاستسلام في ٢٤ يناير ، وأكمل البدو المهمة بدخول البلدة ونهب ما بها (٥٧).

ومع سقوط الوجه - أصبح الخط الحديدى هدفا ميسورا أمام القوات القبلية بتخطيط من الخبراء الضباط الانجليز، كما خضعت سريعا - ضبا والمويلح في مارس ١٩١٧ - بعد قصف المدفعية الانجليزية لها بحرا ودخلتها بعض عشائر (بنى عطية) و (بلى) .(٥٨).

وبسقوط هذه الثغور الشمالية - خضع شاطئ الحجاز لقوات الثورة ، وكان على (فيصل) التمهيد للزحف شمالا ليبدأ الدور الثاني للقبائل في ذات الوقت ، فأوفد رسله الى (نورى الشعلان) زعيم الرولا والى زعماء الحويطات فأرسل الاول أحد تابعيه (فايز الغصن) كما وصل معه الى فيصل وهو بالوجه - (حمد بن جازى) أحد شيوخ الحويطات والمتحكم في (هضبة معان) . وقضى فيصل وقتا طويلا ليصلح مابين القبيلتين من خلاف ، حتى يمهد السبل للوصول الى (العقبة) التى أصبح الطريق اليها ممهدا ،بموجب الصلح بـ (الوجه) .(٥٩).

---

٥٦) لورنس - المصدر السابق - ص ١٠٠ .

57) F.O. 882/ 14, Report of Cleyton, 14 th April . 1917

58) F.O. 882/22, Letter of Wilson,13th May. 1917 .

٥٩) أوراق محب الدين الخطيب - رسالة الشريف ناصر الى الامير فيصل في ٧ أغسطس ١٩١٧ .

في شهر أبريل ١٩١٧ دفع فيصل بحملة ضمت مجموعات من الجند النظامي بقيادة الشريف ناصر ، ولورنس مع مقدمة فدائية استكشافية من البدو وزادت على الثلاثين رجلا عبرت (وادى السرحان) ثم انضمت اليهم بقية (الـــرولا) و(الحويطات) ، وتركز نشاطهم حتى منتصف مايو في تفجير عدو من القاطرات ونزع قضبان الخط الحديدى خلال عبورهم باتجاه الشرق للوصول الى جنوب (معان) ، بينما اشتبكت القوات النظامية في (أبو السن) مع القوات التركية في أول يونيه ، وكان النصر في النهاية من نصيب العرب وبالرغم من الدور الثانوى لقوات الرولا والحويطات ، الا أن (أبواللسن) شهدت مذابح عديده أوقعها البدو بمن أستسلم من الاتراك ، فزادت أعداد قتلاهم عن ٣٥٠ فردا ووقع بالاسر ١٥٠.(٦٠)

وشجع هذا الانتصار قوات ناصرولورنس بالزحف سريعا باتجاه العقبة في أوائل يوليو من نفس العام . ويبدو أن ماأقترفه البدو من فظائع أوقعوها بالفاريين من الاتراك دفعت حامية العقبة الى الاستسلام وبسرعة في السادس من نفس الشهر وبالرغم من ذلك أيضا شهدت المدينة طلقات نارية من قبل البدو الذين أسرعو بدخول المدينة ، وأوقع البدو مرة أخرى مذبحة بالجند الاتراك ، فبلغ عدد القتلى أكثر من خمسمائة قتيل(٦١) ولولا نداءات (الشعلان) و(أبوتايه) و(ابن عقيل) لزاد عن هذا العدد ، ووقع بالاسر أكثر من الثلاثمائة بين ضابط وجندى(٦٢).

وأنتقلت القوات النظامية الى (العقبة) وبدأت

---

(60) F.O. 882/ 13, Letter from Lawrence to Oylayton 16 Jun. th 1917.

٦١) سليمان موسى ـ المصدر السابق ـ ص ٣٠٢ .

٦٢) نفس المصدر .

تحركاتها تعمل على محورين أساسيين :

المحور الاول : قادته القوات النظامية بتوجيه من (جعفر العسكرى) [٦٣] وأستطاعت من الهجمات المتتالية التى أرسلها الاتراك من (معان) بعد علمهم بسقوط العقبة وساعدت الطائرات البريطانية فى رد هذه الهجمات ثم تراجع الاتراك بعد فشلهم المتكررفى منطقة (دلاغة) و (وادى موسى) فى منطقة أبتداء بين العقبة ومعان . وأستمرت هذه الهجمات المتبادلة طيلة شتاء عام ١٩١٧ وبداية العام التالى .

المحور الثانى : قادة (عودة أبو تاية) ومن معه من الحويطات وأنصبت تحركاتهم وهجماتهم على قضبان الخط الحديدى فى المسافة من تبوك جنوبا حتى محطة المدورة شمالا والتى نسفت أيضا ، مع انتشار عمليات القنص للاتراك الفاريين من المعارك النظامية [٦٤].

وخلال ذات الفترة أخذت تحركات قوات الثورة تتسم بطابع الكر والفر مع الحاميات التركية وحرس الخط الحديدى ، ولتكون فى نفس الوقت حالة تمهيدية لبدء المرحلة الجديدة وهى الثالثة ، وقد أتسمت بظاهرتين أرتبطا أساسا بازدياد التركيز الانجليزى العسكرى للزحف شمالا بالشام وهما :

---

٦٣) العسكرى ـ من العراق تخرج من المدرسة العسكرية باستانبول أنضم الى قوات السنوسى فى برقة ، ثم أنضم الى قوات الثورة العربية كقائد لقواتها النظامية فى منتصف عام ١٩١٧ ـ وقد أغتيل فى أنقلاب عام ١٩٣٦ بالعراق .

46) F.O. 882/7, Tele- from Lawernce to Cylayton , 25 th 12/ 1917 .

أولا : انتقال قيادة وتحركات القوات العربية من النظاميين والقبائل على حد سواء الى القيادة البريطانية والى (اللنبى Allenby) على وجه الخصوص.

فقد ضمنت بريطانيا تحقيق أهدافها فى علاقتها بالمشرق العربى ، بتأييد أكثرية العرب ضد الدولة العثمانية ، وثبتت الثورة أقدامها فى منطقة الحجاز ذات الاهمية القصوى بالنسبة للعرب والمسلمين ، كما دخلت الثورة فى هذه المرحلة الجديدة حيز المصالح الذاتية البريطانية جغرافيا بموجب اتفاق سايكس - بيكو .

ثانيا : وتطبيقا للظاهرة الاولى ، فقد انحسرت مهام القوات العربية (نظامية وقبلية) مع قيادتها ،على حد سواء عند حدود القيام بعمليات فدائية خاطفة لتحويل انتباه الاتراك وتشتيت جهدهم عن الاهداف الحقيقية للقوات البريطانية بتقسيم الشام بينها وبين فرنسا .

وقد بدأ التنفيذ العملى لهذه المرحلة بطلب من (اللنبى) الى فيصل بتركيز من مدفعية القوات النظامية على مدينتى (الطفيلة) و (الشوبك) . وآستمرت المناوشات بين الطرفين دون نتيجة حاسمة حتى أوائل أبريل ١٩١٨ حين سقطت (الطفيلة) وفى منتصف الشهر سقطت المدينة الثانية . ثم واصلت القوات العربية زحفها شمالا بقيادة (نورى السعيد) و (جعفر العسكرى) نحو (معان) الذى أستطاعوا عزلها تماما بتحطيم محطة الغدير جنوبها والجردون شمالا بمعاونة بدو الحويطات . أما المدينة نفسها فقد ظلت تقاوم الحصار لامد طويل (٦٥).

---

٦٥) نورى السعيد - المصدر السابق . ص ص ٤٧ / ٥٤.

أما قوة البدو الرئيسية من الحويطات والرولا وبنو عطية ، فقد قاموا من جانبهم بمحاولة غير محسوبة عندما أقتحموا الجسور المحيطة - (درعا) التي يتفرع عندها الخط الحديدي الى فلسطين ، لكنهم فشلوا (٦٦) ويبدو أنهم نتيجة لذلك قد أحسوا بضياع ما أملوا فيه من مغانم في تلك العمليات فركنوا الى الهدوء وعادوا الى مرعاهم ،وظن الاتراك أن هذا الموقف ربما يفتح لهم بابا لاستمالة عودة أبوتايه الى جانبهم ، عن طريق بعض الرسل الاتراك ، لكنهم فشلوا في مسعاهم في ذات الوقت الذي علمت فيه انجلترا بهذه الاتصالات من خلال عيونها لدى الدروز وبعض زعماء العشائر المنافسين لعودة ، الا أن الرجل قدم للامير فيصل عددا من الرسائل التي وصلته من قبل الاتراك ثم أراد أثبات حسن نواياه فقام بعدد من الهجمات على الخط الحديدي فتجاوز (معان) شمالا باتجاه (الكرك) (٦٧).

وأرسل (فيصل) وهو بـ(الازرق) رسائل الى (طلال الحريديني) شيخ منطقة درعا وأهل حوران ، والى (كسورى) الدرزي شيخ أقليم (صلخد) ، الذي أرسل بدوره الى (علي رضا الركابي) بدمشق ليطلعه على نوايا القوات العربية بالاستعداد للزحف نحو دمشق فوعد الاخير بارسال أنصاره ليكونوا عيونا على الاتراك وكشف أماكن تواجدهم ، ووعدوا جميعا بالقيام بهجمات سريعة ومتلاحقة مع بقية القوات البدوية من الرولا والحويطات بقيادة (الشعلان)و(أبو تايه) (٦٨) وبلغت هذه القوات المكلفة بنسف الجسور وملاحقة الاتراك ألف وخمسمائة رجل مع بقية القوات النظامية التي بدأت بالزحف من (الازرق) وأطلق عليهم جميعا (بدواونظاميا

---

66) F.O. 882/17, Letter of Allenby, 23 th May, 1918.

٦٧) لورنس - المصدر السابق - ص ٢١٠ / ٢١٥ .

٦٨) الدلجتون (ريتشارد) لورنس في البلاد العربية - ترجمة محمود عزت موسى القاهرة ١٩٦٦ ص ص ٢٤٠ / ٢٤٣ .

أسم (عمليات الحجاز) وأسندت الى (الكولونيل داونـــــى Dawney) مهمة التنسيق بينها وبين قوات الزحـــف الرئيسية البريطانية بقيادة (اللنبى) الذى أسندت اليـه مهمة القيادة للجناح الايسر ـ لقوات الزحف نحو دمشـــق ، بعد فشل حملة (موراى) على غزة فى مارس ١٩١٧[٦٩].
وأستكملت القوات البريطانية استعدادها فى شهر آغسطـــس ١٩١٨ ، وأرسل الى فيصل ـ تكليفا موءداه ـ العمل علــــى جذب أنظار وأهتمام القوات التركية نحو شرق وادى الاردن والبحر الميت وعلى أمتداد الخط الحديدى وخطوط المواصلات التركية بصورة عامة ، دون الدخول فى معارك مباشرة مـــع الاتراك على أن تنصب الهجمات الخاطفة فى المسافة بين درعا جنوبا حتى دمشق شمالا[٧٠].

ومع بداية شهر ستمبر من نفس العام ، وتنفيذا لتلك الخطة بدأت (الرولا) و(الحويطات) و (بنى صخر) فـــى أعادة الهجوم على الجسور المحيطة بدرعا خاصة فى منطقـــة (سهل الجفر) و (أم تايه) و (تل عرار) ،مما دفـــع القوات التركية الى الاتجاه نحو هذه المواقع لرد هجمـــات العرب ، لكن أوامر القائد الالمانى (فون ســـــانـــدرس Von Sanders) بالانسحاب من تلك المواقع سهـــل من مهمة تلك القوات العربية فى الاستيلاء على المواقــــع والاحتفاظ بهذه الجسور فى ٢٠ ستمبر ١٩١٨[٧١]. وصـــــت مدفعية الجيش النظامى نيرانها على (درعا) وحاصــــرت الحاشية التركية بداخلها ـ ثم توافد حول المدينة عشائـــر

---

69) F.O. 882/ 21 , Report of lawtence, 13 th sept. 1918.
70) F.O. 882/24. letter from Lawrence to Wingate,22/4/19
71) Ibid.

(السردية) والقرشه من سكان سهل حوران والدروز ، تحت زعامة (كسورى) و (الشعلان) فدفعوا وهم على شكل (مفارز (لتبين الموقف حول محطات (مزيريب) و (الغزالة) والمحطة التركية ومحطة التلغراف) على طريق دمشق ، وبعد تبين طبيعتها قاموا بنسفها وقام فريق آخر من الحويطات بنسف (المحطة الفرنسية) على الخط الحديدى بين درعا وحبقا .

وعلى حين بدأ (اللنبى) هجومه فى التاسع عشر من سبتمبر بالزحف شمالا من (يافا) و (أريحا) وتقهقر القوات التركية أمامه على الجناح الايسر ، واصل البدو والنظاميون من العرب نشاطهم على الجناح الايمن ومن (تل عرار) بتخريب الجسور والمحطات حول قرى (بسرى) و(الشيخ سعد) و (خربة الغزالة) التى دخلها (عودة أبوتاية) وأسر مايقرب من مائتى رجل من الاتراك ، وتنافسه (الشعلان) بأسر أربعمائةوأستولى على مامعهم من أسلحة رشاشة وبعض الدواب [٧٢] فى ذات الوقت الذى أرسل فيه (نسيب البكرى) من دمشق استعداده لتأمين الطريق نحو أبواب وطرق المدينة فواصل الجمع زحفهم نحو (قرية الشيخ مسكين) وأستمر الزحف دون عقبات حتى أبواب دمشق ثلاثة أيام ،فتعجلت المجموعات البدوية الدخول اليها فى الثلاثين من سبتمبر وفى اليوم التالى عام ١٩١٨ دخلتها القوات البريطانية والنظامية العربية [٧٣]

أما (المدينة المنورة) فقد ظل فخرى باشا يدافع عنها أمام حصار قوات الشريف على لها ، وأستطاعت بعض أفرع (حرب) التى أرتبطت بعلى أحكام الحصار ومنع وصول

---

٧٢) الدنجتون - المصدر السابق - ص ٢٤١ .
٧٣) أنطونيوس - المصدر السابق - ص ص ٣٢١ / ٣٣٩ .

الامدادات من قبل ال الرشيد ، والاستمرار فى تدمير قضبان الخط الحديدى ، وان لم تستطع قوات الاشراف اقتحام قلاع الاتراك حول المدينة ، ولم يقدم الانجليز المساعدة ،طالما ظلت مصالحهم العليا فى طريقها للنجاح بمنطقة الشام خاصة والمنطقة العربية عامة ، وظل الموقف على حالته حتى سلم (فخرى باشا) نفسه للامير على فى بداية عام ١٩١٩ بعد رساله شكر من السلطان ، وبعد شهرين من توقيع الهدنة بين الحلفاء وتركيا فى (جزيرة مدروس) فى ٣١ أكتوبر ١٩١٨ (٧٤) .

لقد انضوت القبائل تحت لواء الثورة بدافع من أطماعها وطبائعها الذاتية الكامنة بها أملا فى المال والمعونة والثأر ، وهى لاتدرى عن دوافع وأهداف الثورة شيئا وتناسب دورها خلال الاحداث تناسب عكسا مع تعاظم وتأثير دور القوات النظامية والبريطانية على حد سواء ،وعندما وصلت الثورة الى نهاية المطاف ، قنعوا بما حصلوا عليه ماليا وماديا داخل الحجاز .

وأستفاق الحوارنه والدروز وبعض أفرع الرولا بل أهل سورية عامة على النتيجة المفجعة التى أنتظرتهم بفرض السيادة الفرنسية عليهم ، فازاحت عنهم مباهج الانتصار التى انتظروهاطويلا .

وعادت قبائل الحجار مرة أخرى الى سيرتها الاولى بما عاد عليها من فوائد و (غنائم) خلال الثورة ،لتقبع داخل الصحراء لاتدرى شيئا عما يدور حولها من صراع جديد .

---

٧٤) لنشوفسكى (جورج) الشرق الاوسط فى الشؤون العالمية ترجمة جعفر خياط ط ـ بغداد ١٩٦٤ ص ١٢٠ .

أما الحسين فقد أنتهى أمره بانتهاء المهمة التى من أجلها أقام الثورة ، وألقت به بريطانيا التى فارت بنصيبت الاسد فى براثن النسيان تتجاربه رياح مصالح القوى صاحبة النفوذ ثم تركته فريسة أمام ابن مسعود الذى احتل مكانة الاشراف داخل الجزيرة العربية . وعاد الحسين مرة أخرى ليدفع ابنه عبدالله ليزحف الى (معان) ومنها الى (عمان) ليحصل على تأييد قبائلها من الحويطات والرولا ماليا وعسكريا ، ثم يقيم كيانا سياسيا جديدا حول نهر الاردن ، لتكون هذا النظام نفسه خيطا رفيعا أستمسكت به بريطانيا بقوة خروجا من المأزق الذى وقعت فيه بين الجموح الفرنسى من جهة ولتقديم دليلا يحفظ ماء وجهها ومصداقيتها أمام الحسين وأبناء ه وقوة بأس القبائل فى شرق الاردن بل والعرب جميعا من جهة ثانية .

موقف الحكومة المصرية من التضخم ابان الحرب العالمية الاولى

د. أحمد الشربيني السيد
كلية الاداب - جامعة القاهرة

قبل أن يتطرق بنا الحديث عن ظاهرة التضخم التى أجتاحت مصر ابان الحرب العالمية الاولى من حيث أسبابها وموقف السلطات البريطانية منها والممثل ضمنا وصراحة فى محاولات تصدى الحكومة المصرية لهذه الظاهرة ، فان الامر يستدعى منا تعريف التضخم وهو يعد مصطلحا أقتصاديا ، حتى يتضح لنا مدى أنطباق الظاهرة التى تمثل التضخم بمعناه الاقتصادى على ماشاهدته مصر ابان الحرب العالمية الاولى .

فالتضخم كما عرفه البعض يعنى " الارتفاع التراكمى والمستمر فى الاسعار[(١)] " فى حين ذهب أخر الى أن التضخم يعنى " اختلال التوازن بين التيار النقدى والتيار العينى داخل أقتصاد معين ، ومثل هذا الموقف يتجسم فى أختلال التوازن بين العرض والطلب العامين على البضائع والخدمات[(٢)]

وكلا التعريفين يفهم منهما أن التضخم ببساطة يعنى سهولة الحصول على القوة الشرائية ، والتى كلما ازدادت أرتفاعا ،ازدادت الاسعار أرتفاعا أكثر ،بما يؤدى الى هبوط قيمة العملة المستخدمة الى قيمة السلعة المستهلكة .

---

١) ويشير صاحب هذا التعريف الى أنه " قد يكون هناك تضخم دون أن يكون هناك أرتفاع تراكمى فى الاسعار ، ويعرف من أثارة الضاغطة على الاقتصاد القومى ، وهو ماتسميه بالتضخم المقيد والمكبوت حيث تعمل الحكومة من خلال أساليب الرقابة المختلفة على أن تحول دون أرتفاع الاسعار ، فاذا ما ألغت الحكومة رقابتها هذه أخذت الاسعار فى الارتفاع السريع وانتشرت أثار التضخم فى الاقتصاد القومى " عبد الفتاح عبد الرحمن عبد المجيد سياسات التنمية الاقتصادية ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٠٠

٢) جاد لبيب : بناء الاقتصاد المصرى والعلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر وأنجلترا ، الانجلو المصرية القاهرة (بدون تاريخ) ،ص ١٥٥ .

وبعد هذا التعريف الموجز لمصطلح التضخم ، سوف تقسم هذه الورقة منهجيا الى عدة نقاط أساسة ، يقوم الباحث فيها بالوقوف على حجم الارتفاع التراكمى فى الاسعار وأسبابه وأبعاده ، ثم موقف الحكومة من ذلك ، والذى جاء باسعار من جانب السلطات البريطانية فى بعض الاحيان والتدخل السافر منها فى بعضها الاخر .

فمن الواضح أن كل السلع ، ولاسيما الاستهلاكية منها أرتفعت أسعارها أرتفاعا متواليا لم تشهد مصر له نظيرا ، على مر تاريخها الحديث ، وقد أرتبط هذا الارتفاع - الذى جاء مدهشا فى السنوات الاخيرة من الحرب - بظروف الحرب التى كان أندلاعها بمثابة الضوء الاخضر للاسعار لتبدأ فى صعودها ، ولتتعثر فى مواجهتها كل محاولات الحد منها .

وتعد المواد الغذائية من أخطر المواد التى أصابها أرتفاع الاسعار ، نظرا لكونها تمثل مطلبا معيشيا أساسيا فى حياة القطاع العريض من الاهالى ، والبيان التالى يحمل الارقام القياسية لاسعار بعض المواد الغذائية فى سنوات الدراسة " السنة الاساسية ١٩١٣ = ١٠٠"

بيان رقم (١)

السنة	الشعير	الفول	الحلبة	العدس	الأذرة الشامى	الأذرة الرفيعة	البصل	الارز	القمح	المتوسط*
١٩١٤	٨٢ر٤	٩٩ر٣	١٢١ر٠	١١٠ر٤	٨٤ر٦	٨٢ر٣	٣٠١ر٠	٩٣ر١	٩٨ر٢	١٠٠ر١
١٩١٥	١٠٨ر١	٨٦ر١	١٥٣ر٦	١٢٥ر٤	٩٦ر٢	١٠١ر١	١٩٠ر٥	٩٩ر٥	١٠٨ر٥	١١٣ر٧
١٩١٦	١١٥ر٩	١٣٥ر٧	٢١٠ر٥	١٣١ر٠	١٤٦ر٧	١٤٢ر٦	١٦٠ر٠	١٥٦ر٣	١٣٣ر٧	١٥٢ر٩
١٩١٧	١٤٧ر٧	١٦٥ر٦	٣٢٤ر٧	١٤٤ر٨	١٧٩ر٠	١٩٦ر٢	٢٩٢ر٤	١٧٤ر٣	٢١٩ر١	١٨٢ر٨
١٩١٨	١٧٨ر٥	١٨٢ر٤	٢٦٢ر٠	١٧٦ر٥	٢٠٠ر٨	٢٠٥ر٢	١٥٧ر١	١٧٩ر٠	٢٢١ر٠	١٨٣ر٠

المصدر: مصلحة عموم الاحصاء ، الاحصاء السنوى العام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، ص ٤٩٨

* بما فيها نسبة الزيادة فى القطن وملحقاته وقصب السكر .

ومن البيان السابق نجد أن أسعار المواد الغذائية أخذت فى الارتفاع الواضح مع أندلاع الحرب العالمية الاولى، وأن كان بعضها ، الفول ، الادره الشامى ، الارز ،فقد تأخر فى أرتفاعه الى مابعد سنة ١٩١٥ - حتى أذا ماجاءت نهاية الحرب أزدادت أسعار بعض الاصناف لاكثر من مثلى ما كانت عليه قبل الحرب ، وهذا كان ممثلا فى : الحلبة والاذرة والقمح ، وجاء هذا مصحوبا بأزمة خبز تعرضت لها المدينة المصرية ، أشتدت وطأتها حتى كادت تبيتها فى معظم الاحيان خالية منه [٣] ، ولم يكن الريف أحسن حظا من المدينة فقد عاش حالة من القلق مرجعها قلة القمح وأرتفاع أسعار الدقيق [٤].

ولم يتوقف أرتفاع الاسعار على المواد الغذائية ،بل تعداها الى كل السلع الاستهلاكية الاخرى بدءا من الوقود ومرورا بالزجاج ، أنتهاء بالعقاقير والمنسوجات ،حيث بلغ الارتفاع فى ثمن الوقود حدا هدد بالدرجة الاولى المطاحن بالتوقف عن العمل [٥] ،بعد أن بلغ " ثمنه ستة أضعاف ماكان عليه .... قبل الحرب [٦].

أما أسعار الزجاج ،فقد تضاعفت فى أقل من عام فأصبحت زجاجة المصباح ..... التى كانت تباع قبل الحرب بمليمين ..... أضحت ..... بخمسة عشر مليما وأكثر [٧] كذلك بلغت أسعار العقاقير الطبية أضعاف ثمنها قبل الحرب فى

---

٣) المقطم ،عدد ٨٩٨٢ ،٢٦ سبتمبر ١٩١٨ " مشكلة الخبز والقمح والدقيق "

٤) الاهالى ،عدد ٣٠،١٨٥٣ أكتوبر ١٩١٦ ؛ المقطم ،عدد ٨٣٩٠، ٢٠ أكتوبر ١٩١٦ " الغلاء الغلاء "

٥) المقطم ،عدد ٨٧٣٦ ، ٣٠ ديسمبر ١٩١٧ " مشكلة البترول"

٦) نفس المصدر ،عدد ٨٦٢٥ ، ٢٥ يوليو ١٩١٧ " الجمهور والتجاريين لجنة التموين ولجان التسعيرة "

٧) المؤيد ،عدد ٧٦٥٠ ، ١٤ أغسطس ١٩١٥ ،شؤن مصر ــــة البضائع والمصنوعات الاجنبية محمد البرديسى .

أقل من عام [٨]، وبذلك وصلت حدا لايحتمله الغنى فضلا عن متوسط الحال والفقير ، ويعزى هذا الارتفاع فى أسعار الادوية الى مادرج عليه تجار الداخل من رفع أسعارها بحجة أرتفاع أسعارها العالمية [٩].

أما المنسوجات ، فقد تراوح أرتفاع أسعارها عند نهاية الحرب مابين ١٠٠٪ و ١١٠ ٪ عما كانت عليه قبل الحرب هذا علاوة على أرتفاع أيجارات المساكن فى ذات الفترة مابين ٧٠٪ و ٩٠ ٪ [١٠].

ولم يفلت السكر من هذا الارتفاع فى الاسعار [١١]، ليس هذا فحسب بل أنه ظل طوال الحرب يمثل مشكلة لكل المواطنين لتلاعب الشركة المنتجة له ، وكذلك المتعهدين لديها من التجار بالكميات المصنعة [١٢].

علاوة على ذلك تطرق الغلاء الى تعريفات النقل ، ففى الوقت الذى أرتفعت فيه أسعار البوسته [١٣] ، رفعت مصلحة السكك الحديدية أجور النقل على خطوطها بنسبة ١٠٠٪ [١٤].

وقد أضر هذا الارتفاع بالسلع وبالتالى المستهلكين حيث ترتب على هذا الارتفاع فى أحور النقل ، أرتفاع فى تكاليف السلعة ، ومن ثم أرتفاع أسعارها.

٨) نفس المصدر .
٩) الاهالى ، عدد ١٨٤١ ، ١٨ أكتوبر ١٩١٦ ؛ نفس المصدر ، عدد ١٨٤٢ ، ١٩ أكتوبر ١٩١٦ .
١٠) المقطم ، عدد ١٠٣١٩ ، ١٤ فبراير ١٩٢٢ " غلاء المعيشة هل تعود الاسعار الى مستواها قبل الحرب " فضل الله جنحو "
(١١) الشعب ، عدد ٣٠٧٦ ، أغسطس ١٩١٤ " حالتنا الاقتصادية أزاء الحرب الحاضرة "
(١٢) محافظ مجلس الوزراء ، داخلية ، محفظة ٥/١٠ ، مجموعة ٣٨٢
١٣) الاهالى ، عدد ١٩٠١ ، ١٧ ديسمبر ١٩١٦ .
١٤) نفس المصدر ، عدد ٢٧٣٨ ، ٢٧ أغسطس ١٩١٩ .

وبذلك أصاب أرتفاع الاسعار كل السلع الاستهلاكية ،وقد ترتب على ذلك أرتفاع فى نفقات المعيشة ، والبيان التالى يحمل أرقاما توضح تطور أسعار الجملة ونفقات المعيشة* " متوسط أغسطس وديسمبر ١٩١٣ = ١٠٠ ٪ "

جدول (٢)

السنوات	متوسط	
	أسعار الجملة	نفقات المعيشة
١٩١٤	٩٨ ٪	١٠٠ ٪
١٩١٥	١٠٣	١٠٢
١٩١٦	١٢٨	١٢١
١٩١٧	١٧٦	١٥٤
١٩١٨	٢١١	١٨٩

المصدر : مجلة غرفة القاهرة ، السنة ١٥ ، عدد ٥ ،مايو ١٩٥٠ " أستفتاء يهم كل تاجر ،التاجر والضريبة ،ص ٥٣٤.

ومن البيان نجد أن الارتفاع الذى جاء واضحا فى نفقات المعيشة وخصوصا بعد ١٩١٥ جاء متمشيا مع أرتفاع أسعار الجملة ، لكن هذه الاسعار الرسمية التى كانت تبنى عليها الارقام القياسية لاتمثل المستوى العام للاسعار تمثيلا صحيحا وبالتالى نفقات المعيشة .

فقد تم الاعتماد فى أستخراج متوسط نفقة المعيشة على الاسعار التى كانت فى الغالب ماتحددها جهات معترف بها من قبل الحكومة كلجان التسعير أو لجنة التموين أو مصلحة

* نفقة المعيشة هى : التكاليف النقدية لما يستهلكه الفرد المتوسط فى وحدة زمن " شهر أو سنة " من السلع والخدمات .

التموين أو لجنة مراقبة التموين ، وبذلك كان يؤخذ بالاسعار الجبرية والمفروض الالتزام بها من جانب التجار ،دون الوضع فى الاعتبار أن أى سلعة - طبيعيا - كانت تنتقل من يد تاجر الجملة الى يد تاجر التجزئة أو أكثر من تاجر واحد ثم فى النهاية تصل الى المستهلك ، وكما هو معروف أنها فى كل مرحلة من هذه المراحل كانت تتحمل من التكاليف مايستدعى رفع سعرها ، وبذلك لو أستبدلنا أسعار التجزئة أو أسعار السوق السوداء بأسعار الجملة ،وأستخرجنا على أساسها متوسط نفقات المعيشة ، لجاء أزيد بكثير عما جاء بالبيان رقم "٢"

وسوف نسوق دليلا عن أختلال التوازن بين أسعار الجملة والتجزئة فى بعض سنوات الدراسة ، فعندما نشرت مصلحة التموين بيانا بمتوسط أرتفاع الاسعار فى سنوات ١٩١٥ و١٩١٦ و ١٩١٧ الى نسبة ماقبل الحرب ، جاء متوسط الزيادة فى أسعار الجملة بالقاهرة فى سنة ١٩١٥ مساويا لما كان سائدا فى سنة ١٩١٤ ،أما فى سنة ١٩١٦ فارتفع بنسبة ٢٧ ٪ وفى ١٩١٧ ،بلغ الارتفاع ٧٦٪ أما البيع بالتجزئة فبلغت زيادته ٤ ٪ فى سنة ١٩١٥ و ٣٣ ٪ فى ١٩١٦ و ٨٤ ٪ فى سنة ١٩١٧(١٥) فكان على سبيل المثال " أردب الحمص يباع بالقطاعى فى القاهرة بمبلغ ٩٦٠ قرشا " فى حين " كان سعره الرسمى بالساحلين لايزيد عن ٤٨٠قرشا"(١٦).

وبذلك شهدت مصر أبان الحرب العالمية الاولى أرتفاعا تراكميا للاسعار ، مما أدى الى أرتفاع نفقات المعيشة ، وبالتالى كان واضحا الاختلال بين قدرة الفرد الشرائية وقدرته على الاستهلاك ، وبهذا تكون مصر قد شهدت التضخم

---

١٥) الاهالى ، عدد ٢٢١٧ ، ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ .
١٦) المقطم ،عدد ٨٧٥١ ،٢٠ ديسمبر ١٩١٧ " حماية مصلحة المستهلكين على ذكر المجلس البريطانى "

معينه فى هذه الفترة .

واذا كان الحال كذلك فالسؤال الذى يطرح نفسه هو هل جاء هذا التضخم باعتباره ظاهرة طبيعية مصاحبة لعملية تنمية كان يمر بها المجتمع المصرى ، أو أن هناك أسبابا أدت الى هذه الظاهرة ؟

" ان الدول الساعية للتقدم تتعرض للتضخم خلال عملية التنمية بسبب أرتفاع الميل الحدى للاستهلاك ، واتجاه هذه الدول الى رفع معدل النمو الاقتصادى بما يتعدى قدرتها الحقيقية المتاحة ، وبسبب عوامل هيكلية وتنظيمية تجعل مرونة عرض الانتاج منخفضة فى الأجل القصير بحيث يترتب على زيادة الطلب الفعال خلال عملية التنمية وجود أختناقات فى الانتاج وخاصة أنتاج السلع الغذائية وينتهى الامر برفع الاسعار" (١٧).

والجدير بالذكر أن المجتمع المصرى لم يكن يمر بأى عملية من عمليات التنمية بما يؤدى الى التضخم ، فكان المجتمع فى ذلك الوقت فى حالة تبعية شبة كاملة للسوق العالمى ، ومن ثم لم يكن يمتلك من أمر نفسه شيئا بما يجعله يرسم سياسات تنموية تدفع به الى الامام ، وبذلك لم تكن ظاهرة التضخم التى أجتاحت المجتمع المصرى أثناء الحرب العالمية الاولى شيئا طبيعيا متعلقا بخطة تنموية للمجتمع ، وهذا يستدعينا البحث عن أسباب الظاهرة .

وليس من قبيل المبالغة أذا ماقلنا من أن أسباب التضخم فى الفترة محل الدراسة متعددة ، ورغم تعددها الا أنها جاءت كلها نتيجة لظروف الحرب ،على الرغم من أن مصر لم تكن طرفا أساسيا فيها يحتاج الى أمتلاك قدرة شراء

١٧) عبد الفتاح عبد الرحمن عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

مالية تفوته متطلبات الحرب ونفقاتها .

فمما لاشك فيه أن الاقتصاد المصرى فى ذلك الوقت كانت تربطه علاقة تبعية بالاقتصاد العالمى بصفة عامة والاقتصاد البريطانى بصفة خاصة . فى أطار تقسيم العمل الدولى، والذى أصبحت مصر تمثل أحد أقسامه بعد أنهيار رأسمالية الدولة ،وقد أدى ذلك ألى أنتقال الهزات التى تصيب الاقتصاد العالمى والبريطانى الى الاقتصاد المصرى فى أسرع مايمكن .

ولما كانت بريطانيا التى تربط مصر بها علاقة تبعية والتى كانت تشكل المحور الرئيسى فى سياسة تقسيم العمل الدولى ،طرفا رئيسيا فى الحرب ، ودخلت مصر هذه الحرب الى جانبها ،كان من الضرورة بمكان أن تتأثر بالهزات التى تصيب الاقتصاد البريطانى ، ان لم تستخدمها بريطانيا كبش فداء يخفف عنها الحمل فى تحمل نفقات الحرب بشكل أو باخر.

فبعد أن أنخرطت بريطانيا فى أتون الحرب ، عملت كأى بلد محارب على تركيز قوة الشراء فيها لاحتياج الحرب الى أحتياطى نقدى ، ولم تجد بريطانيا أسلوبا أسهل وأسر لذلك من أمتداد نفوذها الى أستصدار أوراق نقد بما تمليه الحاجة ، ولذلك عزمت على الخروج عن قاعدة الصرف بالذهب حتى لاتتقيد فى أصدار العملة الورقية بأى غطاء ذهبى .

ولما كانت الاسكندرية قد أصبحت قاعدة البحر المتوسط ومركزا لحملة غاليبولى [(١٨)] ، فقد كان يهم بريطانيا أحداث تغيير نقدى بمصر يتفق مع ماأحدثته من تغير لديها بما يخدم أهدافها الحربية . ولذلك لجأت لنفس الاسلوب الذى

١٨) لطيفة محمد سالم : مصر فى الحرب العالمية الاولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ ص ١٢٢

أخذت به لتطبقه فى مصر ، حتى لاتجد صعوبة عندما تلجأ الى التمويل التضخمى للانفاق الحربى .

فعندما أندلعت الحرب العالمية الاولى ،كانت العملة الذهبية هى العملة القانونية الوحيدة ،لكن خشى الا يقوم الاعتماد عليها بالوفاء بالحاجات فى ظل ظروف الحرب،لذلك تقرر فرض السعر الالزامى لاوراق البنكنوت فى ٢ أغسطس ١٩١٤ وأصبحت هذه الاوراق غير قابلة للاستبدال بالذهب الى أجل، لكن فى نوفمبر من ذات السنة ونظرا لاستحالة أستيراد الذهب الى مصر لحفظه ضمانا لاوراق العملة الجديدة التى قضت الضرورة باصدارها تم الترخيص للبنك الاهلى بايداع مقدار الذهب الذى يفى بضمان هذه الزيادة فى بنك أنجلترا بلندن، وفى أكتوبر ١٩١٦ أخطر بنك أنجلترا البنك الاهلى باستحالة تقديم الذهب كضمان لاوراق العملة نظرا لظروف الحرب (١٩).

وماكان من وزارة المالية إزاء ذلك الا إصدار قرار يجيز للبنك الاهلى أن يتسامح موقتا فى أتباع نظام التغطية المنصوص عليه فى النظام الاساسى ، وأن يستخدم بدلا من الذهب لتغطية البنكنوت المصدر ، أذونات الخزانة البريطانية وقد أدى ذلك الى إفقاد الحكومة حقها فى الرقابة على الاصدار وأصبح ممكنا تحويل أى مبلغ من أنجلترا الى مصر بدون قيد وبسعر التعادل (٢٠).

فاصبح فى وسع الحكومة البريطانية دون أى تدخل من جانب السلطات المصرية أن تودع فرع البنك الاهلى بلندن أية كمية من أذونات الخزانة البريطانية وتحصل فى مقابلها من فروعه بمصر على جنيهات مصرية للانفاق منها فى مختلف الاغراض

---

١٩) صحيفة الاقتصاد والتجارة ، المجلد الثانى ، العدد الثالث، مايو ١٩٢٦ ،تقرير اللجنة المالية للمجلس الاقتصادى عن نظام العملة فى المملكة المصرية ،ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥.
٢٠) عبد المنعم البيه : اقتصاديات البنوك ، الطبعة الاولى النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٣٨ .

وبذلك خلقت بريطانيا لنفسها موردا غير محدد لتغطية نفقاتها الحربية فى مصر عن طريق زيادة العملة المصدرة والمتداولة دون أن تلجأ الى عقد قرض مع مصر أو الدفع ذهبا أو تصدير سلع أو تأدية خدمات لها .

والبيان التالى يوضح حركة البنكنوت المصدرة والمتداولة بمصر أثناء الحرب العالمية الاولى بآلاف الجنيهات

البيان رقم (٣)

السنة	البنكنوت المصدر	البنكنوت المتداول
١٩١٤	٨ر٢٥٠	٧ر٤٦٦
١٩١٥	١١ر٥٥٠	١٠ر٥٨٣
١٩١٦	٢١ر٢٠٠	١٩ر٣٧٤
١٩١٧	٣٠ر٨٠٠	٢٩ر٥٥٣
١٩١٨	٤٦ر٠٠٠	٤٤ر٤٩٠

المصدر : مجلة غرفة القاهرة السنة الخامسة ، العدد الخامس مايو ١٩٥٠ ، أستفتاء يهم كل تاجر ، التاجر والضريبة ص ٥٣٤

ومن البيان يتضح أن حجم البنكنوت المصدر ،وكذلك المتداول آخذ فى التزايد مع اندلاع الحرب ، ليس هذا فحسب بل أنه فى سنة ١٩١٦ بلغت الزيادة نحو الضعف ، وأستمرت بعد ذلك فى التزايد حتى نهاية الحرب .

وكان لهذا التزايد فى البنكنوت المصدر والمتداول أثره الواضح على زيادة الودائع فى البنوك وكذلك صناديق التوفير ، فبالنسبة لودائع البنوك ،فقد أزدادت

ودائع الافراد لدى البنك الاهلى المصرى على سبيل المثال من ٥ر٣ مليون فى سنة ١٩١٣ الى ١٨ مليون جنيه فى سنة ١٩٢٠

كذلك أزدادت ودائع بنك الانجلو من ٩ر٢ مليون فى سنة ١٩١٣ [٢١] الى نحو ٧ر١٦ مليون جنيه مصرى فى سنة ١٩٢٠ [٢٢].

أما صناديق التوفير فقد تزايد الاقبال عليها ، وبالذات فيما بعد سنة ١٩١٦ والبيان التالى يوضح ذلك :-

البيان رقم (٤)

السنة	الايداع			الاسترداد		
	عدد العمليات	القيمة مليم	القيمة جنيه	عدد العمليات	القيمة مليم	القيمة جنيه
١٩١٣	١٣٠٨٠٨	٨٤٥	٤٧١٢٨٨	٩٨٤٠٧	٠٣٣	٣٩٩١٠٤
١٩١٤	١٠٢١٢١	٥٣٥	٣٩٤٧٤٣	٩٨١٠١	٣٩٨	٥٧٠٦٢٤
١٩١٥	٧٢٦٣٠	١٩٧	٣٢٠٩٠٠	٥١٣٦١	٧٤٠	٣٠٢٥٨٨
١٩١٦	١١٥١٧٢	٦٥١	٤٢٢٧٠٦	٥١٤٣٠	٩٢٣	٣٣٥٨٣٦
١٩١٧	١٤٦٧٠٣	٢٨٢	٥٥١٤٤٩	٦٢٦٢٤	٨٢٨	٤٢٦٧٨٣
١٩١٨	١٥١٥٠٩	٧٤٣	٧٦١٢٢٤	٦٨٣٩١	٧٠٣	٥٢٤٠٤٢

المصدر : وزارة المواصلات ، مصلحة البريد ،تقرير المصلحة عن أعمال صندوق التوفير ١٩٣٩ ،المطبعة الاميرية بولاق ١٩٤٠ ، ص ص ٢٤ ـ ٢٥ .

ومن هذا البيان نجد أن عمليات الايداع بصناديق التوفير أخذت فى أرتفاعها التدريجى أبتداء من سنة ١٩١٦ وحتى

٢١) على الجريتلى ، تطور النظام المصرفى فى مصر ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ،بحوث العيد الخمسينى ١٩٠٩ ـ ١٩٥٩، ص ٢٣٤ .

٢٢) المقطم ،عدد ١٠٣٨٦ ، ٤ مايو ١٩٢٣ " تخزين ٣٠ مليون جنية وأى فائدة تجبى من هذا المال " فضل الله جنحو".

نهاية الحرب ، هذا فى نفس الوقت الذى هبطت فيه عمليات الاسترداد .

وهكذا أدى أهتمام بريطانيا بتحويل مصر عن الصرف بقاعدة الذهب الى الصرف بالاسترلينى من أجل تسهيل عمليات تموين قوات الحلفاء الموجودة بمصر ، الى تزايد المصدر والمتداول من أوراق البنكنوت بدرجة كبيرة ، وبالتالى هبوط قيمتها الى قيمة السلعة ، ففى سنة ١٩١٧ أصبح الجنيه المصرى " يساوى نصف قيمته قبل الحرب(٢٣)" وبذلك توفرت أهم أسباب ومظاهر التضخم .

وفى الوقت الذى تزايدت فيه أوراق البنكنوت وأزدادت بالتالى القدرة الشرائية لدى غالبية الاهالى - خصوصا بعد سنة ١٩١٦-هبطت السلع الاستهلاكية بالسوق وبالذات المواد الغذائية ، ويعزى ذلك لقلة المعروض منها ، أو عدم تلبية المعروض للطلبات المتزايدة من قبل الاهالى وقوات الحلفاء .

فمن المعروف أن مصر بعد أن أصبحت بلدا منتجا أساسيا للقطن طويل التيله ، أضحت تشكل جزءا بالسوق العالمى يصعب عليها الانفكاك منه ، وتحولت فى ذلك الوقت الى مستورد لكل السلع الاستهلاكية بما فيها المواد الغذائية وبذلك كانت تصدر الاقطان وبقيمتها تستورد سلعا أستهلاكية فى المقام الاول ، ولما أندلعت الحرب وجاءت الدول المنخرطة بها أكثر الدول تعاملا تجاريا مع مصر ، تأثرت حركة المبادلات التجارية العالمية ، وتأثرت مصر بذلك أيضا حيث أدت ظروف الحرب الى صعوبة نقل السلع من أوربا الى الخارج سواء لعزوف التجارعن المخاطرة برؤوس أموالهم خشية أغراق السفن بما تحمله من سلع أو نتيجة أتجاه الدول المشتركة فى الحرب الى التكثيف من أنتاج السلع القتالية على

---

٢٣) المقطم ،عدد ٨٧٢١، ١٥ نوفمبر ١٩١٧ " مباحث أقتصادية " ١ " بدون توقيع .

على حساب السلع الاستهلاكية [٢٤].

على كل حال ترتب على هذه الحرب ، الهبوط فى أستيراد السلع الاستهلاكية الى مصر ، ليس هذا فحسب ، بل أن ما أمكن أستيراده جاء الى مصر يحمل ما أصاب أوربا من أرتفاع فى الاسعار وليمتد بذلك الارتفاع الى مصر [٢٥]. فاصبحت "كل السلع - التى كان تجارنا يشتروتها من أوربا بأثنين يشتروتها الان بخمسة .... فكل بضاعة ترد ...... من الخارج تباع فى أسواق مصر بأضعاف ماكانت تباع به منذ ثلاثة أعوام فالمنسوجات القطنية التى تأتينا من الخارج أرتفعت أسعارها أرتفاعا فاحشا" [٢٦].

وزاد من تحميل السلع أرتفاعا فى الاسعار توافر القوى الشرائية لدى قطاع من السكان ممن أستفادوا من التحولات النقدية ووجود قوات للحلفاء بمصر وأنفاقها الاموال عن سعة ، فاقبلت على أستهلاك السلع على أختلاف أنواعها على أوسع نطاق [٢٧]، والتى كان يهمها الحصول عليها بالدرجة الاولى دون أدنى أعتبار للمبلغ المدفوع فيها [٢٨].

وبذلك حدث أختلال التوازن بين العرض من الانتاج السلعى - سواء المستورد أو المنتج محليا - وبين الطلب الممثل فى القوات العسكرية الجاثمة على أرض مصر والاهالى

٢٤) أحمد الشربينى السيد : تجارة مصر الخارجية ١٩١٤ - ١٩٣٩ رسالة الدكتوراه غير منشورة بمكتبة جامعة القاهرة ص ٢٥٨

٢٥) الشعب عدد٧٥٩ ، ٢٠ أغسطس ١٩١٤ " حالتنا الاقتصادية والحرب المنتظرة "؛ المقطم ،عدد ٨٦٢٥، ٢٥ يوليو ١٩١٧ " الجمهور والتجار بين لجنة التموين ولجان التسعيرة "

٢٦) المقطم ،عدد٨٤٢١، ٢٥ نوفمبر ١٩١٦" القطن وأسعاره "

٢٧) الاهالى ،عدد ١٢٨٠، ٣٠ فبراير ١٩١٥ " غلاء الاسعار الامة المصرية والتجار" ؛ النشرة الاقتصادية المصرية عدد ٦٤ ، ١٨ أبريل ١٩٢٢ " مراقبة الغذاء بالقطر المصرى ص ٣١٣ .

٢٨) لطيفة سالم : المرجع السابق ،ص ١٤١ .

الذين أصبح المال يجرى وفيرا فى أيديهم نتيجة ظـــــروف الحرب . وقد أدى هذا الاختلال الى أكتمال ظاهرة التضخم،وقد زاد من حدة وقع التضخم على الفئات الاجتماعية المصريـــة ، أنتشار مايمكن أن نسميه بالسوق السوداء ،حيث درج التجار وغيرهم من الاغنياء - فى بعض الاحيان-على حجب السلـــع وبالذات الغلال حتى يقل المعروض منها ، ويشتد الطلب عليها فيفرجون عنها لمن يأمنون جانبهم ويفرضونها عليهم بأسعار مرتفعة [٢٩].

وبلغت مسألة إحداث السوق السوداء لسلعة السكر حـدا لايطاق ، حيث عملت الشركة المصنعة له على مساعدة العمــلاء المتعارف عليهم - وهم فى الغالب من تجار الجملة - فـــى أحتكار السوق ، والذين أصبحوا بالاتفاق فيما بينهم ينزلون السكر الى السوق وقتما يشاءون وبأى سعر يرونه ويمنعونـــه متى تراءى لهم ذلك [٣٠]. وكانت الشركة مابين الحين والحين تبلغهم كفها عن بيع السكر لمدد محدده [٣١].

والجدير بالذكر أن إخضاع معظم السلع للتسعير الجبرى كان له أكبر الاثر على خلق ظاهرة السوق السوداء ورفـــــع الاسعار ، والتى كان للتجار الاجانب الدور الاساسى فى خلقها [٣٢]

---

٢٩) الاهالى ،عدد ١٢٩٥ ،٣٠ مارس ١٩١٥ " نتائج الموراتوريوم"؛ نفس المصدر ،عدد ٢٠٥٠ ، ١٦ مايو ١٩١٧ " أجتمـــاع الخبازين فى دار المحافظة من المسؤول عن الغــلاء" ؛ نفس المصدر ،عدد ٢٤٠٠ ،٢٦ يوليو سنة ١٩١٨ ؛ المقطـم عدد ٨٦٦٣ ،٧ سبتمبر ١٩١٧ " لجان التسعير وأسعــــار الحبوب حبر على ورق ".

٣٠) مجلس الوزراء ،داخلية ،محفظة ٥/١٠ ، مجموعة ٣٨٢ ؛ الاهالى عدد ١٣٤٣ ،٣٠ أبريل ١٩١٥ .

٣١) الاهالى ، عـدد ١٨٦٨ ،١٤ نوفمبـر ١٩١٦ .

٣٢) الاهالى ، عدد ١٦٠٩ ،٢٢ فبراير ١٩١٦ ؛ الشعب ،عـــدد ٧٧٢ ،١٧ أغسطس ١٩١٤ " حالتنا الحاضرة ازاء الحـــرب العالمية الاولـــى " .

وغير ظاهرة السوق السوداء ، فقد زاد من ارتفاع الاسعار انتشار عمليات المضاربة التجارية بالاسواق ، فأخذت الاسواق تعج بالعديد من الافراد الذين لا يعلمون من أمر التجارة شيئا ، والذين أخذوا يشترون السلع ويشنون حملات الترغيب لبيعها بأسعار مرتفعة ،وقد أدى ذلك فى النهاية الى ارتفاع أسعار السلع بشكل متضاعف (٣٣).

وهكذا خلقت الحرب التضخم الذى أخذت حدته تشتد من سنة لاخرى حتى اذا ما أشرفت الحرب على نهايتها ، كان المجتمع المصرى بكل فئاته الاجتماعية قد وصل به الضيق الى الذروة ، وأصبح يسوده شعور بالغضب من طول المعاناة أثناء الحرب من جراء ارتفاع الاسعار الفاحش .

وقد أحسستا هذا الشعور من خلال الالتماسات التى دأبت الفئات الاجتماعية - بالعاصمة والاقاليم - على رفعها الى الجهات المعنية تحمل تضررهم من ارتفاع الاسعار - بالذات المواد الغذائية - الى الحد الذى استحال معه العيش عند حد الكفاف لكل الفئات الاجتماعية ومطالبة الحكومة بالتدخل لوضع حد لهذا الارتفاع (٣٤).

---

٣٣) لطفة سالم : المرجع السابق ص ١٤١ ؛ الاهالى ، عدد ١٨٥٨ ، ٤ نوفمبر سنة ١٩١٦ .

٣٤) محفوظات مجلس الوزراء ،داخلية ،محفظة ١٠ / ٣ /أ ، مجموعة ٣٨٢ "صورة مكاتبة من مديرية بنى سويف الى وكيل الداخلية نمرة ٢٩٩ بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٦ ؛ الديوان العالى السلطانى : قيد العرضحالات المرسلة من الديوان ،رقم س ٣/١/٨ ،بتاريخ ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ نمرة ٢٥٢ ونمرة ٢٩٩ ؛مجلة الغرفة التجارية المصرية سنة ٣ ، عدد فبراير ١٩١٨ ،ص ٨١ ،المقطم ، عدد ٨٧٠٤ ٢٦ أكتوبر ١٩١٧ " الشكوى من غلاء الاسعار ومصلحة التموين " .

فبالنسبة للفلاحين ، فقد أدى سوء تصريف محصول القطن فى سنوات الحرب الاولى وهبوط أسعاره الى زيادة احساسهم بارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية [٣٥].

واذا كانت أسعار القطن قد أخذت فى ارتفاعها النسبى بعد ذلك حتى نهاية الحرب ، فقد أقترن ذلك باشتداد وطأة الغلاء فى البلاد ، حيث استمرت أسعار الحاجيات فى ارتفاعها [٣٦] الى أن بلغت فى سنتى ١٩١٨ ، ١٩١٩ حدا لايمكن أحتماله ،لان النقص فى المواد الغذائية وبالذات الحبوب ، أدى الى أن أصبح الوضع فى غاية الخطورة وبالذات فى المدن [٣٧].
أما الموظفون فبعد أن كانوا أكثر الفئات الاجتماعية المصرية بحبوحة من العيش قبل الحرب ، نظرا لضبطهم نفقات معيشتهم مع رواتبهم ،فقد جاءت الحرب وماجرته فى أذيالها من أرتفاع مفاجئ ومستمر فى الاسعار ،لتعكس الصورة بالنسبة لهم وأصبحوا - وخصوصا صغارهم - أكثر الفئات الاجتماعية تأثرا بارتفاع الاسعار هذا ، وتخفيفا لمعاناة صغار الموظفين من الارتفاع فى نفقات المعيشة ، قررت الحكومة صرف علاوات لهم - بدل غلاء معيشة - بلغت بالنسبة لصغار الموظفين ١٠٠ ٪ [٣٨]

ومع ذلك أستمرت معاناة صغار الموظفين من أرتفاع الاسعار بالمقارنة الى مرتباتهم حيث أستمرت التلغرافات

٣٥) الاهالى ،عدد ١١٨٧ ، ١٩ أكتوبر ١٩١٤ " حالة البلاد المالية " ، المؤيد ،عدد ٧٣٩٨ ، ١١أكتوبر ١٩١٤" تصريف محصول القطن تصريح عطوفة القائم مقام الخديو ردا على رغبات وفد المنيا "

٣٦) عبدالرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ : سنة ١٩٢١ ،ط ٣ ،دار الشعب ،القاهرة ١٩٦٨ ص ص ٥٦ - ٥٧ .

٣٧) Crouchley , A. E : The Economic Development of Modern Egypt, London 1938,P 196 .

٣٨) أحمد الشربينى السيد : المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

التى تحمل توقيعات الموظفين وصف ضباط وعساكر البوليس من كل المديريات تنهال على الديوان العالى السلطانى تعج بالشكوى من أرتفاع أسعار الحاجيات المعيشة أرتفاعا متواليا ويطلبون رفع مرتباتهم بما يتلاءم مع هذا الارتفاع.(٣٩)

ولم يكن العمال أحسن حالا من سابقيهم ،ففى الوقت الذى أرتفعت فيه نفقات المعيشة لم تزد فيه دخول العمال على الرغم من تزايد أعدادهم ، وأشتداد الطلب عليهم للعمل فى بعض الصناعات التى بدأت تتحرك من مرقدها نسبيا،ويعزى عدم الاهتمام بدخول العمال لتتناسب مع نفقات المعيشة المرتفعة ، أنتكاس الحركة النقابية بسبب الاحكام العرفية ومن ثم تعرض العمال للظلم والاستغلال دون أدنى معارضة (٤٠) وبذلك أصبحوا غير قادرين على مجاراة الاسعار المرتفعة حتى للمواد الغذائية والضروريات الاخرى (٤١).

وبذلك عانى الفلاحون والموظفون وكذلك العمال ، كثيرا من أرتفاع الاسعار ، وهذه الفئات كما هو معروف كانت تمثل الغالبية العظمى السكانية فى حين أن الفئات الاخرى سواء من الاجانب أو أعيان المصريين ،لم تصب بأى أذى ولم نسمع لها عن شكوى من جراء هذا التضخم الذى أجتاح مصر فى فترة الحرب العالمية الاولى .

٣٩) محافظ الديوان العالى السلطانى ، موضوعات مختلفة (١) ،" تلغرافات واردة للديوان "؛ الديوان العالى السلطانى ، قيد العرضحالات المرسلة من الديوان س / ٨/ ١/ ١٩٠٣ أكتوبر سنة ١٩١٧ ؛ المقطم عدد٨٦٢٥ ٢٥ يوليو سنة ١٩١٧ " الجمهور والتجاريين لجنة التموين ولجان التسعيرة "

٤٠) رءوف عباس حامد : الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧٠

٤١) Crouchley , A.E: op. cit . P 196.

ولما كانت بريطانيا قد حولت مصر الى مصدر سهل لامداد قواتها العسكرية بالمواد الغذائية وكذلك المواد الخام فضلا عن أستخدامها العنصر البشرى فى الاعمال الحربية والذى جاء فى معظمه من العمال والفلاحين ولذلك فانها -أى بريطانيا - وضعت اليد على القلب بمجرد أن أحست ببدء أرتفاع الاسعار ،خوفا من أن يؤدى التضخم الذى تسببت فيه ظروف الحرب الى تفجير الوضع الذى كان يزداد شحنا من وقت لاخر بالغضب ، ومن ثم الاطاحة بكل طموحاتها فى مصر ومايتركه من أثر على موقفها العسكرى فى الحرب الدائرة .

لذلك أخذت السلطات البريطانية تحس بخطورة التضخم على وضعها بمصر فى تلك الاثناء ،بدليل مشاركتها الحكومة المصرية طرح البدائل لحل الازمة أو على الاقل التخفف من وطأتها على القطاع العريض من الاهالى الذى كان يتحمل جزءا من أعباء حرب لاناقة له فيها ولاجمل .

واذا كانت الحلول التى أستخدمت فى معظمها قد أتخذت شكلا أجرائيا حكوميا بحتا ،لكن فى ظل ظروف الحرب كانت السلطات البريطانية لاتترك أى أجراء أقتصادى كأى أجراء سياسى الا ودرسته دراسة متأنية لان مايهم مصربالدرجة الاولى يهم بريطانيا بنفس الدرجة .ولذلك لم تتمكن الحكومة المصرية من أتخاذ أى أجراء تجاه أرتفاع الاسعار الا بعد موافقة السلطات البريطانية ، أن لم يكن بايعاز منها أو على الاقل موظفيها فى الوزرات المصرية .

وقد ذهبت الاجراءات التى أتخذت لمواجهة التضخم فى أتجاهين ، أتجاه يهدف الى الحفاظ على المواد التموينية المتاحة داخليا خوفا من تسربها الى الخارج ومحاولة أستزادتها ، أما الاتجاه الاخر ، فكانت أجراءاته تهدف الى تثبيت الاسعار اجباريا .

وبالنسبة للاتجاه الاول ، تم اللجوء الى تحديد زراعة القطن فى سنتى ١٩١٥ و ١٩١٨ وجاء أتخاذ هذا الاجراء باشعار بريطانى ،لعدة أهداف من بينها توسيع مساحة المحاصيل الغذائية على حساب محصول القطن [٤٢].

ان هناك ماهو أبعد من ذلك حين قررت السلطات المصرية بايعاز من القائد العام للقوات البريطانية فى بعض الاحيان وفي بعضها الاخر من الحكومة البريطانية تحريم تصدير المواد الغذائية الى الخارج [٤٣] ، واذا كان قد صدر قرار يبيح تصدير بعض الحاصلات الغذائية من قمح وأذرة أبتداء من اول يونيو ١٩١٥ ، فان ذلك لم يدم طويلا حيث صدر قرار فى ٢٠ ستمبر سنة ١٩١٦ يحرم تصدير المواد الغذائية نظرا لاطلاق زراعة القطن فى سنة ١٩١٦ من قيد التحديد [٤٤].

هذا فيما يتعلق بالاجراءات التى أتخذت من أجل الحفاظ على المواد التموينية المتاحة داخليا ، أما الاجراءات التى اتخذت من أجل تحقيق الاتجاه الاخر ،فقد تمثلت فى اقامة عديد من اللجان - سواء الخاص منها بالتسعير أو التموين - للعمل على تثبيت الاسعار وذلك بربطها بحد أقصى تحدده بناء على احاطتها بالظروف .

---

(٤٢) أحمد الشربينى السيد : المرجع السابق ،ص ١٨٢ .

(٤٣) محفوظات مجلس الوزراء ، نظارة الخارجية ،محفظة ٩/ب ؛نفس المصدر ، نظارة الداخلية ،محفظة ١٠/ ١١ ، مجموعة ٨٨ ، نفس المصدر ، محفظة ١٠/١٠ ،مذكرة مرفوعة من وزارة الداخلية الى مجلس الوزراء وقرار باعادة منع تصدير البيض"

(٤٤) محفوظات مجلس الوزراء ،داخلية ،محفظة ١٠/٣/ب ،مجموعة ٣٨٢ " قرار مجلس الوزراء باعادة تصدير القمح والذرة الشامية ؛نفس المصدر ، نفس المجموعة " قرار فى ٢٠ ستمبر ١٩١٦ باعادة تحريم تصدير المواد الغذائية".

وكانت أولى المحاولات التى أستخدمت على أثر نشـــوب الحرب وأرتفاع الاسعار ،شروع الحكومة فى وضع لائحة تسعيـــر للاشياء التى أصابها الغلاء (٤٥) ، وأخذت نظارة الداخليـــــة على التومن هذا الشروع تقوم بالاعمال التمهيدية لتشكيـــــل لجان للتسعير بالقاهرة ومدن الاقاليم (٤٦).

وقبل أن ينصرم شهر أغسطس ١٩١٤ صدر قانون تشكيل لجان التسعير فى المحافظات والمديريات ،ورخص لها بمقتضى ذات القانون القيام بوضع أثمان للمواد الغذائية والحاجيـــات الضرورية ووقع على عاتق نظارة الداخلية أختيار أعضـــــاء هذه اللجان من التجار والاعيان من الوطنيين والاجانـــــب ، وعلى أن يقوم برئاسة هذه اللجان المديرون والمحافظـــون كل فى منطقة أختصاصه ، وقد قام البوليس من تلقاء نفســـه بالسهر على تنفيذ التسعيرات الموضوعـــة (٤٧) .

وظلت لجان التسعير قائمة تمارس أعمالها حتى تم انشاء مصلحة التموين فى غضون سنة ١٩١٧ ، بيد أن لجنة التمويـــن -التى شكلت فى أغسطس ١٩١٤ - رأت فى النصف الثانى من ســـنة ١٩١٥ حصر نشاط لجان التسعير وقصره على السكر وغـــــــاز البترول لوجود الشقين بأيدى شركات أحتكارية تلـــــــــة لشكاوى عديدة من المديرين والمحافظين ، وذلك بعــــد أن تراجعت عن القرار الذى كانت قد أتخذته بالغائها أمــــام رغبة مجلس الوزراء ، الذى رأى أن ألغاء لجان التسعير فـــى

---

(٤٥) الشعب ،عدد ٧٦٢ ،٥ أغسطـس سنـة ١٩١٤ .
(٤٦) نفس المصدر ،عدد ٧٧٢ ،١٧ أغسطس سنة ١٩١٤ .
(٤٧) المؤيـد ،عـدد ٧٧٣٢ ،٢٢ نوفمبر ١٩١٥ " الغلاء والتجار" الاهالى ،عدد ١٩٣٢ ،١٧ يناير سنة ١٩١٧ .

الوقت الراهن-سنة ١٩١٥ - أمر سابق لاوانه ، ومن ثم نصح كخطوة تمهيدية بالاقتصار على الايقاف المؤقت لها فاذا ثبت عدم ترتب أى ضرر عن هذا الايقاف يمكن أعتباره أيقافا دائما ونهائيا ، واذا ماثبت العكس رفع الايقاف ،وبالفعل أخذ بالنصيحة التى أسداها مجلس الوزراء ،وأعدت على الفور نظارة الداخلية قرار باخراج جميع الاصناف الغذائية والحاجيات الاولية - ماعدا السكر وغاز البترول - من التسعيرة مؤقتا (٤٨).

بيد أن هذا القرار الذى أتخذته نظارة الداخلية تراجع أمام أستمرار أرتفاع أسعار المواد الغذائية ، وتزايد مطالب الاهالى بادخالها ضمن قوائم لجان التسعير (٤٩)

وقد جرت العادة أن تجتمع لجان التسعير بكل منطقة تقوم بها سواء بالعاصمة أو المديريات والمحافظات مرة كل أسبوع ،لتضع تعريفات التسعير للسلع الواقعة تحت مراقبتها والتى يعمل بها طوال الاسبوع من السبت حتى الجمعة (٥٠).

وكانت هذه اللجان عند أجتماعها تقوم بالنظر فى أمر التسعيرة المعمول بها ،وأدخال بعض التعديلات عليها

---

٤٨) محفوظات مجلس الوزراء ،داخلية ،محفظة رقم ١٠/٣/أ ، مجموعة ٣٨٢ " مكاتبة من رئاسة مجلس الوزراء الى وزارة الداخلية فى ذى الحجة ١٣٣٣ ، أكتوبر سنة ١٩١٥.

٤٩) نفس المصدر ،نفس المجموعة " صورة مكاتبة من مديرية بنى سويف الى وكيل الداخلية نمرة ٢٩٩ ،بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٦ ؛المقطم عدد ٨٤١١ ،١٤ نوفمبر ١٩١٦ " وجوب الاعتدال فى الاسعار "؛نفس المصدر ،عدد ٨٣٤٩ ، ١ سبتمبر سنة ١٩١٦ " غلاء الغلال " ؛الاهالى ،عدد ١٩٤٤ ٢٩ ينايـر ١٩١٧ .

٥٠) الاهالى ،عدد ١٨٩١ ،٧٠ دسمبر سنة ١٩١٦ ؛ المؤيد عدد ٧٧٣٢ ،٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٥ " الغلاء والتجار " .

بمقدار ماتستدعيه الاموال بناء على الشكاوى والتعليمات الوزارية التى ترد اليها ،أما إذا امتنعت عنها أى تعليمات وزارية ، أو كانت الشكاوى الواردة اليها على درجة ضعيفة من الاهمية ، كان لها الحق فى إرجاء جلسة أنعقادها الى الاسبوع التالى ، مع أستمرار العمل بالتعريفة القائمة لحين أنعقادها(٥١).

وقد تجتمع لجان التسعير ، ولاتجد مايستدعيها إدخال تعديلات على التعريفات المعمول بها ، ومن ثم كانت تقرر أستمرار العمل بالتعريفة القائمة لحين إشعار آخر منها بعد إجتماعها فى الاسبوع التالى(٥٢).

ولم تكن لجان التسعير تحدد التعاريف من تلقاء نفسها دون دراسة لحالة السلع المدخل بشأنها تعديلات ،بل فى الغالب ما أستدعت اللجان كبار تجار الاصناف هذه ، وبعد أن تقف منهم على حقيقة وضع السلعة بالسوق تضع تعريفتها ليلتزم بها كل التجار(٥٣).

وكثيرا ماكان يحدث أختلاف فى وجهات النظر بين أعضاء لجان التسعير حول وضع تعريفة سلعة معينة ،وفى هذه الحالة تضطر لجنة التسعير المصابة باختلاف وجهات النظر للجوء الى لجنة التموين لتحيطها علما بأسعار السلعة المختلف حولها فى نفس المدة من العام الماضى وكذلك أسعار العام الحالى ونسبة المخزون منها والمتوقع من المحصول الجديد(٥٤)

---

٥١) الاهالى ،عدد ١٨٤١ ،١٨ أكتوبر سنة ١٩١٦ ،نفس المصدر عدد ١٩٩٤ ،٢٠ مارس سنة ١٩١٧ .

٥٢) نفس المصدر ،عدد ١٩١٧ ،٢٠ يناير سنة ١٩١٧ ،المؤيد عدد ٧٥٩٩ ،٣٠ يونيه سنة ١٩١٥ .

٥٣) الاهالى ، عدد ٢٠٧٠ ،٥ يونيو سنة ١٩١٧ .

٥٤) المقطم ،عدد ٨٣٩٦ ، ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٦ ،نفس المصدر عدد ٨٣٩٩ ،٣١ أكتوبر سنة ١٩١٦ " لجنة التسعيرة بالاسكندرية .

وبناء على هذه المعلومات كان يتم تسعير السلعة .

وكذلك أشرفت لجنة التموين إشرافا كاملا على إدخال السلع أو إخراجها من تعريفات لجان التسعير ، حيث كانت الاخيرة تقدم اليها الاقتراحات بشأن إدخال أية سلعة تحت مظلة أعمالها ،وكانت الاولى تمتلك حق تقرير ضم السلعة الى تعريفات التسعير أو إخراجها منها فى حالة طلب ذلك(٥٥).

أيضا تمتعت وزارة الداخلية فى كثير من الاحيان بحق الاشارة على لجان التسعير بحذف بعض السلع من جدول التسعير لتحققها من عدم استدعاء الضرورة ذلك(٥٦) ،وكذلك إعادة بعضها الى جدول التسعير عندما يتطلب الامر ذلك وكل هذا كان يتم بالاتفاق مع لجنة التموين (٥٧).

وقام على تطبيق تعريفات لجان التسعير وزارة الداخلية والاقسام التابعة لها ،فبالنسبة لمحافظتى القاهرة والاسكندرية ،دأبت حكمدارية القاهرة والاسكندرية على إصدار أوامرها المشددة الى أقسام البوليس بتنفيذ قررات لجان التسعير ومراقبة البيع بالاثمان التى تحددها(٥٨).

أما بالنسبة للمديريات والمحافظات الاخرى فداومت وزارة الداخلية على إرسال منشوراتها اليها لتحثهم فيها على التشدد فى إنفاذ تسعيرات المواد الغذائية ،

٥٥) نفس المصدر ،عدد ٨٤٠٤ ، ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ " غلاء الغلال " ،نفس المصدر ،عدد ٨٤١٠ ، ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٦ "حل مشكلة الخبز فى العاصمة بعناية دولة رئيس الوزراء"
٥٦) الاهالى ،عدد ١٩٣٢ ، ١٧ يناير ١٩١٧ ؛ المؤيد عدد ٧٦٩٥ ٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ .
٥٧) المقطم ،عدد ٨٦٢٢ ، ٢٠ يوليو ١٩١٧ .
٥٨) الاهالى ،عدد ١٨٧٥ ، ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٦ ،نفس المصدر عدد ٢٣٧٩ ، ١ يوليو سنة ١٩١٨ .

وذلك بتعيين أحد رجال البوليس أو الادارة فى كل سوق من الاسواق الهامة لمراقبة تنفيذ التعريفة وتحرير المخالفات للضاربين بها عرض الحائط وأن يبادر المركز أو القسم التابع له أيه مخالفات بالانتهاء من فحصها واعلان المخالف لمحاكمته أمام المحكمة المختصة (٥٩).

واذا كانت تعريفات لجان التسعير قد وجدت من حرص على تنفيذها من رجال البوليس فى المدن الكبرى كعواصم المديريات وحواضر المراكز (٦٠)، فان الريف قد فقد ذلك تماما، حيث أقتصرت الرقابة فيه على مشايخ الخفر وبعض الخفراء وعساكر البوليس والذين أقتصر عملهم على التجوال بالاسواق والتنبيه على التجار بمراعاة التسعيرة فى التعامل، واذا كان معاونو البوليس قد تدخلوا فى بعض الاوقات، فقد جاء تدخلهم مؤقتا ولمددبسيطة، ولذلك كان مجرد مغادرتهم الاسواق يعنى معاودة التجار الضرب بالتسعيرة عرض الحائط (٦١).

وفى المناطق التى كان يشدد فيها البوليس الرقابة على تنفيذ التسعيرة، كان يقوم بمهاجمة المحلات التى لايلتزم أصحابها بالتسعيرة ومصادرة مابها، والبدء فى بيعه للاهالى بالاسعار الرسمية بعد تحرير المخالفات لاصحاب هذه المحلات (٦٢).

وكانت قضايا مخالفات التسعيرة أما أن تنظر فى

---

٥٩) المقطم عدد ٨٦٢١، ١٩ يوليو ١٩١٧ " التشديد فى انفاذ تسعيرة المواد الغذائية ".

٦٠) الاهالى، عدد ١٨٧٠، ١٦ نوفمبر ١٩١٦، نفس المصدر عدد ١٨٧٣، ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٦.

٦١) المقطم عدد ٨٤١٥، ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٦ " الغلاء الغلاء"، نفس المصدر، عدد ٨٤٢٣، ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٦. "شكوى الجمهور فى الريف من غلاء الحبوب "

٦٢) الاهالى، عدد ١٨٥٧، ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٦.

محاكم الامور المستعجلة التى كانت تعقد يوميا [٦٣] - ويبدو أن هذا النوع من المحاكم لم يكن متوافرا الا بالعاصمة والاسكندرية وبعض عواصم المديريات - وإما امام المحاكم الاهلية بالنسبة للوطنيين [٦٤]، والمحاكم المختلطة بالنسبة للاجانب [٦٥].

أما الجزاءات التى كانت توقع على المخالفين للتسعيرة فقد تنوعت حيث كان المخالف يعاقب بالغرامة التى بلغت مائة قرش وإغلاق المحل المخالف للتسعيرة لمدة أسبوع، وإما بالغرامة ومصادرة الصنف وبيعه بسعر التعريفة بواسطة البوليس والحبس لمدة ٢٤ساعة . وهذه الجزاءات كانت تشمل المخالفين للتسعيرة من الوطنين والاجانب [٦٦]. وإن كانت محاكمة الاخيرين أمام محاكم خاصة قد أعطتهم فرصة للافلات من هذه العقوبات فى بعض الاحيان ، أو التخفيف منها .

وعلى الرغم من وجود لجان التسعير وأستمرارها فى تأدية مهامها لاجبار التجار على الالتزام بالتسعيرة الا أن قضايا المخالفات أستمرت فى أرتفاعها ففى خلال أربعة أيام

---

٦٣) المقطم ،عدد ٨٦٢١، ١٩ يوليو سنة ١٩١٧ " التشديد فى انفاذ تسعيرة المواد الغذائية". وخص للنظر فى قضايا الامور المستعجلة دائرة من دوائر المحاكم الابتدائية ، وكانت تنظر هذه الدوائر فى مسائل أستثنائية مستعجلة قد يؤدى أرجائها قضائيا الى نتائج يخشى منها ،وصعوبات تكتنف الاحكام " لطيفة سالم النظام القضائى المصرى الحديث ١٩١٤ - ١٩٥٢ ،مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٢٢٥ .

٦٤) الاهالى ،عدد ١٨٤٢، ١٩ أكتوبر ١٩١٦ .

٦٥) الشعب ،عدد ٧٩، ٩ سبتمبر ١٩١٤ .

٦٦) الاهالى ،عدد ٢١٩٧ ،ديسمبر سنة ١٩١٧؛ نفس المصدر ،عدد ١٨٧١، ١٧ نوفمبر ١٩١٦ ؛ المقطم ، عدد ٨٦٤٧، ٢٠ أغسطس ١٩١٧ " قضايا مخالفة التسعيرة بالعاصمة" ؛ الشعب،عدد ٧٩، ٩ سبتمبر ١٩١٤ .

-(١٣ - ١٦) أغسطس سنة ١٩١٧ - بلغت قضايا مخالفات التسعيرة بالقاهرة فقط حوالى ٣٩ قضية (٦٧)، سواء كان ذلك بسبب الاضراب عن البيع (٦٨) أو الخروج عن الاسعار المحددة من قبل لجان التسعير (٦٩).

وهذا يعنى أن لجان التسعير قد فشلت فى احكام سيطرتها على إلزام التجار بتعريفتها بعد أن أصحوالايعبأون بالعقوبات التى توقع بهم إذا ماضبط أحد متلبسا بالخروج عن التعريفة .

وإذا كانت لجان التسعير لم تتمكن من التخفيف من حدة ارتفاع الاسعار المتوالى ففى أعتقادى أن ذلك يرجع بالدرجة الاولى لافتقادها الى ذوى الخبرة بشئون الاسواق والتموين ، بما أفقدها المعايير التى تعمل على أساسها ومن ثم جاءت قراراتها فى النهاية غاية فى التضارب .

فأصحنا نجد التسعيرة تمتد اليها يد التعديل والتغيير من وقت لاخر ومن مكان لاخر " كلما أعترض عليها بدال أو أحتج بائع أو صاح تاجر سواء أكانت دعواه صحيحة أم كاذبة" (٧٠). وفى هذا دليل على أنه لم تكن هناك ثمة معايير تحتكم اليها اللجان فى عملها .

لذلك أصبحنا نجد لجان التسعير تختلف فى تقديراتها للسلعة الواحدة بما أدى الى أحداث أختناقات تموينية ببعض المدن دون بعضها الاخر نظرا لتباين التعاريف

---

٦٧) المقطم ، عدد ٨٦٤٧ ، ٢٠ أغسطس ١٩١٧ " قضايا مخالفة التسعيرة بالقاهرة "

٦٨) الشعب ، عدد ٧٨١ ، ٣٠ أغسطس ١٩١٤ ؛ المقطم ، عدد ٨٤١٠ ، ١٣ نوفمبر ١٩١٦ " حل مشكلة الخبز فى العاصمة بعناية دولة رئيس الوزراء".

٦٩) المقطم ، عدد ٨٦٧٣ ، ١٩ سبتمبر ١٩١٧ " تسعيرة المواد الغذائية فى العاصمة" ؛ نفس المصدر ، عدد ٨٦٢٥ ، ٢٥ يوليو سنة ١٩١٧ " الجمهور والتجاريين لجنة التموين ولجان التسعيرة" ؛ المؤيد عدد ٧٥١٣ ، ٢٢ فبراير ١٩١٥ ؛ التجارة عدد ٧٢ ، ٨ سبتمبر ١٩١٨ ، الاهالى ، عدد ١٨٧٤ ، ٢٠ نوفمبر ١٩١٦.

٧٠) لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

السعرية ،حيث قدرت بعض الاصناف لاسيما فى البلاد المنتجة لها بأزيد منه فى المناطق المستهلكة لها ،كأن يكون ثمن الارز فى محافظة مصر أقل منه فى دمياط والاسكندرية ورشيد [٧١] ،كذلك أزدادات تسعيرة الحبوب فى مناطق انتاجها بالوجه القبلي ـ فى كثير من الاحيان ـ فى الوقت الذى أنخفضت فيه بمحافظة مصر [٧٢].

وقد أدى هذا التباين ـ فى التقدير ـ وافتقاد لجان التسعير الى جهاز ينسق بين وجهات نظرها الى افتقار بعض المناطق لسلع معينة ، نتيجة لهبوط تسعيرتها بما يجعل تجارها ينأون عنها الى مناطق أخرى يجدون بها تسعيرة ، أكثر أرتفاعا ،فعندما قامت لجان التسعير بالاسكندرية بتسعير القمح بأقل منه فى مناطق أنتاجه ومناطق أخرى ، فضل تجاره الدفع بما فى حوزتهم بعيدا عن المدينة حيث أرتفاع الاسعار [٧٣] ، كذلك كان لارتفاع أسعار الغلال بالوجه القبلى ـ طبقا لتقدير لجان التسعير ـ فى الوقت الذى هبطت فيه أسعارها بالعاصمة أكبر الاثر فى عزوف التجار عن توريد غلالهم نحو العاصمة [٧٤].

وجدير بالذكر أن هذا التباين فى التعاريف وما تسبب

---

(٧١) المقطم ،عدد ١٤،٨٤١١ نوفمبر ١٩١٦" وجوب الاعتدال فى الاسعار " .

(٧٢) نفس المصدر ،عدد ٨٦٦٣ ،٧ سبتمبر ١٩١٧ " لجان التسعير وأسعار الحبوب حبر على ورق " .

(٧٣) محافظ مجلس الوزراء ، الداخلية ،محفظة ١٠/٣/أ" صورة تلغراف وارد من ميناء البصل أسكندرية فى ٢٥ يناير ١٩١٥ ؛نفس المصدر ،نفس المحفظة ،مجموعة ٣٨٢ تلغراف الى حسين باشا رشدى من أصحاب المطاحن بالاسكندرية فى ٩ نوفمبر ١٩١٦ .

(٧٤) نفس المصدر ،نفس المحفظة " عريضة مقدمة من تجار روض الفرج فى ١٩١٥/٢/٧ "؛نفس المصدر ،مجموعة داخلية صورة مكاتبة الداخلية رقم ٤٧٩ ادارة بتاريخ ٦ فبراير ١٩١٥ .

عنه كان له أكبر الاثرفى رفع أسعار بعض السلع بكثير من المدن وأنتشار ظاهرة السوق السوداء بها نتيجة لقلة العرض وأشتداد الطلب . وبذلك تكون سياسة التسعير الجبرى التى قامت بها لجان التسعير قد جرت عواقب وخيمة على الاهالى بدلا من انتشالهم من أرتفاع الاسعار .

وغير لجان التسعير ،ألفت الحكومة فى ٢٤ أغسطس ١٩١٤ لجنة للتموين بالعاصمة (٧٥)، وكانت هناك لجان تموين أخرى فى بعض المدن حيث وجدت لجنة بمدينة دمياط(٧٦).

وعهد الى لجنة التموين مهام عديدة منها دراسة حالة السلع التموينية بالسوق المصرية ،وفى حالة وجود عجز فى هذه المواد ،تقدم الحلول لتوفيرها بأى أسلوب كان (٧٧).

وكانت لجنة التموين تعمل باستمرار للوقوف على حالة السوق التموينية وذلك من خلال الاحصاءات التى كانت تجريها من أن لاخر سواء للسلع الغذائية أو لغيرها من السلع الاستهلاكية والتى كانت تتم تحت مراقبة نظارة الداخلية ، وبمعاونة أجهزتها بالاقاليم ،حيث كان العمد يقومون بداخل البلاد تحت مراقبة مأمورى المراكز بجمع البيانات التى تطلب من جميع العزب والكفور والنجوع الداخلية فى دوائرهم ،كذلك قام المحافظون والمديرون باعطاء موظفيهم التعليمات بجمع البيانات المطلوبة ،وبعد جمع هذه البيانات

٧٥) لطيفة سالم : المرجع السابق ،ص ١٤٤ .
٧٦) محافظ مجلس الوزراء ،داخلية ،محفظة ١٠/٣/أ " شكوى مقدمة من تجار القمح بدمياط الى ناظر الداخلية فى ١١ يناير ١٩١٥ .
٧٧) نفس المصدر ،داخلية ،محفظة ٤/١٠٠ ،مجموعة ٣٨٢ " تقرير عن أعمال لجنة التموين " ص ١ .

كانت تسلم الى مصلحة عموم الاحصاء الاميرية لتقوم بدورها بترتيبها وتنسيقها وتسليمها الى لجنة التموين ،والتى كانت من خلالها تقف على حقيقة المواد التموينية بالسوق من حيث المقدار ،وهل الكميات المتاحة تكفى حاجة الاستهلاك المحلى أم تزيد أم سيكون هناك عجز ؟ (٧٨)

وفى أطار وقوف لجنة التموين على حقيقة السلع التموينية بالسوق المصرية ،كانت تحدد موقفها من مشاركة بعض السلع فى تجارة مصر الخارجية ، ففى حالة وجود فائض فى سلعة معينة ،كانت تبادر بمنح تراخيص التصدير لمن يرغب فى التصدير من التجار (٧٩).

واذا ماكان هناك عجز فى سلعة معينة تتدخل اللجنة وتطالب باستيراد بعض السلع من الخارج " ففى ١٩١٤/٩/١٩ أتفقت مع مندوب جيش الاحتلال على أنه يحسن أستجلاب مايلزم للجيش من الخارج الا بعض الاصناف المعينة التى لايترتب على أخذها من البلد ضرر للاهالى (٨٠)".

وغير ذلك كانت لجنة التموين تمتلك الحق فى إدخال سلع معينة ضمن تعريفة التسعير الجبرى وكذلك إخراجها منها طبقا للمعلومات المتوافرة لديها ،وباعتبارها المسؤول الاول عن وضع تعريفة التسعير الجبرى التى

---

٧٨) نفس المصدر ،داخلية ،محفظة ١/١٠ ،مجموعة ٣٨٢" لجنة التموين ".

٧٩) نفس المصدر ،نفس المجموعة " مكاتبات لجنة التموين فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٤وفى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٤

٨٠) نفس المصدر ،نفس المجموعة " مكاتبة لجنة التموين فى ١٩١٤/٩/١٩ "

كانت تأخذ بها لجان التسعير (٨١) .

واذا كانت لجنة التموين قد أنشئت من أجل تفريج الغلاء عن الاهالى بمعاونة لجان التسعير ،فانها وجدت صعوبات فى تأدية مهامها ،نظرا لتعثر حصولها على أحصاءات دقيقة من داخل البلاد عن حجم الانتاج والحاصلات وسلبية الاهالى تجاه أرتفاع الاسعار ،ولذلك تخبطت سياسات اللجنة وبالذات فى حالة الارتباك ،فالى جانب السلبيات السابقة أفتقدت اللجنة الى وجود ذوى الخبرة وكذلك المعلومات والخبرات التى يمكن للقائمين على شئون اللجنة الاسترشاد بها ،ومن ثم لجأت الى أسلوب التجربة والخطأ وأدى ذلك فى النهاية الى أن جاءت أحكامها فى غير موضعها ،فمثلا كان القمح فى بلد بسعر يوازى ضعف ماهو بالبلد المجاور دونما أسباب (٨٢) .

وبذلك بدلا من أن تؤدى لجان التموين بمساعدة لجان التسعير الى تخفيف حدة الغلاء عملت على العكس من ذلك فقد عملت على تأزم الامور ،حيث عزف التجار عن ممارسة أعمالهم التجارية فى المناطق التى لايجدون فيها تهاونا فى التسعير من قبل لجان التموين ولجان التسعير بما يحقق لهم قدرا من الربح،مما أدى الى انتشار ظاهرة السوق السوداء وأرتفاع الاسعار،ونظرا لهذا الفشل الذى منيت

٨١) نفس المصدر ،محفظة ١٠/٣/أ " مذكرة من رئاسة مجلس الوزراء الى وزارة الداخلية فى فبراير سنة ١٩١٥ ؛ الاهالى عدد ١٨٣٢ ، ٨ أكتوبر ١٩١٦ ؛المقطم عدد٨٦٢٥ ٢٥ يوليو ١٩١٧ " الجمهور والتجاريين لجنة التموين ولجان التسعير".

٨٢) محافظ مجلس الوزراء ،داخلية ،محفظة رقم ١٠/٣/أ " شكوى من تجار دمياط الى ناظر الداخلية بتاريخ ١١ يناير ١٩١٥"؛النشرة الاقتصادية المصرية ،عدد ٦٤، ٨ أبريل ١٩٢٢ مراقبة الغذاء بالقطر المصرى ص ص ٣١٣ - ٣١٤ .

به لجان التموين فى تأدية مهامها فى الحد من أرتفاع الاسعار قامت الحكومة بوقف نشاطها وإحالة أعمالها الى مصلحة التموين فى ٢٦ سبتمبر ١٩١٧ (٨٣)، والتى قامت بهدف مراقبة توريد المواد الغذائية وأسعارها بوجه عام والقمح والدقيق بوجه خاص (٨٤)، كذلك التوفيق بين حاجات السكان وحاجات الجيش البريطانى (٨٥)، وأدى ذلك الى أن أصبحت المصلحة وثيقة الصلة بالسلطة العسكرية (٨٦).

وللقيام بهذه المهام، أصبحت المصلحة تتولى أمر دراسة التقلبات السلعية بالسوق، وفى حالة حدوث عجز فى المنتج السلعى مما يتسبب عنه أرتفاع فى الاسعار كانت أما أن تتجه الى الاستيراد من الخارج، وأما أن تلجأ الى شراء كميات من نوعيات السلع المصابة بالعجز من مناطق توافرها بالداخل، وتقوم المصلحة بتوزيع هذه الكميات على المستهلكين من خلال منافذها (٨٧).

وفضلا عن ذلك قامت مصلحة التموين بكل المهام التى كانت تقوم بها لجان التموين، فكانت تمنح تراخيص التصدير للنوعيات التى يكون بها فائض داخلى. فبناء على رأيها "تقرر تصدير البصل الى الخارج أبتداء من أول أبريل سنة ١٩١٨

---

٨٣) مجلة الغرفة التجارية المصرية، السنة الثالثة، العدد الخامس مايو ١٩١٨؛ "مذكرة القائم مقام المستشار المالى" ص ١٨٤.

٨٤) الاهرام، عدد ١٣٧٠٢، ٢٤ مارس ١٩٢٢؛ الجريدة التجارية المصرية، العدد ٢٥١، ٢٥ مارس ١٩٢٢.

٨٥) محفوظات مجلس الوزراء، داخلية، محفظة ١٠/٣/أ "مذكرة رياسة مجلس الوزراء فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٧".

٨٦) لطيفة سالم: المرجع السابق ص ١٤٥.

٨٧) الجريدة التجارية المصرية، عدد ٢٥١، ٢٥ مارس ١٩٢٢؛ التجارة، عدد ٧٣، ١٥ سبتمبر ١٩١٨. وكانت الكميات التى تشتريها من الداخل يقوم بها مستخدمون يحملون تراخيص بشراء كميات من السلع لحسابها من الاقاليم ونقلها الى المناطق التى تكون فى حاجة اليها، محفوظات مجلس الوزراء، داخلية، محفظة ١٠/٣/أ " مذكرة رياسة مجلس الوزراء فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٧".

الى حين صدور أوامر أخرى" (٨٨) هذا الى جانب أكتسابهـا حق وضع تعريفات التسعير الجبرى ،وإدخال بعض السلـع فيها أو إخراجها منها طبقا للظروف (٨٩).

وتسهيلا للاشراف على تطبيق التسعير الجبرى ،أستصدرت المصلحة قرارا فى ٢٦ يناير سنة ١٩١٨ يجبر التجار علـى وضع بطاقة فوق كل سلعة تحمل تسعيرتها الرسمية ،أو تعلق التعريفة المطبوعة فى المتجر على أن تغير هذه البطاقات أو التعريفات المطبوعة أسبوعيا مع تغير التعريفـة الرسمية ويعد هذا مخالفة يعاقب عليها بغرامة لاتتجـاوز ١٠٠ قـرش(٩٠).

وعلى الرغم من ذلك لم تؤد مصلحة التموين فيمـا قامت به من أعمال الى التخفيف من أستمرار أرتفاع الاسعار فتشير الاحصاءات الى تزايد الاسعار فى سنتى الحـرب الاخيرتين وكذلك نفقات المعيشة (٩١)، خصوصا بعـد أن تركزت أعداد كبيرة من القوات العسكرية بالقرب من مصـر، وفضلا عن أستنزافها الشديد للمواد الغذائية من مصـر فقد أزيلت فى نفس الوقت القيود عن زراعة القطـن ، فارتفعت الاسعار بدرجة أكثر شيوعا (٩٢).

وفى بلاغ تصفية مصلحة التموين أشارت وزارة المالية الى عجزها فى تقديم حلول للوضع الذى كانت تزداد فـه

٨٨) الاهالى ،عدد ٢٣٠٣ ،أبريـل سنـة ١٩١٨ .
٨٩) مجلة الغرفة التجارية ،السنة ٣ ،مارس سنة ١٩١٨ ،ص٩٣.
٩٠) محفوظات مجلس الوزراء ،وزارة الزراعة ،محفظة ١٢/ب دوسية ٦/٣٦ " مذكرة من وزارة الداخلـة لرئاسة مجلس الوزراء "،نفس المصدر " قانون نمرة (١) سنة ١٩١٨
٩١) أرجـع الى ص ٣٠٨.
٩٢) Crouchley A. E : op . cit P. 195.

الاسعار أشتطاطا من يوم لاخر فنددت " بالمصلحة وعدم قيامها بحل أى مشكلة مشيرة الى ماعاشته البلاد خلال عهدها من آلام الغلاء الشديد الذى سيطر على أخص حاجات الانسان ولوازمه الضرورية ،فقد أعطت قوما أسعدهم الحظ بوجودها ووضعت أقوات الناس فى أيديهم فتصرفوا فيها بما تشتهى أنفسهم ومايطابق مصلحتهم الخاصة".(٩٣)

ويستشف من هذا أن المصلحة أستخدمت ماتجمع تحت أيديها من سلع سواء ماكانت تجمعه من الداخل أو ماكان يرد اليها من الخارج ووجهته بعيدا عن خدمة الاهالى، ولانستبعد أن يكون ذلك قد تم توجيهه لسد حاجة القوات المحاربة ،خصوصا أن الشواهد تشير الى أن المصلحة كانت وثيقة الصلة بالسلطة العسكرية .

وبذلك عجزت مصلحة التموين عن التخفيف من أرتفاع الاسعار الذى أزداد فى سنتى الحرب الاخيرتين بشكل أزعج السلطات البريطانية وكذلك الحكومة المصرية مما جعلهما يتفقان فى وجهة النظر حول مدى أرتفاع الاسعار وضرورة التصدى له بقوة ،حيث أتفقت وجهة نظر السلطات العسكرية البريطانية الممثلة فى القائد العام للجيوش البريطانية فى مصر والسلطات المصرية على ضرورة أتخاذ أجراء وقائى وفعال للوقوف فى وجه أستمرار أرتفاع الاسعار .

وأنتهى الامر بالاتفاق مابين السلطات المصرية والسلطة العسكرية البريطانية على أنشاء لجنة مراقبة التموين وخولت اليها جميع الاختصاصات التى كانت للجان التسعير ولجنة التموين ومصلحة التموين ،وصدر بذلك قانون فى ٩ مارس سنة ١٩١٨.(٩٤)

٩٣) الجريدة التجارية المصرية : عدد ٢٥١٠٢٥١ مارس ١٩٢٢ .
٩٤) محفوظات مجلس الوزراء ،وزارة الزراعة ،محفظة ١٢/ب ، دوسية ٦/٣٦ " قانون نمرة (٥) لسنة ١٩١٨ .

وأسندت رئاسة اللجنة الى أجنبى يدعى مستر كريج ،ثم من بعده الى أجنبى آخر يدعى مستر روس تيلر والذى كان أحد أعضائها [٩٥]. كذلك كان أعضاؤها بالاجماع من الاجانب حيث تمثلوا فى مستر روس تيلر ومستر ستيورات ومستر مكلوب ومستر وطسن ومستر لويد الى جانب مندوب أو أكثر من قبل السلطة العسكرية [٩٦].

وبذلك جاءت اللجنة بريطانية من بابها ،وتسرب اليها فى هذه المرة النفوذ العسكرى وكان لذلك تأثيره فى أكساب قراراتها شكلا عسكريا أو بوليسا أزيد من اللازم،فأصبحت أوامرها صادرة تحت الاحكام العسكرية وأضحت " كل مخالفة للاسعار التى تعلنها اللجنة أو الانظمة التى تقررها تفصل فيها المحاكم العسكرية [٩٧]" ولذلك أستطاعت هذه اللجنة الى حد ما أن تبسط أوامرها على المصريين والاجانب فى أن واحد [٩٨].

ولما كان توفير المواد الغذائية يمثل المطلب الاساسى فى ذلك الوقت للسكان وللقوات العسكرية التى تزايدت بشكل واضح ، فى نفس الوقت الذى أرتفعت فيه أسعارها بشكل مطرد لاضطراب العرض ، لذلك أولت اللجنة مسألة تدبير المواد الغذائية جزءا كبيرا من أهتماماتها فقامت باتخاذ بعض

٩٥) الاهالى ،عدد ٢٩٧٢ ، ٣ يونيو سنة ١٩٢٠ .
٩٦) محفوظات مجلس الوزراء ، وزارة الزراعة ،محفظة ١٢ / أ دوسيه ٥/٣٦ .
٩٧) المقطم ،عدد ٩٢٧٧ ،٢٢ سبتمبر ١٩١٩ " بيان لجنة التموين فى التسعيرة الجديدة "
٩٨) الاهالى ، عدد ٢٩٢٤ ،٦ أبريل ١٩٢٠ " مصلحة التموين والسلطة العسكرية " .

الاجراءات لتضييق الخناق على المحتكرين بما يجعلهم يدفعون بمخزونهم من الغلال الى الاسواق .

فلضرب المحتكرين لجأت لجنة مراقبة التموين الى الاتفاق مع وزارة الزراعة على تسليمها كميات من القمح لتوريدها الى أصحاب المطاحن المتعهدين بطحن القمح ، ولطرحها بعد ذلك دقيقا فى الاسواق للمخابز وتجار التجزئة (٩٩) .

الى جانب ذلك أستخدمت أسلوب التهديد مع كبار المنتجين الذين كانوا يمتنعون عن التفريط فى محاصيلهم بالاسعار الرسمية ، وذلك بارسال الانذارات العسكرية اليهم بواسطة مديريهم التى تدعوهم الى بيع منتجاتهم بالاسعار الرسمية وأعتبر الامتناع عن تنفيذ هذه الانذارات ، مخالفة للاوامر العسكرية ،تدفع صاحبها للمحاكمة العسكرية علاوة على مصادرة المنتجات الممتنع عن بيعها (١٠٠) .

ولحصرُ الاتهام فى أفراد بعينهم كانت اللجنة توجه نداءا محددا بمدة معينة يحتم على التجار والمزارعين وأصحاب الشركات وغيرهم ممن يضعون تحت أيديهم كميات تتجاوز ١٠ أردب من القمح والدقيق بضرورة التبليغ عنها لاقرب قسم بوليس فى بيان مكتوب وموقع عليه من مقدمه ، وأى كميات لم يبلغ عنها ويتم ضبطها تصبح فى حكم السلع المصادرة (١٠١) . ولذلك لجأت اللجنة فى بعض الاحيان الى وضع جوائز لمن يقدم لها معلومات تقودها الى الغلال المخبأه.(١٠٢)(١٠)

وغير ذلك قامت لجنة مراقبة التموين بمهمة وضع تعريفات التسعيرة العامة (١٠٣) ، والتى قام على مراقبة تنفيذها أفراد تم أستدعاؤهم هم ومعاونوهم من بعض المصالح

٩٩) الاهالى ، عدد ٢٣٤٥ ، ٢٠ مايو سنة ١٩١٨ .
١٠٠) المقطم ،عدد ٨٩٨٠ ،٢٤ سبتمبر ١٩١٨ " مشاكل التموين ".
١٠١) الاهالى ، عدد ٢٣٣٢ ، ٤ مايو سنة ١٩١٨ .
١٠٢) الاهالى ،عدد ٢٣٤٢ ، ١٧ مايو سنة ١٩١٨ .
١٠٣) التجارة ،عدد ٦٣ ، ٧ يوليو سنة ١٩١٨ .

الحكومة ، فقد أنتدبت اللجنة بالقاهرة المستر داكسن من موظفى مصلحة السكك الحديدية لمراقبة الاسعار فى القاهرة وأنتدبت الى جانبة أربعة من الموظفين الامناء لمساعدته فى عمله ... أما فى الاسكندرية فقد أنتدبت البلدية بناء على طلب لجنة مراقبة التموين أحد موظفيها لمراقبة (١٠٤) تطبيق الأسعار .

وتسهيلا على هوءلاء المنتدبين فى تأدية مهام عملهم أجبرت اللجنة أصحاب المحال التجارية بضرورة وضع أسعار السلع عليها والمحددة بمقتضى التسعيرة الموضوعة تحت المراقبة باللغة العربية الواضحة الى جانب الانجليزية مشار اليها بحرف E والفرنسية مشار اليها بحرف F (١٠٥) وكان المخالف لتسعيرة لجنة مراقبة التموين يقدم للمحاكمة أمام محاكم عسكرية تولت النظر فى قضايا مخالفى التسعيرة وقد شددت السلطات العسكرية من عقوبات هذه المحاكم ، فأصبحت غراماتها تتراوح مابين ألف قرش وعشرين جنيها أو الحبس لمدة تتراوح بين خمسة عشر يوما وشهر ، الى جانب مصادرة السلعة وبيعها بواسطة البوليس وأغلاق المحل لمدة أربعة عشر يوما (١٠٦) ليس هذا فحسب بل أن العقوبات

---

١٠٤) الاهالى ، عدد ٢٤٠٥ ، أغسطس ١٩١٨ .
١٠٥) المقطم ، عدد ٩٢٧٧ ، ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ " بيان لجنة التموين فى التسعيرة الجديدة "
١٠٦) التجارة ، عدد ٧١ ، أول سبتمبر ١٩١٨ ، نفس المصدر عدد ٧٠ ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩١٨ ، الاهالى ، عدد ٢٣٧٢ ، ٢٣ يونيو سنة ١٩١٨ ، المقطم ، عدد ٨٩٢٢ ، ١٦ يوليو ١٩١٨ " مخالفوا التسعيرة ".

تجاوزت هذا الحد بكثير فى بعض الاحيان ، حيث حكمت المحكمة العسكرية بالقاهرة فى قضية مخالفة التسعيرة وغش السلع على التاجر " حسين عرفه " بالغرامة مائة جنيه مصرى ، وفى حالة العجز عن الدفع توقع عليه عقوبة الحبس لمدة ثلاثة شهور (١٠٧).

والجدير بالذكر أن هذه المحاكم العسكرية كانت تعقد فى أى موضع تحدده المديرية ، فلم تكن لها مكان محدد ،نظرا لعدم أنتظام مواعيدها ، حيث كانت تنعقد عندما تستدعى الحالة النظر فى قضايا مخالفات التسعير ، " ففى الزقازيق كانت تجتمع بدار المحكمة الكلية (١٠٨)" فى حين عقدت المحكمة العسكرية البريطانية بالعاصمة فى قسم الازبكية لمحاكمة مخالفى التسعيرة فى منطقة القسم (١٠٩)، أما فى المنصورة فكانت تعقد إما فى مقر المحافظة أو مركز المديرية (١١٠).

وعلى الرغم من هذا التشدد من قبل المحاكم العسكرية فى معاقبة مخالفى التسعيرة ، الا أنه من خلال قضايا مخالفات التسعيرة التى جاءت على صفحات الصحف يتضح لنا أنها بلغت حدا من الكثرة ،بما يؤكد على أن التجار أصبحوا لايعبأون بهذه الاحكام رغم قسوتها ، ويدل هذا بالتالى على الفشل الواضح فى إحكام السيطرة على أرتفاع الاسعار المطرد الى أن بلغت الحالة فى سنة ١٩١٨ حدا لايطاق ،لان النقص

---

١٠٧) الاهالى ،عدد ٢٣٩٨ ، ٢٤ يوليو سنة ١٩١٨ .
١٠٨) المقطم ، عدد ٩١٠٨ ، ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ .
١٠٩) نفس المصدر ، عدد ٨٩٥٢ ،٢٠ أغسطس ١٩١٨ " مخالفوا التسعيرة "
١١٠) نفس المصدر ، عدد ٨٩٥٦ ، ٢٤ أغسطس ١٩١٨ .

فى الحبوب أدى الى ان أصبح الوضع خطيرا فى المدن الكبرى[(١١)] بالنسبة للفئات الدنيا والمتوسطة .

* * *

من هذه الدراسة نجد أن ظاهرة التضخم التى اجتاحت المجتمع المصرى فى أثناء الحرب العالمية الاولى ،لم تأت مصاحبة لاى عملية تنمية كان قد أقدم عليها المجتمع فى ذلك الوقت ، بل أنها جاءت نتيجة لظروف الحرب ، وما أقدمت عليه بريطانيا من تحويل مصر نقديا من الصرف على أساس الذهب الى الصرف على أساس الاسترلينى ، حتى تفقد الحكومة حق الرقابة على الاصدار النقدى ، ومن ثم تصبح بسهولة اصدار أى كميات من أرواق البنكنوت لتستخدمها فى التمويل التضخمى لقواتها الجاثمة على أرض مصر ، فى مقابل وضع غطاء لهذه الاوراق من العملة الاسترلينية وبسعر التعادل .

وقد ترتب على ذلك تزايد فى العملة الورقية المصدرة والمتداولة نتيجة الانفاق عن سعة للقوات العسكرية ، مما أدى الى احداث أختلال بين العرض السلعى والطلب النقدى وخصوصا بعد أن افقدت الحرب مصر جزءا من وارداتها من السلع الاستهلاكية بصفة عامة والمواد الغذائية بصفة خاصة.

وأدى هذا الاختلال الى أرتفاع الاسعار بشكل تراكمى حيث بلغ هذا فى بعض السلع لاكثر من مثلى ماكان قائما قبل الحرب . وقد جاء هذا الارتفاع فى الاسعار شديد الوقع على القطاع العريض من الاهالى الذين تحملوا بشكل أو بآخر الجزء الاكبر من أعباء مصر فى الحرب ، ومن ثم أصبح شعورهم المليئ بالسخط منذ أن وجدت بريطانيا لنفسها موطا قدم فى مصر على شفا الانفجار . وكان هذا يعنى توريط بريطانيا أكثر فى ظل ظروف الحرب الدائرة ، ولذلك أستمرت طوال فترة الحرب

(١١) التجارة ،عدد ٧٠، ٢٥ أغسطس ١٩١٨ ، الاهالى ،عدد ٢٣٩٨ ٢٤ يوليو سنة ١٩١٨ ، المقطم عدد ١٦٠٨٩٢٢ يوليو ١٩١٨ ، نفس المصدر ، عدد ٨٩٥٢ ، ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٨ " مخالفوا التسعيرة ".

العالمية الاولى تشارك الحكومة المصرية ـ أوتوعز اليهـا ـ تقديم البدائل للوقوف فى وجه أرتفاع الاسعار المستمر ،حتى تحتوى بقدر الامكان شعور السخط السائد الذى كاد ينفجر أو على الاقل تأجيله الى مابعد الحرب .

وبذلك لم تبد سلطات الاحتلال مشاركة الحكومة المصرية الاهتمام بتضخم الاسعار فى مصر إبان الحرب أرضاء للمصريين ولكن تحسبا لوقوع ثورة قد تطيح بمخططها الذى كانت تقوم به مصر فى الحرب ، وكذلك أحلامها حول مصر .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه البدائل التى كانت تطرح من سنة لاخرى للحد من أرتفاع الاسعار لم تحقق ماكان مأمولا منها ، بل أنها زادت الموقف تأزما ـ خصوصا فى السنتين الاخيرتين من الحرب ـ بما وفر عاملا هاما دفع بالقطاع العريض من الاهالى الى الانخراط فى أتون ثورة ١٩١٩ دون أن يفكر لحظة فى التخلى عنها .

المراجَعات وعرض الكتب

عرض لكتاب

مجتمع البحر المتوسط

لجويتين

للدكتور أيمن فؤاد سيد

S.D.Goitein, A Mediterranean Society: The Jewish Communities as portrayed in the documents of the Cairo Geniza.I.Economic Foundations; 2. The Community; 3. The family; 4. Daily life, Univ.of California Press,1967,1971, 1978, 1983.

يطلق مصطلح "الجِنِيزَة" على الكتابات التى وجدت مودعة فى سيناجوج بن عِزْرَة اليهودى بالفسطاط ، وكذلك فى مقابر البساتين اليهودية القريبة من تلك المدينة .فعندما هدم المعبد اليهودى وأعيد بناؤه فى سنتى ١٨٩٩ - ٩٠ ، تفرَّق جمع كبير من المخطوطات والاوراق التى كانت محفوظة به وسعت إلى شرائها مكتبات أوربا والولايات المتحدة المختلفة ، إلى أن حمل Salomon Schechter الكمية المتبقية من هذه الأوراق الى مكتبة جامعة كامبردج وكون بها مجموعة Taylor-Schechter الشهيرة .وتحوى مكتبتى كامبردج وفينا أكبر مجموعة من "جنيزة القاهرة " (وهوالمصطلح الذى أطلق فيما بعد على هذه الأوراق). و"الجنيزة" كلمة عبرية تعنى ، مثلها مثل الكلمة العربية "جَنَازَة" ، اجراءات الدفن ، وهى مشتقة من الكلمة الفارسية "جَنْك" بمعنى "خزانة" أو "كنز" ، وتعنى مكانا دفنت فيه أوراق حتى لا يدنس اسم الله الذى يمكن أن يكون فيها .
(Goitein, S.D., EI., art. a Geniza, II,P.1010; id.,A Med.Soc., I, PP. 1-28) وفى البداية ، كان يظن أن هذه الأوراق تحوى نصوصا دينية فى الأساس ، ولكن

البحث والتنقيب فى هذه الأوراق أثبت أنها تحوى معلومات اقتصادية واجتماعية وأسرية على جانب كبير من الأهمية (عن التجارة ، والصناعة ، وعقود الزواج والطلاق ، والإيجارات والأسعار ، والمقابضات ، والوصايا والهدايا والهبات بالإضافة إلى مئات الأوراق التى تحوى طلبات وشكاوى مرفوعة إلى السلطات...) .

ورغم أن هذه الأوراق هى فى الحقيقة صادرة عن أوساط اليهود ، فإنها تمدنا بمعلومات عن العديد من الأعمال التى تتعلق بغير اليهود ، كما تقدم لنا صورة للمجتمع اليهودى الذى كان يعيش فى مدن البحر المتوسط فى الفترة الواقعة بين القرن الخامس / الحادى عشر والقرن الثامن/ الرابع عشر . فوثائق الأرشيف الإبطالى الخاصة بالعلاقات بين مدن البحر المتوسط غير موجودة تقريبا بالنسبة للقرن الخامس / الحادى عشر وجزئية بالنسبة للقرن السادس / الثانى عشر ، كما أن أوراق البردى المصرية لا تتحدث إلّا عن الحياة الداخلية لمصر والزراعية بوجه خاص ، أما بقية معلوماتنا فنستمدها من المصادر الأدبية ، التى لا يمكن أن ترقى إلى قيمة المعلومات التى تمدنا بها وثائق الأرشيف والتى تعد ناقصة بالنسبة للفترة التى تتناولها أوراق الجنيزة عن الفترة السابقة عليها واللاحقة لها .

ويتكون رصيد أوراق الجنيزة من نحو سبعة آلاف ورقة (وثيقة) أو جزء من وثيقة ، وتنبه إلى أهميتها وإلى المعلومات الاقتصادية والاجتماعية التى يمكن استخراجها منها عالم يهودى أمريكى هو الأستاذ صمويل د. جويتين S.D.Goitein الذى كتب سلسلة طويلة من الدراسات حول هذه الأوراق بدأها فى أوائل الخمسينات[1] وتوجها

---

١) جمع جويتين عددا من هذه الدراسات ونشرها فى كتاب
== Studies in Islamic History and Institution,

أخيرا بموءلف ضخم من أربعة أجزاء (وجزوءه الخامس الذى أتمه موءلفه قبل وفاته سنة ١٩٨٢ تحت الطبع الآن)بعنوان "مجتمع البحر المتوسط ـ الطوائف اليهودية للعالم العربى كما تبدو من خلال وثائق جنيزة القاهرة" . ورغم أن هذا العنوان من شأنه أن يخدع الباحثين ، فإننا يجب أن ندرك إن أهمية هذه الأوراق لا تقف عند الطائفة اليهودية وحدها بل إن اهميتها تتعدى ذلك بكثير ، إذ إنه بغض النظر عن اختصاص هذه الاوراق باليهود فإن القسم الأكبر منها لا يختص فقط بالأقلية اليهودية ولكن بكل المجتمع الذى كانت تتعايش معه الطائفة اليهودية والذى تتماثل أشغاله ونشاطه ومنازله وغذاوءه وملابسه .... معها ، مع الأخذ فى الاعتبار أن المعلومات التى نعرفها عن أحد فئات هذا المجتمع يمكن اعتبارها صالحة كذلك على بقية فئات المجتمع .

وبالإضافة إلى دراسة جويتين ، التى سنتناولها بعد قليل ، فقد تمت العديد من الدراسات التى اعتمدت على "جنيزة القاهرة" من أوائلها دراسة يعقوب مان عن "اليهود فى مصر وفلسطين فى زمن الخلفاء الفاطميين"[٢] (١٩٢٠ و ١٩٦٩) ودراستى موشيه جيل عن الأوقاف اليهودية والموءسسات الخيرية اليهودية[٣] ، ودراسة شاكد"ببليوجرافية مقترحة

==Leiden-Brill, 1966. ونقل قسمامنها إلى العربية الدكتور عطية القوصى بعنوان "دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية" ، الكويت ١٩٨٠ .

2) Mann, J.,The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 1920-22,69.

3) Gil, M.,"Maintenance, Building, opertions and Repairs in the Houses of the Qodesh in Fustat-A Geniza study ", JESHO XIV (1971), pp. 136-195; id., Documents of the Jewish pious foundation from Cairo Geniza, Leiden 1976.

عن وثائق الجنيزة" (٤) ، بالإضافة إلى دراسة الدكتورحسنين ربيع "النظام المالي لمصر ٥٦٤ - ١١٦٩/٧٤١ - ١٣٤١" (٥) .

وللأسف فإن النصوص الكاملة لهذه الأوراق لم تنشر حتى يمكننا مقارنة النتائج التي توصل إليها هؤلاء الباحثون ومدى مطابقتها للأصل الذي نقلوا عنه ، سوى ثمانين رسالة نشرها جويتين سنة ١٩٧٣ (بينها ثماني فقط أعيد نشرها بترجمة جديدة) في كتاب عنوانه (Letters of Medieval Jewish Trader, Priceton, 1973) وقد قصد جويتين من جمع هذه الرسائل التعريف بهؤلاء التجار وحياتهم التجارية من خلال الوثائق نفسها . فهذه الرسائل المتبادلة بين أزواج وعائلات وأصدقاء ذات قيمة كبيرة في فهم عقلية هؤلاء الرجال ، خاصة وأن مشروعاتهم التجارية قامت على قاعدة فريدة في نوعها اعتمدت على صلات الدم والصداقة الوفية .

* * *

وقد تناول جويتين في الجزء الأول : "المؤسسات الاقتصادية" والطبقات الاجتماعية العاملة وعالم التجارة والمال والرحلات... الخ. وفي الجزء الثاني: "الطائفة" من حيث تنظيمها ومؤسساتها ونظام التعليم والتربية و العلاقات الروحية والسلطة الذاتية والقضائية والإشراف الحكومي. وفي الجزء الثالث : "الأسرة" من كافة نواحيها وعلى الاخص عقود الزواج والمراسلات التجارية والأسرية ويقدم لنا

---

4) Shaked, A Tentative Biolography of the Geniza Documents, Paris, 1964.

5) Rabie, H., Financial system of Egypt 564-741/ 1169-1341, 1972.

دراسة هامة جدا عن اقتصاديات الزواج .

أما الجزء الرابع الخاص "بالحياة اليومية" ، والذى يعنينا فى هذا العرض ، فهو دون شك أغنى أجزاء هذه المجموعة فالحضارة المادية التى يصفها تصدق على اليهود والأقباط والمسلمين على السواء ، فقد كان اليهود والأقباط يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين فى الفسطاط (وهى المدينة التى يدور حولها كل هذا الجزء) والتى لم تعرف ال Gheto اليهودى أو الحرفى على الاطلاق . وقد قسم جويتين هذا الجزء إلى أربعة عناوين رئيسية : المنزل والمدينة ، والملابس والحلى ، والغذاء والشراب ، والركوبات .

ويختص الفصل الذى يتحدث فيه جويتين عن المنازل والعمران المدنى فى الأساس بالفسطاط والقاهرة فى العصر الفاطمى وما بعد الفاطمى . فهو يقدم لنا من خلال أوراق الجنيزة العديد من المصطلحات النوعية المعاصرة التى من شأنها أن تعدل الكثير من معلوماتنا الخاصة بالطبوغرافية والعمارة ، فهو حدثنا عن أنماط المنازل المصرية ومداخلها وعن القاعة واستخداماتها ، والطوابق العلوية ، والمناظر والبساتين ويهتم هذا الفصل بوصف لثلاثة منازل كما جاء فى الوثائق ، الأول منزل خاص فى خطة مُهْرَة بالفسطاط ، والثانى الطوابق العليا لمنزل قاهرى يقع فى حارة زويلة ثم اتفاق مبرم بين ساكنين فى أحد منازل مدينة المحلة الكبرى بمصر السفلى .

وبعد ذلك يتناول المؤلف فى فصل تال ، من خلال أوراق الجنيزة ، الحديث عن اقتصاديات المنزل : أسعار البيع والايجار والعوائد ، ثم يفند أثاث المنزل وكل ما يمكن أن نجده فى داخل الدور الواقعة فى الفسطاط بصفة خاصة .

وقد استطاع المؤلف أن يربط فى حديثه عن المدينة بين ما جاء فى أوراق الجنيزة وبين ما تقدمه لنا المصادر الأدبية والكشوفات الأثرية الحديثة ، كذلك فإن الفصل الذى عقده عن الملابس والمنسوجات يكمل فى جزء منه الأعمال السابقة التى قام بها سرجنت Serjeant, R.B., Islamic Textile, Beirut,1972 إلا أنه لم يتعرّف على نشرة "أخبار مصر" للمُسَبِّحِى الذى أخرجتها بالاشتراك مع تيارى بيانكى فى سنة ١٩٧٨ حيث يقدم لنا النص معلومات غنية عن الملابس والأقمشة التى كانت تستخدم فى مصر الفاطمية فى مطلع القرن الخامس / الحادى عشر .

ورغم أننا لا نملك نص الأوراق التى بنى عليها جويتين دراسته حتى نتمكن من مراجعة آرائه ومطابقتها مع هذه النصوص ، فإن عمله سيظل من أهم الدراسات التى تناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأسرية لأحد مجتمعات العصور الوسطى أعنى المجتمع اليهودى الذى عاش فى حوض البحر المتوسط .

دراسة نقدية لكتاب الفن الاسلامى
تأليف : دافيد تالبوت رايس
(David T. Rice: Islamic Art)

د. ابو الحمد محمود فرغلى
كلية الآثار - جامعة القاهرة

صدرت فى عام (١٩٨٤ م) طبعة معادة ومنقحة من كتاب (الفن الاسلامى Islamic Art)[١] للسيد (دافيد تالبوت رايس David Talbot Rice)[٢] . ويتناول هذا البحث دراسة نقدية لهذا الكتاب وتنقسم الى قسمين : أولهما يختص بتعريف موجز بالكتاب ومدى أهميته ، بينما يقتصر القسم الثانى على الدراسة النقدية .

القسم الاول : تعريف موجز بالكتاب

يقع الكتاب فى مائتين وثمان وثمانين صفحة مقاساتها (٢١ × ١٥ سم) ويحتوى على حوالى مائتين وتسع وأربعين لوحة من بينها حوالى خمس وخمسين لوحة بالالوان ويشتمل الكتاب على مقدمة واثنى عشر فصلا مستقلا تليها قوائم المراجع والتواريخ والخرائط واللوحات ثم ينتهى بفهرس عام .

وافرد الفصل الاول للفن الاسلامى المبكر خلال العصر الاموى وتناول فى الفصل الثانى فنون العصر العباسى .

---

١) صدر هذا الكتاب لاول مرة فى عام (١٩٦٥م) عن دار " Thames and Hudson " بلندن ، ثم اعيد نشره فى طبعة منقحة عام (١٩٧٥م) واخيرا صدر فى طبعة معادة ومنقحة عام (١٩٨٤م) . والتى سانتهى من ترجمتهاقريبا ان شاء الله .

٢) السيد "رايس Rice " انهى دراسته الجامعية فى عام (١٩٢٥م) وبعد ان قام بالعديد من الرحلات والحفائر الاثرية فى منطقةالشرق الادنى عام(١٩٣٢م) اصبح محاضرا للفن البيزنطى وفن الشرق الاوسط ،ثم بعد حوالى عامين عين استاذا فى جامعة أدنبرة بانجلترا .

كما خصص الفصل الثالث فنون ايران حتى الغزو المغولى فى حين تناول فى الفصل الرابع الفنون الاسلامية فى اسبانيا ومصر وشمال افريقيا حتى سنة (١٢٠٠ م) . وفى الفصل الخامس تناول فنون بلاد ما بين النهرين من القرن (١٠ م) الى القرن (١٣ م) . وأفرد الفصل السادس لفنون ايران فى العصر المغولى . وتناول فى الفصل السابع فنون سورية ومصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . كما خصص الفصل الثامن لدراسة الفن الاسلامى المتأخر فى شمال افريقيا واسبانيا وصقلية . وتناول فنون السلاجقة الروم فى الفصل التاسع . وأفرد الفصل العاشر لفنون الاتراك العثمانيين . وخصص الفصل الحادى عشر للفن الايرانى فى نهاية القرن (١٤م) . وبداية القرن (١٥م) وفى الفصل الثانى عشر تناول الفنون فى نهاية العصر الصفوى وقصد بها تلك الفترة التى تبدأ منذ سنة (١٥٩٨م) حينما نقل الشاه عباس الصفوى عاصمة الصفويين من قزوين الى اصفهان .

وتعود اهمية هذا الكتاب باعتباره احد المؤلفات الاجنبية بلغة أوربية تناول الفنون الاسلامية بوجه عام بحسب العصور الاسلامية والموقع الجغرافى لاظهار التطورات الناتجة عن العصور المتتالية والاقاليم الاسلامية المختلفة وذلك لان العالم الاسلامى يحتل رقعة واسعة من العالم كما أن شعوبه تنتمى الى كل اجناس البشر تقريبا . ونذكر من المراجع السابقة على هذا الكتاب وتناولت نفس الموضوع ومن الراجح أن المؤلف السيد "رايس" قد اعتمد عليها فى مادته العلمية ، منها على سبيل المثال :

كتاب "دس Diez " عن فنون الشعوب الاسلامية والصادر فى عام (١٩١٧م) [٣] ، ثم كتاب " مارسه

---

3) Diez E., Die Kunst der Islamischen Volker. Potsdam, 1917.

Marcais " عن الفن الاسلامى والصادر (١٩٢٦ م)[٤] ، وكتاب "ميجون Migeon " بعنوان " موجز الفن الاسلامى" فى جزءين صدرا عام (١٩٢٧م)[٥] . وكتاب "كونل Kuhnel" عن الفن الاسلامى والصادر فى عام (١٩٢٩م)[٦] . وكتاب " ديماند Dimand " عن الفنون الزخرفية الاسلامية صدر فى عام (١٩٣٠م)[٧] . ثم كتاب المرحوم زكى محمد حسن عن فنون الاسلام صدر فى عام (١٩٤٨م)[٨] . وكتاب (ويلسون Wilson " عن الفن الاسلامى - مائة لوحة بالالوان - صدر عام (١٩٥٧م)[٩] .

القسم الثانى : الدراسة النقدية

وقع المؤلف السيد "رايس" فى الفصل الاول بالصفحة العاشرة فى خطا كبير حيث يقول "نحن الآن لا نعلم شيئاعملنا من فنون أشغال المعدن والنسيج أو تزويق المخطوطات فى عصر الامويين".[١٠] . ولربما يكون محقا فى قولته هذه بالنسبة لفن تزويق المخطوطات ولكنه ابتعد عن الصواب تماما لانكاره وجود قطع من المنسوجات الاسلامية التى تنسب الى العصر الاموى ونكتفى بسرد الادلة التالية التى تؤكد على معرفة الامويين صناعة وزخرفة النسيج :

4) Marcais G., D'Art Musulmon. Paris,1926. 1926.
5) Migeon G., Manuel d'Art Mus. 2 Vol. Paris,1927
6) Kuhnel E., Die Islamisch Kunst Leipzig,1929.
وقام د. احمدموسى بترجمته تحت عنوان "الفن الاسلامى"صدر فى بيروت (١٩٦٦م) .
7) Dimand M.S., Handbook of M. Decorative Arts New York, 1930.
وقام السيد احمدعيسى بترجمته تحت عنوان " الفنون الاسلامية صدر فى القاهرة (١٩٥٩م)
٨) د.زكى محمد حسن : فنون الاسلام . (القاهرة ١٩٤٨م) .
9) Wilson P.P., Islamic Art one Hundered Plates in Colour London, 1957.
10) Rice D.T., Ismalic Art London. 1984,P. 10.

(١) ذكر البرت كندراك " Albert Kendrick" بأنه توجد قطعة نسيج بمتحف فيكتوريا والبرت مطرز عليهاعبارة "مروان أمير المؤمنين"(١١) ، ويؤرخها بين سنة (٦٨٤م) وسنة (٧٥٠م)(١٢) .

(٢) أشار ارنست كونل " Ernst Kuhnel" الى وجود قطعة نسيج أخرى يحتفظ بها متحف واشنطون منسوجاعليها اسم "مروان"(١٣) .

(٣) يحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة - سجل رقم ١٠٨٤٦ - باقدم مثال مؤرخ للمنسوجات فى العصر الاموى وهو عبارة عن عمامة من الكتان باسم "سمويل بن مرقس أو صمويل بن موسى"(١٤) وهى مؤرخة بسنة (٨٨هـ / ٧٠٧م)(١٥) وتؤيد نانسى بريتون " Nancy Britton"(١٦) هذا الرأى وتقول بأن القطعة التى تليها قطعة النسيج المحفوظة بمتحف واشنطون وترجع الى عصر مروان الثانى(١٧) .

أغفل المؤلف فى الفصل السابع عند تناوله فنون سورية ومصر فى القرنين السادس الهجرى (١٢م) والسابع الهجرى (١٣م) فنون العصر الايوبى التى ازدهرت فى كل من سورية ومصر اذ نجد أن صناعة الخزف المرسوم تحت الطلاء

11) Kendrick A.T., Catalgue of M. Textiles of the Medieval period (Victoria & Albert Museum) London 1924, P. 35 PL.III.
12) Ibid. P. 35.
13) Kuhnel E., Die Islamische Kunst.Leipzig,1929
١٤) د.حسن الباشا :فنون التصوير الاسلامى فى مصر (القاهرة ١٩٧٣م) ص ٣٦ شكل (٩) ،ومدخل الى الاثار الاسلامية القاهرة ١٩٧٩م) ص ٣٤٦ شكل (٨٩) .
١٥) د.محمدعبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قبل عصر الفاطميين (القاهرة ١٩٧٤) ص ٦٦ شكل ٢٠ .
16) Britton N., Some Early Islamic Text.Boston, 1938.
١٧) د.سعادماهر:الفنون الاسلامية (القاهرة١٩٨٦م) ص ٧٣- ٧٤ .

والمتعدد الالوان ازدهرت فى مصر مع مطلع القرن السابع الهجرى (١٣م) حتى أطلق على هذا النوع لاتقان صناعته ورقته اسم " الخزف الدقيق الصنع" وتحتفظ العديد من المتاحف العالمية بالكثير من القطع الخزفية من هذا النوع وبخاصة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

كما نجد أنه شاع فى مصر وسورية خلال العصر الأيوبى أسلوب الزخرفة بالتذهيب والمينا ء الزجاجية الملونة ومثال ذلك تلك القنينة التى يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى بالقاهرة - سجل رقم ٤٢٦١ - برقبتها الطويلة وقاعدتها المرتفعة وتمتاز أبعادها بالرقة والتناسب ويزخرف بدنها بالتذهيب والمينا ء زخارف نباتية قوامها زخرفة التوريق داخل ثلاث دوائر كبيرة [١٨] . وتحمل على الرقبة اسم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبى سلطان دمشق وحلب (٦٣٣ - ٦٥٧هـ/١٢٣٦ - ١٢٦٠م) [١٩] .

كما أغفل المؤلف ازدهار فن التصوير وتزويق المخطوطات بالصور الملونة بحسب أسلوب المدرسة العربية فى مصر وسورية خلال العصر الايوبى ومثال ذلك :

• تحتفظ المكتبة الاهلية بباريس - تحت رقم ١٣قبطى - بمخطوط من " الاربع بشائر" مزوق بعدد من الصور وتم نسخه على يد ميخائيل أسقف مدينة دمياط فى سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م) [٢٠]

• يحتفظ متحف الفن القبطى بالقاهرة - تحت رقم ١٤٦-

---

١٨) عبد الرءوف على يوسف :مقال الزجاج من كتاب (القاهرة تاريخها فنونها ، آثارها) ص ٣٣٩ (القاهرة ١٩٧٠م) .

١٩) ديماند (م٠س) :الفنون الاسلامية ،ترجمة احمد عيسى والقاهرة ١٩٥٩م) ص ٢٤٠ .

20) Blochet E., Les Enluminures Des Manus. orientaux De la Bibliotheques Nationale Paris, 1926, P. 51.

بمخطوط من "الرسائل واعمال الرسل" مزوق بعدد من الصور وتم نسخه على يد غبريال الراهب فى سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) [٢١].

• تحتفظ المكتبة الاهلية باريس ـ تحت رقم ٦٠٩٤ عربى ـ بمخطوط من كتاب مقامات الحريرى مزوق بحوالى تسعة وثلاثين صورة [٢٢] وينسب الى سورية حوالى سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢ ـ ١٢٢٣م) [٢٣].

• تحتفظ المكتبة الاهلية بباريس ـ تحت رقم ٢٤٦٥عربى ـ بمخطوط من كتاب كليلة ودمنة مزوق بحوالى ثمان وتسعين صورة [٢٤] وينسب الى سورية حوالى سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) [٢٥].

• تحتفظ دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ تحت رقم ١٠٠ طب تيمور ـ بمجموعة خطية فى طب العيون من بينها كتاب فى تركيب العين وعليلها على رأى ابقراطوجالينوس لحنين ابن اسحاق [٢٦] تحتوي على خمس تصاوير تعتبر من أقدم الرسوم التشريحية فى طب العين [٢٧] تم نسخها على يد عبد الرحيم بن يونس بن حسن الانصارى فى اول ذى الحجة سنة (٥٩٢ هـ) الموافق ٢٥ من اكتوبر سنة (١١٩٦ م) [٢٨]! حتى أنه يمكننا القول بان عصر الايوبيين رغم قصر مدته وكثرة حروبه كان من عصور النضج والازدهار الفنى .

---

٢١) أبوالحمدمحمودفرغلى:تصاويرالمخطوطات فى عصر الايوبيين ـ مخطوط رسالة ماجستيرمن كلية الاثارجامعةالقاهرة ١٩٨١مص٤٩

22) Ettinghausen R.Arab Paint.-Skira,1972,P.151.

23) Sakisan A.,La Miniature Persane du XII^{e} Siecle au XVII^{e} Siecle Paris, 1929, P.20.

٢٤) د.حسن الباشا: التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٥٩م) ص ١٤٣ .

٢٥) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

٢٦) احمدتيمور:التصويرعندالعرب(القاهرة ١٩٤٢م)ص٣٥ وهامش١٥٦ .

٢٧) د.ماكس مارهوف:كتاب العشر مقالات العين المنسوب لحنين بن اسحاق (القاهرة ١٩٢٨م) ص ٥٧ .

٢٨) المرجع نفسه ، ص ٦٠ .

وكذلك عند تناوله فن تزويق المخطوطات فى عصر المماليك فى الفصل السابع ايضا (٢٩) نجده لم يذكر شيئا عن اهتمام سلاطين وامراء المماليك وشغفهم بقراءة الكتب الادبية والتاريخية باللغة التركية حسب قول الجبرتى ومصداق ذلك ترجمة كتاب الشاهنامه لابى القاسم الفردوسى فى عهد السلطان قنصوه الغورى من الفارسية الى التركية اذ تحتفظ مكتبة طوبقا بوسراى باستانبول بنسخة مخطوط باللغة التركية - تحت رقم ١٥١٩ حزين - (٣٠) مزوقة بحوالى اثنين وستين صورة تم نسخها على يد حسين بن حسن بن محمد الحسينى الحنفى فى الثانى من ذى الحجة سنة (٩١٦ هـ) الموافق الثانى منمارس سنة (١٥١١م) (٣١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المؤلف انهى كتابه بالفصل الثانى عشر والذى يتناول فيه فنون العصر الصفوى وبخاصة منذ النصف الثانى من القرن (١٠هـ/١٦م) (٣٢) ولم يتعرض المؤلف السيد "رايس" لدراسة الفنون الاسلامية وحالتها فى عصر القاجاريين فى ايران (٣٣) . وكذلك نفس الامر بالنسبة للفنون الاسلامية فى عصر السلاطين المغول بالهند والتى كانت مزدهرة فى عهدهم وبخاصة فن التصوير وتزويق المخطوطات بالصور الملونة (٣٤) .

29) Rice D.T., Op.Cit., PP. 140-142.
30) Nurhan Atasoy, un Manus.Mamluk Illustre Du Sahnima Revue Des Etudes Islamiques XXXVII. 1969, P. 151.
31) Mohamed Mostafa, Miniature Paintings in some Manuscripts Cairo,1970, pp. 10-11.
32) Rice D.T. Op.Cit., pp. 237-258.
٣٣) سمية حسن ابراهيم :المدرسة القاجارية فى التصوير.رسالة ماجستير - لم تنشر.كلية الاثارجامعة القاهرة (١٩٧٧م) .
34) Brown P., Indian Painting under Mughols. Oxford, 1924.

Gray B. & Barrett D., Indian Painting, Skira, 1977.

وكذلك يلاحظ عليه عدم ذكره لتاريخ هجرى قط ولو مرة واحدة فى متن الكتاب كله ولا حتى فى قائمة التواريخ بآخر الكتاب ، ورغم ذلك ورد بالكتاب ذكر بعض الحوادث التاريخية والمنشآت المعمارية المؤرخة وبعض المنتوجات الفنية التى تحمل تاريخ الصنع .

* * *

د دليل الرسَائل الجامعيّة

أولا : رسائل التاريخ القديم

اعداد : عوده عبد الواحد جوده

كاتب القرية فى مصر ابان عصر البطالمة

رسالة ماجستير للباحث : عوده عبد الواحد جـــوده

تتألف الرسالة من مقدمة وخمسة فصول ، يتناول الفصل الاول التقسيم الادارى فى مصر والهيكل الادارى لموظفيهـا ، ويشمل ذلك التقسيم الى أقاليم ومديريات ومراكز وقـــرى ، وتقسيم محافظة الفيوم الى اقسام ونومارخيات ومراكـــز وقرى . والتقسيم الادارى للموظفين فى كل من الادارة المدنيـة والادارة المالية .

ويتناول الفصل الثانى ترتيبات تعيين كاتب القريةفى وظيفته وأجره ونخلص الى أن تعيين كاتب القرية كان يتـم من خلال قرار يتخذه وزير المالية بناء على ترشيـــح من روءسائه وكاتب المركز والكاتب الملكى . وان اشار البعـض الى ان مجلس مزارعى الملك وأعيان القرية كان له دور فـى تعيينه ، وكان اختيار كاتب القرية يتم من بين العامليـن فى مكتب كاتب القرية نفسه أو بناء على صلة قرابـة مـع كاتب القرية السابق ، وبالنسبة لاجره فانه كان يتلقـــى قطعة أرض يستزرعها يكون دخلها راتبا له .

ويتناول الفصل الثالث دور كاتب القرية فى شـــتى مجالات الحياة الاقتصادية فبرز دوره فى مجال الزراعة حيـث كان يشرف على مسح الارض وريها وعلى تنفيذ لائحة الزراعـة السنوية ، بل وعلى عملية الزراعة نفسها وعلى الحصـــاد والدراس وتسليم حق الدولة لدى الفلاح ، وبالنسبة للصناعـة كان دوره بارزا فى صناعات بعينها مثل صناعة الزيـــت والمنسوجات ، حيث كان يمد المصانع بالمواد الاولية ويكتب قائمة بأسماء الحرفيين ويراقبهم . وبالنسبة للتجارة نجد

له دورا فى تجارة الزيت والنبيذ والمر فى نطاق قريته . وتناول هذا الفصل ايضا دوره فى مجال الضرائب على شتى اوجه النشاط الاقتصادى .

أما الفصل الرابع فيختص بدارسة علاقاته بغيره من الموظفين مثل علاقته بوزير المالية ومن هم دونه من موظفى الادارة المالية والمدنية ، وكذلك علاقته بغيره من موظفى القرية .

والفصل الخامس يتناول دوره فى المنازعات القضائية وارساء العدالة فى قريته وانه كان يقوم بهذا الدور بصفته موظفا اداريا مثل رجال الشرطة فى العصر الحديث وما يقومون به من حل للمنازعات دون أن يكون لهم صفة قضائية ، حيث لم يكن له صفة قضائية ، وكذلك تناول البحث أمثلة للمخالفات التى كان يرتكبها كتاب القرى والعقوبات التى كانت توقع على المنحرفين منهم .

* * *

ثانيا : رسائل التاريخ الاسلامى

اعداد : هويدا عبد المنعم سالم

١ - التطور السياسى للدولة الايلخانية فى عهد اولجايتو محمد خدابنده

رسالة ماجستير للباحث : محمد محيى الدين الادريسى

تتناول هذه الرسالة التطور السياسى الذى طرأ على الدولة الايلخانية فى عهد اولجايتو محمد خدابنده ، والذى حكم فيما بين سنتى (٧٠٣هـ - ٧١٦هـ) (١٣٠٤م - ١٣١٦ م). ويعتبر هذا الايلخان المسلم هو ثامن امير مغولى يتولى عرش هذه الدولة التى أسسها هولاكو بايران بعد سلسلة من الايلخانيين الوثنيين والمسلمين .

ينقسم البحث الى تمهيد وستة فصول : أما التمهيد : فقد عرف فيه الباحث دولة الايلخانات منذ نشاتها بايران على يد هولاكو حتى زمن اولجايتو . ووقف عند الايلخانات الاوائل الذين تعاقبوا على عرش هذه الايلخانية ليتعرف على سياستهم الداخلية .

وتناول فى الفصل الاول دراسة الجهازين السياسى والادارى فى الدولة فتطرق فيه الى قيام الحكم الايلخانى ببلاد فارس . وهو اسم التولية عند الايلخانات وكيف كانوا يأخذون صبغة الحكام الشرعيين من السلطة المركزية بالصين، وتناول كذلك الوزارة والوزراء فى الدولة الايلخانية . كما اشتمل الفصل على دراسة الجهاز الادارى القائم داخل البلاد، والبحث فى نظام البريد داخل الدولة والوقوف على مدى الاصلاحات التى ادخلت على هذا النظام بعد ان تطرق اليه الفساد .

واختص الفصل الثانى :بموضوع النظامين المالى

والعسكرى فى الدولة . وحاول الباحث معالجة النظام المالى بكل فروعه المتعارف عليها آنذاك ، خاصة فيما يتعلق بموارد الدولة ومصروفاتها ، واشار كذلك الى انواع العملة المتداولة انذاك والتغيرات التى ادخلت عليها وكيفية اقبال الناس عليها داخل البلاد ، كذلك عالج الباحث فى الجزء الثانى من الفصل النظام العسكرى فى البلاد فتحدث عن التنظيمات العسكرية المتبعة داخل الجيش المغولى وعن الاسلحة التى استعملها المقاتل المغولى وخطط الهجوم على اعدائه ، كما تحدث عن رواتب الجيش التى كان يتقاضاها من الدولة .

وناقش الفصل الثالث التطورات السياسية التى شهدها عصر الايلخان اولجايتو محمد خدابنده وسياسته الداخلية من أجل توطيد الحكم داخل البلاد ، ومجابهة الحركات المناهضة والمناوئة لحكمه .

وبحث فى الفصل الرابع العلاقات الأيلخانية المغولية فاهتم بدراسة العلاقات الخارجية مع بلاد فارس وباقى افراد بنى عمومتهم من البيت الجنكيزى ، سواء السلطة المركزية بالصين ومنغوليا والتى كانت تقتصر على الخاقانات العظام أو مغول ما وراء النهر (الجغطائيين) وكذلك مغول القفجاق .

واختص الفصل الخامس بدراسة العلاقات بين الدولة الايلخانية والدولة الاسلامية التى كانت تشكل الحدود مع أطرافها فتحدث فى هذا الفصل عن علاقات الايلخانيين بدولة المماليك فى مصر والشام والتى غلب عليها طابع الصراع الحاد والنزاع المستمر نظرا للهجمات التى قام بها الجيش المغولى على الاراضى الشامية بغية الاستيلاء عليها وضمها الى أراضيه . كما أشار هذا الفصل الى علاقة

الايلخانيين مع باقى البلاد الاسلامية كبلاد الحجار وبعض القبائل العربية .

أما الفصل السادس والاخير فتناول بالدراسة العلاقة بين الايلخانيين والدول المسيحية بأوربا وموقفهم من أهل الذمة داخل البلاد . هذه العلاقة التى سيطر عليها جانب المصلحة بين الطرفين سواء من جانب البابوية وملوك الغرب المسيحى أو من جانب الايلخانات .

* * *

٢ - الصحابيات ودورهن فى بناء أمة الاسلام
فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
رسالة ماجستير للباحثة :سامية عبدالعزيز منيسى

تتناول هذه الدراسة دور الصحابيات فى بناء الدولة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهودهن فى رفعة الدولة وتقدمها .

ينقسم البحث الى مقدمة وبابين وخاتمة ، وقد جعلت الباحثة من المقدمة تمهيدا تناولت فيه نسب رسول اللهصلى الله عليه وسلم والمراد بمفهوم كلمة " صحابى " وطبقات الصحابة وفضائلهم ، والآيات والاحاديث التى اشادت بدورهم فى توطيد اركان الدين الاسلامى وترسيخ قواعده .

واختص الباب الاول بحصر كل الصحابيات اللائى عاصرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذا فهو يجمع بين تقسيم لنسب الصحابيات وتحقيق النسب لعدد منهن اللائى وردن فى المصادر باسم الاب ، أو الجد ، أو بالاسم المجرد فقط . وعند حصر الصحابيات اللائى ذكرن فى المصادر تم تقسيمهن الى فئات حسب قبائلهن

واهتم الباب الثانى : بتصنيف للادوار البارزة للصحابيات فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سواء فى الهجرة او الجهاد بصفة عامة ومن نزل فيهن تشريع سواء نص على ذلك فى القرآن الكريم أو الاحاديث النبوية الشريفة . ومما نجد ملاحظته ان الاسماء قد رتبت ترتيبا هجائيا فى كل موضوع وبخاصة عند الحديث عن أمهات المؤمنين طبقا للترتيب الزمنى لزواج النبى صلى الله عليه وسلم بهن .

أما خاتمة البحث فقد اوردت فيه الباحثة النتائج التى توصلت اليها بعد البحث فى تاريخ الصحابيات وعددهن،وادوارهن البارزة .

* * *

ثالثا : رسائل التاريخ الحديث

اعداد : محمد عفيفى عبدالخالق

١ - سياسة الاحتلال الزراعية فى مصر ١٨٨٢ - ١٩١٤

رسالة دكتوراة للباحث: اسماعيل محمدزين الدين

تنقسم الرسالة الى تمهيد وستة فصول وخاتمة .

استعرض الباحث فى التمهيد الاهداف السياسية والاقتصادية التى تذرعت بها انجلترا للبقاء بمصر واطالة أمد الاحتلال ، بعد أن تم تصفية الثورة العرابية التى كانت موجهة ضد التدخل والسيطرة والاستغلال الاجنبى .

وتناول الباحث فى الفصل الاول سياسة الاحتلال تجاه الملكيات الزراعية ، ومحاولاته لتحقيق التوازن والاستقرار داخل المجتمع للحيلولة دون حدوث اضطرابات سياسة تهدد وجوده ، وموقف الاحتلال من مشكلة ديون الفلاحين التى كانت تمثل خطرا على الاستقرار الاجتماعى فى البلاد .

وخصص الباحث الفصل الثانى لسياسة الرى ، والتى كانت تهدف الى زيادة مساحة الاراضى المنزرعة ،مع زيادة كثافة استغلالها عن طريق زيادة عدد المحاصيل التى تنتجها الارض ، وذلك بالتوسع فى مشروعات الرى الدائم ، وانشاء العديد من القناطر والجسور على النيل ، كان من بينها قناطر اسيوط (١٩٠٢) وزفتا (١٩٠٣) وأسنا (١٩٠٨) ، بالاضافة الى اصلاح قناطر الدلتا عام ١٨٩٠ ، وانشاء خزان اسوان عام ١٩٠٢ والذى تمت تعليته للمرة الاولى عام ١٩١٢ ، مما ترتب عليه زيادة كمية الحجز الى ٣ر٢ مليار متر مكعب من المياه سنويا . واختتم هذا الفصل بالآثار الاقتصادية التى عادت على البلاد من مشروعات الرى الدائم خلال الفترة موضع الدراسة .

تعرض الباحث فى الفصل الثالث لسياسة التخصص الزراعى والتركيز على انتاج محصول القطن ، لتزويد مصانع الغزل والنسيج البريطانية بما تحتاج اليه من المحصول ، الى جانب الحصول على أكبر قدر من الموارد المالية ، تساهم فى دفع عجلة التنمية ، وامكانية سداد الديون الخارجية وفوائدها . وقد أوضح الباحث مدى الاضرار التى لحقت بالمجتمع المصرى من جراء هذه السياسة ، والتى أدت الى زيادة حدة التبعية للخارج من أجل الحصول على المواد الغذائية ، بعد أن زاد عدد السكان بقدر فاق الزيادة فى انتاج المحاصيل الغذائية ، لان التوسع فى زراعة القطن كان على حساب المحاصيل الزراعية الاخرى ، كما أن هذه السياسة استفاد منها أصحاب مصانع الغزل والنسيج فى انجلترا ، وطبقة كبار الملاك والاعيان سواء من المصريين أو الاجانب .

أوضح الباحث فى الفصل الرابع الدور الذى لعبته الاستثمارات الاجنبية فى مجال التنمية الزراعية ، والتى تركزت فى مجالات التسليف العقارى وتمويل تجارة القطن الى جانب مشروعات الرى والصرف والسكك الحديدية واستصلاح الاراضى ، والقطاعات التى تخدم الوجود الاجنبى فى البلاد مثل خدمات المواصلات السلكية واللاسلكية والفنادق . وقد أوضح الباحث كيف سارت هذه الاستثمارات فى طريق يبعد مصر عن اى تطور صناعى نظرا لموقف الاحتلال المعلن صراحة من التصنيع .

أما الفصل الخامس فقد خصصه الباحث لطرق ووسائل تحسين وزيادة الانتاج . ولما كانت الزراعة تمثل حجر الزاوية فى السياسة الاقتصادية للاحتلال البريطانى ، فقد اهتمت سلطات الاحتلال بعدة قضايا تتناول تحسين وزيادة

الانتاج الزراعى ، ومحاولة المحافظة على خصوبة التربة الزراعية عن طريق القيام بعدة ابحاث وتجارب عملية وعلمية لتحقيق هذا الغرض . وكذا قصة انتقاء البذرة وأثرها على الانتاج ، والاضرار التى كانت تسببها دودة القطن ، بالاضافة الى الاهتمام بمسألة الامراض التى كانت تصيب الماشية والحيوانات المستخدمة فى الزراعة والانتاج فيما عرف بالطاعون البقرى . وقد لعبت الجمعية الزراعية الخديوية التى أنشئت فى عام ١٨٩٨ تحت الرعاية والتأييد من جانب الحكومة وسلطات الاحتلال دورا هاما فى هذا الصدد . وقد أوضح الباحث أن كافة هذه المشروعات وجهت فى المقام الاول لخدمة كبار الملاك وأصحاب مصانع الغزل .

أفرد الباحث الفصل السادس لبيان أثر السياسة الزراعية على التجارة من حيث زيادة حجم الصادرات والواردات ، ونظم تسويق الحاصلات الزراعية ، ومدى انعكاس تصدير القطن على الدخل القومى .

وعرض الباحث فى خاتمة الدراسة تقييما شاملا ، لاثر السياسة الزراعية على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وفى تحديد مسار الاقتصاد المصرى كاقتصاد تابع فى اطار الاقتصاد العالمى .

* * *

٢ - تجارة مصر الخارجية ١٩١٤ - ١٩٣٩

رسالة دكتوراه للباحث : أحمد الشربيني السيد

تتناول هذه الدراسة موضوعا هاما فى فترة هامة من تاريخ مصر ، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية : فبالنسبة للتجارة الخارجية ، نجد أنها شهدت فى فترة الدراسة تغيرات فى توجهاتها وكذلك فى نوعياتها وخصوصا الواردات ، علاوة على ما شهدته هذه الفترة من انتهاء اجل التعريفات الجمركية التى ارتبطت بها مصر فى أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، وبدء عهدها بتعريفة جديدة روعى فى وضعها الاسس الاقتصادية اللازمة لزيادة موارد الدولة وحماية الصناعات الاهلية ، وتأثير ذلك فى التخفيف من غلواء تبعية السوق المصرية للسوق العالمى .

يتضح من دراسة تجارة مصر الخارجية فى الفترة من ١٩١٤ الى ١٩٣٩ انها صيغت بشكل هيكلى جاء امتدادا لمخطط رسمته الرأسمالية العالمية وخصوصا رأس المال المسيطر - البريطانى - بدأته تجربة بناء الاقتصاد المستقل فى عهد محمد علــى .

ومن ناحية أخرى ساعد تحول الارض الى سلعة على استمرار تركزها وثباتها فى يد فئة محدودة ، امتلكت بمرور الوقت معظم الاراضى الزراعية ، فى حين ظل قطاع عريض من الاهالى يبلغ متوسط ما يمتلكه الفرد فيه ،دون الفدان ، وادى ذلك الى اختلال فى توزيع الثروة وبالتالى الى تمايز فى انماط الاستهلاك فاصبحت الفئة المالكة للثروة تعيش حياة غربية على اوسع نطاق ، فى وقت عجز الانتاج المحلى عن سد متطلباتها السلعية نتيجة اعتماد الاقتصاد المصرى على نمط تصديرى لمحصول واحد ترتب عليه ان اصبحت

القوة الشرائية المصرية والمتمركزة فى المدن ـ فى الغالب ـ موجهة لاستهلاك السلع المستوردة ، والتى ارتفعت قيمة وارداتها .

أما القطاع العريض من الاهالى ، فكانت قوته الشرائية ضعيفة ، وارتبط تحسنها الى حد بعيد بمدى التحسن فى محصول القطن ، وحتى فى هذه الحالة ، كانت متطلبات هذا القطاع العريض تنحصر فى الطعام ثم الملبس بعد ذلك .

ادى الاختلال فى توزيع الثروة الى خلق اختلال من نوع آخر فى انماط الاستهلاك اثر فى النهاية على طبيعة السوق المصرية ، التى وجدت فيها السلع الاجنبية ضالتهاالمنشودة اما الانتاج المحلى ، فتراجع فى سوقه لافتقاده لابسط المؤهلات التى تمكنه من منافسة الانتاج الاجنبى منافسة متكافئة نتيجة لعدم اقبال الاهالى عليه او لعدم توافر الحماية ، والتى كانت قد توافرت بعض الشىء فى الثلاثينات الا ان المزاحمة اليابانية جاءت لتفسدها ، خصوصا انها عملت على غمر السوق المصرية بالسلع الرخيصة مما هدد بريطانيا قبل مصر ، وجعلهما ينسقان من أجل وضع حد لهذه المزاحمة اليابانية وبالفعل تمكنا من وضع حد لذلك فى ١٩٣٥ ، وبالتالى فان الفترة المتبقية كانت لا تسمح للانتاج المحلى بتغطية احتياجات السوق ، لذلك ظلت تربطها بالسوق العالمى علاقة تبعية .

استمرت السوق المصرية ، على علاقة تبعية بالسوق العالمى ، ينطق بذلك الازدياد الواضح فى نوعيات ومقدار الواردات ، فاذا ما نظرنا الى نوعيات الصادرات ، نجد أن الرأسمالية العالمية ، حرصت على زيادة فائض الانتاج القطنى وتعبئته الى الخارج ، حيث استمر القطن يشكل معظم الصادرات ، وقد اسست شركات تجارية عديدة مارست

عمليات اعداد وتجهيز وتصدير الاقطان الى الخارج بالدرجة الاولى والذى كان يصدر منه حوالى ٩٩ ٪ حتى ١٩٣٠ ، ثم ٩٥ ٪ بعد ذلك حتى نهاية فترة الدراسة .

شهدت هذه الفترة انشاء اكبر عدد من الشركات التجارية سواء الاجنبية البحتة منها أو المختلطة وكذلك المصرية . وتعد مشاركة رأس المال المحلى - المتمصر والمصرى - أمرا يستحق الاعتبار .

وبذلك نجد أن عملية ادماج مصر فى السوق العالمى أصبحت اكثر رسوخا بعد ان تم توجيه الاقتصاد المصرى الى التخصص فى الانتاج الزراعى الذى يلعب فيه القطن الدور المحورى ، وبالتالى اصبح الانتاج المحلى عاجزا عن سد متطلبات السوق المحلية ، امام التغير فى انماط الاستهلاك فكان بمعزل عن السوق العالمى ، بل حتمت الضرورة انخراط مصر فى المبادلات التجارية العالمية ، فتصدر انتاجها العينى ثم تستورد بقيمته النقدية سلعا استهلاكية ، تحولت بعض الشىء فى الثلاثينات نحو استيراد السلع الانتاجية .

والجدير بالذكر ان اية زيادة فى حصص البلدان المتعاملة مع مصر تجاريا كانت تتم على حساب بريطانيا ورغم ذلك ظلت تحتفظ لنفسها بالنصيب الاكبر من تجارة مصر الخارجية ، وظل الاقتصاد المصرى على علاقة اكثر تبعية للاقتصاد البريطانى وذلك بعد الارتباط الذى تم فى فترة الدراسة بين الجنيه المصرى والاسترلينى . وخصوصا بعد ان فشلت محاولات اقامة اتجاهات استقلالية للاقتصاد المصرى فى اطار السوق العالمى بالتوجه نحو بناء صناعى يقدم للسوق المحلية بعض احتياجاتها من السلع المصنعة وقام بنك مصر بالدور القيادى فى هذه المحاولات عندما اقدم على انشاء عدد من الشركات الصناعية فى مجالات التصنيع المختلفة .

هذا ما تناولته الدراسة المكونة من تمهيد وستة فصول وخاتمة ، تناول التمهيد دراسة لبنية الاقتصاد المصرى عند قيام الحرب العالمية الاولى ، وتناولت فى الفصل الاول تطور السوق المصرية فى الفترة من ١٩١٤ -١٩٣٩ وثنيت بفصل لدراسة التغير الاجتماعى وتاثيره على التجارة بينما اختص الفصل الثالث بالاستثمارات فى مجالات التجارة الخارجية . وتناولت الفصول التالية من الرابع الى السادس ، الصادرات والواردات ونوعياتها واسواق تجارة مصر الخارجية . اما الخاتمة فاوضحت النتائج التى توصل اليها الباحث .

* * *

٣- القضية المصرية فى المرحلة الاخيرة

١٩٥٠ - ١٩٥٤

رسالة دكتوراة للباحثة :فادية سراج الدين

تعالج هذه الدراسة موضوع قضية التحرر الوطنى المصرى من الوجود البريطانى فى مرحلتها الاخيرة ، وقامت الدراسة على فرضية اساسية دارت حول المتغيرات الدولية والمحلية التى حدثت فى تلك الفترة وآثرها فى تهيئة الظروف السابقة التى ساعدت على تحريك القضية المصرية ودفعها نحو الحل ، فافترضت وجود علاقة بين تلك المتغيرات وبين حل القضية . وقد تم اختبار هذه الفرضية بطريقة علمية باستعراض مدى التغير الذى طرأ على الظروف السياسية والاقتصادية والاستراتيجية على المستويات الدولية والمحلية فى كل من مصر وبريطانيا فى الفترة محل البحث ، ومدى انعكاسها على القضية المصرية ، حيث أمكن التوصل الى النتيجة الاساسية لهذه الدراسة وهى ان القضية المصرية قد اكتسبت فى مرحلتها الاخيرة ابعادا جديدة وخضعت لاعتبارات كثيرة مثلت فى مجملها عاملا ايجابيا هاما دفع القضية دفعا ايجابيا نحو الحل .

وقد ساعد ذلك القضية المصرية على الانطلاق من نقطة بداية جديدة ومكنها من أن تطرح نفسها طرحا جديدا على الاطراف المعنية ، مما ألبسها بعدا جديدا عمق من آثر الابعاد الاخرى وتفاعل معها ليوفر لها فرصا افضل فى الحل .

تطورت استراتيجية العمل الوطنى على ضوء الظروف السائدة فاتجه التحرك السياسى الجديد للقضية نحو العمل على استثمار العداء الاستراتيجى بين الشرق والغرب لدفع القضية نحو الحل ، وقد تم ذلك بممارسة الضغط على بريطانيا لاجبارها على الجلاء من خلال محاربة قواتها والتصدى

لمصالحها الحيوية فى مصر ، وبممارسة الضغط من جانب آخر على الولايات المتحدة لكى تتدخل فى النزاع القائم بين مصر وبريطانيا ، وتتخذ موقفا مناصرا لقضية مصر من خلال التهديد بعدم التعاون الاستراتيجى مع الغرب ما لم تتم تسوية القضية على نحو يرضى التطلعات المصرية .

على الرغم من العقبات التى تعرضت لها القضية فى بداية هذه المرحلة بسبب استخدام بريطانيا القوة العسكرية فى مواجهة الحركات الوطنية المتصاعدة ، ومساندة الولايات المتحدة للسياسة البريطانية ، الا أن تدافع الاحداث التى نتجت عن العنف والعنف المضاد الذى ترتب على تصاعد الصدام بين الفدائيين المصريين والقوات البريطانية فى منطقة القنال الى اقناع الولايات المتحدة بضرورة التحرك الايجابى لحل هذه المشكلة خوفا من تهديد المصالح الغربية فى المنطقة والوجود الامريكى ذاته على المدى الطويل . لذلك قررت الولايات المتحدة التحرك الايجابى لتصفية المشكلة المصرية تصفية نهائية ، وأعطت لنفسها حق التدخل فى هذه القضية والقيام بدور الوسيط بين مصر وبريطانيا .

جاءت نتائج هذا التحرك الامريكى على غير ما تمنت بريطانيا التى كانت تطمع فى ان تتدخل الولايات المتحدة فى النزاع القائم بينها وبين مصر ، الا أن التحرك الامريكى كان مشروطا ومحددا دائما بالعمل فى اطار ما يخدم أهداف الاستراتيجية الغربية .

ومن ناحية أخرى أدى تصاعد العمل الفدائى فى القنال الى أن فقدت قاعدة السويس قيمتها الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا وأصبحت عديمة النفع بعد أن تحولت المنطقة من معقل دفاعى الى مستودع ضخم للمعدات العسكرية والقوات البريطانية ، التى تضاعفت اعدادها الى عشرة أمثال ماسمح

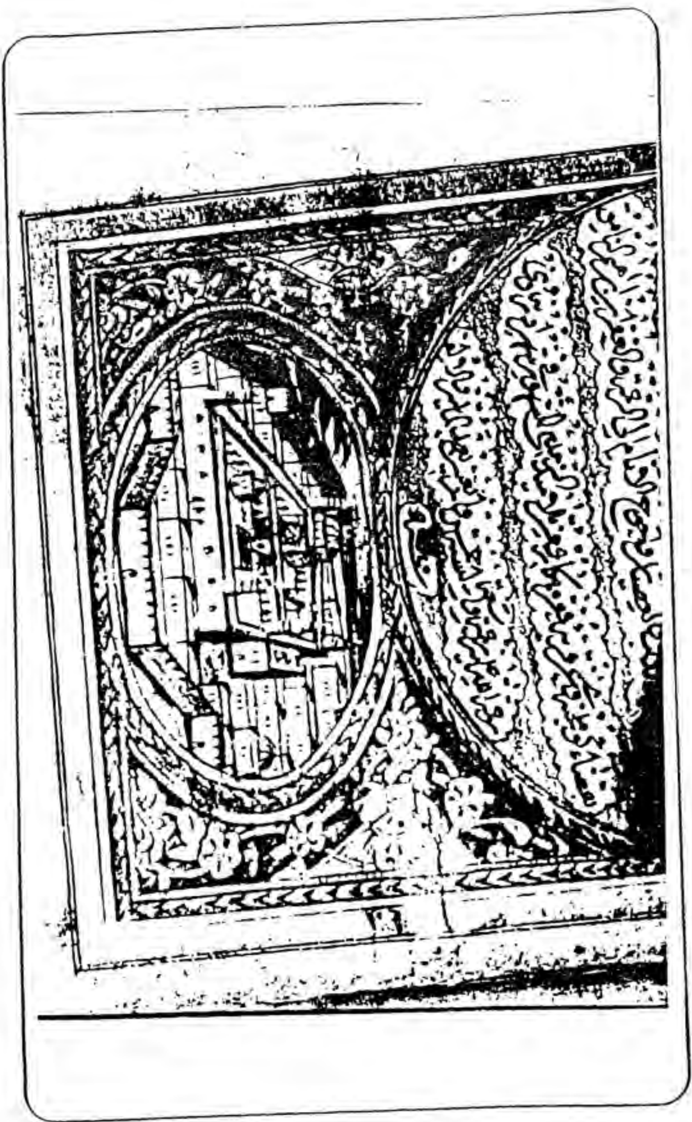
عليه المعاهدة ، فبلغت ٨٠٫٠٠٠ من الجنود ، الذى كان يكلف الخزانة البريطانية ٥٠ مليون جنيه سنويا ، والذى لم تعد لهم الا مهمة واحدة هى الدفاع عن القاعدة وعن أنفسهم فى مواجهة شعب مصر المعاد لهم وأدى هذا الوضع الى اقناع بريطانيا بان ارضاء مصر هو السبيل الوحيد للحفاظ على المصالح الغربية فى المنطقة ، ومن ثم لم يعد الانجليز يتمسكون بضرورة بقاء قواتهم فى مصر فى وقت السلم .

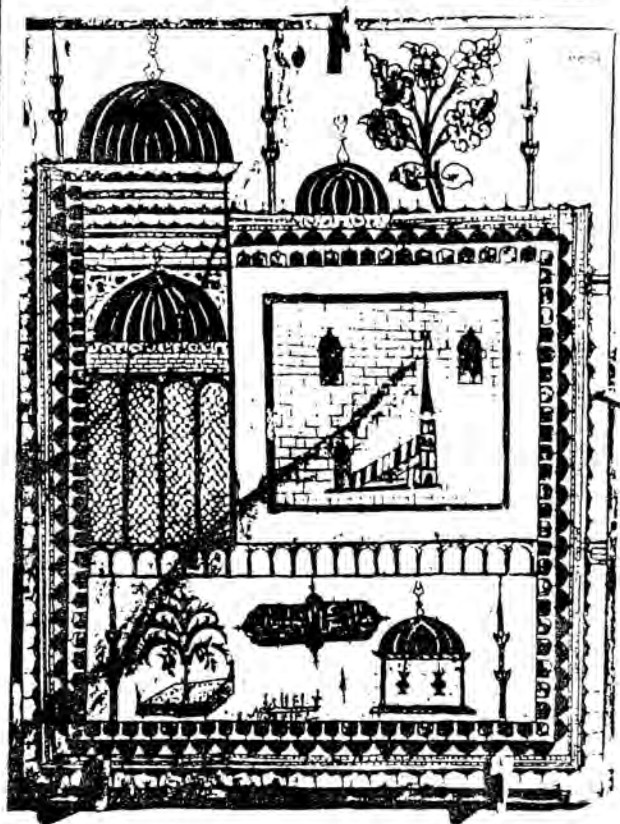
وقد أوضحت هذه الدراسة مدى التغير الذى طرأ على مسار السياسة البريطانية تجاه مصر خلال تلك الفترة ، حتى صارت تتجه الى العمل على التخلص من عبء الاحتفاظ بقاعدة بريطانية فى مصر ، بعد أن عجزت موارد بريطانيا الاقتصادية والعسكرية عن الوفاء بالتزاماتها وخاصة بعد ان تغيرت النظرة الاستراتيجية لقاعدة السويس وأصبح رؤساء الاركان البريطانيين يرون أن وجودها لم يعد يشكل عنصرا اساسيا فى الدفاع عن الشرق الاوسط ، وانه يمكن التخلى عنها فى وقت السلم .

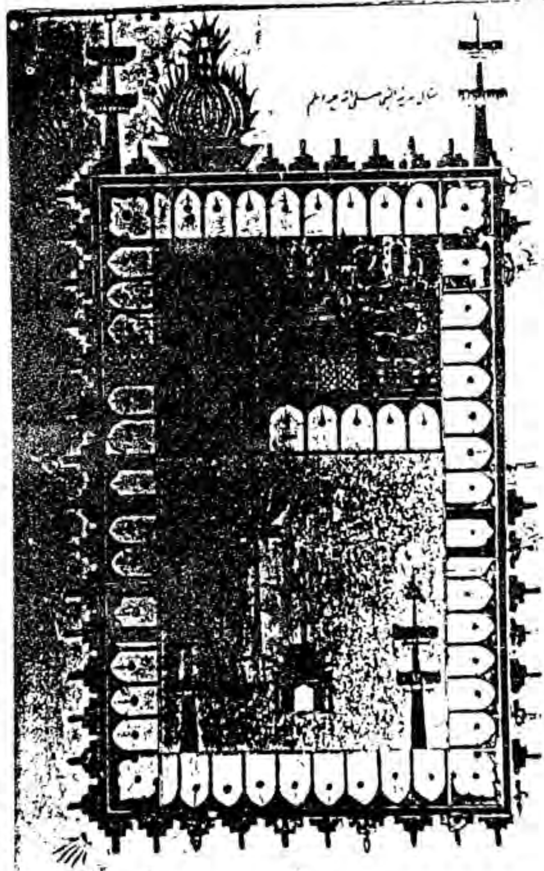
خلصت الدراسة الى أن الموقف الامريكى المؤيد للطرف المصرى والذى كان يمارس ضغطا على الطرف البريطانى ، كان من أهم العوامل التى اثرت ايجابيا على القضية المصرية ، نظرا لتزايد محورية الدور الامريكى فى ذلك الوقت ،وتزايد تبعية الموقف البريطانى للموقف الامريكى ، حتى أصبحت المحادثات الانجلو - امريكية خطوة اساسية لابد أن تسبق اية محادثات انجليزية - مصرية .

* * *

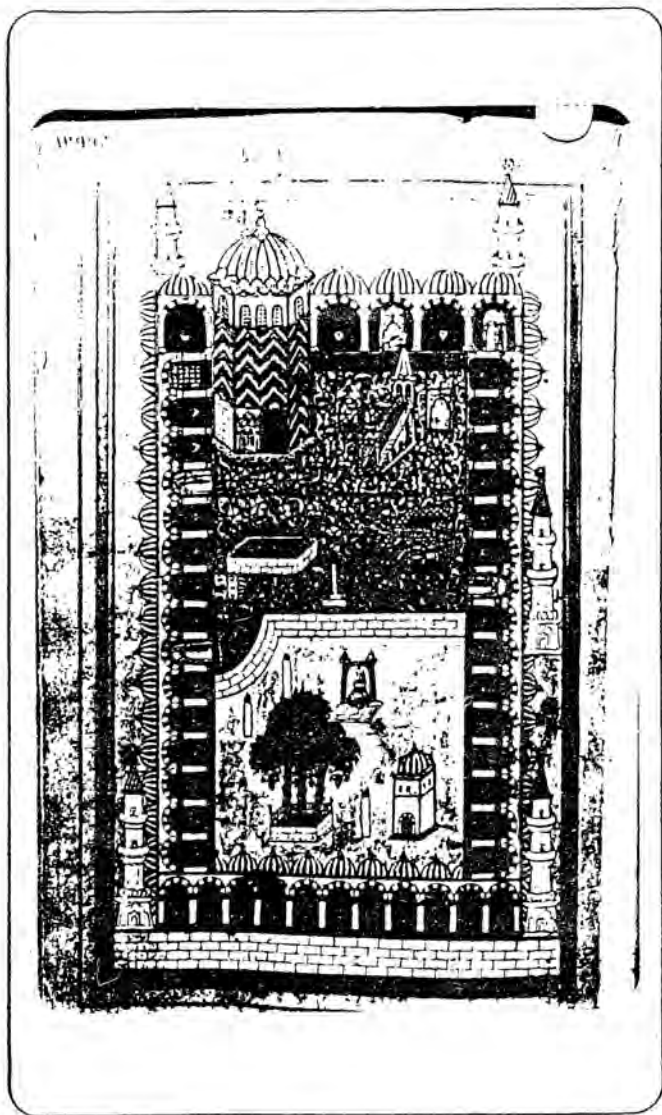








مثال مدينة النبي صلى الله عليه وسلم



In conclusion, in the light of the preceding comparative study, the illustration could be dated after the year 1228, (1813 AD) when the outer walls of the Honourable Room were covered for the first time with decorative tiles, evident in the illustration, and before the year 1245 AH (1829 AD) when perspective was correctly and wholly applied in Ottoman illustrations.

On the other hand, this illustration excels other similar pictures of the same type in using perspective. While perspective had been applied in depicting one element only in the illustration dated 1141 (1729 AD) i.e., the bed of the palm-tree of Fatima, it is, here, applied in depicting several details such as the Honourable Room, the minbar, the principal Dikka, the platfrom of the servants of the Mosque (Aghawat), the oil-dome, the bed of the palm-tree of Fatima and square platform in the courtyard. However it has not been wholly followed here contrary to the illustrations belonging to the middle of the thirteenth century AH and hence-fourth, for example those dated 1245 AH[10] (1829 AD) (Pl.4) and 1249 AH[11] (1833 AD) (Pl.5). Thus, regarding perspective, the illustration may belong to a date before the year 1245 AH (1829 AD).

---

(10) At Qasr al-Manyal Museum, No. 358.

(11) At the Museum of Islamic Art, Cairo, No. 18104.

Thus, in the light of the historical comparative study, the picture can be dated between the year 1228 AH (1813) and the year 1267 (1851 AD).

Also the comparative study of the style of paining may be of some use in dating the illustration more precisely. On the one hand, the picture belongs to the typical early decorative syle followed until about the end of the twelveth century AH, such as the symbolic illustrations dated 990[8] AH (1585 AD) (Pl.2) and 1141 AH[9] (1729 AD) (Pl.3) which are characterized by elaborate patterns and combination between plans and elevations. In the undated illustration, the decorative style is evident partly in repetition and using unrealistic decorative colours such as the golden Honourable Dome and the golden patterns on the ground of the sanctuary, and partly in combining the plan in depicting the sides of the Mosque, with the elevation in depicting the arcades, domes, mihrabs,doors and minarets.

---

(8) The Exhibition of the Unity of Islamic Art, 1405 AH (1985 AD).

(9) At the Museum of Islamic Art, Cairo, No.3556.

three poles and a golden drawing on a square platform paved with flagstones. Around the courtyard there are the arcades consisting of arches with hanging lamps, and covered with ribbed domes. Predominant in the illustration, is the Honourable Room with its outer walls decorated with coloured zigzag bands undoubtedly denoting ceramic tiles(5) (1228 AH/1813 AD).

As the illustration contains the oil-dome which was removed from the courtyard in 1267 AH.(6) (1851 AD) i.e., at the Majidi reconstruction, it must have been depicted before that date.

Besides, as the outer walls of the Honourable Room are decorated, in the illustration with ceramic tiles, introduced according to historical information(7) in 1228 AH (1813 AD), it is suggested to have been depicted after that date.

(5)Ayyub Sabry,Miraat al-Madina(The Mirror of Madina),1st.ed.,Constantinople,1304 AH,Vol. II,P. 761.

(6)Al-Berzenjy, Nuzhat an-Nazirin fi Masjid Sayyid al-Awwalin wal-Akhirin (The Excursion of the Onlookers at the Mosque of the Master of the First and the Last), 1st.ed.Jamaliyy Press,Cairo 1332 AH,PP.25-27.

(7)Ayyub Sabry, Op.Cit.,PP. 761.

the Mihrab of Osman[2] (1198 AH/1783 AD), at the qibla wall, the large and small dikkas (1106 AH/1694 AD), the platform of the servants of the Mosque (Dikkat al-Aghawat) (956 AH/1559 AD), the wooden partition between the added aisles of Omar and Osman and the rest of the southern riwak (956 AH/1549 AD)[3]. In the courtyard, beyond the stone partition,(1073 AH/1662 AD), there are the oil-dome[4](576 AH/1180 AD), the garden of Fatima, together with

---

(2) It was completely renewed in 1198 AH (1783 AD) and was repaired in 1245 AH (1829 AD). Muhammad Hazzaa Ash-Shihry, Al-Masjid an-Nabawy Fil-Asr al-Uthmany (The Prophet's Mosque in the Ottoman Period), Ph.D. Thesis, Umm al-Qura University, Mecca, PP.67 &137.

(3) Ibn Hajar al-Haythamy, Tuhfat az-Zuwwar ila Qabr an-Naby al-Mukhtar (The Gem of the Visitors to the Tomb of the Chosen Prophet) MS at the Library of the Honourable Meccan Sanctuary, No.133 History, PP.61 & 95.

(4) It was rebuilt in 974 AH(1566 AD). Abd al-Ghany an-Nabulsy, Ar-Rihla an-Nabulsiya (The Travel of Nabulsy), MS at the Library of the Honourable Meccan Sanctuary, Vol.III, P.95.

An Ottoman Drawing of the Prophet's Mosque

By: Prof.Dr. Hassan El-Basha

At the Museum of Islamic Art in Cairo, there is an undated Ottoman illustration of the Prophet's Mosque in a manuscript[1], containing a text of prayers. It is in good condition and coloured in red, blue, green with various tones, together with white, black and golden colours (Pl.1).

Without ignoring the decorative display, the artist showed much interest in depicting many elements and details introduced or renewed at fixed dates. The four doors and the five minarets are placed at their right positions. In the sanctuary, there is the minbar (998 AH/1589 AD) with the mihrab of the Prophet on its western side (948 AH/1541 AD)and that of the Hanafites on its western side as well as

---

(1) No 13998, Size of Page 19 CM x 12. 8 CM.

رقم الإيداع ٨٨/٢٥٧٩

الترقيم الدولى ٤ – ٠٢٣ – ٧٣٨ – ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts



The Egyptian Historian

Historical Studies & Researches

1

January
1988

Issued By
History Section



THE EGYPTIAN HISTORIAN

Historical Studies & Researchs

First Issue January 1988

Editor : Prof.Dr. Raouf A. Hamed

Director: Dr. Mahmoud A. Mahmoud

All Correspondence to be directed to:

Prof. Dr. Raouf A. Hamed - The Editor,

Cairo University, Faculty of Arts, A.R.E.

جامعة القاهرة
كلية الآداب



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية

١

يناير ١٩٨٨

يصدرها قسم التاريخ

محتوى العـــدد